



المعتل والمحاظفة

تأليف
جهين أوجيت



ترجمه : أمين الشريف

راجعه : مصطفى عبيد

العقل والعاطفة

الالف كتاب

العقل والعاطفة

تأليف

هين أوتين

مراجعة

رضوانى حبيبي

ترجمة

امينة الشريفة

هذه ترجمة كتاب :

Sense and Sensibility

تأليف :

Jane Austen

الفصل الأول

لقد ظل آل داشوود يقيمون زمناً طويلاً في مقاطعة سسكن ، ولهم فيها ضيعة كبيرة . وكانوا يقيمون في قصر نورلاند بارك الذي يتوسط أملاكهم حيث ظلوا يقيمون — أجيالاً طويلاً — حياةً جديرةً بالاحترام أ كسبتهم تقدير جيرانهم . وكان صاحب هذه الضيعة الراحل رجلاً أعزب قد طعن في السن ، وكانت أخته هي التي تؤنس وحدته ، وتدبر منزله خلال عدة سنوات من حياته ، واسكن الموت أعجلها دونه بمشر سنوات ، فأحدثت وفاتها تغييراً كبيراً في حياته المنزلية ، إذ أراد أن يعوض ما خسره بفقدائها ، فدعا إلى قصره ابن أخيه ، مستر هنري داشوود ، الوريث الشرعي لضيعة نورلاند ، والرجل الذي اعتزم هو أن يوصى له بالضيعة . وقضى الشيخ الكبير أيامه الباقية ينعم بالراحة والهدوء في كنف ابن أخيه وزوجته وأطفالها ، وزادت محبته لهم جميعاً إذ كان مستر هنري داشوود وزوجته يهتمان دائماً بتلبية رغباته ، لما فطر عليه من طيبة القلب ، لا لاهتمامهما بأمره لحسب ، فوفرا بذلك للشيخ الكبير جميع وسائل الراحة اللائقة بسنه ، وزاده حياً في الحياة ما كان يراه من بشاشة الأطفال وابتهاجم .

وكان لمستر هنري داشوود ولدٌ واحدٌ رزق به من زوجته السابقة ، وثلاثٌ بنات من زوجته الحالية . وكان الولد شاباً رزيناً مُبجلاً ، تركت له أمه ، وكانت ذات ثروة كبيرة ، مبلغاً كبيراً من المال . وآل إليه نصفُ هذا المبلغ عند ما بلغ سن الرشد ، ثم مالبت أن تزوج ، فزاد هذا الزواج من ثروته أيضاً .

(١ م — العنق و العائنه)

ولذلك فإن إرثه لضيعة نورلاند لم يكن يهيمه في الواقع بقدر ما كان يهيم
أخوانه البنات ؛ لأن تزوتهن كانت ضئيلة بصرف النظر عما يؤول إليهن من
إرث أبيهن لهذه الضيعة . وكانت أمهن لا تملك شيئاً ؛ أما أبوهن فلا يملك
إلا سبعة آلاف جنيه ؛ لأن النصف الباقي من مال زوجته الأولى كان
وفقاً على ابنها ؛ وليس لزوجها إلا حق الانتفاع به حال حياته .

ثم توفي الشيخ الكبير ، وتوليت وصيته ، فأحدثت من خيبة الأمل
مثل ما أحدثت من الرضا ، شأنها في ذلك شأن أى وصية أخرى . ولم يكن
الرجل ظالماً ولا جاحداً المعروف بحيث يحرم ابن أخيه من الضيعة ، ولكنه
قيدها بشروط ذهبت بنصف قيمتها . وكان مستر داشوود يطمع في الضيعة
حرصاً على مصلحة زوجته وبناته ، أكثر منه على مصلحته هو أو مصلحة
ابنه -- واسكن الشيخ الكبير أوصى بها لابنه و ابن ابنة البالغ من العمر
أربع سنوات ، على نحو جماله عاجزاً عن توفير أسباب الحياة الكريمة لأحب
الناس إليه ، وأحوجهم إلى المال سواء بأن يكون لمن أى حق على العقار ،
أو الانتفاع ببيع أشجاره الثمينة ، فوهبت الضيعة بحذافيرها لهذا الطفل الذى
استمال قلب عمه أثناء الزيارات التى قام بها أبواه إلى نورلاند بين القينة والقينة
بفضل الشائيل الحلوة التى يزدان بها الأطفال ممن تتراوح أعمارهم بين سنتين
وثلاث كالعجز عن سلامة النطق ، والإصرار على تنفيذ رغباتهم ، وحيلهم
للملأكرة الكثيرة ، وضجيجهم الكبير ، حتى لقد نسي الشيخ الكبير ضروب
الرعاية التى لقيها عدة سنوات من زوجة ابن أخيه وبناتها الثلاث ، على أنه لم

يشأن أن يثنى عنهن عطف رحمة فأوصى لكل بنت منهن بألف جنيه ،
دليلاً على محبته لهن .

وكانت خيبة أمل مسترداشوود شديدة في بداية الأمر ؛ ولكنه كان
رجلاً مرحاً متفائلاً بطبعه ؛ يأمل أن يعيش عدة سنوات ؛ ويقتصد في المعيشة
وبذلك يدخر مبلغاً من المال لا يستهان به من ريع ضئيلة كبيرة قابلة
للاستصلاح العاجل ، والسكن الثروة التي جاءت متأخرة لم يزد عمرها على
سنة هي التي عاشها بعد عمه . وكان كل ما تركه لأرملته وبناته هو عشرة
آلاف جنيه بما في ذلك الميراث الذي آل إليه أخيراً .

ولما حضر مسترداشوود الموت ، استدعى ابنه فأوصاه بكل ما سمح به
للرض من قوة وإلحاح ، بزوجة أبيه وأخوانه .

ولم يكن مسترجون داشوود يتصف بما يتصف به بقية أفراد الأسرة من
قوة العاطفة ، ولكنه تأثر بهذه الوصية التي صدرت إليه في مثل هذا الوقت
فوعده أباه أن يبذل كل ما في وسعه لتوفير الحياة الرغيدة لهن ؛ فاطمان بال
أبيه لهذا الوعد . وكان أمام مسترجون داشوود فسحة من الوقت يتدبر
فيها ما يستطيع أن يسديه لهن .

لم يكن جون داشوود شاباً سيئ الطوية اللهم إلا إذا كان فتور العاطفة
والليل إلى الأنانية دليلاً على سوء الطوية . ولكنه كان شاباً مبجلاً بوجه
عام ، إذ كان يحافظ على الآداب المرعية في أداء واجباته العادية . ولو أنه
تزوج امرأة أحب إلى الناس من امرأته لكان من الجائز أن يظفر بقدر
كبير من احترامهم بل من حبهم ؛ وذلك لأنه تزوج في حداثة وكان

شديد الكآف بزوجه ، ولكن مسز جون داشودد كانت أشبه الناس به ، إلا أنها تفوقه في ضيق الأفق والأناية .

ولما وعد أباه بمساعدة أخواته نوى في دخيلة نفسه أن يزيد ثروتهم بأن يهب كلا منهن ألف جنيه . وكان يعتقد حينئذ أن في وسعه أن يعطيهن هذا القدر من المال . ومما ملا قلبه بالحنان والمطف وأشعره بالقدرة على السخاء والبدل أنه كان يأمل في الحصول على أربعة آلاف جنيه في العام بالإضافة إلى دخله الحال ، وذلك علاوة على الشطر الباقي من مال أمه . وكان يحدث نفسه طَوَّالَ هذا اليوم ، ولعدة أيام متواليات دون أن يشعر بشيء من الندم — « نعم ، سأعطيهم ثلاثة آلاف جنيه : إنه مبلغ سخى وكبير ! يكفي لتوفير أسباب الرغد والرفاهية لمن . ثلاثة آلاف جنيه ! إنه يستطيع أن يوفر ذلك المبلغ دون كبير عناء » .

وما إن شُيعت جنازةُ أبيه ، حتى قدمت زوجته بأولادها وخدمها إلى القصر دون أن ترسل إلى حماها أى إخطار بعزمها على الحضور . ولم يكن في وسع أحد أن ينازعها الحق في الحضور ، فاليوم أصبحت بيت زوجها منذ اللحظة التي توفي فيها أبوه ، ولكن هذا التصرف كان مجافياً للذوق والأدب ، وأدعى إلى إثارة امرأة في مثل موقف مسز داشودد التي تتصف بجمجمة الطباع ولكنها شديدة لإحساس بالكرامة والنخوة إلى حد أن أى اعتداء عليهما — بصرف النظر عن المعتدى والمعتدى عليه — يثير في نفسها أشد الامتناع والاشتمزاز . ولم تظهر مسز جون داشودد قط بمحبة أى فرد من أسرة زوجها ، ولم يسبق أن تهيأت لها الفرصة ، كما تهيأت لها الآن لتثبت لمن عدم مبالئها براحة غيرها من الناس حينما تتطلب الظروف ذلك .

وقد بلغ من استياء مسز داشوود لهذا المسلك غير الكريم واحتقارها الشديد فزوجة ربيها ، أنها همت بمفادرة المنزل إلى غير رجعة عند قدومها ، لولا أن بنتها الكبرى حملتها على التريث في الأمر ، لما في ذلك من مجافاة للذوق ، ثم تغلبت عليها عاطفة الخنان والحب لبناها الثلاث ، فقررت البقاء وتجنب أسباب القطيعة بينهن وبين أخيهن ، حرصاً على مصلحتهن .

وكانت إينور - هذه البنت الكبرى التي كان لنصحيتها أثر فعال - تزدان بقوة الفهم ، ورسالة الرأي ، مما أهلها - وإن لم يزد عمرها على تسعة عشر ربيعاً - لأن تكون الناصحة الأمينة لأمتها ، ومكّنها في أغلب الحالات من أن تلطّف - لمصلحتهن جميعاً - من حدة أمها . ولولا ذلك لأدت هذه الحدة والحمية إلى التهور والمحاقة . وكانت إينور طيبة القلب ، مطبوعة على الخنان قوية العاطفة ولكنها كانت تعرف كيف تتحكم في هذه العاطفة ، وهي خصلة كانت أمها في حاجة إلى تعلمها ، وإحدى أختها تأتي أن تتعلمها .

كانت خصال مريان تماثل خصال إينور في كثير من الوجوه ، فكانت تزدان بالعقل والذكاء ولكنها تذهب إلى حد الإفراط في كل شيء لا تعرف الاعتدال في أفراسها وأتراسها . كانت كريمة ومحبوبة وأنيسة . اجتمعت فيها كل الخصال الحميدة إلا الحكمة ، لقد كان وجه الشبه بينها وبين أمها قويا إلى حد يلفت النظر .

نظرت إينور بعين القلق إلى ما اتصفت به أختها من فرط العاطفة ، ولكن أمها قدرت فيها هذه الخصلة ، وأخذت كل منهما تشجع الأخرى على التهوريل من مصابهما ، وتجددان طوعاً وغرة الأحران التي استولت عليهما في بادئ الأمر ، وتتلسان بأسبابها وتؤججان أوارها حيناً بعد حين ، وأسدت كل منهما قيادها للأحران

واسترسلت في الأفكار التي تثير الأشجان ، وقطعت الأمل في التماس أى عزاء-
في المستقبل وكانت إينور هي الأخرى تتجرع غصص الآلام ، ولكنها
استطاعت أن تجاهد نفسها وتتجدد ، ، وتوطن نفسها على الصبر فشاورت أخاها
واستقبلت زوجة أخيها عند قدومها ، وعاملتها بما يليق بها من لطف ورعاية ،
واستطاعت أن تعمل أمها على إبداء مثل هذا التجلد ، وشجعته على إظهار
مأظفهرته هي من الحلم والصبر .

أما مرجريت - الأخت الصغرى - فكانت فتاة منشرحة الصدر ، طيبة
القلب ، ولكنها تشبعت بكثير مما تتصف به مريان من قوة العاطفة دون أن
تتحلى بما تتحلى به من وفرة العقل ، ولذلك لم تكن تُبشِّرُ وهي في الثالثة عشرة
بأن تضارع أختها حينما تتقدم بها السن .

الفصل الثاني

أصبحت الآن مسز جون داشوود هي ربة البيت ، وحماتها وأخوات زوجها بمنزلة الضيوف . ومع ذلك عاملتهن - بهذا الاعتبار - بأدب ونطف ، وأظهر لمن زوجها من العطف ما يظهره لأبي شخص آخر خلاف نفسه وزوجته وولده . والواقع أنه طلب إليهن - في شيء من الإلحاح - أن يعتبرن نورلاند منزلن ، فقبلن هذه الدعوة لأنه لم يكن أمام مسز داشوود إلا البقاء حتى يتسنى لها العثور على منزل مجاور .

وكان البقاء في المنزل الذي يذكرها فيه كل شيء بنعيمها السابق ، هو الأمر الذي يوافق هواها تماماً . ولم يكن أحد في وقت البهجة والحبور أشد من مسز داشوود بهجةً وحبوراً ولا أكثر منها تعلقاً بالأمل في السعادة التي هو السعادة نفسها . لكنها في أوقات الحزن كانت تنساق وراء الخيال كذلك ، وتتمادى فيه إلى حد يعز معه العزاء والسوان ، كما كانت تنسى جميع الأحزان في أوقات السرور .

لم توافق مسز جون داشوود إطلاقاً على كل ما اعترم زوجها أن يقدمه لأخوانه لأنها رأت أن إعطاءهن ثلاثة آلاف جنيه من مال طفالها الصغير جدير أن يُنقَى به في مهواة الفقر ، فطلبت إلى زوجها أن يعيد النظر في الأمر وتساءلت : كيف تسوّل له نفسه أن يسلب ولده - وولده الوحيد أيضاً - هذا المبلغ الكبير ! وبأى حق تطالبه بنات داشوود أن يتبرع لمن يمثل هذا المبلغ الكبير ولا صلة تربطه بهن إلا أنهم أخوانه غير الشقيقات ، وهي صلة لاتعد قرابة على الإطلاق

والمعروف جيداً أن الحب مَقْقود بين الإخوة غير الأشقاء . وأى داع لأن
يحب الخراب على نفسه وعلى طفلها الصغير هارى ، فيتبرع بماله كله لأخواته
غير الشقيقات ؟

فأجاب زوجها « لقد كان آخر طلب تقدم به أبى إلى أن أساعد أرملة
. وبناته » .

« أتؤكد لك أن أبك لم يكن يرمى ما يقول، وأراهن أنه كان يهذى فى ذلك
الحين . ولو كان فى وعيه لما خطر بباله أن يلتبس منك التبرع بنصف مالك على
حساب ولدك » .

« إنه لم يشترط مبلغاً معيناً يا عزيزتى فانى . وكل ما قاله أنه طلب بعبارة
عامة أن أساعدهن ، وأن أجعلن أحسن حالاً مما كن عليه فى حال حياته . وربما
كان يحسن أن يترك لى الأمر كله ، لأنه لم يدُر بِخُتَّاده أنى أهمل شأنهن .
ولكنه طلب إلى أن أعده بمساعدتهن ، فلم يسعنى أن أرفض طلبه ، أو على
الأقل هذا ما بدلى فى ذلك الحين . فأعطيته الوعد على ذلك ، ولا بد لى من
الوفاء بوعدى ، وتقديم بعض العون لهن عندما يفادرن نورلاندى ، ويقمن فى
منزل جديد .

« لا بأس حينئذ بأن تقدم لهن بعض العون ، ولكن هذا البعض لا يلزم
أن يكون ثلاثة آلاف جنيه » واستطردت قائلة « تذكر أن المالى متى خرج من
يديك ، فلا يمكن أن يعود إليك . إن أخواتك سيتزوجن وسيذهب المالى الذى
تعطين إلى غير رجعة . ودُدْتُ لو عاد هذا المالى يوماً ما لولدنا الصغير المسكين » .

فقال زوجها بلهجة الجذ « حقاً إن لهذا أهميته "الكبرى" ، فقد يأتي الوقت الذى يأسف فيه هارى على ضياع هذا المبلغ الكبير . وإذا كثر أفراد أسرته مثلاً ، كان هذا المبلغ عوناً له على سد حاجته » .

« لا ريب فى ذلك » .

« إذنً ربما كان من المستحسن لصالح الجميع أن يخفض المبلغ إلى النصف وأعتقد أن خمسمائة جنيه تزيد ثروتهن زيادة هائلة » .

« كلا ! بل أكثر من هائلة ! أى أخ على وجه الأرض يعطى أخواته نصف هذا القدر ، حتى ولو كن أخواته حقاً ! فما بالك إذا كن نصف أخوات كما هى الحال فى قضيتك ! ولكن بالك من رجل سخى اليدين ! »

فأجاب « إننى لا أريد أن آتى عملاً دينياً ، لأنه خير للمرء فى مثل هذه الأحوال ، أن يكون فى جانب الإفراط من أن يكون فى جانب التفريط ، فأنا لا أريد أن يقول أحد - على الأقل - إننى لم أعطهم ما فيه الكفاية . بل لا أريدهن أنفسهن أن يتوقعن أكثر مما أعطيهن » .

فالت السيدة « لا سبيل لمعرفة ما قد يتوقعنه . ولكنه ليس علينا أن نفكر فيما يتوقعنه إذ المهم هو ما تستطيع أنت أن تعطيهن » .

« يقيناً - وأنا أعتقد أنه فى وسعى أن أعطى كل واحدة منهن خمسمائة جنيه . والواقع أن كلا منهن سيكون لديها أكثر من ثلاثة آلاف جنيه بعد وفاة أمهن . وذلك بدون أن أعطيهن شيئاً - وهذا مبلغ كاف جداً لأى فتاة صغيرة » .

« لا ريب أنه كاف جدا . والواقع أنه يبدو لي أنهن لسن بحاجة إلى المزيد لأنه سيكون لديهن عشرة آلاف جنيه موزعة بينهن ، فإذا تزوجن كان في هذا للبلغ غناء لمن ، وإذا لم يتزوجن أمكن أن يعشن معا في سعة على فواتد عشرة الآلاف جنيه » .

« حق ما تقولين . ولذلك لا أدرى هل يكون من الأفضل على وجه العموم أن أرتب لأمنهن لاهن مبلغا من المال في حال حياتها - أريد مبلغا أشبه بمعاش سنوي - ولا شك أن هذا المعاش سيعود على إخوتي بالنفع كما يعود على أمنهن . وأعتقد أن مائة جنيه في العام توفر لمن جميعا أسباب الحياة الرغيدة » .

على أن زوجته ترددت قليلا قبل أن تبدي موافقتها على هذا الرأي .

ثم قالت : « حقا إن ذلك أفضل من دفع خمسمائة جنيه في الحال . ولكن - من جهة أخرى - إذا امتد الأجل بمسز داشوود خمس عشرة سنة عاد ذلك علينا بالقرم » .

« خمس عشرة سنة ! عزيرتي فاني ؛ لا يمكن أن تعيش نصف هذه المدة » .

« نعم ! ولكنك إذا أنعمت النظر رأيت الناس يعيشون إلى الأبد متى رتبت لهم معاشا سنويا . ثم هي قوية البنية ، جيدة الصحة ، لم تبلغ الأربعين . إن المعاش السنوي شأنه عظيم لأنه يتكرر كل عام ، ولا سبيل للخلاص منه . وأنت لا تدري ما أنت فاعله ، فأنا أعرف الشيء الكثير من متاعب المعاشات السنوية لأن أمي كانت ملزمة بموجب وصية أبي بدفع معاش سنوي لثلاثة من الخدم المتقاعدين . وقد تدهش إذا علمت أنها لقيت الأمرين من هذا الأمر ،

إذ كانت هذه المعاشات تُدفع مرتين في العام ثم تأتي مشكلة توصيل هذه للمعاشات إليهم ثم قيل إن أحدهم توفي ، وتبين أن شيئاً من هذا لم يحدث ، حتى لقد ضاقت أُمى ذرعاً بالأمر ، وكانت تقول: إن دخاها ليس ملكاً لها إزاء هذه اللطالِب التي لا تنتهي ؛ ومما يزيد في قسوة العمل الذي أوصى به أُمى أنه لولا ذلك لاستطاعت أُمى أن تكون حرة التصرف في مالها . والواقع أن هذا الحادث جعلني أمقت المعاشات السنوية إلى حد لا أطيق معه أن أرتبط بدفع أُمى معاش سنوي لأُمى سبب من الأسباب .

فأجاب مستر داشوود « لا ريب أن هذه الالتزامات التي تستنزف دخل المرء في كل عام أمر ممقوت. قال الإنسان - كما قالت أمك بحق - ليس ملكاً له ، وارتباطه بدفع مثل هذه اللبالب بصفة منتظمة في موعد دفع الإيجار ، أمر غير مرغوب فيه على الإطلاق . إنه يسلب المرء ثروته .

« بلاريب ! ثم لا حمد ولا شكر في نهاية الأمر ! فإنيهن آمنت ، وأنت لا تفعل أكثر مما ينتظره منك ، فلا وجه للشكر . ولو كنت في مكانك لتصرفت في الأمر بحسب تقديري الشخصي تماما ، ولما التزمت بدفع أُمى مبلغ سنوي ، فقد يتمنر عليك في بعض السنين أن توفر مائة جنيه بل خمسين جنبها من نقاتنا .

« أعتقد أنك على حق فيما تقولين يا حبيبتي . من الأفضل ألا ترتبط بأُمى معاش . سيبدن في كل ما يمكن أن أعطيه لهن من حين إلى آخر عوناً أكبر بكثير من المعاش السنوي لأنهن إذا تأكدن من زيادة دخلهن توسعن في معيشتهن .

ولن تزيد ثروتهم شروى فقير في نهاية العام ، وستكون هذه الطريقة المثلى بلاريب . وإهداؤهن خمسين جنبها من وقت إلى آخر سيحول دون شعورهن بأى ضائقة مالية ، وسيكون فيه كما اعتقد وفاء كبير بوعدى لأبي .

« لا ريب في ذلك . والحق أرى اعتقد في قرارة نفسى أن أباك لم يفكر قط في أن يعطين شيئا من المال على الإطلاق . وامل المساعدة التي فكر فيها هي أن تعاونهن بما تقدر عليه في حدود المعقول ، كأن تبحث لهم عن بيت صغير مريح وتساعدهن على نقل أمتعتهن إليه ، وترسل لمن بعض الهدايا من السمك والصيد في الوقت المناسب إلى غير ذلك . وأراهن أن أباك لم يقصد أكثر من ذلك . والواقع أنه لو قصد غير ذلك لكان أسوأ غريباً ومنافياً للعقل . تأمل يا عزيزى مستر داشوود كم تستطيع زوجة أبيك وبناتها أن يمشن في رعد على فائدة سبعة آلاف جنيه فضلا عن الألف الجنيه التي تملكها كل بنت من بناتها والتي تدر فائدة قدرها خمسون جنبها على كل منهن ، وبالطبع سيدفعن لأمن منها نفقة طعامهن . وجملة الفوائد التي ستعود عليهن هي خمسمائة جنيه في العام موزعة بينهن . بربك حدثنى ماذا يطلب أربع نساء أكثر من ذلك ؟ إن للعيشة لن تكلفهن شيئا ! سيمشن حياة رخيصة ! تدبير المنزل لن يكلفهن شيئا . لن يحتجن إلى عربة ولا إلى جياذ بل ولا أى خادم . ولن يجدن كثيرا من الصدقات وان يتجشمن نفقات من أى نوع ! تأمل كم سيمشن في بلهنية من العيش ! خمسمائة جنيه في العام ! أنا لا أدرى فيم ينفقن نصف هذا المبلغ . ومن السخف أن تفكر في أن تعطين أكثر من ذلك . إنهن سيكن أقدر على أن يعطينك أنت شيئا »

قال مسترداشوود « أقسم لك بشر في أنني أعتقد أنك على حق فيما تقولين .
إن أبي لا يمكن أن يعنى بما طلبه أكثر مما تقولين . وأنا أفهم ذلك الآن
بوضوح وجلاء . وسأق بوعدى لأبى بأن أسدى لمن من العون والمعروف مثل
ما ذكرت . وحينما تنتقل زوجة أبى إلى منزل آخر سأبذل جهدى فى نقل متاعها
بقدر ما أستطيع . وربما أهديتها بعض قطع صغيرة من الأثاث فتقع لديها
موقع القبول » .

فأجابت مسز داشوود « يقينا ولكن هناك أمراً واحداً جديراً بالنظر
وهو أنه عندما انتقل أبوك وزوجته إلى نورلاند احتفظا - مع بيعهما أثاث
سناندهل - بجميع الأواني الصينية والأطباق ، والبياضات ، وآكل كل ذلك لزوجة
أبيك الآن . ولذلك سيكون بيتها كامل الأثاث والأدوات عندما تأخذ هذه
الأشياء معها » .

« لاشك أن هذا أمر له أهميته ، وميراث له قيمته ! وأعتقد أننا بحاجة إلى
بعض هذه الأطباق لتزيد من جمال ما عندنا منها » .

« أجل وطقم الأواني الصينية الخاصة بوجبة الإفطار يبلغ جماله ضعف
جمال بقية الأطباق فى ذلك البيت . بل هى أجل فى نظرى من أن يصلح لها أى
بيت يقمن فيه . ولكن هكذا كان . إن أباك لم يفكر إلا فىهن . وأرى لزاماً
على أن أقول لك هذا : لست مديننا له بالشكر ، ولا ملزماً بتلبية رغباته ، لأننا
نعلم حق العلم أنه لو استطاع لوهب لمن سائر الأشياء فى العالم » .

وكانت هذه الحجة حجة مفحمة ، قطعت الشك باليقين ، فقرر رأيه نهائياً
على أنه لا داعى لإطلاقا إن لم يسكن من المعب ، أن يسدى يداً لأرملة أبيه
وبناته ، اللهم إلا ما أشارت به زوجته من رعاية حق الجوار .

الفصل الثالث

بقيت مسز داشوود في نورلاند عدة شهور ، لا لأنها كانت تكره الانتقال عند ما يزول من نفسها أثر الانفعالات الشديدة التي تثيرها في نفسها مؤقتاً مشاهدة العالم التي تعرفها جيداً ، فقد كانت - حين يشيع في نفسها السرور ، وينصرف ذهنها عن التفكير في الذكريات الحزينة التي تضاعف من آلامها - تنوق إلى الانتقال من البيت ، وتجده في البحث عن مسكن لائق في جوار نورلاند ، لأنها لم تسكن تطبيق الإقامة بعيداً عن هذا المنزل المحبوب . ولكنها لم تعثر على منزل يتوافر فيه ما تصبو إليه من الراحة والسعة ، ويتفق في الوقت نفسه مع حكمة بنتها السكرى التي رفضت برأيها الحضيف عدة منازل كان يمكن أن تلقى قبولاً لدى أمها ، بحجة أن هذه المنازل أوسع من أن يحتملها دخلها .

وكانت مسز داشوود قد علمت من زوجها بالوعد القاطع الذي أعطاه ابنه لصالحه ، وطمان بال أبيه في أيامه الأخيرة . ولم تشك في صدق هذا الوعد أكثر مما شك فيه زوجها . ونظرت بعين الارتياح إلى هذا الوعد لما فيه من فائدة بناتها ، وإن كانت هي نفسها تستطيع أن تعيش في سعة بمبلغ يقل عن سبعة آلاف جنيه بكثير ، وفرحت حين عرفت أن أخاهن يضرهن لمن أطيب النوايا ، وأنحت على نفسها باللائمة لأنها لم تقدره حق قدره حين اعتقدت أنه لا يميل إلى السكرم والسخاء ، وشاهدت من اهتمامه بها وبأخواته ما أقتنها بمرصه على توفير أسباب الرفاهية لمن ، وظلت زمناً طويلاً وهي تمول على كسرم نواياه .

وقد ازداد كثيراً ذلك الاحتقار الذي شعرت به نحو زوجة ربيها في الأيام الأولى التي عرفت فيها ، بعد أن ازدادت معرفة بأخلاقها خلال نشوور الستة التي عاشتها فيها . وربما كان من المستحيل على هاتين السيدتين أن تمشيا معاً هذه الفترة الطويلة ، على الرغم من أن واجب المجاملة وعاطفة الأمومة كانا يقضيان على مسز داشوود بالبقاء مع زوجة ربيها ، لولا أن جدّ حدث خاص فرغب مسز داشوود في بقاء بنتها في نورلاند .

وهذا الحادث هو ازدياد المحبة بين بنتها الكبرى وأختى مسز جون داشوود وكان شاباً دمث الأخلاق حلوا الشائل ، تعرف إليهن عقب إقامة أخته في نورلاند ، وظل منذ ذلك الحين يقضى سائر وقته هناك .

وربما كانت بعض الأمهات يشجعن هذه المحبة بدافع للصاحبة لأن إدوارد فيرارز كان أكبر أبناء رجل توفي عن ثروة طائلة . وربما كان بعضهم لا يشجعها بدافع الحكمة لأنه لم يكن يتصرف في أمواله ما عدا مبلغاً تافهاً إلا بأمر أمه . ولكن مسز داشوود لم تتأثر بأى من هذين الاعتبارين لأنه كان يكفياً أن يكون شخصاً محبوباً ، وأن يحب ابنتها ، وأن يتبادلها بالينور هذا الحب . وكان مما يخالف مبادئها القول بأن التفاوت في الثروة يوجب التفرقة بين الزوجين اللذين يؤلف بينهما تشابه الطباع ، وكانت لا تتصور أن ثمة إنساناً يعرف بالينور ثم لا يعترف بمزايهاها .

لم يظفر إدوارد فيرارز بحسن تقديرهن لجمال شخصه أو لعدوية حديثه ، لأنه لم يكن وسيم الوجه ، ولا تبدو أخلاقه على حقيقتها إلا لمن عرفه معرفة وثيقة . وكان شديد الخجل إلى حد يجعل الناس ينمطون قدره . ولكنه إذا

زايه الخجل أرسل نفسه على سجيئها وبدت رقة عواطفه . وكان ذكى الفؤاد ، قدشخذ التعليم من قريخته . بيد أنه لم يكن بمواهبه ولابطباعه صالحا لتحقيق ما تصبو إليه أمه وأخته ، وهو أن يكون رجلا مشهوراً — مثل — لايرفان مثل من . كاتنا تريدان أن يكون رجلا بارزاً في المجتمع على نحو ما . أمه تريد أن يشتغل بالسياسة حتى يدخل البرلمان ، أو يصاهر بعض العظماء في عصره وأخته تمنى له مثل ذلك . ولكن إلى أن تتحقق إحدى هذه اللزايا الرقيقة كاتنا تطمحن أن يكون له عربة يجرها جواد . ولكن ادوارد لم يكن يميل إلى العظمة أو العربة ، بل كان كل يتمناه أن ينعم بالهناءة في حياته العائلية ، ويتمتع بالهدوء في حياته الخاصة . وحسن الحظ كان له أخ أصغر منه يبشر بمستقبل زاهر .

أقام إدوارد عدة أسابيع في المنزل قبل أن يلفت نظر مسز داشوود لأن حزنها إذ ذاك صرفها عن الاهتمام بما حولها . ولم تلحظ إلا أنه رجل هادى غير فضولى ، فأحبته لذلك ، إذ لم يكن يثير أشجانها بحديث لايناسب المقام . وكان أول ما لفت نظرها إليه ، وعطف قلبها عليه ، ملاحظة بدت من إينور ذات يوم عن الفرق بينه وبين أخته ، فكان هذا التباين بين الأخ وأخته مما حببه إلى نفسها .

قالت : « يكفى أنه لايشبه فاني ، لأن ذلك معناه أنه يتحلى بكل الخصال المحبوبة . إننى أحبه حقاً » .

وقالت إينور : « أعتقد أنك ستميلين إليه متى ازددت معرفة به » .

فابسمت أمها وقالت : « أميل إليه ! إن شعورى نحوه لايقبل عن الحب » .

(٢٣ — العقل والعاطفة)

« لملك تُقدِّرته »

« إننى لم أعرف حتى الآن ماهو الفرق بين التقدير والحب »

ومن ذلك الحين طَلقت مسز داشوود تهتم بمعرفة أخلاقه ، فصارت تتودد إليه ، وسرعان ما نصَّاعته ثوب التحفظ والاحتشام فابليت أن أدركت كل مزاياه ولعل اقتناعها بحبه لإينور مما اعدّها على التغلغل في أعماق نفسه . ولكنها في الواقع أُعجبت بمواهبه الذاتية ، حتى إن الهدوء الذى يتعارض مع الشائيل التى ينبغى أن يتخلل بها الفتى صار الآن عندها أمراً محبباً عندما ما عرفت ما ينبض به قلبه من المطف ، وما تنطوى عليه جوائحه من الحب .

وما إن لحث إحدى أمارات الحب في تصرفاته مع إينور حتى تحققت أن عرى المحبة قد توثقت بينهما ، وأن زواجهما سيتم قريباً .

قالت : « عززى مَرَّيان ! أكبر الظن أنه لن تمضى أشهر معدودات حتى تكون إينور قد استقرت في منزل الزوجية . إننا سنشعر بوحشة شديدة لفرارها ، ولكنها ستكون سعيدة » .

« أمأه ! أنى يكون لنا أن نستغنى عنها ؟ »

« حبيبنى ! لن يكون هذا فراقاً . ، فإننا سنقيم على بضعة أميال منها ، وسنلتقى معها كل يوم ، وسنكسب أخوا ، أخوا صادقاً وحبيباً . إننى أكن لإيدوارد أكبر التقدير . ولكن مالى أراك ساهمة الوجه يامر يان ! ألا توافقين على اختيار أختك ؟ »

فقالت مريان « ربما كان هناك ما يدعونى لأن أنظر إليه ببعض الدهشة :

إن إدوارد لطيف جداً وأنا أحبه كثيراً ، ولكنه ليس من ذلك الطراز من الشبان
سنة شيء . ينقصه — وجه غير وسيم ، ليس فيه من الحاسن ما أعتقد أنه
يستهوى فؤاد أختي فميناه ليس فيهما البريق الذي ينبىء عن الفضيلة والذكاء معاً .
ثم إننى أخشى يا أماء ألا يكون له ذوق فنى حقيقى ، إذ يبدو لى أنه لا يحب
الموسيقى . وإذا كان قد أبدى إعجاباه الكبير بصور إليانور فليس ذلك بإعجاب
من يقدر قيمة هذه الصور وإذا أطلت التأمل فى صورها وهى مَكْبَةٌ على الرسم كان
من الواضح أنه لا يفهم فيها شيئاً ، فأعجابه إعجاب الحب لا الخبير ، وأنا
لا يرضينى إلا من يجمع بين الخصلتين . أنا لا يمكن أن أشعر بالسعادة مع رجل لا يتفق
ذوقه مع ذوقى فى كل شيء . يجب أن يدخل فى جميع مشاعرى : يحب مثل
مأحب من الكتب ، وهوى مثل مأهوى من الموسيقى . ألم تلاحظى يا أماء
فى الليله الماضيه أن طريقة إدوارد فى القراءة كانت طريقة غنّة لا روح فيها ؟
لقد تأملت لأختى أشد الألم ، ولسكنها تجلّدت وكأنها لم تلاحظ شيئاً . أما
أنا فلم أطق الجلوس فى مقعدى . لشدّ ما ذهبت حينما سمعت منه هذه الأبيات
الشعرية التى طلبنا جمعلتنى أهم من الوجد ، وهو ينشدها بصوت هادى لا ينفذ إلى
الحس ، وتصور قاتل لا يؤثر فى النفس ! »

« أعتقد أنه كان فى وسعه أن يجيد قراءة النثر السهل الفصيح . هذا ما خطر لى
فى ذلك الوقت . ولسكنك أصررت على إعطائه شعر كوبر » .

« نعم يا أماء ، إذا لم يكن يتأثر بشعر كوبر ! ولكن يجب ألا ننسى أن
الناس يقباينون فى الأذواق ، فإليانور يختلف إحساسها عن إحساسى ، ولذلك قد
تتناهى عن هذا الأمر ، وتشعر معه بالسعادة : ولسكنى إذا سمعته يقرأ مثل هذه

العاطفة الفاترة تحطم قلبي لو كنت أحبه . وأنا يا أماء كلما ازددت معرفة بالناس
ازددت إيمانا بأنى لن ألقى الرجل الذى أحبه حبا صادقا. إننى أطلب الشيء الكثير :
أن يعجز جميع فضائل إدوارد ، وأن تزدان هذه الفضائل بكافة المحاسن
التألقية والتألقية .

« تذكرى يا حبيبى أنك لم تبلى السابعة عشرة، ولا يجدر بك أن تياسى فى
هذه السن للبكرة من بلوغ هذه السعادة . لماذا تكونين أقل حظا من أمك؟
كل ما أرجوه يا مريان أن يختلف حظك عن حظها فى أمر واحد ! »

الفصل الرابع

قالت مريان « وأسفاه؟ إن إدوارد لا يتذوق فن الرسم » .

فأجابت إينور « لا يتذوق فن الرسم؟ لماذا تظنين ذلك؟ حقا إنه لا يمارس هذا الفن بنفسه، ولكنه يجد لذة كبيرة في مشاهدة أعمال غيره، وأؤكد لك أنه لا يعوزه الذوق الطبيعي بأى حال، وإن لم تتح له الفرصة لترقية هذا الذوق. ولو أنه تلتقى أصول الفن لأجاد الرسم فيما أعتقد. وهو لا يثق كثيرا بحكمه على مثل هذه الأمور، ولذلك فهو يُخجَم عن إبداء رأيه في أية صورة، ولكنه أوتى ذوقا فطريا سليما يمكنه على وجه العموم من صحة الحكم » .

وخشيت مريان أن تفضب أختها، فأمسكت عن الكلام في هذا الصدد، ولكنها كانت ترى أن الإعجاب الذى يثيره في نفسه - كما زعمت أختها - ما يرسمه غيره من الصور، هو أبعد ما يكون عن تلك النشوة التى يمكن أن تسمى في رأيها ذوقاً. ولكنها ابتسمت في نفسها لما وقعت فيه أختها من خطأ، ولم تلمها على حبها الأعمى لإدوارد .

واستطردت إينور قائلة: « أرجو ألا تظننى أن إدوارد ينقصه الذوق العام. وفى وسعى أن أقول: إنك لا تظنين ذلك لأن مسلكك مع إدوارد يتسم بصادق الود. ولو كان هذا هو رأيك لما كان فى وسعك أن تعامله قط بشيء من الأدب » .

ولم تدر مريان ما تقول، لأنها لم تشأ أن تبحر شعور أختها لأى سبب

من الأسباب ، ولا أن تقول مالا تعتقد ، لأن هذا ضرب من المستحيل .
وأخيراً قالت :

« لا تغضبى يا إينور إذا كان ثنائى عليه لا يرتفع إلى مستوى إدراكك
لفضائله فإنى لم يتح لى ما أتيج لك من القرص حتى يتسنى لى تقدير ميوله
النفسية ورغبانه وأذواقه . ولسكنى أقدر فضله وعقله أعظم التقدير ، وأعتقد أنه
يتحلى بجميع الخصال الفاضلة المحبوبة . »

فأجابت إينور وهى تبسم « لاشك أن أعز أصدقائه لا بسوؤهم مثل هذا
التناء ، ولست أدرى كيف تعبرين عن رأيك بأحسن من هذا القول الذى يَمُّهُ
على الإخلاص والحب . »

وفرحت مريان حين رأت أختها قد سرّت بقولها بتتل هذه السهولة .

واستطردت إينور قائلة « أما فضله وعقله فلا يستطيع أن ينكرها فيما أعتقد
أحد من اختطاطبه كثيراً بحيث يسترسل معه فى الحديث غير متحفظ . وإن ذكاه
وسمو مبادئه لا يوجبهما إلا الخجل الذى يحمله على الصمت فى أغلب الأحيان ،
وأنت تعرفين عنه ما يكفى لأن تقدره حق قدره . أما عن ميوله النفسية كما
تسميها فأنت تجهلينها أكثر منى لظروف خاصة ، ذلك بأنى اجتمعت معه كثيراً
فى بعض الأحيان وأنت منهكة فى الحديث مع أمى بشأن أحب الأزواج إليك : لقد
عرفت عنه الكثير ، ودرست عواطفه ، واستمعت إلى آرائه فى موضوع الأدب
والذوق ، وفى وسعى أن أقول بوجه عام : إنه رجل واسع الاطلاع ، محب للقراءة ،
قوى الخيال ، دقيق للملاحظة ، لطيف الذوق وكلما ازهد الإنسان معرفة به تجلت

له مواهبه كما تجلت أخلاقه وشخصيته . وحديثه لا يابذ للمرء لأول وهلة ، ووجهه لا يبدو وسياً إلى أن يتفرس المرء في نظرات عينيه التي تنم على طيبة نفسه ، فيتبين الناظر حلاوة ملامحه . إنني أعرفه الآن جيداً ، وأعتقد أنه وسيم الطامعة حقاً ، أو على الأقل يكاد يكون كذلك . فما قولك يا مريان ؟ »

« أعتقد أنه سيبدو وسيم الطلعة عما قريب ، إن لم يبدأ لي الآن كذلك . وعندما تطلين أن أحبه بوصفه أخاً ، فأني لن أرى عيباً في وجهه ، كما لا أرى الآن عيباً في قلبه . »

ففزعت إلينيور لهذا القول ، وأسفت على الحمية التي حماها من حيث لا تشعر على البوح بسرها في حديثها عنه . وكانت تشعر أنها تقدر إدوارد تقديراً عظيماً وتعتقد أنه يبادلها حباً مجبب ، ولكن الأمر كان يتطلب مزيداً كيدها لهذا الحب حتى تجعل اعتقاد مريان بشأن حبها لإدوارد مطابقاً لاعتقادها ، وكانت تعرف أن الظن في عرف مريان وأما سرعان ما ينتقل إلى يقين ، وأن التمني عندهما معناه الأمل ، والأمل معناه الرجاء . ولذلك حاولت أن تشرح لأختها حقيقة أمرها .

قالت : « إنني لأحاول أن أنسرك أنتي أحسن الظن به كثيراً - إنني أقدره كثيراً ، إنني أسبل إليه » .

« تقدرينه ! تملين إليه ! ما أقسى قلبك يا إلينيور ! بل إنه أقسى من القسوة ! بالخزي والمار إذا كان الأمر بخلاف ذلك ! لن أعدت على هذه الكلمات فسأغادر الحجر في الحال . »

فما تمالكت إلي نور أن ضحكت ، وقالت « معذرة ، وثقى أنتى لم أرد الإساءة إليك حين عبرت عن عواطفى بهذا الأسلوب المهادى ، اعتقدى أن عواطفى أقوى مما صرحت الآن به . اعتقدى — بالاختصار — أنها باعترى الذى يتكافأ مع مزياءه ومع ظنى فيه — أى أملى فى حبه لى ، وذلك بدون طيش ولا حق . ولكن لا تعتقدى أكثر من ذلك فإننى غير متأكدة بأى حال من الأحوال من حبه لى ، إذ تأمى على لحظات يساورنى فيها الشك فى مدى هذا الحب ، وإلى أن أعرف حقيقة شعوره ، لا تدهشى إذا أنا رغبت فى تجنب كل ما يشجع حبى له ، كالمبالغة فيه ، أو تسميته بأكثر من حقيقته . وأنا لا أشعر — بل لا أكاد أشعر — فى سويداء قلبى بأى شك فى حبه لى ، ولكن هناك أموراً جديرة بالنظر خلاف حبه لى . من ذلك أنه لا يملك حرية التصرف فى أمواله ، وأنت لا نعرف حقيقة أخلاق أمه . ولكن يؤخذ مما تذكره فأنى أحياناً عن سلوكها وآرائها أنها أبعد من أن تكون امرأة محبوبة ، ولا أعدو الصواب إذا قلت إن إدوارد نفسه يشعر أنه سيلاقى كثيراً من العقبات إذا حاول أن يتزوج امرأة ليست ذا مال أو حسب . »

ودهشت مريان حين وجدت أن خيالها هى وأما قد جاوز الحقيقة .

قالت : « وهل صحيح أنك غير مخطوبة له ! لكن من المؤكد أن هذه الخطبة ستم عم قريب . ولهذا التأخير فائدتان : أنتى لن أحرم منك عاجلاً ، وأن الفرصة ستتاح لإدوارد كى يرقى ذوقه الطبيعى ، فيقدر هوايتك المحبوبة التى ستكون بلا ريب عنصرأ لازماً لسعادتك المقبلة . آه لو أن عبقرتلك حفزته إلى تعلم الرسم لكان ذلك أمراً رائعاً »

أبدت إليانور لأختها رأيها الحقيقي فأفهمتها أن حبها لإدوارد ليس سعيداً كما تمتدق مريان ، وقالت : إنه تخيم عليه أحياناً سحابة من السكابة إن لم تدل على عدم الاكتراث فهي لا تبشر بالخير الكثير . وإذا كان يساوره شك في حبها له ، فلا داعي لأن يبعث هذا الشك في نفسه سوى الشعور بالقلق لا تلك السكابة التي تخيم عليه في أغلب الأحيان . ولعل أقرب الأسباب إلى العقل أنها ترجع إلى وضعه الخاص الذي حرمه حرية التصرف في أمواله ، ففمه من الاسترسال في الحب وكانت إليانور تعلم أن أمه تضيق عليه في المعيشة ، فلا توفر له وسائل الراحة في بيته الحالي ، ولا تمدد بتأسيس بيت له ما لم يوافقها على آرائها التي ترى إلى إعلاء قدره . وكان من التعتذر على إليانور بعد وقوفها على تلك المعلومات أن تشعر بالطمأنينة في هذا الأمر ، ولم تعلق كثيراً من الأمل على نتيجة حبه لها ، وهي النتيجة التي كانت أمها وأختها تعدانها أمراً محققاً ، بل لقد كانت تزداد ارتياباً في حبه لها كلما طال اجتماعها به ، وتمتدق أحياناً لبضعة لحظات ألية أن هذا الحب لا يمدو أن يكون ضرباً من الصداقة .

ولكن ، مهما تسكن حدود هذا الحب في واقع الأمر ، فقد كانت أخته - إذا آنت منه ذلك - يساورها القلق وتخرج عن حد الأدب (وكان هذا هو الغالب عليها) في الوقت نفسه . وقد انتهزت أول فرصة لإهانة حمايتها في هذا الأمر ، فتحدثت إليها بصراحة عن آمال أخيها الكبيرة ، واعتزام مسز فيرارز أن تزوج ولديها من بيونات المجد ، كما تحدثت إليها عن الخطر الذي يحيق بأى فتاة تحاول أن « تستدرجه » إلى الزواج بها ، فلم تستطع مسز داشوود أن تتغابى عن الأمر أو تحاول السكوت عليه ، فردت عليها رداً ملؤه الاحتقار ، ثم غادرت الغرفة في الحال ، مصممة ألا تعرض بنتها لمثل هذه اللغامز أسبوعاً

آخر ، مهما تجشمت من التاعب والنفقات التي تترتب على هذا الرحيل المفاجيء .

وبما كانت تمنى هذه الحالة النفسية تلقت خطابا بالبريد يتضمن اقتراحا جاء في الوقت المناسب ، ويعرض عليها بيتا صغيرا بشروط غاية في السهولة ، يملكه أحد أقاربها من الأعيان وأصحاب الأملاك في ديفونشاير . وكان الخطاب مرسلا من هذا الرجل نفسه ومكتوبا بروح الود الخالص . قال فيه : إنه علم أنها في حاجة إلى منزل وإذا كان البيت الذي يعرضه عليها ليس سوى منزل ريفي ، فهو على استعداد لإجراء كافة الإصلاحات التي تدعو إليها الضرورة متى راق لها موقعه ، وألح عليها بعد أن أتى على وصف المنزل والحديقة أن تزوره هي وبنتها في منزل بارتون بارك الذي يقيم فيه ، حتى يتسنى لها أن تقرر بنفسها التعديلات التي تراها كغيلة بتوفير أسباب الراحة في منزل بارتون كوتيج ، وكان المنزلان يقعان في أبرشية واحدة . ووضح من كلامه أنه شديد الاهتمام بتوفير المسكن اللائق بهن . وكان الخطاب كله مكتوبا بأسلوب ودي أدخل السرور على ابنة عمه ، وبخاصة في وقت ضاقت فيه ذرعا بمسلك أقاربها الأدينين الذي اشتهر بالنظافة والنظافة . ولم يكن ثمة داع لإضاعة الوقت في التفكير أو البحث ، فكونت رأيها وهي تقرأ الخطاب وأعجبها موقع بارتون في مقاطعة ديفونشاير التي تبعد كثيرا عن سسكس ، وكان مثل هذا الموقع يثير عندها - منذ ساعات قلائل - اعتراضات تتلاشى بجانبها سائر مزاياه ، فلم تعد مفادره نورلاند نعمة في نظرها بل أصبحت غاية مرادها ، ونعمة بجانب الشقاء الذي تلقاه من بقائها ضيفة على زوجة ربيبها : وأصبح الرحيل عن ذلك البيت المحبوب أقل إبلاما من الإقامة فيه أو زيارته طالما ظلت هذه المرأة هي ربه . لذلك كتبت من فورها إلى سيرجون ميدلتون تعرب عن شكرها لبره وعطفه

وقبولها لاقتراحه ، ثم سارعت إلى إظهار بناتها على الخطاب ، حتى تستوثق من موافقتهن قبل أن ترسل الجواب.

وكان من رأى إلبنور دائماً أنه يحسن بهن أن يقمن بعيداً عن نورلاند بدلاً من الإقامة وسط معارفهن الحاليين . ولهذا لم تعارض فيما اعترفته أمها من الانتقال إلى ديفونشاير ، يضاف إلى ذلك أن المنزل كما وصفه سير جون يمتاز بالبساطة واعتدال الإيجار بحيث لا مجال للاعتراض على أى الأمرين ، فلم تثبط همة أمها عن إرسال الجواب بالموافقة ، على الرغم من أن هذا الأمر لم يكن يصادف هوى في نفسها ؛ وأن البعد عن جوار نورلاند لا يتفق مع رغباتها

الفصل الخامس

وما إن أرسلت مسز داشوود جوابها، حتى راحت - والسرور ينمر قلبها - تعلمن لريبيها وزوجته أنها وقتت إلى منزل ، وأنها لن تزيجهما بالإقامة معهما إلا ريثما يتم الاستعداد للسكنى فى المنزل الجديد ، فدعشا لسماح هذا النبأ ، ولم تنبس مسز داشوود بينت شفة ، ولكن زوجها أعرب بعبارة مهذبة عن أمله ألا تقبم بعيداً عن نورلاند ، فأجابت بارتياح كبير أنها ستنتقل إلى ديفونشاير - والتفت لإدوارد إليها من فوره عند ما سمع بهذا الخبر ، وقال مردداً بصوت ينم على الدهشة والقلق « ديفونشاير ! أحقا ستنتقلين إلى هناك ؟ ما أبعد هذا المكان ! وإلى أى موقع فيه ؟ » فشرحت له اللوق وقالت : إنه فى حدود أربعة أميال شمالى إكستر .

واستطردت تقول : « إنه ليس سوى منزل ريفى ، ولكنى أرجو أن أرى كثيراً من أصدقائى فيه . ومن الممكن إضافة حجرة أو حجرتين إليه . وإذا لم يجد أصدقائى نصبا فى السفر إلى هذا المكان البعيد لزيارتى ، فأنا واثقة أننى لن ألقى أية مشقة فى إيوائهم . »

ثم ختمت كلامها بتوجيه دعوة رقيقة إلى مسز ومسر جون داشوود لزيارتها فى بارتون ولكنها وجهت إلى إدوارد دعوة أرق . وإذا كان حديثها الأخير مع زوجة ربيها جعلها تتمزم ألا تبقى فى نورلاند أكثر مما تقضى به الضرورة ، فإنه لم يؤثر فيها أدنى تأثير من ناحية الأمر الذى تهواه كثيراً ، إذ كان التفريق بين إدوارد والينور أبسداً ما يكون عن قصدها . وقد قدست بتوجيه هذه الدعوة الصريحة إلى إدوارد أن تبين لمسز جون داشوود أنها لا تنبأ بإطلاقاً باعتراضها على هذا الزواج .

وردد مسر داشوود على مسامع زوجة أبيه شدة أسفه لسكنائها في منزل بعيد عن نورلاند بحيث لا يستطيع أن يساعدها في نقل الأثاث. والواقع أنه شعر بوخز الضير لعجزه عن تقديم هذه المساعدة، إذ تم نقل الأثاث كله بطريق البحر، وبذلك تمذر عليه القيام بالعمل الذي أراد به أن يتحال من تبعة وعده لأبيه وكان الأثاث يتكون من البياضات والصحاف والخزف الصيني والكتب وبيان مريان الجميل، وتهدت مسر جونت داشوود حسرة وتأسفاً حينما رأت رُزَم الأثاث وهي تخرج من البيت : إذ عز عليها أن تأخذ مسر داشوود قطع الأثاث الثمينة لاسيما أن دخلها سيكون ضئيلا بالنسبة إلى دخلها هي وزوجها .

استأجرت مسر داشوود للنزل لمدة سنة ، وكان مؤثنا معداً للسكنى ، وفي وسعها أن تحتله على الفور . ولم تنشأ أية عقبة في سبيل الاتفاق بين طرفي العقد . وكل مافي الأمر أنها انتظرت حتى تتصرف في أموالها اللقولة في نورلاند ، وتحدد عدد الخدم الذين تستعين بهم في المستقبل قبل أن ترحل إلى الغرب . وسرعان ما بنت في الأمر جريا على عاداتها في انجاز كل ما يهمها على وجه السرعة وكانت قد باعت الجياد التي رُكها لها زوجها عقب موته بقليل ؛ ثم سححت لها الآن فرصة لبيع «العربة» ؛ فوافقت على بيعها إطاعة لنصيحة بنتها الكبرى . ولو أنها حكمت رغبته الشخصية لاحتفظت بهذه «العربة» حرصا على راحة أولادها ؛ ولكن حكمة إيلنور تغلبت في النهاية . وكذلك كان لحكمتها الفضل في تخفيض عدد الخدم إلى ثلاثة : وصيفتين ورجل ، اختيروا من بين الخدم الذين كانوا يعملون معهن في نورلاند .

وتوجه في الحال الخادم وإحدى الوصيفتين لإعداد المنزل لاستقبال ربة الأسرة .

إذ لم يسبق لمسز داشوود التعرف إلى ليدى ميدلتون ، فأثرت أن تتوجه مباشرة إلى منزلها الريفي على أن تنزل ضيفة عليها في بارتون بارك ، وكانت تتق في وصف سيرجون للبيت ، فلم ترغب في تفقده قبل النزول فيه . وكان مما قوى عزمها على الرحيل ما أبدته زوجة ريبها من ارتياح ظاهر لقرب رحيلها ، حاولت إخفاءه تحت ثوب الرياء بأن دعته بلهجة فآترة لتأجيل السفر . والآن حان الوقت المناسب الذي يستطیع ريبها أن يفي فيه بالوعد الذي قطعه لأبيه . وإذا كان قد أهمل الوفاء بهذا الوعد عند قدومه إلى الضيعة ، فإن رحيلهن يمكن أن يعد أنسب وقت للوفاء به . ولكن مسز داشوود سرعان ما قطعت كل أمل من هذا القبيل ، وانتمت من فخوى حديثه أن مساعدته لمن لا يزيد على الإنفاق عليهن ستة أشهر في نورلاند . ثم إنه ظل يكثر التحدث عن زيادة نفقاته اللزليقة والمطالب المستمرة التي تستنزف ماله دون أن تقع في الحسبان ، والتي يتعرض لها كل رجل من الأعيان حتى لقد خيل إليها أنه أصبح أحوج إلى المال من أن يتبرع به لغيره .

ولم تمض بضعة أسابيع على اليوم الذي ورد فيه خطاب سيرجون ميدلتون حتى أصبح كل شيء معدا في المنزل الجديد ، بحيث تستطیع مسز داشوود وبناتها أن تبتدأن رحلتهم .

وما أغزر العبرات التي سكبتها ساعة الوداع للمنزل المحبوب . قالت مريان ودوع البيت ، وهي تتجول وحدها أمامه في مساء آخر يوم قضته فيه « عزيزي ، عزيزي نورلاند ! متى تنقطع حسرتي عليك ! متى أطيق الإقامة في غيرك ! وأمامها البيت السعيد ! آه لو عرفت ما أكابده من الأشجان ، وأنا أنظر إليك من هذا للسكان ، وربما لأراك منه بعد اليوم ؟ وأنت أنتِ أيتها الأشجار للمهودة !

لكذك ستظلين يانعة مورقة ، لن تبلى ورقة من أوراقك حزنا على فراقنا ، ولن
يسكن غصن من أغصانك لأننا لن نستطيع بعد اليوم أن نمتع نواظرنا برؤيتك
كلا ! ستظلين يانعة مورقة غير شاعرة بما تبعثينه في نفوسنا من متعة أو لوعة ،
ولاشاعرة بما يمتري من تقياً ظلالك من تغير الأحوال ! ولكن من ذا الذي
سيبقى حتى يجتمع ناظره بمشاهدتك !

الفصل السادس

أتمن الجزء الأول من رحلتهم ، وهن في حال من الحزن والكآبة من شأنها أن تبعث في النفس الضجر والكدر . ولكنهن عندما اقتربن من نهاية الرحلة ذهبت عنهن الكآبة لارتياحهن إلى منظر الإقليم الذي سيقمن فيه ، وتألفت وجوههن بشراً عندما دخلن في وادي بارتون وألقين نظرة عليه . وكان هذا الوادي خصيباً جميل المنظر ، كثير الأشجار ، غزير المراعى . وبعد أن سرن في طريق متعرج أكثر من ميل وصلن إلى منزلهن فوجدن أمامه فناء صغيراً يكسوه العشب الأخضر ، هو كل الأرض الملحقة به ، وله باب صغير أنيق دخلن منه .

وكان بارتون كوتيج على صفه مربعاً ومحكماً بوصفه منزلاً . أما بوصفه منزلاً ريفياً فلا يخلو من العيوب فبناؤه منتظم ، وسقفه مغطى بالقرميد ، ومصاريع نوافذه غير مطلية باللون الأخضر ، وجدرانه غير مغطاة بالياصمين البري . وكان في البيت طريقة ضيقة تمتد خلال المنزل وتؤدي مباشرة إلى الحديقة في الخلف . وعلى كل من جانبي المدخل حجرة للجلوس تبلغ مساحتها حوالي ست عشرة قدماً مربعة يليهما المرافق والسلّم ثم أربع حجرات للنوم ، وعائيتان . ولم يرض على بناء المنزل كثير من الذين ، ولم يكن يحتاج إلى إصلاح أو ترميم . ولكن إذا قيس بنورلاند كان متواضعا وصغيراً حقاً ! ولكن العبرات التي أهاجتها الذكري سرعان ما جفت ، وسرّى عنهن ، عندما رأين فرحة الخدم بقدمهن ، وأنشأت كل واحدة تظهر السرور حرصاً على شعور الأخرى . وكان وصولهن في شهر سبتمبر إذ كان الطقس لطيفاً . وكانت مشاهدتهن للمنزل أول مرة في هذا الطقس الجميل ذات أثر حسن في نفوسهن ، فأبدين موافقتهن النهائية على الإقامة فيه .

(٣ م — العقل العاطفة)

وكان موقع المنزل جميلاً ، تكتنفه تلال عالية تقع خلفه مباشرة ، وعلى مسافة ليست كبيرة من الجوانب الأخرى ، وبعض هذه التلال ما حل أجرد ، وبعضها تكسوه الزروع والأشجار . وكانت قرية بارتون خاصة تقع على أحد هذه التلال ، ويبدو منظرها رائماً من نوافذ المنزل الريفي . أما المناظر التي تتجلى أمام البيت فكانت مترامية الأطراف تلال على الوادي كله وتمتد إلى الإقليم التالي . وكانت التلال التي تحيط بالمنزل الريفي تحد نهاية الوادي في هذه الجهة ، ثم يمتد الوادي مرة أخرى بين تلين شديدي الانحدار ، ولكن باسم آخر وفي طريق آخر . وأبدت مسر داشوود ارتياحها بوجه عام لحجم المنزل وأثاثه ، وقد استلزم أسلوب حياتها الماضية إضافة الكثير إلى الأثاث : ولكنها كانت تجدمتعة في الزيادة والتجديد ، وتملك من المال ما يكفي لإضافة كل ما يرضى الأناقة على جميع الحجرات . وقالت : لا ريب أن البيت أصغر من أن يتسع لأسرتنا ولكن سنرضى به في الوقت الراهن لأن وقت الإصلاح قد فات في هذا العام . ولكن ربما قننا بالبناء في الربيع إذا تيسر لنا المال وأرجو أن يتيسر . فهاتان الردهتان أصغر من أن تتسما لأصدقائنا الذين أرجو أن أراهم مجتمعين هنا . وأنا أفكر في فتح الطرقة على إحدى الردهتين ، وربما على جزء من الردهة الأخرى على أن أجعل جزءاً الآخر مدخلا : وهذا علاوة على حجرة استقبال جديدة يمكن إضافتها بسهولة ، وحجرة نوم ، وعلية ، وذلك من شأنه أن يجعل منه منزلاً ريفياً صغيراً وأنيقاً . وكنت أتمنى لو كان الدرج أرحب من ذلك ولكن « ما كل ما يتمنى المرء يدركه » وإن كنت أعتقد أن توسيعه ليس بالأمر العسير . وسأرى كم يتيسر لنا المال في الربيع ، وأضع تصميم الإصلاحات التي أريدها على هذا الأساس . على أنهم كن من الحكمة بحيث رضين بالإقامة في المنزل على ما هو عليه ،

إلى أن يتسنى إجراء كل هذه التفتيرات بما تدخره امرأة لم تتعود الادخار قط من دخل يبلغ خمسمائة جنيه في العام ، وأنهمكت كل منهن في ترتيب شئونها الخاصة ، وبذلت جهودها في إعداد البيت . فرتين الكتب وغير ذلك من أمتعتن وأخرجت صريان البيان ووضعت في المكان المناسب ، وعلقت إينور رسومها وصورها على جدران حجرة الجلوس .

وإنهن لمنهكات في هذه الشئون إذ قدم صاحب البيت في اليوم التالي عقب الفطور بقايل ليرحب بمقدمهن إلى بارتون ، ويقدم لهن كل ما يطلبنه من بيته وحديقته مما لا يجدنه في منزلهن . وكان سيرجون ميدلتون رجلاً وسيم الطلعة يناهز الأربعين ، سبق له أن قدم ستاندهل زائراً ، ولكن طول العهد على هذه الزيارة جعل من المتعذر على بنات عمه أن يتذكرنه . وكان وجهه يفيض بالبشر ، ومسلسكه يقسم بالود كأسلوب خطابه . وبداعليه الارتياح الشديد لقدومهن ، وشدة الاهتمام براحتهن . وأعرب لهن عن رغبته في رفع الكلفة بينهن وبين أسرته ، وألح عليهن ، بلهجة تشف عن الود ، أن يتناولن طعام الغداء في بارتون بارك كل يوم حتى يستقر بهن الحال في المنزل الجديد ، وبلغ هذا الإلحاح حداً يتجاوز حدود المجاملة ، واسكنهن لم يستأن منه . ولم يكن عطفه وبره مجرد كلام ، إذ لم تمض ساعة على انصرافه حتى أرسل سلة كبيرة حافلة بشمرات الحديقة والفاكهة أتبعها قبل أن تنقضى سحابة النهار بهدية من لحوم الصيد ، وأصر على القيام بنقل جميع خطاباتهن من البريد وإليه كما أصر على ألا يحرمه شرف إرسال جريدته اليومية إليهن كل يوم .

وبعثت ليدي ميدلتون معه رسالة غاية في الرقة ، تعرب فيها عن اعترافها بزيارة مسز داشوود متى تأكدت أن هذه الزيارة لن تزعجن ، فأرسلت إليها دعوة رقيقة كذلك ، فقدمت السيدة في الغد وتعرفت إليهن .

وكن بالطبع يحرص على رؤية سيدة يتوقف عليها الكثير من راحتهم في بارتون ، وكانت أناقها مدعاة لارتياحهم . ولم تزد سن ليدي ميدلتون على ستة أو سبعة وعشرين عاماً . وكان وجهها صبوحة ، وقوامها فارعا وحديثها ظريفا . وكانت تزدان بكل ما ينقص زوجها من الظرف والكياسة ، ولسكنها كانت تغفر إلى شيء من صراحة زوجها وحرارة عاطفته . وقد طالت زيارتها إلى حدقل من الإعجاب الذي شعرن به نحوها في بداية الأمر ، إذ ظهر لهن أنها مع كرم محبتها تتصف بالتحفظ وبرود الطبع ولا يزيد حديثها على الأسئلة أو الملاحظات التافهة .

على أن الاجتماع لم يخل من الحديث ، إذ كان سيرجون محدثاً أنيس المحضر ورأت ليدي ميدلتون من الحكمة أن تحتاط للأمر ، فاصطلحت معها أصغر أطفالها ، وهو غلام ظريف يبلغ من العمر حوالي ست سنوات ، فأناحت بذلك للسيدات موضوعا واحداً يلجأن إليه دائماً حينما تعوزهن مادة الحديث ، كأن يسألن عن اسم الغلام وسنه ، ويبيدين إعجابهن بحاله ويوجهن إليه بعض الأسئلة التي تتولى أمه الإجابة عليها نيابة عنه ، بينما هو يتعلق بها منكساً رأسه فتزداد دهشة أمه لما يبيده من الخجل أمام الناس ، بقدر ما يحدثه من الضجة في المنزل .

والواقع أنه ينبغي أن يصطحب الإنسان معه طفلاً في كل زيارة رسمية ليكون مادة للحديث ، وفي قضيتنا هذه قضى جميع الحاضرين عشر دقائق ليقروا : هل الغلام أشبه بأمه أو بأبيه ، وما وجه الشبه بينه وبينها ، إذ كان كل يرى ما لا يراه الآخر ويدهش من رأى غيره .

وتقررت إتاحة فرصة أخرى أمام آل داشوود للمناقشة في أمر بقية الأطفال ، لأن سيرجون لم يشأ أن ينادر المنزل قبل أن يأخذ وعداً منهم بتناول النداء في منزله غداً .

الفصل السابع

كان قصر بارتون بارك يبعد عن المنزل الريفي زهاء نصف ميل ، وقد مر به السيدات في طريقهن على طول الوادي ، ولكن كان يقوم دونه تل يحول دون رؤيته من المنزل الريفي . وكان التنصر يتنازع بالسمعة والجمال ويتصف أهله - آل ميدلتون - بمخصلتين : كرم الضيافة ، والظرف ، وأولاهما من خصائص سيرجون ، والأخرى من خصائص زوجته . وقلما خلا قصرهما من بعض الأصدقاء الذين ينزلون عندهما . وكان لهما أصدقاء من كل نوع أكثر من أصدقاء أية أسرة في جوارهما . وكان هذا من مستلزمات سعادتهما ؛ لأنهما على اختلافهما في الطباع والسلوك الظاهري كانا يتفقان بشكل واضح في افتقارهما الكلي إلى اللواهب العقلية والفنية ، مما جعل نشاطهما الاجتماعي محصورا في دائرة ضيقة ، فكان سيرجون رياضيا ، وكانت ليدى ميدلتون أما : هو يهوى الصيد والريماية وهي تهوى تدليل الأطفال ، وهذا هو كل عملهما . وكانت ليدى ميدلتون تمتاز بالقدرة على إفساد أخلاق أطفالها على مدار السنة ، في حين أن أعمال سيرجون الخاصة لا تستغرق إلا نصف وقته فقط . بيد أن مواعيدهما المستمرة داخل المنزل وخارجه كانت تسد كافة وجوه النقص لسيهما من حيث التعليم واللواهب العقلية ، كما كانت تدخل السرور على نفس سيرجون ، وتتيح الفرصة لزوجته لتظهر ما تتحلى به من أخلاق طيبة .

وكانت ليدى ميدلتون تتباهى بأناقة مائدتها ، وحسن نظام بيتها ، وتجد في ذلك أكبر متعة لها في المآدب التي تقيمها . ولكن سيرجون كان يجد متعته الكبرى في الاجتماع بالناس ، فيلذ له أن يجمع حوله من الشباب أكثر مما يتسع له منزله ، ويزداد سرورا كلما علا ضجيجهم . والواقع أن وجوده كان نعمة

على شباب الحى لأنه كان يقيم لهم في الصيف حفلات خلوية يطعمهم فيها لحم الخنزير المقدّد ولحم الدجاج ، و يقيم لهم في الشتاء حفلات رقص عديدة في منزله تشيع رغبة كل سيدة شابة ، لا تكابد من الصباية ما تكابده الفئاتة في سن الخامسة عشرة .

وكان يسره دائماً قدوم كل أسرة جديدة إلى الريف ، وزاد من سروره قدوم السيدات اللاتي جئن إلى منزله الريفي في بارتون ، وكانت بنات داشوود تمتاز بالجمال والشباب ولا تعرفن التصنع ، وهذا يكفي للظفر بحسن تقديره ، لأن عدم التصنع هو كل ما تحتاج إليه الفتاة الجميلة حتى تكون جذابة فائقة في ذاتها وشخصيتها . وكان ما طمّيع عليه من صدق الوداد يجعله يشعر بالمعازاة لإسكان فتيات تنسکر لمن الحظ إذا قيس حاضرهن بماضيهن . ولذلك كان يشعر براحة الضمير حين يتسدىق به وتطفه على ذوى قرابته ، ويخد في إسكان أسرة كلها من الإناث في منزله الريفي كل ما يشعر به الرجل الريفي من ارتياح وغبطة ، لأن الرجل الرياضى وإن لم يقدر من بنى جنسه إلا من كان رياضياً مثله لا يرغب غالباً في تشجيعهم على الرياضة عن طريق إسكانهم في منزل يتبع في حدود ضيعته .

استقبل سيرجون مسز داشوود وبناتها عند باب قصره ، فرحب بمقدمهن إلى بارتون بارك ترحيباً صادقاً لا يشوبه التصنع ، وردد على مسامهن ، وهو يرافقهن إلى حجرة الاستقبال ، ما رددته بالأمس ، وهو أسفه لأنه لم يستطع إحضار أى شاب أنيق نقابتهن وقال : إن الرجل الوحيد الذى سيشاهدهن خلفه ، هو صديق خاص ينزل في البارك . ولكنه ليس صغير السن ، ولا كثير المرح . وأعرب عن أمله أن يفترن له قلة المدعوين إلى اللأدبة ، وأكد لمن أن ذلك لن يتكرر أبداً ،

وأنه طاف على عدة أسر في صباح ذلك اليوم بقصد زيادة المدد ولكن الليالي في ذلك الوقت كانت مقمرة ، وكان كل إنسان مرتبطاً ببعاده . ولحسن الحظ وصلت والدة ليدى ميدلتون إلى بارتون في الساعة الأخيرة ، وكانت امرأة لطيفة مرحة . ولذلك كان يرجو ألا يشمرن بالضجر والملل كما كن يتصورن ، فأعربت الفتيات وأمهن عن ارتياحهن التام لوجود شخصين غريبين في المأدبة ولم يرغبن في أكثر من ذلك .

وكانت مسز جننجر - والدة ليدى ميدلتون -- امرأة عجوزاً سميحة تفيض مرحاً وبشاشة ، وتكثر من الحديث وتبدو عليها أمارات السعادة وتميل إلى شيء من التبذل ، وتكثر من النكات والضعفك ، فقصت عليهن أثناء الغداء كثيراً من المضحك والطرف عن المشاق والأزواج ، وأعربت عن أملها ألا يكن قد تركن خلفهن أحبائهن في سكس، وادعت - إن حقاً وإن باطلاً - أن حمرة الخجل تعلق وجوههن ، فامتعضت مريان لذلك إشفاقاً على أختها، وصوّبت نظرها إلى إيلينور لترى كيف تتحمل هذه القمريات ، وكانت مريان تحقد النظر بصورة آلمت إيلينور أكثر مما آلمها مزاح مسز جننجر للبتدل .

لم يكن ثمة تشابه في الأخلاق بين كولونيل براندون - صديق سيرجون - وسيرجون حتى يصلح صديقاً له ، ولا بين مسز جننجر وليدى ميدلتون وزوجها حتى تكون زوجة له ، ولا بين مسز جننجر وليدى ميدلتون حتى تكون أمها لها . وكان براندون رجلاً صامتاً رزيناً ، ولكن مظهره لم يكن منفراً ، وإن رأت مريان ومسجريت أنه شيخ عزب لأنه نيف على الخامسة والثلاثين ، وكانت ملامح وجهه ، وإن لم يكن وسيماً ، ثم على رقة مشاعره ، وحديثه حديث الرجل المهذب . ولم يكن أى واحد من الحاضرين يتصف بشيء يحببه إلى بنات داشوود ، ولكن ما اتصفت به ليدى ميدلتون من برود الطبع وثقل الظل كان يبعث على

الاشتهار الشديد، بحيث إذا قيس بهما وقار كولونيل براندون، بل المرح العاصب الذي يتصف به سيرجون وحامته، كان شيئاً مقبولاً. ولم يتأتى وجه ليدي ميدلتون بالسرور إلا عندما دخل أطفالها الأربعة الصاخبون بعد الغداء، وطفقوا يجذبون رداها، ويمزقون ثيابها، ويقاطعون كل حديث، اللهم إلا ما كان يدور حول أشخاصهم . وفي المساء طلب الحاضرون إلى مريان أن تعزف لهم على البيان، بعد أن عرفوا أنها تحذق للموسيقى، ففتحت المعزف، واستعد الجميع لقشيف آذانهم، وأجادت مريان المعزف، وطلبوا إليها أن تعزف لمن أهم الأغاني التي أحضرتها ليدي ميدلتون معها عند زواجها، والتي يحتمل أن تكون بقيت في مكانها، على البيان من ذلك الحين، لأن هذه السيدة هجرت الموسيقى ابتهاجاً بزواجها على الرغم من إجادتها الفناء بشهادة أمها، وولوعها به كما قالت هي .

قابل الحاضرون غناء مريان بالتصفيق، والهدف، ورفع سيرجون عقيرته إعجاباً بها بعد كل أغنية كما كان يرفع صوته في حديثه مع غيره أثناء كل أغنية، وكثيراً ما طلبت إليه ليدي ميدلتون أن يحافظ على النظام، وتساءلت كيف يتسنى لإنسان أن يتلهم عن الفناء لحظة واحدة، وطلبت إلى مريان أن تعيد أغنية معينة بعد عزفها . وكان كولونيل براندون هو الشخص الوحيد الذي سمع غناها دون أن يشعر بنشوة الطرب . وكل ما فعله هو أنه أولاها شرف الاستماع، فشمرت نحوه بالاحترام دون غيره، لما أبدوه من عجز فاضح عن تذوق الفناء، وكان ماسح به السكولونيل من لذة الفناء، وإن لم يرتفع إلى حد النشوة التي تسمو إلى نشوتها هي، أمراً جديراً بالتقدير إذا قيس بما أبداه غيره من بلادة الإحساس، وأنصفت السكولونيل حين قدرت أن رجلا في سن الخامسة والثلاثين جدير بأن يفقد حدة الإحساس والشعور المرهف بالمتعة واللذة، وطلابت نفسها بالتماس كل عذر له تقضى به الإنسانية بسبب تقدمه في السن .

الفصل الثامن

كانت مسز جننجز أرملة ذات بائنة عقارية كبيرة ، ولم يكن لها سوى بنتين زوجتهما في حياتها من رجلين جليين ، ولذلك أصبح شغلها الشاغل هو تزويج بقية الناس ، فسمت جاهدة لتحقيق هذا الغرض بقدر ما اتسع له الفرع ، ولم تدع فرصة تمر دون تدبير خطة لتزويج كل من تعرفه من الشباب . وكانت تكشف الحب بين الرجل والمرأة بسرعة غريبة ، وتمتاز بإثارة حمرة الخجل في وجه الكثيرات من الفتيات ، وتبعث الفرور في نفوسهن ، كأن تلوح لهن بأن لهن سلطاناً على قلوب الشباب ، ومكنتها هذه القدرة على اكتشاف الحب من أن تصرح بلهجة فاطمه عقب وصولها إلى بارتون مباشرة أن كولونيل براندون يهيم حبا بمریان داشوود . والغالب أنها لحظت هذا الحب مساء أول يوم اجتمعوا فيه بسبب إصغائه الشديد لها وهي تغني لهم . ولما رد آل ميدلتون الزيارة لهن وتناولوا الغداء في منزلهن تأكدت من هذا الحب حين رأته يصنى لها مرة أخرى ، فجزمت بأنه يحبها ، ورسخ هذا الاعتقاد في نفسها ، ورأت أنه سيكون زواجا رائعا لأنه ذو مال ، وهي ذات جمال . وكانت مسز جننجز تحرص على تزويج كولونيل براندون من امرأة طيبة منذ أن عرفته عن طريق سيرجون ، كما كانت تحرص دائماً على إيجاد زوج طيب لسكل فتاة جميلة .

وكانت القائدة المباشرة التي تعود عليها من وراء ذلك لا يستهان بها على الإطلاق ، لأنها كانت تجد في ذلك معيناً لا ينضب من النكات التي تنتدر بها على الطرفين . قضى البارك تندرت على الكولونيل ، وفي المنزل الريفي تندرت

على مريان . وكانت هذه النكات بالنسبة للأول أمراً عادياً يثير اهتمامه ، أما بالنسبة للأخرى فلم تفهم الغرض منها في بداية الأمر ، ولما فهمته لم تدرِ أنضحك على سخافتها أم تقدهح في سخافتها ، لما تتضمنه من تهكم قاس على تقدم الكولونيل في السن ، وما يعانيه من بؤس وشقاء بسبب عزوبته وكبر سنه ؟

وحاولت مسز داشوود أن تبرى مسز جنتنجز من تهمة الرغبة في التهكم على سنه ، لأنها لم تعتقد أن رجلاً يصغرها بخمس سنوات يعد عجوزاً طاعناً في السن ، كما بدا ذلك لخيال ابنتها الفتى .

« واسكنك يأمامه لانتظيمين - على الأقل - أن تنكرى سخافة التهمة وإن كنت تعتقدين أنها لم تصدر عن سوء نية وخبث طوية . لاشك أن كولونيل براندون أصغر من مسز جنتنجز ، ولكنه كبير إلى حد يعد في سن أبى . وإذا كان قد شعر بالحب يوماً ما فلا ريب أنه فقد هذا الشعور منذ أمد طويل . إن الأمر يدعو إلى الضحك والسخرية ! متى يأمن الإنسان مثل هذه النكات إذا كانت سنه وعجزه لا يجريانه منها ؟ »

فقال إينور : « عجزه ! أنصفين كولونيل براندون بالعجز ؟ في وسمى أن أفترض أنه يبدو لك أكبر بكثير مما يبدو لأمى . ولكن ليس في وسعك أن تخدعى نفسك فتقولى : إنه عاجز عن الحركة !

« ألم تسمى أنه يشكو وجع المفاصل . أليس ذلك هو أكثر حالات العجز الدال على تدهور الصحة ؟ »

فضحكت أمها وقالت : « يا بنيتى العزيزة ! على هذا الأساس لا بد أنك تشعرين بالفزع دائماً لتدهور صحتى ، وتزئنين أنى عشت إلى سن الأربعين بمعجزة » .

« أماه أنت لا تفهمين قصدى . أنا أعرف جيداً أن كولونيل براندون

لم يبلغ من السن حداً يجعل أصدقاءه يحشون فقدته حسبما جرت به سنة الحياة ،
فقد يعيش عشرين سنة أخرى . ولكن رجلاً بلغ الخامسة والثلاثين لا يصلح
للزواج . »

قالت إينور « ربما لا يصلح رجل في سن الخامسة والثلاثين للزواج بامرأة
في سن السابعة عشرة . ولكن إذا اتفق وجود امرأة في السابعة والعشرين فلن
يكون ثمة فيما أعتقد أى اعتراض على زواجهما من كولونيل براندون الذى يبلغ
الخامسة والثلاثين . »

فأطرقت مريان هنية ثم قالت « ليس لامرأة في سن السابعة والعشرين
أى أمل في أن تشعر بالحب ، أو تبعته في قلب رجل مرة أخرى . وإذا كان
بينها غير مريح ، أو كانت رقيقة الحال ، ففي وسعى أن أقول : إنه يجدر بها أن
تروض نفسها على الاضطلاع بمهمة للمرضة حتى توفر لنفسها وسائل العيش
والطمأنينة . ولن يكون زواجه يمثل هذه المرأة أمراً غير مناسب ، لأنه سيكون
زواج منفعة ومصلحة ، يرضى كلا الطرفين . وفي نظرى أن مثل هذا الزواج
لا يعد زواجاً على الإطلاق ، بل ليس بشئ » ، إنه في نظرى ليس إلا ضرباً من
اللبادات التجارية التى يروم فيها كل من الطرفين أن ينتفع على حساب الآخر . »

فقالت إينور « أنا أعلم أنه ليس من المستحيل أن أقنعك بأن في وسع
امرأة في سن السابعة والعشرين أن تشعر نحو رجل في الخامسة والثلاثين بماطفة
قريبة جداً من الحب تجعل منه رفيقاً محبوباً ، ولكنى أرى لزماً على أن أعارض
عليك حين تحمكين على كولونيل براندون وزوجته بالاعتكاف الدائم في حجرة

المرض لا يسبب إلا أنه اتفق أن شكاً أمس (وكان الطقس قارس البرد مشبعاً بالطوبة) الماء مفصلياً بسيطاً في كتفه .

قالت مريان : « ولكنه تكلم عن الصدرة المصنوعة من الفانيلة . وعندى أن الصدرة المصنوعة من الفانيلة تقترن دائماً بالألم والتشنج وداء المفاصل ، وكافة ضروب الملل التي تعترى الشيوخ والضعفاء . »

« لو أنه أصيب بحمي شديدة فقط لما نزل من عينيك نصف هذا القدر . اصدقيني القول يا مريان : ألا تلاحظ لك الوجنات للثوردة ، والعيون الغائرة والنبض السريع بما يصاحب الحمى ؟ »

وسرعان ما قالت مريان عندما غادرت إلي نور الحجر « أمناه ! إن حديث المرض يدخل في روعي من الفرع مالا أستطيع إخفاءه عنك . وأنا واثقة أن إدوارد فيرارز متوكل المزاج . لقد مضى علينا هنا قرابة أسبوعين دون أن يحضر وما من شيء يمكن أن يجسه عن الحضور إلا وعكة ألمت به . وإلا فماذا يجسه في نورلاند ؟ »

فقالت مسز داشوود « وهل كنت تتوقعين حضوره في مثل هذه اللوعد القريب ؟ إنني لم أتوقع ذلك بل على العكس . إن كان ساورني شيء من القلق فلا أنه لم يبد ارتياحاً أو استعداداً لقبول دعوتي حينما دعوته لزيارة بارتون . وهل تتوقع إلي نور فعلاً حضوره ؟ »

« لم أذكر لها هذا الأمر قط ، لكن أعتقد أنها تتوقع حضوره . »
« يغلب على ظني أنك مخطئة لأنني حين تحدثت معها بالأمس في تركيب

شبكة من القضبان لترفة النوم الاحتياطية، أجابت أنه لا ضرورة عاجلة لها لأنه لا يحتمل أن نحتاج إلى هذه الحجره قريباً .

« ما أغرب ذلك ! وما معناه يا ترى ! لقد كان مسلك كل منهما تجاه الآخر ضرباً من الألفاظ ! كان وداعهما الأخير فاتراً هادئاً ! وكان حديثهما في آخر اجتماع لها فاتراً ! ولم يميز إدوارد فيرارز في وداعه بيني وبين إلبينور إذ أعرب في وداعه عن التمنيات الطيبة التي يتمناها الأخ الودود لأختيه . وقد تعددت الاعتماد عنهما مرتين في صباح آخر يوم، فكان في كل مرة يخرج من الحجره على أنرى بطريقة لم أستطع أن أفهم لها سبباً . وعندما ودعت إلبينور نورلاند لم تبك كما بكيت، ولا تزال حتى الآن تحتفظ بضبط النفس كما كانت يومئذ . متى تزيئنها تحاول أن تعتزل الناس ، أو تشعمر بالقلق أو الاستياء من مخالفتهم ؟ »

الفصل التاسع

استقر الآن آل داشوود في بارتون ، وشعرن بقدر لا بأس به من الراحة في الإقامة به ، وألّفن المنزل والحديقة بكل ما يحيط بهما من المناظر ، وعندن إلى الأعمال العادية التي كانت تضيى على قصر نورلاند نصف مافيه من سحر وجاذبية ، فأقبلن على ممارستها بشغف ولذة أكبر بكثير مما وجدنه في نورلاند منذ وفاة أبيهن . ولم يخف سير جون الذي زارهن كل يوم خلال الأسبوعين الأولين دهشته لمارآه من أنهما كهن الدائب في العمل ، إذا لم يتعود أن يرى مثل هذا العمل الكثير في منزله .

ولم يتردد عليهن زوار كثيرون إذا استنينا أهل بارتون بارك ، لأن حب الاستقلال الذي فطرت عليه مسز داشوود تغلب على رغبتها في اختلاط بناتها بالمجتمع ، على الرغم من إلحاح سير جون عليهن بالاختلاط مع جيرانهن وتأكيده الدائم لمن أن عربته تحت تصرفهن في أى وقت ، وصممت ألا تزور أية أسرة لا يمكن زيارتها مشيا على الأقدام ، اسكن الأسر التي ينطبق عليها هذا الشرط كانت قليلة ، ولم يسكن من الليسور زيارتها جميعا وكانت البنات قد اكتشفن في إحدى جولتهن الأولى قصراً قديماً فحما يبعد عن منزلن زهاء ميل ونصف ، ويقع على طول وادى أنهام الضيق المتعرج الذي يتفرع من وادى بارتون كما وصفنا آنفا . وكان هذا القصر يشبه نورلاند بعض الشبه ، فاشتقن لرؤيته ، واتفقت نفوسهن إلى التعرف بأهله . ولكنهن عندما استقصين خبره علمن أن صاحبه سيدة عجوز حميدة الخصال ، ولكن لسوء الحظ وهن منها العظم فلا تستطيع الاختلاط بالناس ولا تتحرك من البيت .

وكان الإقليم الذى يحيط بهن طامراً بالمتنزهات الجميلة ، ومنظر التلال والمروج العالية يدعوهن من سائر نوافذ المنزل إلى الخروج لتنسم الهواء العليل على قمم التلال ، فكن يؤثرن التوجه إليها إذا حجبت أفذار الوديان السفلى جمال التلال الرائع . وفى صباح يوم مشهود توجهت مريان ومرجريت إلى أحد هذه التلال يحدهما سطوع بعض أشعة الشمس فى سماء يوم مطير ، بعد أن ضاقتا ذرعا بالاعتكاف فى المنزل بسبب هطول المطر طول اليومين الماضيين . ولم يكن الطقس مفرها لدرجة تحمل الأُخْرَيَيْن بترك القلم والكتاب ، على الرغم من تصريح مريان أن الطقس سيظل جيلا طول اليوم ، وأن السحب الداكنة ستقشع عن التلال وهكذا خرجت الفتاتان معا .

فصعدتا التلال وشعرتا بالبهجة والسرور كلما نظرتا إلى السماء ، ورتبنا - حينما لفتت وجهيهما الريحُ العاصفة من جهة الجنوب الغربى - المخاوف التى منعت أمهن وإينور من المشاركة فى هذه المتعة .

وقالت مريان : « هل من متعة أعظم من ذلك يا مرجريت ؟ سنتنزه هنا ساعتين على الأقل » . فوافقتها مرجريت على ذلك ، وواصلتا المسير فى وجه الريح ، وهما تقاومانها فى ضحك وشفف زهاء عشرين دقيقة ، وإذا بالسحب تتجمع فوق رأسيهما ، ولظن الفزير ينهمر على وجهيهما ، فاضطرتا إلى العودة على مضض وهما تشعران بالأسى والدهشة ، لأنه لم يكن ثمة مأوى أقرب إليهما من منزلها ، غير أنه لم يكن أمامهما سوى وسيلة واحدة للخلاص اقتضتها ضرورة الموقف الأوهى المرولة بأقصى سرعة على التل الشديد الانحدار المؤدى إلى باب الحديقة مباشرة . فشرعنا تهبطان ، وسبقت مريان أختها ، ولكن زلت قدمها فسقطت على الأرض فجأة . ولم تستطع مرجرت أن تتوقف عن الهبوط لمساعدة أختها ، فأسرعت مضطرة فى النزول ووصلت إلى السفح بسلام .

وكان رجل يحمل بندقيته وحوله كلبان يلعبان ، بهم يطولع التل على مسافة
قصيرة من مريان حينما وقع هذا الحادث ، فألقى بندقيته ، وسارع إلى نجاتها ،
ونهضت من عثرتها ، ولسكنها لم تستطع الوقوف ، لأن قدمها التوت عند سقوطها ،
ففرض عليها أن يساعدها ، ولكن الحياء منعها من قبول ما يقتضيه الموقف ، فإ
كان منه إلا أن حملها بين ذراعيه بدون تردد ولا توان ، ونزل بها من التل ، ثم
اخترق الحديقة وكانت مرجريت قد تركت بابها مفتوحا ، فأدخلها في المنزل
مباشرة حيث وصلت مرجريت لتوها ، ولم يتركها حتى أجلسها على كرسي
في ردهة المنزل .

فوقفت إلي نور وأما في دهشة عند دخولها ، وصوّبنا إليه النظر في عَجَبٍ
ظاهر ، وإعجاب كما من مبعثهما جمال منظره ، فاعتذر لها عن تطفله لدخول
المنزل ، وقص عليها أمره بأسلوب يتسم بالصرامة والظرف والسكينة ، وكانت
عذوبة صوته ، ورقة تعبيره تزيد من مقان وجهه الذي يمتاز بالجمال البارِع .
وحتى لو كان هذا الرجل عجوزاً ودميماً وسوقياً لسكان جديراً بشكر مسز داشوود
وبرها لاهتمامه ببيتها ، ولكن شبابه وجماله وظرفه زاد من قيمة العمل الذي
مس إحسامها .

فكررت له الشكر ، ودعته إلى الجلوس بلهجنها الرقيقة التي لانفارقها قط .
ولسكنه أبي واعتذر لأن ثيابه قذرة ومبتلة . وحينئذ طلبت إليه أن يعرفها بنفسه ،
فقال : إن اسمه « ولبى » وأنه يقيم حالياً في ألبانم : ثم طلب إليها أن تسمح له
بشرف الزيارة في الغد ليسأل عن صحة مس داشوود ، فأولته هذا الشرف دون
تردد . ثم انصرف وللطر ينهمر غزيراً ، فزاده ذلك حبا في نفوسهن .

وسرعان ما أصبح جماله ومروءته وظرفه الفائق مثاراً للإعجاب جميعاً ،

وتضاحكن من مريان لما أبداه من شهامة في إنقاذها ، وزادهن إغراقاً في الضحك جمال منظره . ولم تكن مريان قد أنعمت فيه النظر مثلما فعل غيرها ، لأن حمرة الخجل التي علت وجهها عندما رفعها بين ذراعيه ، سلبتها القدرة على النظر إليه ، بمد أن دخلاً للنزل . ولكنها شاهدت من جماله ما يكفي لأن تشاركهن الإعجاب به ، وتلهج بالثناء عليه . وكانت شخصيته وشمائله تطابق الصورة التي رسمتها في خيالها انتفى أحلامها . ومما زادها ثناء على تصرفه ما أبداه من سرعة البديهة في حملها إلى للنزل دون كلفة . وكانت كل أحواله أمراً محبباً إلى النفس ، فاسمه جميل ، ومحل إقامته في قرية من المحبوبة . وسرعان ما رأت أن سترة الصيد هي أجل ملابس الرجال ، وأصبح فؤادها مشغولاً به ، وقلبها عامراً بالبهجة والسرور ، ونسيت الألم الناشئ عن التواء كاهلها .

وزارهن سيرجون بمجرد أن سمحت له الفترة التالية من الطقس الجميل في ذلك الصباح بالخروج من النزل ، وحكى له قصة الحادث الذي وقع لمريان وسألته باهتمام ، هل يعرف رجلاً باسم « ولي » في قرية إلهام ؟

فصاح سيرجون « ولي ! أ موجود هو بالريف ؟ إنه تلخر مدهش ! ومع ذلك فهو خير سار . سأركب غداً وأدعوه لتناول العشاء يوم الخميس »

فقالت مسز داشوود « كأنك تعرفه إذن ؟ »

« كيف لا ! أعرفه حقاً . إنه يأتي هنا كل عام »

« وماذا تعرف عنه ؟ »

« أؤكد أنه من خيرة من عرفتهم من الرجال ، فهو صياد ماهر . وليس في

إنجلترا من هو أجراً منه فارساً . »

فصاحت مريان غاضبة « وهل هذا كل ماتعرفه عنه ؟ ما أخلاقه التي

عرفتها بحكم صلتك الوثيقة به ؟ ما أعماله ومواهبه وعبقريته ؟ »

فارتبك سيرجون بمعض الارتباك .

وقال : « لعمري إن مبلغ على عنه لا يصل إلى هذا الحد . ولكنه إنسان لطيف حلق الحيا . له كلبة سوداء لم أر أجمل منها ، هل كانت هذه الكلبة معه اليوم ؟ »
ولكن مريان لم تستطع أن تذكر له لون كلبته ، كالم يستطع هو أن يذكر لها شيئاً عن مواهبه وعبريته .

وسأته إليزور : « ولكن ماهو ؟ وما بلده ؟ وهل له منزل في إنهام ؟ »
ولم يستطع سيرجون أن يجيب عن هذه الأسئلة جواباً مؤكداً . وأخبرهن أن مستر « ولبى » ليس له أملاك خاصة في الريف ، وأنه لا يقيم هناك إلا ريثما يزور السيدة العجوز في إنهام كورت التي تربطه بها صلة القرى ، والتي سيرث هو أملاكها ، وأضاف قائلاً : « نعم نعم ! أؤكد لك يامس داشوود أنه جدير بالاصطياد ! فله ضيعة صغيرة خاصة في مقاطعة سمرستشاير المجاورة . ولو كنت مكانك لما زوجته صغرى بنانى على الرغم من التمر على جوانب التلال . وعلى مس مريان ألا تتوقع أن تستولى على جميع الرجال . إن برايدون سيشرم بالغيرة إذا لم تأخذ حذرهما » .

فنبست سز داشوود وتهال وجهها بالبشر وقالت « لأعتقد أن محاولة إحدى ابنتي لتسميه بالاصطياد سيسبب استر « ولبى » شيئاً من الضيق والازعاج . فهذا عمل لم يألّفاه . ولا خطر منا على الرجال مهما كانوا أثرياء . ولكنى سررت حين علمت من حديثك أنه شاب جدير بالاحترام ، وأنه لاضير من معرفته » .

فردد سيرجون ماقاله من قبل : « إنه من خيرة من عرفت من الرجال ، وأذكر أننا أقمنا حفلة رقص في عيد الميلاد الماضى فرقص فيها من الساعة الثامنة إلى الساعة الرابعة دون توقف » .

فصاحت مريان وقد برقت عينها « أصبح أنه رقص ، و رقص برشاقة
ونشاط ؟ »

« نعم ، ثم استيقظ في الساعة الثامنة ليركب إلى حمى الصيد » .

« هذا هو مأحِبٌّ وأهوى . وهكذا ينبغي أن يكون الفتيان ! مهما يكن
العمل الذي يمارسونه فعابهم أن يتممكوا فيه إلى حد الإفراط ، دون أن يشعروا
بأى تعب أو نصب » .

فقال سيرجون « نعم نعم ! قد فهمت ما ترمين إليه . تريدن أن تظفري
به ولا تفكرين في براندون المسكين » .

فقالت مريان محتدة : هذا تعبير أمقته مقتا شديداً . إننى أمقت كل عبارة
مبتذلة يراد بها التندر والدعابة ، وأبغض العبارات إلى كلمة « الغامر بالرجال »
و« غزو قلوب الرجال » إنها عبارات سمجة وغير كريمة . وإذا كان في صياغتها
شئ من البراعة فقد فات زمن هذه البراعة .

ولم يققه سيرجون معنى لهذا التعنيف ، فقمقه ضاحكاً ثم أجاب :

« نعم ، إننى أعتقد أنك ستفزين قلب هذا الرجل أو ذاك غزواً كاملاً .
واحمرناه على براندون المسكين ! لقد جرح فؤاده من قبل ، وأعتقد أنه جدير
بإعجابك على الرغم من كل هذا التعتري على جوانب التلال ، والتواء الأقدام » .

الفصل العاشر

جاء «منقذ مريان» كما شادت مرجريت أن تسمى «ولبي»، وهو اسم أقرب إلى الرقة منه إلى الدقة، وزارهن في منزلهن الريفى صباح اليوم التالى يسأل بنفسه عن صحة مريان، فاستقبلته مسز داشوود بأدب جم وحفاوة بالغة مبشهما تثناء سيرجون عليه، وعرفانها بجميله. وكان كل مادار فى هذه الزيارة من شأنه أن يؤكد له ما تتصف به الأسرة، التى سافته الصدفة إلى التعرف إليها، من عقل راجح وظرف فائق، وحب متبادل، وهناء «عائلى». ولم يكن بحاجة إلى زيارة أخرى ليقنتع بما يتحلين به من المحاسن الشخصية.

كانت مسز داشوود ذات وجه نحيف منتظم القسما، كما كانت بارعة الحسن والجمال، وكانت مريان تفوقها حسنا وجمالا، وكان قوامها - وإن لم يكن سويًا كقوام أختها - أخذًا يلفت الأنظار لأنه كان فارعا، وكانت طلعتها تزدان بالبهاء بحيث إذا وُصفت فى لنة الثناء العادية بأنها جميلة لم يكن هذا الوصف تجنيا على الحقيقة. وكانت بشرتها شديدة السمرة ولكنها تبدو متألقة لشغوفها، ومعارف وجهها كله لطيفة، وابتسامتها حلوة جذابة، وعيناها دعجاوان يتوقدان حيوية وحمية بحيث لا يسع من ينظر إليها إلا أن يشعر بالسرور. وكانت فى بداية الأمر تنفض بصرها عن «ولبي» لما تشعر به من حرج عندما تذكر إقاذه لها، ولكن عندما ارتفع هذا الحرج واستجمعت قواها، وعرفت أنه يجمع بين الخلق المهذب والصراحة والروح، وسمته فوق ذلك كله يصرح أنه شديد الولع بالموسيقى والرقص - صارت تنظر إليه بيمين الرضا والقبول حتى خصها بأ أكبر قسط من الحديث طوال الفترة الباقية من الزيارة.

وكان يسكنى ذكر أى ضرب من ضروب التسلية المحبوبة حتى تشترك في الحديث ، فلم تكن تطبيق السكوت عندما تثار هذه الأمور ، ولا يمتريها الخجل أو التحفظ في مناقشتها . وسرعان ما عرفا أنهما يشتركان في حب الرقص وللوسيقى ، وسبب هذا الحب هو اتفاقهما في الحكم على ما يتصل بهذين الأمرين ، وشجما ذلك على استقصاء رأيه في بقية الأمور ، فانتقلت إلى موضوع الكتب ، فذكرت له أسماء الكتاب الذين تحبهم ، وأخذت تفدق عليهم التثناء بحيث لا يسم أى شاب في سن الخامسة والعشرين إلا أن يؤمن بجودة مؤلفاتهم مهما كانت منبوذة من قبل ، وانضح أن ذوقهما واحد بصورة تلتفت النظر ، كلاهما يهوى من الكتب والفصول ما يهواه الآخر ، وإذا بدا منه أى خلاف أو اعتراض لم يلبث أن يزول أمام قوة حجتها وبريق عينيها ، ولا يسهه إلا أن يوافق على كل آرائها ويبدى مثل حماسها . وقبل انتهاء زيارته بفترة طويلة ظلا يتحدثان بدون كلفة حديث الصديقين اللذين تعارفا منذ زمن طويل .

وما إن ودعهم حتى قالت إيلينور: « حسنا يا مريان ! أعتقد أنك قمت بعمل رائع في صباح يوم واحد . لقد تبينت آراء مستر « ولبى » في كل أمر ذى بال ، فعرفت رأيه في كوبر وسكوت ، وتأكدت أنه يقدر مؤلفاتهما الرائعة كما ينبغي ، وتلقيت منه كل تأكيد بأنه لن يعجب بيوب أكثر مما ينبغي . ولكن كيف يطول تعارفكما بعد أن قتلما كل موضوع بحثاً في هذا الحديث العجيب . ولن تلبثا أن تستنفدا كل موضوع شائق . وأعتقد أن اجتماعاً آخر سيكفي لإيضاح رأيه في المناظر الجميلة التي تستحق التصوير ورأيه في الزواج الثانى ، وحينئذ لن تجدى ما تسألينه .

فصاحت مريان « أهذا من الإنصاف؟ أهذا من العدل؟ أفكاري بمثل هذا القدر من الضآلة؟ لكنني ما أعرف ما تقصدين لقد أرسلت نفسي على سجيتها ، وأبدت من السرور والصراحة ما يتجاوز الحد للألوف ، وخرجت عن حد الحشمة والوقار ، فتحدثت بصراحة وإخلاص حيث كان ينبغي أن ألوذ بأهداب التحفظ والانتقاص والخداع . ولو أتي تحدثت عن حالة العفقس والطرق ، ولم أنكلم إلا مرة واحدة كل عشر دقائق ، ما أعميت على باللائمة .

فقلت أمها: « حبيبتي لا ينبغي لك أن تنفضي من اليثور ، فهي ترح معك وأنا نفسي لا أتردد في توبيخها إذا أرادت أن تحرمك من لذة الحديث مع صديقنا الجديد » . فهذا ذلك من روع مريان في الحال .

وقدم «ولي» من جانبه كل دليل على سروره بالتعرف إليهن يمكن أن تقدمه الرغبة الواضحة في توثيق أواصر هذه المعرفة ، فصار يتردد عليهن كل يوم ، وكانت حجته في البداية هي السؤال عن صحة مريان ، ولكن ما كان يلقاه من حفاوة ، ومظاهر الحب التي تزداد يوماً بعد يوم ، لم يجعل لهذه الحجة ضرورة قبل أن تصبح غير ذات موضوع بشفاء مريان التام . وظلت مريان تلازم الفراش بضعة أيام . ولكن ملازمتها للفراش لم تكن قط أبعد عن السآمة والملل كما كانت في تلك الأيام . وكان «ولي» فتى ذكي الفؤاد ، سريع البديهة ، خفيف الروح ، صريح اللهجة ، حلو الشائل ، كأنه خالق ليوافق هوى مريان تماماً ، إذ لم يكن يجمع إلى هذا كله شخصية ساحرة فحسب بل وحمية فطرية يزيد من توقدها واحتدامها ، اتصافها هي بهذه الخصلة التي حبيبها فيه أكثر من أي خصلة أخرى .

وصارت صحبته بالتدرج أكبر متممة لها ، فكاننا يقرآن معاً ويتحدثان معاً ويفنيان معاً . وكانت له مواهب غنائية عظيمة ، كما كان يقبل على القراءة بلذة وشغف يتقصان إدوارد لسوء الحظ .

وكانت مسز داشوود ترى كما ترى مريان أنه رجل لا عيب فيه . أما إيلينور فكانت لاتعيب فيه إلا ميله للمبالغة والإفصاح عن رأيه في كل الأمور دون مراعاة لشعور الأشخاص أو مقتضيات الأحوال ، وهي خصلة تشبه خصلة أختها شهباً قوياً وتسرها كثيراً . وكان في تسرعه في الحكم على الناس وإبداء هذا الحكم ، وفي مجافاته لأصول الجمالة مع الناس بانصرافه عنهم ليقبل بكليته على مناجاة من يهواه ، وفي استهتاره بالأصول المرعية التي تواضع عليها الناس - يبدى من عدم الخبز ما تستنكره إيلينور على الرغم من كل ما يسوق هو ومريان من حجج في الدفاع عن هذه الخصلة .

وبدأت مريان تدرك الآن أن اليأس الذي اعترأها في السادسة عشرة والنصف من رؤية إنسان تتوافر فيه صفات السكال التي تصبو إليها ضرب من الذوق والطيش ، فقد كان « ولبى » هو الصورة السكاملة التي تخيلتها في تلك الفترة الألبية ، وفي كل لحظة مشرقة للرجل الذي يملك القدرة على استمالة قلبها ، وكان سلوك « ولبى » يدل على أن رغبته الصادقة في استمالة قلبها تعادل قدرته على ذلك .

ولم يمض أسبوع حتى أصبحت أمها ترجو وتتوقع - دون أن يكون الباعث على هذا الأمل هو ثروته المستقبلية - أن يتم زواجهما ، وتغتنب في سرها لفوزها بزوجين لبنتها هما إيلينور وواي .

ثم تبينت إليّ نور — لأول مرة — بحبة كولونيل براندون لمريان التي اكتشفها أصدقاؤه في بداية الأمر ، ثم صرفوا النظر عنها ، وتحول اهتمامهم ونكاشهم إلى غريمه الذي كان أصدق منه حظاً ، فكفوا عن النكات التي تندروا بها على الكولونيل قبل أن يحب مريان ، في الوقت الذي أخذت فيه مشاعره تستوجب التهم الذي وجه بحق إلى العاطفة الجائحة . واضطرت إليّ نور — على كره منها — أن تعتقد أن أختها أصبحت تثير في نفسه الآن تلك العاطفة التي سبق أن نسبتها إليه مسز جنجنز بمحض هواها ، وأن التباين الشديد بين أخلاقها وأخلاقه لم ينمه من حبها على الرغم من أن تشابه الطباع بينها وبين «ولبي» من شأنه أن يوثق أواصر المحبة بينهما .

ولذلك ساورها الشعور بالقلق ، إذ أي أمل لرجل صامت وقور في الخامسة والثلاثين ، في مواجهة فتى مرح طروب في الخامسة والعشرين ؟ وتمنت من صميم قودها أن ينصرف عن محبة أختها لأنها لم تر له أي أمل في النجاح . وكانت إليّ نور تضمّر له الود على الرغم من رزائمه وتحفظه لأنها كانت تراه جديراً بالموءة ، فقد كان دمّ الأخلاق عل وقاره وكان يبدو أن تحفظه يرجع إلى الشعور بالأسى لا إلى السكّابة الطبيعية ، وقد سبق أن أشار سيرجون إلى ما اعتراه من خيبة الأمل وحل به من الأذى ، مما يبرر الاعتقاد بأنه رجل سيء الحظ ، ولذلك كانت تنظر إليه بعين الاحترام والمطف .

ولعل ممازادها احتراماً له وإشفاقاً عليه إهانة «ولبي» ومريان له ، ودأبهما على النض من قدره ، وتعاملهما عليه لأنه لا يستخفه للرح ، ولا يتفرق فيه ماء الشباب .

قال «ولي» ذات يوم وهما يتحدثان عنه : « برانديون هو ذاك الذي يُثنى الناس عليه ، ولا يأبهون له ، ويحبون رؤيته ، ولا يفكرون في التحدث إليه » .

فصاحت مريان : « هذا هو رأيي فيه تماما » .

فقلت إليور : « لاتتبعني بذلك لأن ذلك الرأي يجانب الإنصاف منكما فإن أهل البارك يملونه كل الإجلال ، وأنا لأأراه قط دون أن أحرص على التحدث إليه » .

فأجاب «ولي» « لاريب أن دفاعك عنه شهادة طيبة في حقه . أما احترام غيرك له فإنه سببة في حد ذاته . من ذا الذي يقبل على نفسه معرفة التقدير الذي يصدر عن امرأتين أمثال ليدى ميدلتون ومسز جتنجز لايعبأ بهما أحد ؟ »

« ولكن لعل سبابك وسباب مريان يسكفر عن احترام ليدى ميدلتون وأمها . وإذا كان مدحهما ذمًا فإن ذمكما قد يكون مدحا ، لأنهما إذا افتقرتا إلى صحة التمييز ، فأثما نفتقران إلى الإنصاف » .

« إنك تذهبين في الدفاع عن صنيعتك إلى حد الوقاحة » .

« إن صنيعتي - كما تسميه - رجل عاقل ، وسأظل أحب العقل دائما . نعم أحب العقل يامريان حتى في رجل بين الثلاثين والأربعين . إنه رجل جاب كثيرا من الأقطار ، وكابد الأسفار ، وقرأ كثيرا من الأسفار وله عقل مفكر . وقد أمدني بكثير من المعلومات في مختلف الموضوعات ، وأجاب عن أسئلتى بأدب ولطف . »

فصاحت مريان بلهجة الاحتقار « أى أنه حدثك عن جزر الهند الشرقية ، فقال : إن المناخ حار ، والبعوض ضار » .

« لاريب أنه كان يخبرنى بذلك لو وجهت إليه مثل هذه الأسئلة . ولكنى كنت أعرف هذه الأمور من قبل » .

فقال ولبي : « لعله شاهد - فيما شاهد - الثواب ، والأهمار ، ونحنت رُوَان^(١) » .

« فى وسى أن أقول إن مشاهداته أوسع مما تقول . ولكن حدثنى لماذا تكرهه ؟ »

« أنا لا أكرهه . ولكنى - على العكس - أعده رجلاً جديراً بالاحترام ، يثنى عليه الناس خيراً ، ولا يميرونه التفاتاً ، وعنده من المال أكثر مما ينفق ، ومن الوقت أكثر مما يلزم ، وسترتان جديدتان فى كل عام » .

وصاحت مريان : « أضف إلى ذلك أنه مجرد من العبقرية والذوق والمرح ، وأنه ليس ذكى الفؤاد ، ولا مشبوب العاطفة ، ولا طلق اللسان » .

فأجابت إليفور « إنك تقررين عيوبه على وجه الإجمال ، وتعتمدن على قوة خيالك بحيث يبدو ثنائى عليه فأتراً وتافها بالنسبة لما ذكرت من عيوبه . وقصارى ما أقوله : إنه رجل عاقل مهذب واسع الاطلاع ذو حديث لطيف ، وأعتقد أنه يحبل بين جنبيه قلباً رقيقاً » .

(١) الثواب جمع نائب وهو نائب الحاكم فى الهند ، أو الحاكم المنولى لإحدى المقاطعات الهندية والأهمار جمع مهر وهو بالإنجليزية غزال فى شمال إفريقيا . ونحنت رُوَان محفة تشبه المودج كانت تستخدم سابقاً فى شرق آسيا لنقل شخص واحد ، وهى صندوق خشبى يحبل على أكتاف الرجال . (الترجمة)

وصاح ولى: «مس داشوود! إنك تعاملينى بقسوة، وتحاولين أن تجردينى من سلاحى بقوة العقل واللنطق، وتقنعينى على كره منى. ولكن ذلك لن يجدى . ستجدين أنى أوتيتُ من العناد، بقدرما أوتيت من الدهاء. إنى أكره كولونيل براندون لأمر ثلاثة لاسبيل للرد عليها: أنذرنى أن الطقس سيكون مطيراً، وأنا أريده جميلاً، وانتقد ستائر «عربى»، ولم يقبل شراء فرسى السكّميّة. وإذا سرك أن أقول: إنه لاغبار على أخلاقه فيما عدا ذلك، فأنا مستعد للاعتراف بذلك وفى نظير هذا الاعتراف الذى يؤلمنى بعض الألم أرجو أن تسمحى لى بأن أكرهه كما كرهته من قبل.»

الفصل الحادى عشر

قلما كانت مسز داشوود وبناتها يتصورن عندما جنن أول مرة إلى ديفو .
نشايه ، أنهن سير تبطن بمواعيد كثيرة تشغل وقمن كتلك المواعيد التي ارتبطن
بها في المستقبل القريب أو أنهن سيتلقين من الدعوات الكثيرة ، ويستقبلن
سيلا لا ينقطع من الزائرين لا يدع لمن متسعا من الوقت للعمل الجدى . ولكن
هكذا كان شأنهن . فما إن شفيت مريان حتى أخذ سير جون ينفذ ما فكر
فيه من ضروب اللهو والتسلية داخل المنزل وخارجه . فبدأت حفلات الرقص
الخاصة في البارك ، ونظمت النزعات في أغلب الأوقات التي سمح بها شهر
أكتوبر المطير .

وشهد «واي» كل هذه الاجتماعات ، وكان جو الألفة ورفع الكلفة الذي
يسود هذه الحفلات بالطبع ، من شأنه أن يوثق أواصر الود بينه وبين أميرة
داشوود ، وأن يتيح له الفرصة لمشاهدة محاسن مريان ، وإبداء الإعجاب الشديد
بها ، وأن يلبس بنفسه من سلوكها معه ما يؤكد حبها له كل التأكيد .

ولم تدهش إلنيور لما شعرا به من الحب . وكل ما كانت تريده ن يقللا
من مظاهر الحب . وقد نصحت مريان مرة أو مرتين بالترام شيء من ضبط
النفس . ولكن مريان كانت تمقت كل كتمان لهذا الحب لأنها لم تجد أى عار في
إظهاره ، وكانت ترى أن كبت العواطف غير اللذمومة في حد ذاتها أمر
لا ضرورة له ، فحسب بل هو ضرب من إخضاع العقل لرق الأفكار الخاطئة
البالية . وكان «واي» يرى رأيها ، وتصرفهما في جميع الأوقات يعبر عن رأيهما .

ولم تكن مريان تنظر في حضوره إلى أحد سواه ، وكانت ترى كل ما يفعله صائباً ، وكل ما يقوله سديداً . وإذا خبا السهرة في البارك بلعب الورق غش هو نفسه وغش بقية اللاعبين ليتمكنها من الفوز عليهم . وإذا كان الرقص هو وسيلة التسلية في الليل رقصا معا نصف الوقت ، وإذا تخليا عن الرقص ليرقص غيرها وقفا يتحدثان معا ، دون أن يوجها كلمة إلى أحد . وكان مثل هذا السلوك منهما مدعاة لإثارة السخرية ، ولكن السخرية لم تثر في نفسيهما شيئاً من الخجل أو الاستفزاز .

وكانت مسز داشوود تشاركهما في جميع مشاعرهما بحرارة لم تترك (في نفسها) ميلاً للحد من إسرافهما في إظهار عواطفهما ، وكان من رأيها أن هذا نتيجة طبيعية للحب الشديد عند الشباب المشوب العاطفة .

كان هذا هو موسم السعادة في حياة مريان ، إذ هام قلبها بحب «واي» ، وأضفت صحبته على منزلها الحالى جواً من السحر والجازبية خفف بدرجة لم تكن تنصورها من حدة الحب العميق لنورلاند الذي حماه معها من سسكس .

أما إلينور فلم تشعر بمثل هذه السعادة، ولم تنعم براحة البال، ولم تجد متعة خالصة في وسائل ولهبهم لأن هذه الوسائل لم تتح لها رقيقاً يعوضها عن خلفتها ورواهها، أو يخفف من لوعة فراقها لنورلاند . ولم يكن في حديث ليدى ميدلتون ولا مسز جنجنجز ما يعوضها عن الحديث الذي فقدته ، وإن كانت الأخيرة محدثة لا ينتضب معين حديثها ، وقد حبت إلينور منذ البداية بمطعمها وخصتها بالشرط الأكبر من حديثها، وقصت عليها تاريخها ثلاث مرات أو أربعا، ولو أن إلينور كانت قوية الذكرة لعرفت أن مسز جنجنجز سبق أن حكمت لها في بداية حديثها جميع تفاصيل

حرض مستر جننجز الأخير، وما قاله لزوجته قبل موته بدقائق معدودات . وكانت
ليدى ميدلتون أحب إلى إينور من أمها في خصلة واحدة، ألا وهي الصمت .
على أن إينور لم تكن بحاجة إلى إيمان النظر لتدرك أن صمتها لم يكن سوى
ضرب من الهدوء لاصلة له بالعقل ، وكان مسالكها حيايل زوجها وأمها كسلكها
حيايلهن ، ولذلك لم تسع إلى توثيق أو اصر الود معهن وكانت لا ترغب في ذلك ،
ولا تقول اليوم ما لم تقله بالأمس، وكانت ثقيلة الظل لا يتغير مزاجها ولا يتبدل،
ولا تعارض في الحفلات التي يقيمها زوجها بشرط أن تجرى على السنن للأوف ،
وأن يراقبها ولداها الكبيران ، ولكنها لا تجد فيها من المتعة أكثر مما تجده في
الجلوس بالمنزل ، وقلمما كانت تدخل السرور على الحاضرين ، فتشاركهم في
الحديث ، حتى لقد كانوا ينسون أنها موجودة بينهم لولا اهتمامها بشغب أولادها .

وكان كولونيل براندون هو الشخص الوحيد من بين معارف إينور الذي
تحترمه مواهبه، وتحب صداقته، وتسهو صحبته . أما «ولبي» فكان من المستحيل
أن تفكر في صحبته . وكانت تخص براندون بالاحترام والمحبة بل تحبه محبة
الأخت لأخيها ، ولكنه كان يحب مريان ويوليها كل اهتمامه . ولو أن رجلا
أقل منه لطفاً وأنسا تقدم إليها لكان من المحتمل أن يظفر على وجه العموم
برضاها . ولكن كولونيل براندون لم يلق منها لسوء الحظ مثل هذا التشجيع حتى
يفكر فيها فقط ، فوجد في حديث إينور أعظم عزاء له عن إعراض مريان .

ومما زاد من عطف إينور عليه أنها عرفت أنه أصيب بخيبة الأمل في الحب
وخامرته هذا الظن من بضع كلمات بدرت منه مصادفة وهما في البارك ذات
ليلة ، وكانا قد اتفقا على الجلوس معا بينما كان الآخرون يرقصون .

وكانت عيناه معقودتين بمريان ثم قال - بعد أن أطرق بضع دقائق وعلى

شفتيه ابتسامة خفية : « علمت أن أختك لاتوافق على الزواج الثانى » .

فأجابت إليفور « نعم ، إن آراءها كلها خيالية » .

« أو بعبارة أصح - فيما أعتقد - ترى أنه من المستحيل وجود مثل هذا

الزواج » .

« أعتقد أنها ترى ذلك . ولكنى لأدرى كيف تذهب إلى هذا الرأى دون أن تفكر فيما فعله أبوها الذى تزوج مرتين . ولكن آراءها ستقوم بعد بضع سنوات على أساس من حسن الإدراك ودقة الملاحظة ، وحينئذ يسهل على أى إنسان آخر أن يحدد هذه الآراء ويبررها » .

فأجاب « أكبر الظن أن هذا ما سيصير الأمر إليه . ومع ذلك فإن الشبان يجدون لذة فى اتباع أهوائهم ، ولذلك يأسف للمرء لانقيادهم وراء الآراء التى تقوم على التعميم » .

فقالت إليفور « لا يمكن أن أوافقك على ذلك ، فهناك متاعب تترتب على مثل هذه العواطف التى تشعر بها مريان ولا يمكن تبريرها بالحلمة والجهل بأحوال الدنيا ، فهى تميل بطبعها كل الليل إلى الاستخفاف بأصول اللياقة وهو أمر يدعو إلى الأسف . وإنى لأمل أن تجنى أكبر الفائدة متى ازدادت خبرة بأحوال الدنيا » .

وبعد أن أطرق هنيهة استأنف حديثه قائلاً : « ألا تفرق أختك فى اعتراضها على الزواج الثانى ؟ وهل هو جريمة فى حق كل إنسان على السواء ؟ وهل الذين لم يوقفوا فى اختيارهم الأول بسبب الخيانة الزوجية أوسوء الحظ ، سواء فى الحكم طوال اللدة الباقية من حياتهم ؟ » .

« لعمر الحق لأدرى تفصيلات رأيها . وكل ما أعرفه أنتى لم أحسمها قط .
تفتقر أية حائلة من حالات الزواج الثانى » .

فقال : « هذا لا يستقيم . ولكن لا ترغى فى تغيير عواطفها تغييراً تاماً كلاً -
كلاً ! لأن الشباب حينما يصاب بخيبة الأمل فى الحب والنرام يعتقد هذه الآراء
الشاذة الخطرة ! إننى أتكلم عن خبرة وتجربة . فقد عرفت ذات مرة سيدة تشبه
أختك فى طباعها وعقلها شهاً شديداً ، وتفكر وتحكم على الأشياء مثلها ثم طرأت
سلسلة من الظروف المحزنة ..

وهنا أمسك عن الكلام فجأة ، وبدا له أنه جاوز القصد فى تعبيره ،
وأثارت أسارير وجهه فى نفس إينور ظنوننا ما كانت لتخطر ببالها قط . وكان
من المحتمل ألا تخوم الشبهات فى ذهن إينور حول هذه السيدة لولا أنه أقنعها
أنه ينبغى له ألا ينبس ببنت شفة تمس هذه السيدة . والواقع أن المرء لم يكن بحاجة
إلى إجهاد ذهنه ليرى أنه هاجت به ذكريات حب مضى ، ووقفت إينور عند هذا
الحد .. ولكن مريان لو كانت مكانها لما اكتفت بهذا القدر اليسير من التفكير .
بل كانت تفكر فى الأمر حتى تكتمل خيوط القصة كلها بسرعة فى خيالها
النشط ثم ترجع كل شئ . إلى حب مشنوم أثار فيه أشد الشجون .

الفصل الثاني عشر

بينما كانت إينور ومريان تتزهان معاً في صباح الندأفضت هذه لأختها بنياً أثار في نفسها لدهشة لما كان يحمله من شهادة صارخة على اتصافها بالتهور والذوق ، وذلك على الرغم من أن إينور كانت تعرف عن أختها هاتين الخصلتين . أخبرتها مريان -وهي تبدي أعظم السرور -أن «ولبي» أهداها جواداً رياه بنفسه . في ضيعته بمقاطعة سومر ستشاير ، وأعدّه إعاداً تاماً لركوب امرأة ، فقبلت الهدية دون تردد ، وأخبرت أختها الخبر وهي في أشد الفرح ، دون أن تندبر أن أمها لا تنوى أن تقضى جواداً ، وأنها إذا غيرت نيتها من أجل هذه الهدية وجب أن تشتري جواداً آخر للخادم ، وتخصص له خادماً يركبه ، ثم تبني - فوق ذلك كله - إصطبلًا للجوادين .

ولستطردت قائلة: « إنه بنوى أن يرسل سائسه إلى سومر ستشاير في الحال ليسوس الجواد ، ومتى وصل ركبناه كل يوم ، وستشترين معي في ركوبه . تصورى يا عزيزتي إينور لذة العدو على بعض هذه اللروج .

وأبت مريان كل الإباء أن تفيق من هذا الحلم اللذيذ ، وأن تدرك الحقائق الأليمة التي تكنتف هذا الموضوع . وظلت بعض الوقت ترفض التسليم بهذه الحقائق ، فقالت: إن النفقات التي يتطلبها خادم جديد أمرها هين ، وأكدت أن ماما لن تعارض في ذلك أبداً ، وأن أى جواد يكفي الخادم إذ يستطيع أن يحصل دائماً على جواد من البارك . أما الإصطبل فإن أى حظيرة تكفى . وحينئذ ذكرت إينور أنه ليس من اللائق أن تقبل هدية من شخص لم يعرفه كثيراً ،

أو على الأقل عرفته أخيراً . وكان هذا الكلام أكثر مما تطيقه مريان .
فقلت محتدة : « تخطئين يا إينور حين تظنين أنني لا أعرف عن «ولبي»
إلا قليلا . صحيح أنني لم أعرفه منذ عهد بعيد ، ولكني أصبحت أكثر الناس
— ما عدناك أنت وماما — معرفة به في العالم . إن الذي يحدد الألفة ليس هو
الزمن أو الفرصة . وإنما يحددها الطبع وحده ، ف سبع سنين قد لا تكفى لتعارف
بعض الناس ، وسبعة أيام تكفى غيرهم وزيادة ، وأعتقد أنني لو كنت قبلت
جواداً من أخى لسكنت جاوزت حدود الأيافة أكثر مما لو قبلته من «ولبي» لأنى
لا أعرف عن أخى إلا القليل ، وإن كنت عشت معه عدة سنين . أما «ولبي»
فقد كنت عنه رأي منذ عهد بعيد . »

ورأت إينور من الحكمة أن تكف عن الحديث في هذا الشأن لأنها تعرف
طبع أختها ، وللمعارضة في هذا الموضوع الحساس من شأنها أن تزيدها إصراراً
على رأيها ، وإنكنا ذكرتها بحبها لأمرها ، وشرحت لها للتأعب التي ستجلبها
هذه الأم الروم على نفسها (وهذا ما يحتمل أن يحدث) إذا ما وافقت على
زيادة خدمها ، وسرعان ما اقتنعت مريان بقولها ، ووعدت ألا تزين لأمرها
الإقدام على هذا العمل الأحمق ، فلا تذكر لها نياً الهدية ، وأن نخبر «ولبي»
عندما تراه ألا مناص من رفض الهدية .

وبرت مريان بوعدها وعند ما قدم «ولبي» إلى المنزل في اليوم نفسه سمعها
إينور تعرب له عن أسفها بصوت خفيض لاضطرابها إلى رفض هديته وسردت
عليه أسباب الرفض في الوقت نفسه على نحو لم يدع له مجالاً للكلام والإلحاح . وإنكن
أمازات القلق ارتسمت على وجهه فقال بصوت خفيض بعد أن أعرب عن قلقه

بشدة : « ولكن يا مريان سيظل الجواد جوادك ، وإن لم تستطعي استخدامه الآن . سأحتفظ به حتى تطلبيه . وعندما تنادرن بارتون لتستقري في منزلك الدائم ، فإن « كوين ماب » سوف تستقبلك » .

سمعت إليينور كل ذلك عرضاً ، ولست في هذه الجملة كلها وفي طريقة إلقائها ومخاطبته لأختها باسمها الشخصي وواً صادقاً ، ومعنى صريحاً يدلان على وجود اتفاق تام بينهما . ومنذ تلك اللحظة لم تشك أنهما تواعدا على الزواج ، ولم يتر هذا الاعتقاد في نفسها من الدهشة سوى ما كانت تشعر به هي أو إحدى صديقاتها لو اكتشفت وجود هذا الاتفاق بالصدفة بفضل ما فطرا عليه من الصراحة .

وقصت عليها مرجريت في الغد ما ألقى ضوءاً أكبر على الأمر . ذلك أن « ولبى » قضى مساء أمس معهن ، وبعيت مرجريت في بهو المنزل ليس معها إلا هو ومريان ، وبذلك أتاحت لها الفرصة لأن تلاحظ بعض الأمور التي أفضت بها لأختها الكبرى بلهجة الفخر حينما اختلت بها بعد ذلك .

قالت « إيها ! إليينور . عندي سر خطير عن مريان أحب أن أفضى به إليك . أؤكد لك أنها ستزوج « ولبى » قريباً جداً » .

فأجابت إليينور « لقد ظلت تقولين ذلك كل يوم تقريباً منذ أن التقينا في هاى تشرش داون ، ولم يمض على تمارفهما أسبوع حتى اعتقدت أن مريان تحمل صورته حول جيدها ، ثم تبين أنها ليست سوى صورة صغيرة لعمنا الكبير » .

« ولكن الواقع أن هذا شيء مختلف تماما . إنني واثقة أنهما سيتزوجان قريباً جداً لأنه أخذ خصلة من شعرها . »
« حذار يا مرجريت ! قد لا تكون سوى خصلة من شر أحد أعمامه الكبير . »

٢ ولكنني أؤكد لك أنها من شعر مريان . أكاد أجزم بذلك لأنني رأيته يقصها بنفسه . حينما خرجت أنت وماما من الحجر في الليلة الماضية بعد تناول الشاي رأيتهما يتامسان ويتحدثان معاً بأسرع ما يمكن ، وبدأ لي أنه طلب منها شيئاً ، وما هو إلا أن تناول المقص ، وقص خصلة طويلة من شعرها لأنه كان يتهدل على ظهرها ثم قبل الخصلة ، ولفها في ورقة بيضاء وطواها في محفظته .
ولم يسع إليور إزاء هذه التفصيلات التي روتها مرجريت إلا أن تصدقها ، وكانت لا تميل إلى تكذيبها لأن الواقعة التي روتها تتفق تماماً مع ما سمعته ورأته بنفسها .

وكانت مرجريت لا تكشف دائماً عن فطنها بطريقة ترضى أختها ، فقد حدث ذات مساء في البارك أن طلبت إليها مسز جننجز أن تخبرها باسم الفتى الذي تحبه إليور ، وكانت تتوق إلى معرفته منذ زمن بعيد ، فظفرت مرجريت إلى أختها وقالت : « ليس في وسعي أن أخبرك به . هل تسمحين لي يا إليور ؟ »
فضحك الجميع بالطبع ، كاضحكت إليور أيضاً ، ولكنها تأملت لما حدث لأنه وفر في يقينها أن مرجريت تعرف شخصاً معيناً لم تطق أن تذكر اسمه حتى لا يكون مادة دائماً لتندر مسز جننجز .

وتألت مريان لأختها أشد الألم ، ولكنها أسامت إلى القضية أكثر مما أحسنت إذ احمر وجهها ، وقالت لمرجريت في لهجة الغضب :

« مهما تكن ظنونك فليس من حقلك أن تردديها على الأسماع » .

فأجابت مرجريت : « لم أكن أظن في الأمر شيئاً . لقد كنت أنت التي حدثتني بذلك » .

فأفرق الحاضرون في الضحك ، وألحوا على مرجريت أن تزيد الأمر إيضاحاً .

وقالت مسرّ جئنجز : « وى ! أرجوك يا مس مرجريت أن تحكى لنا القصة بحذافيرها . ما اسم الرجل ؟ » .

« ليس من حق أن أذكره يا سيدتى . ولكنى أعرفه جيداً ، وأعرف أيضاً أين هو الآن » :

« نعم نعم ، في وسعنا أن نحدهس أين هو . في منزله بنورلاند ، ما في ذلك شك . أكاد أجزم أنه كاهن الأبرشية » .

« كلا ! ليس به . لا مهنة له على الإطلاق »

قالت مريان محتدة : « أنت تعلمين أن ما تقولين حديث مفترى من عندك ، وأنه لا وجود لمثل هذا الشخص على الإطلاق » .

« إذن لا بد أنه مات أخيراً يا مريان لأنى واثقة أن مثل هذا الشخص كان موجوداً واسمه يبدأ بحرف ، ف » .

وما أجزل الشكر الذى شعرت به إنيور لليدى ميدلتون إذ قاطعتهم في تلك

اللعظة قائلة « لقد هطل مطر غزير » وإن كانت إلبينور تعتقد أنها لم تقاطعهم رعاية لشعورها ، وإنما قاطعتهم لأنها ملت النكات السخيفة التي تسر زوجها وأمها . تم قتي كولوئيل براندون على أثرها فتابع الحديث في الموضوع الذي أثارته ، وكان براندون يراعى مشاعر غيره في كل مناسبة ، فأفاض هو والسيدة في حديث للطرف وفتح « ولبى » البيان ، وطلب إلى مريان أن تمزف عليه ، وهكذا ناه موضوع إلبينور في لجنة المحاولات التي بذلها الحاضرون لترك الحديث ، ولكن إلبينور لم تفق من غمرة الفزع الذي اعترأها بسببه .

واتفقت جماعة منهم في تلك الليلة على القيام برحلة لمشاهدة مكان جميل على مسيرة زهاء اثني عشر ميلا من بارتون يملكه زوج أخت كولوئيل براندون . وكان من اللعذر مشاهدة هذا المكان بدون وساطة براندون لأن صاحبه سافر إلى الخارج إذ ذاك ، وترك أوامر مشددة في هذا الشأن . وكانت حدائقه رائعة ، وكان سير جون الذي أثنى عليها ثناء مستطابا يعرفها جيدا لأنه نظم رحلات لزيارتها بمعدل رحلتين على الأقل في صيف كل عام خلال السنوات العشر الماضية وكانت تشمل على بحيرة جميلة يمكن للإنسان أن يتنزه فيها على مركب شراعى في الصباح . وتقرر أن يأخذوا معهم طعاما ناضجا ، وعربات مكشوفة ، وتم إعداد كل شيء على الوجه الذي تستلزمه رحلة بقصد التنزه .

وكان بعضهم يرى في هذه الرحلة مشروعا جريئاً في مثل هذا الوقت من السنة بسبب هطول المطر طيلة الأسبوعين الماضيين . وأقنعت إلبينور أمها بالبقاء كوا الزكام .

الفصل الثالث عشر

لم تتم الرحلة التي أزمعوا القيام بها إلى هويتيل على نحو ما توقعته إيلينور . كانت تتوقع البلل والتعب والخوف ولكن ما جرى كان أسوأ مما توقعته ، لأن الرحلة لم تتم على الإطلاق .

وما إن حانت الساعة العاشرة حتى انتظم شمل الجميع في البارك ليتناولوا طعام الفطور حسبما كان مقررا . وكان الطقس في الصباح مناسباً للرحلة إلى حد ما ، وإن ظل المطر ينهمر طول الليل ، إذ تقشعت السحب عبر السماء ، وظهرت الشمس في أغلب الأوقات ، وعلا البشر وجوههم جميعاً ، وملاً السرور قلوبهم ، وعقدوا العزم على تجشم كافة المتاعب والعقبات مهما كانت .

وبينما كانوا يتناولون طعام الفطور إذ وافق بعض الخطابات ومنها خطاب لكولونيل براندون ، فتلسه وألقى نظرة على عنوانه ، فأربد وجهه ، وغادر الحجرة من فوره .

فسأل سيرجون : « ما بال براندون ؟ »

فلم يجر أحد جواباً .

وقالت ليدى ميدلتون : « أرجو ألا يكون قد تلقى أخباراً سيئة ، ولا يمكن أن يفادر كولونيل براندون مائدة الفطور فجأة على هذا النحو ، إلا لأمر غير عادي . »

ثم عاد بعد زهاء خمس دقائق .

وما إن دخل الحجرة حتى قالت مسز جنتجز : « أرجو ألا تكون هناك

أخبار سيئة يا كولونيل . »

« لاشى على الإطلاق يا سيدتى . شكراً لك . »
« هل الخطاب من أفنيون ؟ أرجو ألا يتضمن أن أختك سادت حالها . »
« كلا يا سيدتى . لقد جاء من لندن ، وهو لا يتصل إلا بالعمل . »
« ولكن إذا كان لا يتصل إلا بالعمل ، فكيف يزعجك إلى هذا الحد ؟
لا تخف عنا السرياً كولونيل . إن هذا الكلام لا يندعنا . حدثنا عن
حقيقة الأمر . »

فحالت اليدى ميدلتون : « سيدتى العزيزة ! تذكرى ما تقولين . »
فحالت مسز جننجز ، غير آبهة بتمنيف بنتها : « لعله أنباءك بزواج فاني ابنة عمك »
« كلا ! لاشىء من ذلك . »

« حسناً ! إنى أعرف من أرسله يا كولونيل . وأرجو أن تكون هى بصحة طيبة »
فقال وقد امتنع لونه قليلاً : « من تتين يا سيدتى ؟ »
« عجياً لك ! أنت تعرف من أعنى »

فقال مخاطباً ليدى ميدلتون : « إنى لآسف أشد الأسف يا سيدتى أن أتلقى
هذا الخطاب اليوم ، لأنه يتصل بعمل يتطلب وجودى فى لندن فى هذا القور . »

فصاحت مسز جننجز : « فى لندن ! ماذا تصنع فى لندن فى هذا الوقت
من السنة ؟ »

فأردف قائلاً : « إن خسارتى كبيرة بسبب اضطرارى إلى مغادرة هذا
الحفل الجميل ، ولكن أسفى أشد لأننى أخشى ألا يتسنى لكم الدخول فى
هويتويل إلا إذا كنت موجوداً . »

وما كان أشد وقع هذا الكلام عليهم جميعاً !

فقالت مريان بجدّة : « ولسكن إذا كتبت رسالة وجيزة إلى مديرة المنزل
ألا يكفي ذلك ! » .
فهرز رأسه .

وقال سير جون : « لا بد من القيام بالرحلة ، ولا يجوز إرجاؤها بعد أن أصبحنا
على مقربة من المكان . إنك لن تستطيع يا براندون أن تذهب إلى لندن إلاغداً
وبذلك يمكن تسوية الأمر » .
« بودى لو أمكن تسوية الأمر بمثل هذه السهولة . ولكن ليس في وسعى
أن أرجىء السفر يوماً واحداً ! » .

فقالت مسز جننجز : « لو أنك أخبرتنا عن مهمتك لأمكن أن ننظر أيمكن
إرجاؤها أم لا » .
وقال « ولى » : « لو أنك أرجأت سفرك حتى تعود من رحلتنا لما تأخرت
ست ساعات » .

« ليس في وسعى أن أرجىء سفرى ساعة واحدة ! »

ثم سمعت إليفور « ولى » وهو يهمس في أذن مريان : « من الناس من لا يطيق
صحبة أهل الأنس والسرور ، ومن هؤلاء براندون . أكاد أجزم أنه يخشى الإصابة
بالبرد ، ولذلك اخترع هذه الحيلة ليتخلص من الرحلة . أراهن بخمسين جنيتها أن
هذا الخطاب يخط يده » .

فأجابت مريان : « ليس عندى ف ذلك أى شك » .

وقال سير جون : « أعرف عنك يا براندون من قديم أنك متى عقدت العزم على
أمر فلا سيبل للحلك على تغيير رأيك ولسكن أرجو أن تنعم النظر في الأمر .
تأمل أن كرمتى مستر كارى جاءتا إلى هنا من نيوتن ، وكريمات داشوود الثلاثة

جن من منزلهن الريفي ، ومستر « ولي » استيقظ قبل مواعده للمعاد بساعتين ،
وذلك بنية الذهاب إلى هويتويل ؟ »

وعاد كولونيل براندون فكرر أسفه لأنه السبب فيما أصابهم من خيبة الأمل
وصرح في الوقت نفسه أن الأمر لا مفر منه .

« ومتى تعود إذن ؟ » .

واستطردت اللیدی قائلة : « أرجو أن نراك في بارتون بمجرد أن تغادر لندن
في الوقت المناسب ، وأرى لزاما علينا أن نرجى الرحلة إلى هويتويل إلى حين
عودتك » .

« إنك تطوقين جيدي بحسن صنيمك ، ولكن لا أدرى متى أستطيع
العودة ، ولذلك لا أجرؤ أن أربط بتيعاد على الإطلاق » .

فصاح سير جون : « أواه ! يجب أن يعود ، وسيمود . وإذا لم يعد في نهاية
الأسبوع فسأسافر وراه » .

فصاحت مسز جننجز : « نعم ! سافر وراه . ولعلنا حينئذ نعرف المهمة التي
سافر من أجلها » .

« لا أريد أن أتدخل في شئون غيري . وأظن أنه أمر ينجعل هو من ذكره .
ثم وصلت جياذ كولونيل براندون .

وأضاف سير جون : « هل تذهب إلى لندن على صهوة جوادك ؟ » .

« كلا ! إلى هويتون فقط . ثم أوصل السير بأقصى سرعة ممكنة » .

« حسناً ! وما دمت مصمما على السفر فأرجو لك سفراً سعيداً . ولكن

يحسن بك أن تعدل عن رأيك » .

« أو كذلك أنت هذا ليس في استطاعتي » .

ثم ودع الحاضرين جميعاً .

« أليست هنالك فرصة لروؤيتك وروؤية أخواتك في لندن هذا الشتاء يا مس داشوود؟ »

« أخشى أن أقول : إنه لا فرصة على الإطلاق . »

« إنذا أودعك وداعاً أطول مما كنت أود . »

واكتفى بالأعناء لمريان دون أن يقول شيئاً .

وقالت مسز جننجز : « هيا يا كولونيل ! أرجو أن نحددنا قبل سفر ك عن مهمتك »

فقال لها : « أنعمي صباحاً » وغادر الحجره يشيعه سير جون .

وحينئذ انطلقت الأنات والآهات التي كظمها الجميع في صدورهم ومنهمم الأدب

من التنفيس عنها وأجمعوا على ترديد القول بأن خيبة أملهم على هذا النحو أمر

يستفز النفوس . »

وقالت مسز جننجز ، وهي تهلل فرحاً : « أستطيع — مع ذلك — أن أحدهس

ما هي مهمته . »

فسألها كلهم تقريباً : « أفي مقدورك هذا ؟ »

« إن الأمر يتعلق بمس وليامز — فيا أعتقد . »

فسألت مريان : « ومن هي مس وليامز ؟ »

« عجباً ! ألا تعلمين من هي مسز وليامز ؟ إنني واثقة أنك سمعت عنها من

قبل . فهي ياعز بزي إحدى قريبات كولونيل براندون . وإن أحدى صفة هذه

القرابة خشية أن تصاب الأنسات الصغيرات بصدمة ثم خفضت صوتها قليلا

وقالت لإليثور : إنها ابنته الشرعية . »

« أحق ما تقولين ؟ »

« عجباً ! نعم ، وهي تشبهه كل الشبه . وأعتقد أن الكولونيل سيوصي لها بكل ماله »

ثم عاد سير جون وشاركهم الأسف على هذا الحادث المحزن ، ولكن ختم حديثه قائلاً : إنهم يجب أن ينتهزوا فرصة اجتماعهم هنا ، ويعملوا شيئاً يدخل السرور على قلوبهم ، وانفقوا بعد التشاور في الأمر أنهم يمكن أن يروحوا عن نفوسهم بجولة في الريف وهم يركبون العربات ، مع اقتناعهم بأن الرحلة إلى هويتويل هي للذة الوحيدة . فطلبوا العربات ، وجاءت عربة «ولبي» أولاً ، ولم تشعر مريان قط بمثل ما شعرت به من السعادة حين ركبتها ، وسارت العربة خلال البارك بسرعة كبيرة حتى اخفيا عن الأنظار ، ولم يرها أحد حتى عادا بعد أن عاد جميع الباقين . وكان يبدو عليها السرور بهذه الزهرة ، ولكنها قالتا بعبارة عامة إنهما التزما السير في الدروب التي تتخلل الحقول بينما سار الآخرون في اللروج .

وتقررت إقامة حفلة رقص في المساء حتى ينعم كل منهم بألوان اللرح والسرور إلى أبعد مدى ، وجاء آخرون من أسرة كاري لتناول الغداء ، وجلس ما يقرب من عشرين شخصاً إلى اللائدة وقلوبهم ملاءى بالسرور ، الأمر الذي ملأ قلب سيرجون بالغبطة والرضا . وجلس «ولبي» كعادته بين كرمتي داشوودالكبيرتين وجلست مسز جنتجز على يمين الينور ، ولم يطل بهم الجلوس حتى انحنت مسز جنتجز خلفها وخلف ولبي وقالت لمريان بصوت عال يستطيع كلاهما أن يسمعه : « لقد اكتشفت أمرك على الرغم من جميع حيلك ، فمفرت أين قضيت الصباح »

فتغير لون مريان ، وأجابت من فورها : « أين ؟ أرجوك ! » .

فقال ولبي : « ألم تعلمي أننا خرجنا للزهة في عرقتي ؟ » .

« بلى بلى ! أيها الوقح ! إننى أعرف ذلك جيداً ، وقدصمت أن أكتشف أين ذهبتما - أرجو أن يكون بيتك أعجبك يامس مريان . أنا أعرف أنه بيت

رحب واسع، وأرجو أن أراه جديد الأثاث حين أזורك فيه ، لأنى رأيت في أشد الحاجة إلى الأثاث عندما زرتة منذ ست سنوات .

وأشاحت مريان بوجهها في اضطراب شديد . وأغرقت مسز جننجز في الضحك ، وعرفت إلي نور أن مسز جننجز حين صممت على معرفة المكان الذى ذهبا إليه ، طلبت إلى خادمتها أن تستقصى الخبر من سانس مستر ولى ، فأخبرها أنهما ذهبا إلى أنهام حيث قضيا وقتاً طويلاً يتنزهان في الحدبة ويتفقدان البيت كله .

ولم تستطع إلي نور أن تصدق هذا الخبر لأنها استبعدت أن يقترح ولى أو ترى مريان أن يدخل البيت أثناء وجود مسز سميت التى لانعرفها مريان أدنى معرفة وما أن غادرن غرفة الطعام حتى سألت إلي نور أختها عن الخبر ، ولشد ما دهشت عندما عرفت أن القصة التى روئها مسز جننجز صحيحة بخذافيرها . وغضبت مريان من أختها أشد الغضب ، لارتياها في صحة هذه القصة .

« لماذا تتصورين يا إلي نور أننا لم نذهب هناك أو أننا لم نشاهد البيت ؟ اليس هذا هو ما كفت تتمنين كثيراً أن تفعلينه أنت نفسك ؟ » .

« بلى يا مريان ، ولكن ما كفت لأذهب إليه ، ومسز سميت فيه ، ولا أذهب إليه في صحبة مستر ولى بالذات »

« ولكن مستر ولى » هو الشخص الوحيد الذى يملك الحق فى أن يطعننى على البيت ، وكان من المتعذر أن أذهب مع غيره ، لأن له عربة مكشوفة .
أنا لم أقض فى حياتى كلها وقتاً هو أبهج من صباح ذلك اليوم » .

فأجابت إينور : « أخشى أن أقول : إن البهجة التي يشعر بها المرء في عمل
ملا تدل دائماً على أنه عمل لائق » .

« على العكس يا إينور ، إنني أرى أن الشعور بالبهجة أقوى دليل على
ذلك ، إذ لو كان هذا العمل غير لائق في الحقيقة ، لشعرت بذلك في حينه
فالمرء يشعر دائماً بالخطأ وقت ارتكابه . ولو كنت أعتقد أن هذا العمل غير
لائق لما شعرت بشيء من البهجة على الإطلاق » .

« ولكن يا عزيزتي مريان لقد عرضك هذا العمل لبعض التقولات الوجيهة
أفلا يجالجك الشك الآن في حكمة هذا التصرف ؟ »

« إذا عدت تقولات مسز جتنجز دليلاً على أن هذا التصرف غير لائق
كانت تصرفاتنا جميعاً معيبة في كل لحظة من لحظات حياتنا . وأنا لا أقيم
وزناً لقدح مسز جتنجز أو مدحها ، لأنني أشعر أنني لم أرتكب إثماً حين تجولت
في حديقة مسز سميث أو شاهدت بيتها . إنها ستكون حديقة مستر ولبي يوماً ما
وحديقة... »

« إذا كانت هذه الحديقة ستصبح ملكاً لك يا مريان في يوم ما ، فلا يمد
ذلك مبرراً لما فعلت » .

فاحمر وجه مريان خجلاً من هذه الإشارة ، ومع ذلك بدا عليها السرور
لسماعها . ولكنها عادت إلى أختها بعد أن فكرت في الأمر عشر دقائق وقالت
ووجهها يتألق بشراً : « ربما كان ذهابي يا إينور إلى ألنهام عملاً مجانباً للحكمة ،
ولكن مستر ولبي كان شديد الرغبة في إطلاعي على البيت ، وأؤكد لك أنه

بيت يأخذ بالألباب ، فقيه حجرة جلوس جميلة في الطبقة العليا ، وهي رحبة
تمكن الإنسان من استخدامها بصفة دائمة ، وإذا زودت بالأثاث الحديث
أصبحت رائعة ، وهي تقع في أحد أركان البيت ، ولها نوافذ على جانبيين ،
أحدهما يطل على اللب المخصص للكرة الخشبية خلف المنزل وعلى غابة معلقة.
وراء اللب ، والجانب الآخر يطل على الكنيسة والقرية ، وفيها وراءها تشاهد
التلال الجميلة الشديدة الانحدار التي أثارنا إعجابنا كثيراً ، ولكن منظر هذه
الحجرة لم يعجبني كثيراً لأنني لم أرها هو أحقر من أتاها . بيد أنها إذا أثنت
بأثاث جديد - يقول ولي : إن مائتي جنيه تجمل منها حجرة صيفية من أروع
الحجرات في إنجلترا .

ولو أن إلي نور أصفت إليها دون أن يقطع أجد عليهما الحديث لوصفت لها
سريان كل حجرة بمثل هذه البهجة .

الفصل الرابع عشر

كان انتهاء زيارة كولونيل براندون في البارك فجأة ، وإصراره على كتمان السبب ، مما شغل بال مسز جننجز وأثار دهشتها يومين أو ثلاثة . وكانت مسز جننجز امرأة طمعة ، شأن من يهتم كثيراً بصدقاته وروحانه . فتاقت كثيراً إلى معرفة السبب الذي دعا براندون إلى إنهاء زيارته ، وكانت تمتد أنه تلقى أخباراً سيئة ، وقلبت في ذهنها كل ضائقة يمكن أن تلم به وهي تجزم أن الأمر لا يخلو من أحدها .

قالت : « لاشك أن حادثاً محزنًا جداً ألم به . لقد رأيت أثر ذلك في وجهه . لحفي عليه ! أخشى أن تكون ظروفه سيئة ، فضيته في ديلافورد لم تغن قط أكثر من ألفي جنيه في العام ، وأخوه ترك الضيعة غارقة في الديون . وأظن أنه استدعى لأمر مالي ، وإلا فماذا عسى أن يكون السبب ؟ ليت شعري هل السبب كذلك ؟ بودى لو وقفت على حقيقة الأمر . لعله يتعلق بمس وليامز . وعلى ذكر مس وليامز أ كاد أجزم أنه كذلك ، لأنه ظهر عليه الاهتمام حينما ذكرت اسمها . ربما تكون مريضة في لندن ، وهذا هو أكثر الأمور احتمالاً لأنني أعرف أنها تشكو العلة دائماً ، وأنا أراهن أن الأمر يتصل بها . وليس من المحتمل كثيراً أن تحمل به أزمة مالية الآن لأنه رجل حسن التدبير ، ولا بد أنه صفى الديون التي تراكت على الضيعة وإلا فما هو السبب ياترى ؟ ربما سادت حال أخته في أفنيون فاستدعت ، وإسراعه بالرحيل يدل على ذلك . وعلى كل حال أتمنى من صميم قواذى أن تنتهي كل متاعبه ، وأتمنى له زوجة صالحة أيضاً .

هكذا كانت ظنون مسز جننجز ، وهكذا كان حديثها . كان رأيها يتغير مع كل ظن جديد ، وكانت هذه الظنون تبدو كلها محتملة على حد سواء عندما تخاطر بيالها . وكانت إليينور على اهتمامها بأمر كولونيل براندون لا تدعش كل الدهشة لسفره المفاجيء كما أرادت مسز جننجز منها ذلك ، لأنها رأت أن الأمر لا يستدعى هذه الدهشة الدائمة ولا هذه الظنون المختلفة ، بل كانت تدعش لأمر آخر ألا وهو الصمت الغريب الذى لا ذت به أختها هي وولجى إزاء هذا الموضوع مما يدل على أنهما يعرفان لا محالة أن الأمر يهمهما بصفة خاصة . ولما استمر هذا الصمت اتضح لما كل يوم أنه صمت أغرب وأعجب من أن يتفق مع طباعهما ولم تستطع إليينور أن تتصور لماذا لا يكشفانها هي وأماها بحقيقة ما حدث ، مما يدل عليه مسلك كل منهما تجاه الآخر .

وكانت إليينور تدرك بسهولة أنه ليس في وسعها إتمام الزواج في الحال ، لأنه لم يكن ثمة من الأسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن « وولجى » رجل ثرى وإن كان يعيش في سعة . وكان سيرجون يقدر إيراد ضيمته بما يقرب من ستمائة أو سبعمائة جنيه في العام ، ولكن نفقاته كانت تتجاوز دخله . وكان هو نفسه يشكو الفقر كثيراً ، ولكنها كانت تحار في تفسير ذلك السكتمان الغريب الذى أحاطا به خطبتهما ، وهو كتمان لم يخف في الحقيقة شيئاً على الإطلاق كما كان يتناقى مع آرائهما وتصرفاتهما إلى حد جعلها تشك أحياناً في أنهما مخطوبان بالفعل . وبلغ هذا الشك حدا جعلها تمتنع عن سؤال مريان في الأمر .

لم يكن ثمة ما هو أدل على حب « وولجى » لمن جميعاً من مسلكه . كان يظهر كل الحنان الذى يضر قلب الحب ، ويبدى لبقية أفراد الأسرة من الحب والاهتمام

ما يبديه الابن والأخ ، ويمعد منزلهن الربيعي ويحبه كمنزله ، ويقضى فيه من الساعات أكثر مما يقضى في ألينهام . وإذا لم يرتبطن بموعد عام في البارك ختم رياضته التي تستدعي الخروج في الصباح بزيارتهم حيث يقضى بقية اليوم مع مريان ، يرافقه كلب صيده المحبوب .

وظهر لهن في مساء يوم من الأيام ، بعد سفر كولونيل براندون بنحو أسبوع أنه يضر في قلبه كل حب لما يراه في المنزل ، فقد أعربت مسز داشوود عن إعزامها بإصلاح المنزل في الربيع ، فما كان منه إلا أن عارض بشدة في إجراء أى تغيير في البيت الذى زين له الحب أنه مثال السكال .

صاح قائلاً : « وى ! إصلاح المنزل المحبوب اكلا ! هذا أمر لا أوافق عليه أبداً ، لن يضاف حجر إلى جدرانها ، ولا قيد أنملة إلى حجمه ، إذا كفتن تحرصن على مراعاة شعورى » .

فقات مس داشوود « لا ترزع ! لن يحدث شيء من ذلك لأن والدتى ليس لديها من المال ما يكفي لذلك » .

فقال : « يسرنى كثيراً أن أسمع ذلك ، وأرجو أن تظل فقيرة إذا لم تستطع أن تنفق أموالها في خير من ذلك » .

« شكراً لك يا ولى . ثق أنى لن أضحي بمحبك لهذا المكان أو بحب أى شخص أحبه في سبيل أى نوع من الإصلاح . ثق أنه مهما توافر لى مبلغ من المال عندما أضفى حسابى في الربيع فسادخره دون أن أتفجع به ولا أتفقته في أمر يؤلمك ، ولكن حدثنى: أحب هذا للسكان حباً لا ترى معه فيه عيباً ؟ » .

فأجاب « نعم ، لا أرى فيه عيباً ، بل أكثر من ذلك أنى أراه للسكان الوحيد الذى ينم فيه المرء بالسعادة . ولو كان لدى قدر كافٍ من اللال لهدمت كومب من فورى ، وأعدت بناءه على نمط هذا البيت الريفى » .

فقال إينور : « أظنك ستبنيه بهذا الدرج الضيق المظلم ، والمطيخ الذى ينبعث منه الدخان » .

فصاح بنفس لهجته الحماسية « بكل شىء فيه - كما هو بعبوبه ومحاسنه دون أدنى تمييز ، وحينئذٍ وحينئذٍ فقط ، وتحت مثل هذا السقف ، أنم بالسعادة فى كومب كما نعمت بها فى بارتون » .

فقال إينور : « أعتقد أنك ستجد بيتك فى المستقبل مثال الكمال كما ترى بيتنا الآن ، حتى مع عيوبه التى تتمثل فى غرفه الواسعة ودرجه المريض » .
فقال ولي : « لا ريب أن هناك ظروفًا قد تحجب إلى بيتى . ولكنى سأظل أدين لهذا البيت بحب لا يشاركه فيه غيره » .

فنظرت مسز داش-وود بعين ملؤها السرور إلى مريان التى رمقت « ولي » بنظرات تعبر بوضوح عن فهمها لقصده .

واستطرد يقول : « كم وددت حينما كنت فى ألنهام فى مثل هذا الوقت من العام الماضى أن أرى بارتون كوتيج مسكونًا ! وما مرت به قط على مرأى منه إلا وأعجبت بموقفه ، وحزنت لخلوه من السكان . وقلنا خطر ببالي أن أول نبأ سألتقاه من مسز سميت حينما أعود إلى الريف أن بارتون كوتيج قد تم تأجيره ، فشمعت فى الحال بالارتياح لهذا الحادث والأهتمام به . ولا تعليق لذلك إلا إحساسى

السابق بالسعادة التي سوف ألقاها في هذا المكان . و همس في أذن مريان قائلة : « أما كان يجب أن يكون الأمر كذلك يا مريان ؟ » ثم احتطرد يقول بلهجته السابقة : « ومع ذلك فأنت تريدن إفساد هذا البيت يا مسز داشوود ، وتصرين على تجريدك من بساطته بالإصلاحات الخيالية ، وتصرين على تحويل هذه الردهة المزينة إلى مدخل عادى ، وهى الردهة التي تمارفنا فيها لأول مرة ، وقضينا فيها ساعات كثيرة منذ ذلك الحين ، وكلنا نتوق إلى أن نمر خلال الفرفة التي توافر فيها حتى الآن من وسائل الراحة والاستعداد لاستقبال الزائرين مالا يتوافر في أى غرفة في العالم بالغة من السعة ما بلغت . »

فأكدت له مسز داشوود من جديد ، أنها لن تقدم على إدخال أى تغيير في البيت .

فأجاب بجملة : « أنت امرأة طيبة . وهذا الوعد من شأنه أن يريح بالى . وإذا توسعت في هذا الوعد قليلا كنت سعيداً . لا أريد أن تعدينى لحسب أن يظل البيت كما هو بلا تغيير ، بل أريد أن تعدينى أيضاً أن تظلى أنت وبناتك على عهدى بكن ، وأن تشملينى دائماً بالعطف الذى حجب إلى كل شىء يمت لك بصلة . فوعده بن ذلك من فورها ، وكان مسلك « ولجى » طوال هذا المساء يبنى عما يكتنه بين جوانبه من الحب والسرور .

وبينا كان يودعهن قالت له مسز داشوود : « هل لك أن تناول معنا الغداء غدا . لا أكلفك الحضور في الصباح ، لأننا مرتبطات بالذهاب إلى البارك لزيارة ليدى ميدلتون . »

فوعده بزيارتهم في الساعة الرابعة .

الفصل الخامس عشر

زارت مسز داشوود ليدى ميدلتون فى الفند يراقبها اثنتان من بناتها ، واعتذرت مريان عن مراقبتهم بحجة واهية هى مشاغلها فى البيت ، وارتاحت أمها تمام الارتياح لبقائها فى المنزل لعلها أن « ولى » وعد أمس بزيارتهم فى أثناء غيابهم .

وعند عودتهم رأين عربة « ولى » وخادمه لدى الباب ، فاعتقدت مسز داشوود أنها أصابت فى ظنها . وكان كل شىء يجرى حتى الآن على نحو ما تتوقع ، ولكنها عندما دخلت المنزل شاهدت مالم تكن تتوقه قط ، فإنا وطئت أقدامهن الطرقة حتى أسرعت مريان بالخروج من الردهة تبتدو عليها أمارات الحزن الشديد وتمسح دموع عيניה بمنديلها ، ثم هرولت على الدرج دون أن تعبرهن التفاتاً ، فاستحوذ عليهن الفزع والدهش ، ودخلن من فورهن الحجره التى خرجت منها ، فوجدن فيها « ولى » جالساً وحده ، مستنداً إلى جوار المدفأة وظهره إليهن ، فاستدار عند دخولهن وعلى وجهه أمارات الانفعال الشديد الذى بدا على وجه مريان .

فصاحت مسز داشوود عندما دخلت : « ما بال مريان ؟ هل هى مريضة ؟ »

فأجاب وهو يتصنع البشاشة : « أرجو ألا تكون كذلك » ثم تكلف الابتسام وأردف : « إننى أنا الذى أتوقع أن أصاب بالمرض لأنى أعانى الآن خيبة أمل مره » .

« خيبة أمل ! » .

« نعم لأنى لا أستطيع الوفاء بما ارتبطت به معكن . فسر سميث أوصت فى هذا الصباح بما لبنت عم فقيرة ، وكلفتنى السفر إلى لندن للقيام ببعض الأعمال ، وتسلمت الآن الأوراق الرسمية الخاصة بذلك ، وغادرت ألنهام . وجئت الآن لأمرى عنكن وأقول لكن وداعاً » .

« إلى لندن ! وستسافر هذا الصباح ! »

« بل أكاد أسافر فى هذه اللحظة » .

« إنه لأمر مؤسف . ولكن مسز سميث لا بد أن تكون مضطرة ... وأرجو ألا تحجيك أعمالها عنا وقتاً طويلاً » .

فأجاب وقد اربد لونه : « هذا كرم بالغ منك ، ولكن لا أمل إطلاقاً فى العودة إلى ديفونشاير فى القريب العاجل ، فأنا لا أكره الزيارة لمسز سميث فى غضون العام » .

« ولعل مسز سميث هى صديقتك الوحيدة ؟ وهل ألنهام هو البيت الوحيد فى هذه الجهة الذى يستقبلك على الرحب والسمة ؟ يا لمار يا ولهى ! هل تنتظر دعوة منا ؟ »

فازداد لونه تنيراً ونكس رأسه إلى الأرض ، وما كان جوابه إلا أن قال :
« هذا فضل كبير منك » .

ونظرت مسز داشوود إلى إيلينور فى دهشة ، وكانت إيلينور لا تقل عنها

شعوراً بالدهشة . وخيم الصمت على الجميع بضع دقائق ، وكانت مسز داشوود أول من تكلم :

« كل ما أريد أن أضيفه يا عزيزي «ولي» أننا سنستقبلك دائماً في منزلنا على الرحب والسعة ، ولا أريد أن ألح عليك في أن تعود قريباً ، لأنك أنت الذي تستطيع أن تحكم إلى أي حد يرضى ذلك مسز سميث . وفي هذه القضية لا أرتاب في حكك أكثر مما أرتاب في رغبتك » .

فأجاب « ولي » وهو يحتلج اضطراباً : « إن مواعيدى في الوقت الحاضر من شأنها - أن - لا أعتقد . وأمسك عن الكلام ، وعقدت الدهشة لسان مسز داشوود عن الكلام ، ثم ساد الصمت لحظة ، وقطعه «ولي» ، فكلم وقد افتر ثغره عن ابتسامة خفيفة : « من الحقاقة أن أتلبث على هذا النحو . لا أريد أن أعذب نفسى بالبقاء أكثر من ذلك بين قوم يتعذر على بعد الآن أن أنعم بصحبتهم » .

فودعن جميعاً على عجل ، وبارح الحجره ، ورأينه يركب عربته ، ولم يلبث أن اختفى عن الأنظار .

وعقد الأسمى لسان مسز داشوود عن الكلام ، فنادت ازدهة في الحال ، ليستبد بها في الخلوة ، ما أثاره هذا السفر المفاجىء من قلق وفزع .

وكان ماشعرت به الينور عن قاق لا يقل عما خالج أمها ، وأخذت تفكر فيما حدث منذ قليل في شىء من القلق وسوء الظن ، وانزعجت كثيراً لمسلك «ولي» في توديعهن وارتباكه وتصنعه البشاشة . وبما زادها ازعاجاً عدم رغبتة في

قبول دعوة أمها مما لا يتفق مع طباع الحب ولا مع طباعه هو . وكانت تارة تخشى ألا يكون «ولبي» قد خالجه قط رغبة جديّة في الزواج من أخيها ، وتارة تخشى أن يكون قد شجر خلاف مؤسف بينه وبين أخيها ، ورأت أن أقرب الأشياء إلى العقل هو أن الحزن الذي بدا على مريان عند مفارقتها الحجرية يرجع إلى نشوب هذا الخلاف الخطير ، ولكنها رأت استحالة حدوث هذا الخلاف لما تعرفه من حب مريان له .

ولكن مهما تكن أسباب هذا الفراق فقد حزنت إليتور حزناً شديداً لا شك فيه ، وخالجتها أرق مشاعر العطف والحنان لما شعرت به مريان من بالغ الأسى . وأكبر الظن أن مريان استسلمت لهذا الأسى لا ليخفف من مصابها فصعب بل لأنها كانت ترى من الواجب أن تسترسل فيه .

وعادت أمها بعد نصف ساعة ولم تكن عابسة الوجه ولكن عينيها قد احمرتا من البكاء .

وقالت حين جلست : « إن عزيزنا ولبي الآن على بضع أميال من بارتون يا إليتور ، يحمل بين جنبيه قلباً مغمماً بالأسى » .

« إن الأمر كله يدعو إلي العجب . سفره المفاجيء على هذا النحو ! يبدو لي أنه ابن ساعته . لقد كان معنا في الليلة الماضية مغمم القلب بالنغبطة والبهجة والمحبة ! والآن وبعد إخطار لا يتجاوز عشر دقائق - يسافر حتى بدون أن يتنوى العودة ! - لا بد أن شيئاً أكثر مما اعترف به لنا قد حدث . إن حديثه وتصرفه معنا لا يتفقان مع ما نعرفه عنه . لا بد أنك لاحظت الفرق كما لاحظته . ماذا جرى

يا ترى ؟ هل تشاجر ؟ وإلا فما الداعي لإظهاره عدم الرغبة في قبول دعوتك ؟

« إن الرغبة لا تنقصه يا إيلنور . لقد بدت لي منه بوضوح ، ولكنه لا يملك القدرة على قبولها . أو كذلك أنني قلبت الأمر في ذهني ، وفي وسمى أن أعلل تماما لكل شيء . بدالك غريباً لأول وهلة كما بدالك . »

« أحقاً تستطيعين ذلك ؟ »

« نعم لقد فسرت الأمر في نفسي على نحو مقنع للغاية — ولكنك أنت يا إيلنور ، يا من تميلين إلى الشك حيث أمكنك — لن يشفي غليلك تفسيرى فيما أعلم . ولكنك لن تستطيعى أن تزعمى إيمانى بصحته أنا أعتقد أن مسز سميث يجالها الفن بأنه يجب مريان وهي تستنكر هذا الحب (ربما لأنها تريد له زوجة أخرى) ولهذا السبب نحرص على إبعاده عنها — والمهمة التي أرسلته من أجلها إلى لندن هي تعلقة تذرعت بها لإبعاده . هذا ما أعتقد أنه حدث . وهو يعلم — إلى ذلك — أنها لا توافق على هذا الزواج ، ولا يمرؤ في الوقت الراهن أن يعترف لها بخطبته لمريان ، ويشعر أنه مضطر — بسبب اعتماده عليها — إلى مسيرتها في أغراضها ، والتنبيه عن ديفونشاير بعض الوقت . أنا أعلم أنك ستقولين قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون ، ولكن لن أصنى لأية مفاطة أو مكابرة ما لم تفسرى لي الموقف بطريقة مقننة كطريقتي . والآن يا إيلنور هات ما عندك ! »

« لا شيء عندي لأنك قد سيقنتى إلى الجواب . »

« إذن كنت تريدان أن تقولى قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون . عجباً

لك يا إينور ! أنا لا أستطيع أن أفهم شعورك . أنت تميلين لإساءة الظن بالناس بدلا من حسن الظن بهم ، وتتلصين أسباب الشقاء لمريان ، والتجنى على وني ، بدلا من أن تلتصي له الأعذار ، وتصمين على القول بأنه موم لأنه أظهر في وداعنا من الحب أقل مما تعودناه منه . أما يجدر بنا أن نفتخر له بالسهو أو الحزن لما أصابه أخيراً من خيبة الأمل ! أيصح ألا نسلم بأى احتمال من الاحتمالات لا لسبب إلا لأنها أمور غير يقينية ! أما يجب علينا أن نرعى حق الرجل الذي يوجد لدينا جميعاً كثير من الأسباب التي تحملنا على حبه ، وليس ثمة ما يدعونا إلى إساءة الظن به ! ألا يحتمل أن تسكون لديه أسباب وجيهة في حد ذاتها ، وإن لم يجد مفرأ من كثامها فترة من الزمن ! وأخيراً أسألك : ماذا يريك منه ؟

« لا أستطيع أن أجيبك أنا نفسى — ولكن الظن بأن في الأمر شيئاً لا يبعث على الرضا هو نتيجة حتمية لمثل هذا التفسير الذي شاهدناه فيه . على أن ثمة كثيراً من الحق فيما ذكرت من الأعذار التي ينبغي التماسها له . وأنا أحب أن أكون صريحة في حكمى على كل إنسان . لا ريب أن ولبي قد يكون لديه ما يكفى من الأسباب لتبرير سلوكه ، ولكن كان الأجدر به أن يعترف بهذه الأسباب في الحال . قد يكون الكتمان مستحسناً ، ولكن لا يسعنى إلا أن أعجب حين يلجأ هو إلى الكتمان . »

« ومع ذلك فلا تلوميه على إتيانه أمراً يتناقى مع أخلاقه حيث توجب عليه الضرورة ذلك . ولكنى أراك تعترفين في الواقع بصحة الأعذار التي التمسها دفعا عنه ؟ إننى سعيدة بهذا الاعتراف ، لقد ظهرت براءته . »

« لم أعترف بصحتها كلها ! قد يكون من المناسب إخفاء خطبتهما (إذا

صح أنهما مخلوبان) عن مسز سميت — وإذا كان الأمر كذلك كان من مصلحة مستر ولي أن يحتجب عن ديفونشاير في الوقت الحاضر . ولكن ذلك لا ينهض عن ذراً لإخفائهما هذه الخطبة عنا .

« إخفائهما عنا ! أنتهمين يا بنتي العزيزة وولي ومريان بالإخفاء ؟ هذا غريب حقاً ، وأنت ترمقينهما كل يوم بعين التأنيب لما يبديان من عدم الحذر » .
فأجابت إليثور : « لا أريد دليلاً على حبهما ، ولكن على خطبتهما . أريد دليلاً » .

« إنني مقتنعة تماماً بوجود الأمرين كليهما » .

« ولكن أحداً لم يقل لك كلمة في هذا المعنى » .

« لست بحاجة إلى الكلام مادامت الأعمال تنطق بأفصح مقال . ألم يدل سلوكه نحو مريان ونحونا جميعاً خلال الأسبوعين الماضيين على الأقل ، على أنه يحبها ويعدها زوجته المستقبلية ، وأنه يحبنا بحبة ذوى الأرحام ؟ ألم يفهم بعضنا بعضاً حق الفهم ؟ ألم يطلب موافقتي كل يوم بنظراته وأحواله واحترامه الذي ينطوى على الحب والاهتمام ؟ عزيزتي إليثور ! أيجوز أن نشك في خطبتهما ؟ كيف يتبادر إلى ذهنك هذا الظن ؟ كيف تظنين أن ولي — على الرغم من تأكده من حب أختك له — يهجرها وربما يهجرها عدة شهور ، دون أن يفضى لها بحبه — وأن يفترقا دون أن يفضى أحدهما للآخر بسره ؟ »

فأجابت إليثور : « إنني أعترف أن جميع القرآن تؤيد خطبتهما ما عدا قرينة واحدة ، وهذه الواحدة هي صمتها اللطيق بشأن هذا الأمر ، وعندى أن هذه القرينة ترجح جميع القرآن الأخرى » .

« ياله من أمر غريب ! إنك تسيئين الظن كثيراً بولجى إذا كنت تشكين
— بعد كل الذى جرى بينهما صراحة — فى كفه العلاقة التى تربطهما أكان
ولجى يمثل دوراً فى سلوكه إزاء أختك طول هذه اللدة ؟ أتظنين أنه لا يبعياً
بها حقاً ؟ » .

« كلا ! لا أظن ذلك . من للتأكد أنه يحبها ، وأنه يحبها فعلاً . لا شك
عندى فى ذلك » .

« ولكنه حب من نوع غريب ، إذا صح أنه يهجرها غير آبه بها ،
ولا مكثرت بمسئلتها كما تقولين عنه » .

« يجب أن تتذكرى — يا والدتى العزيزة — أننى لم أجزم بذلك قط .
إننى أعترف أن الشكوك ساورتنى ، ولكنها تضاعفت أكثر مما كانت عليه .
وربما زال أثرها من نفسى عما قريب . وإذا انضح أنهما يتراسلان زالت كل
الخواوف من نفسى » .

« تساهل عظيم حقاً ! إذا أتيت لك أن تربهما عند اللذبح ، صدقت أنهما
سيتروجان . يالك من بنت غليظة القلب ! أما أنا فلا أحتاج لمثل هذا الدليل
لأننى لم أر شيئاً مما حدث ببرر الشك ، فلم يحاول أحدهما أن يلوذ بالكتمان . كل
شئ جرى بصراحة وبلا تحفظ على حد سواء . وليس فى وسعك أن تشكى فى
رغبة أختك . فلم يبق إلا ولجى الذى تشكين فى أمره . ولكن لماذا ؟ أليس
رجلاً ذا شرف وإحساس ؟ هل بدامنه من تغلب الأهواء ما يثير الفزع ؟ أيمكن
أن يكون رجلاً خداعاً ؟ »

فصاحت إليينور: « أرجو ألا يكون ، واعتقد أنه ليس كذلك . أنا أحب ولي وأحبه بإخلاص . والشك في نزاهة مقصده لا يمكن أن يؤلك أكثر مما يؤلنى . لقد خالجنى هذا الشك على كره منى ، ولن أسمح لنفسى بالتماذى فيه . وأعترف أننى ذعرت عندما لمست تغير أحواله هذا الصباح ، فلم يتكلم كعادته ولم يقابل عطفك وبرك بأى مظهر من مظاهر الود . ولكن ذلك كله يمكن تعليله بما ذكرت من دقة موقفه . لقد فارق أختى وراها تمانى لوعة الأسى لرفاقه وإذا كان قد شعر بأنه مضطر - خوفاً من إغضب مسز سميث - إلى كبح جماح رغبته فى العودة إلى هذا المكان قريباً ، ثم شعر أنه يرفضه لدعوتك وبقوله: إنه سيتفب إلى حين ، أنه يرتكب فى حق أمرتنا عملاً مريباً غير كريم ، كان من حقه أن يشعر بالحرج والاضطراب . وفى مثل هذه الحالة كان اعترافه الصريح بما يواجهه من مشاكل ومتاعب أجدر بشرفه - كما يكون أشبه بما نهده من أخلاقه - ولكنى لا أريد أن أعترض على مسلك أى إنسان على أساس غير كريم إلا وهو اختلافه معى فى رأى ، وانحرافه - فيما أعتقد - عن جادة الحق والنبات على اللبأ . »

« إنك تقولين قولاً سديداً . ومن للؤكد أنه لا يجدر بنا أن نرتاب فى أمر ولي . فهو ليس غريباً فى هذا الجزء من العالم ، وإن لم نعرفه من عهد بعيد ، ومن ذا الذى عاب فى حقه ؟ ولو أنه كان فى موقف يملك فيه حرية التصرف ولأعمال الزواج فى الحال لكان من الغريب أن يرذل عنادون أن يصارحنا من فوره بكل شىء ، ولكن الأمر بخلاف ذلك . نخطبها بدأت بداية غير موقفة من بعض الوجوه لأن الزواج لابد أن يتم فى موعد بعيد غير مؤكد . ويبدولى أن مراعاة الحكمان ما أمكن قد تكون الآن أمراً مستحسننا جداً . »

ودخات مرجريت فقطعت عليهما الحديث، وبذلك أتاحت الفرصة لإينور للتأمل بحرية في اعتراضات أمها، وتمترف باحتمال صحة الكثير منها، وترجو أن تسكون كلها عادلة .

ولم تظهر مريان إلى أن حان وقت الغداء، فدخلت الغرفة وجلست إلى اللائدة دون أن تنبس بيت شفة، وعيناها حراوان متورمتان، وكانت تجبس الدموع في مآقيها بصعوبة، وتنجنب النظر إليهن جميعا، ولم تأكل أو تسكام . وبعد برهة ضغطت أمها يدها في صمت، بشيء من الحنان والعطف، فأنهار ذلك القدر الضئيل من التجلد الذي أبدته، وأجهشت بالبكاء وغادرت الغرفة .

وظلت تشهر بلوعة الأسمى طول المساء، وخارت قواها لأنها فقدت كل رغبة في ضبط نفسها، وكانت لا تطيق أدنى إشارة إلى أى شيء يتصل بولبي، واستحال على أهلها - مع حرصهن البالغ على راحتها - أن يتحاشين - إذا تسكمن على الإطلاق أى موضوع يتصل به .

الفصل السادس عشر

لو أن سريان استطاعت أن تنام على الإطلاق في أول ليلة بعد فراق ولبي
لعدت ذلك ذنباً لا ينتفر ، ولو أنها لم تهب من فراشها أحوج إلى الراحة منها
حين أوت إليه نلجت أن تواجه أهلها في صباح اليوم التالي . ولكن العاطفة التي
جعلتها تمد مثل هذا الهدوء ضرباً من العار جعلتها لا تخشى التعرض له ، فقد سهرت
الليل كله ، وبكت فيه إلا أقله ، واستيقظت وهي تشعر بالصداع ، والمعجز عن
الشي ، والرغبة عن الطعام ، وتبث الألم في نفس أمها وأخواتها في كل لحظة ،
ولم تقبل منهن أى عزاء أو سلى . لقد كانت عاطفتها قوية جداً .

ولما انتهى طعام الفطور ، خرجت وحدها للنزهة ، وتجولت في قرية ألهمام
وهي تستغرق في ذكريات الأيام الماضية للمتعة ، وتبكي على محنتها الحاضرة معظم
ساعات الصباح .

وقضت مساء ذلك اليوم وهي تستعيد هذه الذكريات ، وعزفت كل أغنية
محبوبة كانت تعزفها لولبي ، ورددت كل لحن اشتركا معا في غنائه ، وجلست إلى
الآلة الموسيقية وهي تتأمل في كل سطر من سطور الأغاني التي كتبها لها إلى أن
اعتراها من الحزن ما لا مزيد عليه . وظلت تتجرع غصص الأحزان كل يوم ،
وتقضى الساعات الطوال أمام البيان بين الغناء والبكاء حتى تخنقها العبرات .
وكانت تشعر بلوعة الأمل عند القراءة ، كما تشعر بها عند الغناء ، وذلك إذا
قارنت بين حالها في الماضي وحالها في الحاضر ، ولم تقرأ شيئاً إلا ما كانت
تقرؤه معه .

والواقع أنها لم تستطع أن تتجرع غصص الآلام إلى الأبد ، فقد استحوطت هذه الآلام في خلال أيام إلى ضرب من السكابة التي تقترن بالهدوء . ولكن الأعمال التي كانت تمارسها كل يوم ، وضروب النزهة التي تقوم بها منفردة ، والتأملات الصامتة التي تستغرق فيها - كل ذلك كان يذكي لميب الأسمى في فؤادها .

ولم يرد خطاب من ولبي ، ولم تتوقع مريان - فيما يبدو - أن تتلقى منه خطابا ، ودهشت لذلك أمها ، وعادت إلى نورها فساورها القلق . ولكن مسز داشوود كانت تتلس المعاذير ، كلما أرادت ، ونجد فيها ما يشفي غليلها على الأقل .

قالت « تذكري يا إلى نور كم مرة يأتينا سيرجون بالخطابات من البريد ويحملها إليه . لقد اتفقنا على أن السكتان قد يكون ضروريا ، ويجب علينا أن نعرف أنه لا يمكن استمرار هذا السكتان إذا وقعت خطبا لهما في يدي سيرجون » .

ولم يسع إلى نور أن تنكر هذه الحقيقة ، ورأت في ذلك باعنا قويا على التزام الصمت . ولكنها كانت ترى وسيلة مباشرة وبسيطة - وفي رأيها أنها خير وسيلة - للوقوف على حقيقة الأمر ، وإزالة ما يكتنفه من الغموض على الفور ، ولم يسعها إلا أن تقترح هذه الوسيلة على أمها .

قالت : « لم لانسألين مريان حالا أخطوبه بقهي لولبي أم غير مخطوبة؟ والسؤال منك أنت الأم الحنون الموم لا يمكن أن يثير غضبها ، بل تراه نتيجة طبيعية لحببتك لها . ومريان لا تعرف التحفظ والتكتم وبخاصة معك » .

« لا يمكن أن أسألك هذا السؤال بأى حال من الأحوال هي أنهما غير مخطوبين
ألا يسبب لها هذا السؤال أشد الألم ؟ وعلى كل حال فإنه يكون خاليا من الشهامة
ولا أكون جديرة بثقتها مرة أخرى إذا انتزعت منها اعترافا بأمر يراد أن يبقى
في طي السكتان في الوقت الراهن . إنني أعرف شعور مريان : أعرف أنها تحبني
حبا جما ، وأنتى لن أكون آخر من يعلم بالأمر حينما تجمل الظروف إظهاره أمرا
مستحسنا . ولا أود أن أنتزع سرأى إنسان فضلا عن ابنتى لأن الشعور بالواجب
قد يمنعهما من إنكار ما تريد هي إنكاره . »

وكانت إليفور ترى هذه الشهامة أمر متكلفا ، بالنظر إلى حداثة أختها ، وألحت
على أمها في الأمر مرة أخرى ولكن عبثا ، وتلاشى العقل والحذر والحكمة
أمام العواطف الرقيقة الخيالية التي تتصف بها أمها .

ومرت عدة أيام دون أن يرد اسم ولوى أمام مريان على لسان أحد من أهلها ،
أما سيرجون ومسز جنتيجز فلم يبديا مثل هذا التحفظ ، فزادتا نكاتها ألما على ألم
وفي مساء يوم من الأيام تناولت مسز داشوود عرضا أحسد كتب شكبير
وصاحت :

« إننا لم نتم قط قراءة هملت يا مريان . لقد سافر عزيزى ولوى قبل أن نفرع
منها . سندعها جانبا حتى إذا عاد . ولكن قد تمضى شهور قبل تلك العودة . »

فصاحت مريان فى دهشة شديدة « شهور ! كلا - ولا أسابيع كثيرة . »

وتأسفت مسز داشوود على ما قالت ولكن إليفور سرت بما قالت لأنه
انتزع من مريان جوابا يعبر عن قفتها بولوى ومعرفتها بنواياه .

وفي صباح يوم وبعد حوالي أسبوع من مفادته الريف قبلت مريان أن تشارك
أخواتها في نزهتهن المعتادة بدلا من أن تتجول وحدها. وكانت تأبى حتى ذلك
الوقت أن تصحب أحدا في جولاتها ، فإذا أراد أخواتها أن يتنزهن في المروج
تسلت منهن ، ومضت لاتلوي على شيء نحو الدروب التي تتخلل الحقول . وإذا
تحدثن عن النزهة في الوادي أسرعت بالتعلق على التلال ، ولم يعثرن لها على أثر .
ولكن إليانور في جولاتها عثرت عليها أخيرا وكانت تمقت هذه العزلة المستمرة .
فسرن في الطريق الذي يتخلل الوادي والصمت يغلب عليهن ، لأنه لم يكن في
وسع مريان أن تضبط نفسها . واكتفت إليانور بهذه الخطوة ولم تطلب إلى أختها
شيئا آخر . وكان يمتد أمامهن طريق طويل هو الذي سرن فيه عند قد ومنهن
إلى بارتون أول مرة ، وذلك وراء مدخل الوادي الذي كانت فيه الأرض على
خصوبتها قليلة الزرع ، عارية من الغابات والأشجار . وعندما وصلن إلى هذا
المكان توقفن عن السير لينظرن حولهن ويتأملن في منظر يمتد على طول المسافة
التي يقع عليها بصرهن من منزلهن ، وذلك من نقطة لم يحدث أن وصلن إليها
في أية جولة من جولاتهن السابقة .

وسرعان ماشاهدن - فيما شاهدنه من الأشياء - شجعا ينبض بالحياة ، وكان
هذا الشبح يمتطي صهوة جواد ويتجه نحوهن ، وبعد دقائق معدودات استظمن
أن يتبين أنه رجل ، وماهى إلا أن صاحت مريان وقد استظمرت فرحا .
إنه هو حقا - أنا أعرف أنه هو ! - وسارعت إلى لقائه ، وإذا بإليانور
تصيح بها :

« أظن يا مريان أنك مخطئة في واقع الأمر . ليس بولوي ، فهذا الشخص

ليس فارع التوام مثله ، وليست له هيئته .

فصاحت مريان « له هيئته ، له هيئته . أنا واثقة من ذلك . هيئته وسمرته وجواده . كنت أعلم أنه سيأتي قريباً . »

وهروات مسرعة وهي تتكلم ؛ وأرادت إلبينور أن تمنعها من استقصاء أمره لأنها كانت توقن أنه ليس بولبي ، فأسرعت خطاها ولحقت بها ، وأصبحتا على بعد ثلاثين ياردة من الرجل ، وأعدت مريان النظر كَقَطِّطٍ في يدها .

استدارت من فورها وعادت مسرعة ، وإذا صاحت بها أختها أن تتوقف عن المسير ، صاح بها شخص ثالث يكاد يكون معروفًا لها كولبي ، متوسلاً إليها أن تتوقف ، فالتفتت مشدوهة وإذا بها ترى إدوارد فيرارز وترحب به .

وكان هو الشخص الوحيد في العالم الذي تستطيع أن تغفو عنه لأنه ليس ولبي ، الشخص الوحيد الذي كان يمكن أن يظفر منها بابتسامة . ولكنها مسحت دموعها لتبتسم له ، ونسيت - إلى حين - في فرحة أختها ، ما شعرت به هي من خيبة الأمل .

وترجل عن جواده ، ووسله إلى خادمه ، وسار معهن عائداً إلى منزلهن الذي قدم إليه لزيارتهم فاستقبلنه جميعاً استقبالا ينم على صادق الود ، وبخاصة مريان التي احتفت بمقدمه أكثر من إلبينور نفسها ، ولاحظت مريان أن لقاء إدوارد وأختها لم يكن الا استمراراً للفتور الذي لا تدري له سبباً والذي لاحظته في نورلاند كثيراً في مسلك كل منهما تجاه الآخر ، ولم يكن في حديث

إدوارد - بالذات - ونظراته شيء مما ينبغي أن يظفره الحب في هذه المناسبة .
كان مرتبكا لا تبدو عليه مظاهر السرور بلقائهن ، فلا هو غلبت عليه نشوة
الفرح ، ولا هو بدت عليه خفة الريح ، ولا تكلم إلا بما انتزعته منه بأسئلتهن ،
ولم يختص إلي نور بشيء من مظاهر الحب . ونظرت مريان وأصفت إليه وهي في
دهشة زائدة حتى لقد كادت تشعر نحوه بشيء من الكراهية ، وانتهى بها الأمر
كما ينتهى كل شعور يخالجها ، بالتفكير في ولى الذى تختلف أخلاقه اختلافا
بيننا عن هذا الذى يراد أن يكون زوجها لأختها .

وبعد فترة صمت وجيزة أعقبت دهشة اللقاء وأسائه ، سألت مريان إدوارد
هل قدم من لندن مباشرة . فأجاب بالنفي وقال : إنه مضى عليه أسبوعان
في ديفونشاير .

فرددت « أسبوعان ! » وقد اعترتها الدهشة لبقائه هذه المدة الطويلة في
البلد نفسه الذى تقيم فيه إلي نور دون أن يراها .
وظهر عليه بعض الألم حينما أضاف أنه كان ينزل عند بعض الأصدقاء
بالقرب من بليموث .

قالت إلي نور : « هل ذهبت إلى سكس أخيراً ؟ »

« كنت في نورلاند منذ حوالى شهر » .

فصاحت مريان : « وكيف حال نورلاند العزيزة ؟ »

قالت إلي نور : « لعل حال نورلاند العزيزة المحبوبة كحالها دائماً في مثل هذا

الوقت من السنة - الغابات والراعى تكسوها الأوراق الدابلة » .

فصاحت مريان: « لشد ما كان يستخفى الطرب حينما أرى هذه الأوراق
وهي تتساقط! كم كان سرورى عندما تذروها الرياح حولى أثناء زهقى ،
وكأنها وابل من المطر . وما أرق المشاعر التى يثيرها فى النفس عبير الهواء
والطقس . لا أحد الآن يتم برؤيتها ، بل هى قذى يميطة الإنسان عن الطريق ،
ويقذفه بعيداً عن الأنظار » .

قالت إينور « ما كل إنسان يشعر بما تشعرين به من عاطفة نحو الأوراق
الذابلة » .

« كلا ! كثير من الناس لا يشاركوننى عواطفى ولا يفهمونها . ولكن
بعضهم يشاركنى إياها ويفهمها » وعندما قالت ذلك سبحت فى طوفان من
أحلام اليقظة برهة من الزمن ، ثم أفاقت وقالت لإدوارد وهى تلتفت نظره إلى
منظر الوادى: « تأمل هنا وادى بارتون يا إدوارد . انظر إليه وانم براحة البال
ما استطعت . انظر إلى هذه التلال ! هل رأيت لها مثيلاً ؟ إلى يسارك قصر
بارتون بارك بين الغابات وللزراع ، تستطيع أن ترى طرفاً منه . وهناك منزلنا
الريفى أسفل ذلك التل البعيد الذى يشمخ بأفقه » .

فأجاب: « إنه إقليم جميل ، ولكن من المؤكد أن تتلوث هذه الأغوار فى
الشتاء بالأقذار » .

« كيف تفكر فى الأقذار مع هذه المناظر الجميلة التى تبدو أمامك ؟
فأجاب مبتسماً : « لأنى أرى بين بقية الأشياء التى تبدو أمامى درباً
قدراً جداً » .

فقالت مريان فى نفسها ، وهى تواصل السير: « ياله من أمر غريب ! »

« هل جيرانكم قوم صالحون ! وهل آل ميدلتون قوم طيبون ! »
فأجابت مريان : « كلا ! ليسوا كذلك إطلاقاً . وليس ثمة مكان أسوأ مما
نحن فيه » .

فصاحت أختها قاتلة : « كيف تظلمين القوم إلى هذا الحد ؟ إن آل ميدلتون
قوم جديرون بالاحترام يا مستر فيرارز ، قد عاملونا ماملة تنطوى على أصدق
الود . هل نسيت يا مريان كم قضينا معهم من أيام عذاب ! »
فقالت مريان في صوت خافت : « كلا ! ولم أنس كم قضينا معهم من لحظات
عذاب » .

ولم تمر إليتنور هذا القول التفاتاً ، ووجهت نظرها إلى الزائر ، وحاولت أن
تستدرجه إلى الحديث ، فحدثته عن مسكنها الحالي ومزاياء النخ ، وبذلك انتزعت
منه بعض الأسئلة العارضة ، والملاحظات العابرة . وتأملت كثيراً لبروده وتحفظه
إلى درجة أوغرت صدرها ، وأثارت حفيظتها ، ولسكنها آثرت أن تعامله بما
ينبغي أن يعامل به أولو القربى والأرحام .

الفصل السابع عشر

لم تدم دهشة مسز داشوود لرؤيته إلا لحظة واحدة ، لأنها كانت ترى أن قدومه إلى بارتون أمر طبيعى للغاية ، وتلاشت دهشتها فى نشوة الفرح وعبارات الحب الذى غمر قلبها ، ورحبت بمقدمه أجمل ترحيب ، فتلاشى حياؤه وفتوره وتحفظه أمام هذه الحفاوة . وكانت هذه الخصال قد بدأت تزايده قبل أن يدخل للنزل، ولكنها تلاشت تماماً أمام شمائل مسز داشوود التى تأخذ بالألباب . والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يحب إحدى ابنتيه دون أن يشمها بهذا الحب أيضاً ، وسرت إليور حين رأته يعود إلى حالته الطبيعية ، وبدأ أن حبه لمن جميعاً قد زاد قوة كما أن اهتمامه بأمرهن عاد فأصبح واضحاً . ولكنه كان كاسف البال فقد امتدح البيت وأعجب بمنظره ، وأظهر اهتمامه بأمرهن وعطفه عليهن، ولكنه ظل كاسف البال كذلك ، وفطن جميع أفراد الأسرة إلى ذلك ، ورأت مسز داشوود أنه يرجع إلى تقدير أمه عليه ، وجلست إلى المائدة وهى تنغم على جميع الآباء الذين يتصفون بالأناية .

ولما انتهى الطعام والتفنن حول المدفأة سألته : « ماذا تريد لك مسز فيرارز فى الوقت الحاضر يا إدوارد؟ ألا تزال تريد أن تكون خطيباً رغم أنك ! »
« كلا! أرجو أن تكون أُمى قد اقتنمت الآن أنه ليس لدى من اللوهاب إلا الليل للحياة العامة » .

« ولكن كيف تنهيا لك الشهرة؟ لأنك لكى ترضى أهلِكَ لا بد أن تكون رجلاً مشهوراً . ومع عدم الرغبة فى الإنفاق ، وعدم الحب للغرباء ،

فقلت إليزور وهي تبسم : « لا يمكن أن تتفق في الرأي . فالكفاف الذي تقصدينه ، والغنى الذي أقصده ، يكادان يتشابهان فيما أعتقد . وبدونهما — كما هو الشاهد الآن — يتعذر على الإنسان أن ينعم بأى ضرب من ضروب الرفاهية الخارجية . وكل ما في الأمر أن أفكارك أسمى من أفكارى . والآن حدثيني ما هو الكفاف في عرفك ؟ » .

« حوالى ألف وثمانمائة أو ألفى جنيه في العام ، لا أكثر من ذلك »

« فضحكت إليزور « ألفان في العام ! إن ألفا واحدا هو الغنى في نظرى . لقد حدثت ما تريد أن تقولى » .

فقلت مريلان : « ومع ذلك ، أرى أن ألفى جنيه في العام هو دخل معتدل جداً . وأى أسرة لا يمكن أن تعيش بدخل أقل . وأنا أعتقد أنني لا أسرف في طلباتي . فالأسرة التي تشتمل على عدد من الخدم ولها عربة أو عربتان ، وصيدون لا يمكن أن تعيش بدخل أقل من ذلك » .

فضحكت إليزور مرة أخرى عندما سمعت أنها تصف بدقة نفقاتها المستقبلية في كومب ماجنا .

وردد إدوارد : « صيادون ! ولكن لماذا يكون عندك صيادون ؟ فكل إنسان لا يصطاد . »

فتغير لون مريلان وقالت : « ولكن معظم الناس يصطادون . »
وخطرت لمرجريت فكرة جديدة فقالت : « أتمنى أن ترزق كل منا برجل يعطها ثروة طائلة ! »

فقات مريان : « ليت لنا ذلك ! » و برقت عينها بالسرور ، وتوردت
وجنتها حين استخفها الطرب لهذه السعادة الخيالية . »

وقالت إينور : « أظن أنك جميعاً مجتمعات على هذه الأمنية على الرغم من
عدم كفاية الثروة . »

وصاحت مريان : « وى عزيزتى ! كم أكون سعيدة ! إننى لأأدرى ماذا
أفعل بها ! »

وكانت نظرات مريان تدل على أنها لا تشك فى هذا الأمر .

وقالت مسز داشوود : « إننى سأحار فى إنفاق ثروتى الطائلة إذا رزقت بناتى
بالغنى دون مساعدتى . »

فردت إينور قائلة : « يجب عليك أن تشرعى فى إصلاح البيت ، وحينئذ
ننجدى أية صعوبة فى إنفاقها . »

وقال إدوارد : « وما أعظم الطلبات التى سئها من هذه الأسرة على لندن
فى هذه الحالة . ياله من يوم سعيد لبائى الكتب والمعازف والأدوات للموسيقية
وأصحاب المطابع ! فأنت يامس داشوود ستمنحين عمولة عامة لكل من يوافيك
بشركات المطابع . وأما مريان - وأنا أعرف علو همتها - فإن جميع الآلات
للموسيقية فى لندن لن تكفى لإشباع همتها . والكتب ! - طمسون ، وكوبر ،
وسكوت - ستشترها هى جميعاً بدل للرة مرات ؛ ستشترى كل نسخة منها
- فيما أعتقد - حتى لا تقع فى يد من لا يستحقها . وستشترى كل كتاب يحدثها عن
الأشجار العتيقة المكتوبة . أليس كذلك يامريان ؟ استميجحك فعوا إذا أنا تطاولت
عليك ! ولكنى أردت أن أبين لك أننى لم أنس خلافاتنا القديمة . »

« إننى أحب يا إدوارد من يذكرنى بالماضى سواء أكان يثير الحزن أم الفرح . أحب أن أذكره - ولن أغضب منك إذا أنت حدثتني عن الأيام الخالية . لقد أصبت فيما ذكرت عن الوجوه التى أنفق فيها مالى - أو بعضه على الأقل - لاشك أننى سأنفق مصروفاتى الثرية فى زيادة ما أقتنيه من الكتب والأدوات الموسيقية . »

« وأما جملة ثروتك فستجملين منها معاشات سنوية للمؤلفين أو ورتتهم . »

« كلا يا إدوارد ، سأنقها فى شىء آخر . »

« إذن ربما جعلت منها جائزة تمنح لمن يكتب أحسن مقال فى الدفاع عن حكمتك المحبوبة ، وهى أن الإنسان لا يمكن أن يحب أكثر من مرة واحدة فى حياته - لأننى أظن أن رأيك فى هذا الموضوع لم يطرأ عليه تغيير »

« بلا شك . وأنا لم أغير آرائى طول حياتى . ولا يحتمل أن أرى أو أسمع

الآن شيئاً يحملى على تغيير آرائى . »

وقالت إليانور: « أنت ترى أن سرها نائمة على رأبها كما كانت ، لم يطرأ عليها

أى تغيير . »

« لسكنى أرى أنها أصبحت أميل إلى الرزاة قليلا »

فقالت مريان: « نعم يا إدوارد ! لا حاجة بك لأن تؤنبى ، فأنت نفسك

لست كثير المرح »

فأجاب وهو يقنهد: « لماذا ترين ذلك ؟ إن للرح لم يكن قط من شأنى . »

وقالت إليانور: « ولا هو من شأن مريان فيما أظن . إننى لا أسميها فتاة مرحة

فهى تميل إلى الجذ والحاسة فيما تصنع ، تتحدث كثيراً فى بعض الأحيان ،
ولسكنها لا تميل إلى الروح فى أغلب الأحيان . »
فأجاب : « أعتقد أنك على حق . ومع ذلك فقد كنت أعدها دائماً فتاة مرحة »

وقالت إليفور « لقد تبين لى كثيراً أننى وقعت فى مثل هذا الخطأ ، فأسأت
فهم أخلاق غيرى على نحو ما ، فتصورت أن بعض الناس أكثر مرحاً أو زناة
أو أنهم أكثر ذكاء أو غباء منهم فى واقع الأمر . ولا أدرى سبباً أو مصدرأ
لهذا الخطأ . أحياناً يتأثر الإنسان بما يقوله الناس عن أنفسهم ، وغالباً بما يقوله
الغير عنهم ، دون أن يترث فى الحكم . »

فقالت مريان : « ولسكنى كنت أظن أنه من الصواب أن يستأنس الإنسان
بآراء غيره فى كل شىء ، وأن آراء الإنسان يجب أن تخضع دائماً لآراء جيرانه ،
وقد كلن هذا مبدأك دائماً فيما أعتقد . »

« كلا يامريان ! لم يكن هذا مبدئى قط . لم يهدف مبدئى قط إلى خضوع
العقل . وكل ما حاولت التأثير فيه هو السلوك . يجب ألا يلتبس عليك فهم مرادى ،
إننى أعتزف بأنى رغبت إليك أكثر من مرة فى أن تراعى شعور معارفك بوجه
عام أكثر مما تفعلين ، ولسكن متى نصحتك أن تتأثرى بهواطفهم ، أو تنزلى
على حكمهم فى خطير الأمور . ؟ »

وقال إدوارد لإليفور : « كأنك لم تستطعى أن تحملى أحتك على اتبإع
خطتك فى مجاملة الناس . ألم تنجى فى هذا السبيل ؟ »
فأجابت قائلة « على عكس ذلك تماماً » وهى تنظر إلى مريان نظرة معبرة .

فرد قائلا « إن رأيت أشبه برأيك ، ولكن معاملتي للناس أشبه بمعاملة أختك . وأنا لا أميل أبدا لجرح شعور الناس . ولكن شدة خبلي للقرون بالغباء تجعلني أبدو قليل الاكتراث بهم ، في حين أن المرحج الذي أشعره عادة في حضورهم هو الذي يمتنع من الترحيب بهم عند لقاءهم . وطالما خطر لي أنني فطرتُ على الليل لصحبة أهل المحدث الوضع لأنني أشعر بالمرحج مع الغرياء أهل المحدث الرقيق »
فقال إلي نور : « ليس لمريان من الخجل والحياء ما ينهض عذرا لعدم اهتمامها بالناس . »

فأجاب إدوارد : « إنها تغالي بنفسها بحيث لا حاجة بها لتصنع الخجل . والخجل ليس إلا نتيجة الشعور بالنقص في ناحية من النواحي . ولو أنني اعتقدت أني بلغت الكمال في لطف الشئائل ودماثة الأخلاق لما شعرت بالخجل . »

فقال مريان : « ولكنك ستظل مع ذلك متحفظا ، وهذا أسوأ من الخجل »

فحدق فيها النظر وقال : « متحفظ ؟ أم متحفظ أنا يا مريان ؟ »

« نعم ، جداً . »

فتغير لونه وأجاب : « لست أفقه ما تقولين . متحفظ ! كيف ؟ وعلى أي

وجه ؟ ماذا أقول لك ؟ وماذا تظنين ؟ »

فارتسمت علامات الدهشة على وجه إلي نور لانفعاله ، ولكنها حاولت أن تصرف الموضوع بالضحك ، فقالت له : « ألا تعرف أختي جيدا حتى تفهم قصدها ؟ ألا تعلم أنها تهتم بالتحفظ كل من لا يحاكيها في سرعة حديثها ، ولا يبدي إعجابها الشديد بما تعجب هي به ؟ »

فلم يحجر إدوارد جوابا ، وارتسمت على وجهه علامات الجذ والتفكير بأجلى

مظاهرها - وجلس بمض الوقت وهو صامت كتيب .

الفصل الثامن عشر

نظرت إينور بعين القلق الشديد إلى ما بدا على صديقها من السكابة والانتباض ، ولم تبتع زيارته في نفسها إلا قليلاً من السرور و بدا أنه هو أيضاً لم يسر كثيراً بهذه الزيارة ، فقد كان لا يخفى شعوره بعدم السعادة ، وكانت تود لو أنه لم يخف أيضاً شعوره بالحب الذي لم تشك أنه خامره فيما مضى . ولكن الشك ساورها في استمرار هذا الحب حتى ذلك الوقت . وكان ما يديه إزامها من التحفظ تارة ، يناقض ما يديه من الانبساط تارة أخرى .

وانضم إليها هي ومريان في غرفة الفطور في صباح الغد قبل أن تنزل الأخرين وكانت مريان تحرص دائماً على تهيئة أسباب السعادة لها بقدر المستطاع ، فخرجت من الغرفة ليجلسا على انفراد . ولكن ما إن صعدت إلى منتصف الدرج حتى سمعت باب الردهة وهو يفتح ، فاستدارت ، ودهشت حين رأت إدوارد يخرج منها .

قال : « إني ذاهب إلى القرية لأنفق جياذى لأنك لم تستمدي بعد لتناول الفطور ، وسأعود بعد قليل » .

وعاد إدوارد إليهن ، وهو يبدي مزيداً من الإعجاب بالبيئة التي تحيط بهن ، إذ استطاع في أثناء ذهابه إلى القرية أن يشاهد كثيراً من أنحاء الوادى بوضوح وكان موقع القرية ذاتها أكثر ارتفاعاً من موقع المنزل ، فأمكن له أن يلقى نظرة عامة على جميع أنحاء الوادى وما يشتمل عليه ، فازداد إعجاباً بما رآه . وأثار هذا الموضوع اهتمام مريان ، فأخذت تبدي له إعجابها بهذه المناظر ، وتوجه إليه أسئلة دقيقة عن المناظر التي استرعت نظره بصفة خاصة ، فقاطعها إدوارد بقوله :

«لانسأليني كثيراً ياسريان - تذكرى أنه لآخرية لى بوصف المناظر الرائعة، وأخشى أن يسوؤك جهلى، وافتقارى إلى التوق السليم إذا دخلنا فى التفاصيل، فقد أصف التلال بأنها منحدره حيث ينبغى أن توصف بأنها قائمة، وأصف السطوح بأنها غريبة خشنة حيث ينبغى أن توصف بأنها وعرة غير منتظمة. وأصف الأشياء البعيدة بأنها محتجبة عن الأنظار حيث ينبغى القول بأنها غير واضحة لوجود غلالة رقيقة من الضباب تشوب الجو. وعليك أن تقضى بالوصف الذى أستطيع أن أذكره بصدق وأمانة. إننى أقول: إنه إقليم رائع الجمال - التلال شديدة الانحدار والأدغال مليئة بالأشجار ذات الخشب الجليل، والوادي يبدو رحب الجناب، أنيق المنظر، بمراعيه الوافرة، ومنازل الملاحين للنبتة هنا وهناك. وهذا الإقليم يتفق مع رأى عن البلاد الجميلة لأنه يجمع بين الجمال والفائدة - وفى وسعى أن أقول: إنه إقليم رائع المنظر أيضاً لأنك معجبة به. وأعتقد أنه ملء بالصخور والرموس والطحالب الشهباء والحسك، ولكن هذه الأشياء لاسترعى نظرى لأنه لآخرية لى بالمناظر الرائعة.

قالت مريان: «أخشى أن أقول إنك تبالغ فى وصفك. ولكن حدثنى لماذا

تعجب بهذا الإقليم؟»

قالت إنينور «أظن إدوارد أراد أن يتحاشى نوعاً من التكلف والتصنع، فوقع فى نوع آخر، فهو يمتقد أن كثيراً من الناس يدعون من الأعجاب بمفان الطبيعة أكثر مما يشعرون به فعلاً، وهو يمتت مثل هذا الادعاء ولذلك يتصنع عدم اللبالة بهذه المفان ويدعى عدم التمييز بينها أكثر مما يشعر به فعلاً. إنه أراد أن يتحرج من التكلف فوقه فيه.»

قالت مريان : « لاشك أن الإعجاب بالمنظر الطبيعية الخلوية قد أصبح ضرباً من اللغو ، فكل إنسان يدعى أنه يعجب بهذه المناظر ، ويحاول أن يصفها بالذوق السليم والأسلوب البليغ الذي وصفها به من عرف الجمال الرائع أول مرة . إننى أكره اللغو من أى نوع كان . ولذلك ترى أحياناً أكرم مشاعرى فى نفسى لأننى لأجد من الألفاظ ما أستطيع وصفها به ، إلا ما كان بالياً مبتذلاً خالياً من أى معنى على الإطلاق » .

وقال إدوارد : « أعترف أنك تشعرين فعلاً بكل ماتقولين إنك تشعرين به من متعة عند مشاهدة أى منظر جميل ، ولكن أرجو فى نظير هذا الاعتراف أن تسلمى أختك بأنى لا أشعر بأكثر مما أقول . إننى أحب للنظر الجميل لأنه منظر رائع يستحق التصوير ، فأنا لا أحب الأشجار الموجهة للتوتية الذابلة ، ولكن أعجب بها أكثر إذا كانت باسقة مستقيمة زاهرة . ولا أحب نبات القريض أو الحسك والموسج أو أزهار الخلنج ولكنى أجد من للمتعة فى مشاهدة بيت أنيق من بيوت الفلاحين أكثر مما أجد فى مشاهدة برج من أبراج المراقبة ، وأسر برؤية طائفة من أهل الريف الذين تبدو عليهم مظاهر السعادة والنظافة أكثر مما أسر برؤية أجمل قطاع الطرق فى العالم . »

ونظرت مريان إلى إدوارد بعين الدهشة ، وإلى أختها بين العطف والإشفاق أما إلتور فلم يسمعها إلا أن تضحك .

وأقبل باب الحديث فى هذا الموضوع ، واستقرت مريان فى الصمت والتفكير ، وإذا بموضوع جديد يثير اهتمامها ، وذلك أنها كانت تجلس بجانب

إدوارد فديده أمامها مباشرة لتناول الشاي من مسز داشوود، فرأت في إحدى أصابعه خاتماً في وسطه جديدة من شعر .

فصاحت : « لم أر يا إدوارد خاتماً في إصبعك من قبل . هل هذا شعر فاني ؟
إني أذكر أنها وعدت أن تعطيك بعض شعرها ، ولكني كنت أظن أن شعرها
أفحم من ذلك . »

وكانت مريان تعبر عما تشعر به دون روية أو تدبير ، ولكنها حين أحست
أن كلامها آلم إدوارد خالجاها من السكر لما أبدته من العليش مثل ما خالجه ،
وتورد وجهه بحمرة الخجل ، ونظر نظرة خاطفة إلى إليينور ثم أجاب : « نعم ! إنه
شعر أختي ، وأنت تعرفين أن ترصيع الخاتم يفضي عليه دائماً لوناً مختلفاً . »

والتقت عين إليينور بعينه ، وبدا عليها الاهتمام أيضاً إذ تبينت على الفور
أن الشعر هو شعرها هي كما تبينت مريان ، ولكن الفرق الوحيد بينهما في الاعتقاد
هو أن ما حسبت مريان هدية خالصة من أخته رأت إليينور أنه شعرها حصل
عليه بطريق السرقة أو بأية حيلة أخرى لا تعرفها ، على أنها لم تشأ أن تنظر إلى
الأمر على أنه إهانة لها ، فظاهرت بعدم الاكتراث وخاضت في حديث آخر ،
وصممت في قرارة نفسها أن تنتهز بعد ذلك كل فرصة لمباينة الشعر والتأكد بما
لا يدع مجالاً للشك من أن لونه هو لونها تماماً .

وارتبك إدوارد بعض الوقت ، وانتهى هذا الارتباك بشرود ذهنه فترة
أطول ، وبدا سامم الوجه طول الصباح ولامت مريان نفسها على ما قالته لوماً
شديداً ، ولو أنها علمت أن أختها لم تشعر بالاستياء لما قالته لا اعتبرت لنفسها
هذه الزلة .

وقدم سيرجون ومسز جنجنز قبل الظهيرة لزيارتهم ، وكانا قد سمعا عن مقدم رجل إلى المنزل الريفى ، فأرادا أن يلقيا نظرة على هذا الضيف . وما لبث سيرجون أن تبين بمساعدة حماته أن اسم فيرارز يبدأ بحرف « ف » وكان هذا بهيئة مادة غزيرة للتندر على الينور المحبوبة ، ولولا أنهما كانا حديثى عهد بمعرفة إحوارد لبدأ هذا التندر فى الحال .

ولم يكن سيرجون يأتى إلى آل داشوود قط إلا ليدعوهم للنداء فى البارك فى الغد أو ليرشف الشاى معهم فى اللساء . ولكنه أراد أن يواعدهم على الأمرين معا فى هذه المناسبة رغبة فى مؤانسة ضيفهم ، إنه رأى أن الواجب يحتم عليه للمشاركة فى إدخال السرور عليه .

قال : « يجب أن تشرىب الشاى معنا هذه الليلة لأننا نستكون وحدنا - وغدا نتناولنا معنا الغداء حتماً لأن الأداة سيحضرها عدد كبير . »

وألحت مسز جنجنز فى وجوب قبول الدعوة وقالت : « ومن يدرى لعل وجودكن يشجع على الرقص . وهذا يلد لك يامس مريان . »

فصاحت مريان : « رقص ! مستحيل ! ومن ذا الذى سيرقص ؟ »

« من ؟ أنتين أنفسكن وآل كارى وهو شكر فىما اعتقد - عجباً ! أنتظنين أنه لن يرقص أحد لأن شخصاً لا أسميه قد ذهب . »
فصاح سيرجون : « ليت ولجى كان معنا ! »

وأثار هذا الكلام ، وحرمة الخجل التي علت وجه مريان ، الفنون في نفس إدوارد .

فسأل في صوت خافت مسز داشوود وكان جالساً بجوارها « ومن هو وليي ؟ »

فأجابت بإيجاز ، وكانت نظرات مريان تم على رغبتها في المزيد من الإفضاء ولكن إدوارد سمع ما يكفي لالتمهم كلام غيره فحسب ، بل وفهم عبارات مريان التي التبس عليه فهمها من قبل . ولما انصرف الزائران ، اتشى إليها من فوره ، وهمس في أذنها قائلاً : لقد حزت الأمر ؟ فهل أخبرك بما حزت ؟

« ماذا تعني ؟ »

« هل أخبرك ؟ »

« نعم ! »

« حزت أن مستر وليي صياد . »

فدهش مريان وارتبكت ، ولسكها لم تتألك أن ابسمت لمداعبته ، ثم أطرقت هنيئة وقالت : « عجباً ! إدوارد ! كيف تستطيع ؟ - ولكن أرجو أن يحين الوقت أعتقد أنك ستجبه . »

فأجاب : « لاشك في ذلك » وقد اعترته بعض الدهشة لما أبدته من اهتمام وحماس ، ولو لم يتصور أن مقاله هو نكتة لصالح صديقتها بوجه عام تركز على وجود صلة كبيرة أو صغيرة بين وليي وبينها ، لما اجترأ على ذكرها .

الفصل التاسع عشر

لبث إنواردي في المنزل الريفي أسبوعا ، وألحت عليه مسز داشوود بشدة أن يطيل إقامته ، ولكنه فيما يبدو أزمع الرحيل وهو أشد ما يكون سرورا بين صديقاته ، وكأنه موكل بتعذيب نفسه . وقد صفنا زاجه في اليومين الأخيرين أو الأيام الثلاثة الأخيرة وإن ظل شديد التقلب ، فازداد حبه للمنزل وما يحيط به ، ولم يذكر الرحيل قط إلا تنهد ، ثم قال : إنه غير مرتبط بموعد على الإطلاق — بل لم يدر أين يذهب إذا هو فارقهن . ومع ذلك كله أصر على الرحيل . ولم يحدث قط أن مر عليه أسبوع بمثل السرعة التي مر بها هذا الأسبوع ، بل لم يصدق أنه انقضى ومضى . وردد ذلك كثيرا ، ثم صرح بأقوال أخرى عديدة تنبئ عن حقيقة شعوره ، وتكذب أفعاله ، إذ قال : إنه لم يطب نفسا بالإقامة في نورلاند ، وإنه مل الإقامة في لندن ، ومع ذلك أصر على السفر إلى نورلاند . وأعرب لمن عن أعظم تقديره لكرمهن وعطفهن ، وشعوره بالسعادة الكبرى بين ظهرانينهن ، ومع ذلك أصر على فراقهن في نهاية الأسبوع على كرم منه ، وبدون أن يكون مرتبطا بأي موعد من المواعيد .

وقد عزت إليثور كل ما رأته من تصرفاته الغريبة إلى أمه ، وكأنه يسعدھا أن تكون له أم لاتعرف هي أخلاقها معرفة تامة حتى يتسنى أن تعزو إليها كل ما تراها في ابنها من غريب الأطوار . ولكنها برغم ما كانت تشعر به من خيبة الأمل وشدّة الكدر ، وما تشعر به أحيانا من الاستياء لسلكه للتقلب لإزاءها ، كانت تميل كثيرا إلى أن تتعجل له الأعذار الصريحة والمبررات الكريمة طالما انتزعتها منها أمها لصالح ولبي بطريقة أليمة . فكانت تعزو في الغالب

كاتبته وتحفظه وتقلبه إلى فقدان حريته التصرف، ومعرفة بطباع أمه ومقاصدها، كما تمزق قصر زيارته وإصراره على الرحيل إلى تقييد إرادته وضرورة مساندة أمه في رغباتها وأهوائها، وترى أن السبب في ذلك كله هو الشكوى القديمة التي لم يغيرها الزمن وهي تعارض الواجب مع الإرادة، ووقوف الآباء في وجه الأبناء. وكانت تود أن تعرف متى تنتهي هذه العقبات، وتزول هذه المعارضة — متى يصلح حال مسز فيارز، ويتمتع ابنها بالحريّة كي ينعم بالسعادة. ولكنها اضطرت أن تطرح هذه الأمانى الباطلة جانبا لتلتصم العزاء في تجديد ثقتها بحجة إدوارد لها، وفي تذكر كل ما بدا لها من مظاهر الحب، في نظراته أو كلماته التي بدرت منه أثناء إقامته في بارتون، وفوق ذلك كله هذا البرهان السار على تلك المحبة الذي يتمثل في الخاتم الذي يلبسه دائما حول إصبعه. وقالت له مسز داشوود وهو يتناول الفطور في صباح آخر يوم « إخال يا إدوارد أنك ستكون أسعد حالا إذا مارست مهنة تشغل وقتك وتساعدك على تحقيق أغراضك. قد ينجم عنها بعض اللتاعب لأصدقائك لأنها ستحول دون أن تعطيمهم الكثير من وقتك ولكنها (بإقسانة) ستعود عليك بفائدة مادية على الأقل، وهي أنك ستعرف أين تذهب حينما تتركهم ».

فأجاب: « أوكد لك أنني فكرت في هذه الأمر مليا كما تفكرين أنت الآن. لقد أحزنتي وسيحزنتي دائما ألا أجد عملا يشغل وقتي، ولا مهنة تهيم لي أسباب العمل، وتتيح لي ما يشبه الاستقلال. ولكن حماقتي وحماقتي أصدقائي لسوء الحظ جعلتني عاطلا عاجزا كما ترى الآن. إننا لم نستطع أن نتفق على اختيار مهنة معينة. ولقد كنت — ولازلت — أفضل أن أكون قسيسا.

ولكن هذه المهنة لا تقترن بمظاهر الأبهة والأناقة التي تصبو إليها أسرني - فهم يعمون أن أكون ضابطا في الجيش ، ولكن ذلك فيه من مظاهر الأناقة أكثر مما يلائمني . وكان من المسلم به أن طلبة الحقوق يمتازون بحسن البزة ، وكثير من الشبان في بيت طلبة الحقوق يبدو مظهرهم جميلا في الدوائر الأولى ، ويسيرون في لندن في عربات أنيقة . ولكن لم يكن لي ميل للدراسات القانونية حتى الدراسات القانونية السهلة التي وافقت عليها أسرني . أما العمل في البحرية فكان أيضا يمتاز بأناقة المظهر ولكن سنى كانت أكبر من أن تؤهلني للعمل فيها حينما بدأ التفكير في ذلك ، وأخيرا روى أن البطالة على وجه العموم هي أصلح الأشياء وأشرفها إذ لا ضرورة لممارسة أية مهنة على الإطلاق مادام في وسمى أن أكون شابا جريئا مبذرا سواء لبست ستره حمراء أو سوداء على كفتي أم لم ألبس ، وليس من دأب الفتى الذي بلغ الثامنة عشرة أن يحرص على العمل حرصا يدعوه إلى مخالفة أصدقائه الذين يفرونه بالبطالة . ولذلك قيدت اسمي في أ كسفورد وبقيت عاطلا منذ ذلك الحين .

فقال مسز داشوود : « أظن أن نتيجة ذلك أنك ستنشئ أبناءك على ممارسة جميع الأعمال والوظائف والمهن والحرف شأنهم في ذلك شأن محور السمع في الطيور والهوام ، مادام الفراغ هو سبب شقائك » .

فقال في لهجة الجلد : « سأنشئهم على نهج يخالف نهجى بقدر الإمكان : في للشاعر والأعمال والأحوال ، بل في كل شيء » .

« دع عنك ذايا إدوارد ؛ هذا كلام صادر عن لوعة الأسمى . إنك حزين

الفؤاد ، وتتخيل أن كل إنسان يخالف نهجك لا بد أن يكون سعيداً . ولكن تذكر أن كل إنسان يشعر أحيانا بلوعة الألم لفراق أصدقائه مهما كان تعليمهم أو حالهم . اعرف أين هي سعادتك . أنت لا تحتاج إلا إلى الصبر أو إن أردت أسما خلافاً - الأمل . إن أمك ستتيح لك في الوقت المناسب حرية التصرف التي تصبو إليها . هذا واجبها ولن يمضى وقت طويل حتى يسعددها أن تصون شبابك الغض من أن يبلى في الضجر والسخط . ما أكثر الأمور التي يمكن أن تتم في بضعة شهور !

فأجاب إدوارد : « في وسعي أن أنحدي أي إنسان أرجو لي أي خير بعد كثير من الشهور . »

وقد ضاعف هذا اليأس - وإن لم تشعر به مسرذا شوود - من آلامهن جميعاً عند الفراق الذي تم بعد قليل وترك أثراً سيئاً في نفس إليانور بصفة خاصة تطلبت إزالته بعض العناء والوقت . ولكنها حين اعتزمت أن تزيل هذا الأثر من نفسها دون أن تبدي من الألم لفراقه أكثر ، أبدأ أهله لم تسلك السبيل الذي سلكته مريان بحكمة في موقف مناسب ألا وهو زيادة الحزن بالاجوء إلى الصمت والعزلة والكسل . لقد كانت وسائلهما تختلف كما تختلف أهدافهما ، وتتلأم مع مستوى ثقافتهما .

وما أن غادر المنزل حتى جاست إليانور إلى لوحة الرسم ، وأكبت على العمل طول اليوم ، ولم تحاول أن تذكر اسمه أو تتعاشى ذكره ، وأظهرت ما كانت تظهره دائماً من الاهتمام بالشئون العامة الخاصة بالأمرة . وإذا كان هذا المسلك لم يقلل

من حزنها فقد حال على الأقل دون زيادته بلا ضرورة ، وأعنى أمها وأخوتها من الجزع والقلق على حالها .

وكانت مريان ترى أن مثل هذا المسلك الذى يناقص مسلكها تماما غير جدير بالثناء بقدر ما كان مسلكها هى معيها، وكان رأيها ببساطة فى موضوع ضبط النفس أن الإنسان إذا كان قوى الماطفة تمدر عليه أن يضبط نفسه ، وإذا كان هادى الطبع لم يكن له فضل فى ضبط النفس . ولم تجرؤ مريان أن تنسکر أن عاطفة أختها من النوع الهادى ، وإن خجلت من هذا الاعتراف . أما عاطفتها هى فأوضح دليل على قوتها هو حبها واحترامها لأختها ، على الرغم من أنه يؤلمها أن تقول ذلك .

وكانت إينور - فى جميع حالاتها النفسية التى تتغير بتغير الأوقات - تجدد فى كل يوم من الفراغ ما يكفى للتفكير فى إدوارد وفى مسلك إدوارد ، تفكيراً ينسجم بالحنان والإشفاق والاستحسان واللوم والشك ، دون أن تحبس نفسها عن أهلها أو تخرج من البيت لتكون بمزلة عنهن ، أو تسهر الليل كله لتستغرق فى التأمل والتفكير ، فكانت تمنح لها لحظات كثيرة - إن لم يكن بسبب غياب أمها وأخواتها فبطبيعة أعمالهن على الأقل - تمنحها من الحديث معهن ، وتبسط لها العزلة بكل معانيها . ولا محالة حينئذ أن يصبح ذهنها طليقا ، ويستأثر الماضى والحاضر - فى أمريهما كثيراً - باهتمامها ويشغل ذاكرتها وتفكيرها وخيالها .

وبينما كانت مستغرقة فى طوفان كهذا من أحلام اليقظة على أثر رحيل إدوارد وهى تجلس إلى لوحة الرسم إذ أفاق على أثر قدوم بعض الزائرين . وانفق

أن كانت وحدها ، وكان الباب الصغير عند مدخل الفناء المشوش الواقع أمام البيت مغلقا ، فاتجه نظرها إلى النافذة ، فرأت جماعة كبيرة متجهة إلى الباب من بينهم سيرجون وايدى ميدلتون ومسز جننجز ، ولكن معهما رجل وسيدة لا تعرفهما . وكانت تجلس بالقرب من النافذة فإذ إن رآها سيرجون حتى ترك بقية الرفقة وتقدم ليطرق الباب وسار على الأرض المكسوة بالشب فاضطرت أن تفتتح النافذة لتتحدث معه على الرغم من قصر المسافة بين الباب والنافذة بحيث لم يكن من المستطاع أن يتكلم الإنسان من أحدهما دون أن يسمع صوته من الآخر .

قال : « لقد جئنا ببعض الغرباء فما رأيك فيهما ؟ »

« صه ! إنهما يسمعان ! »

« لا خير من سماعهما . إنهما السيد بالمر وزوجته . لا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن شارلوت جميلة . وفي وسعك أن تشاهدها إذا نظرت من هذه الجهة » .
فاستاحتته عنذراً لأنها تعرف أنها سترها بعد برهة دون ما حاجة إلى هذا الفضول .

« أين مريان ؟ هل هربت لأننا حضرنا ؟ إننى أرى البيان مكشوقا » .

« أعتقد أنها تنزهه » .

ثم لحقت بهما مسز جننجز التي لم تطلق الانتظار حتى يفتح الباب وتحمكي قصتها فحامت إلى النافذة تقول مرحبة : « كيف حالك يا عزيزتى ؟ وكيف حال مسز داشوود ؟ وأين أخواتك ؟ وى ! أنت وحدك ؟ لقد جئنا بجماعة صغيرة يسرك الجلوس معها . جئت بابنى وابنتى الأخرى لتشاهديهما . تصورى كيف

فوجئت بزيارتها ا طرق سمى صوت عربية في الليلة الماضية ونحن نشرب الشاي، ولم يخطر ببالي قط أنها تقاهما، وما خطر لى إلا أن كولونيل براندون عاد من سفره ، فقلت لسير جون : « أؤكد أنتى أسمع صوت عربية . اهل السكولونيل عاد من السفر . »

واضطرت إلي نور أن تتحول عنها — وهى تروى قصتها — لتستقبل بقية الرقة . وقدمت ليدى ميدلتون الزائرين الغربيين ، ونزت مسز داشوود ومرجريت فى الوقت نفسه ، وجاسن جميعا لينظر أحدهما إلى الآخر فى حين واصات مسز جنتجز قصتها وهى تسير فى الطرقة الموصلة إلى ردهة المنزل يرافقها سيرجون .

كانت مسز بالر تصفر ليدى ميدلتون بمدة سنوات ، وليس بينهما أى وجه من الشبه . كانت قصيرة القامة بدينة الجسم ذات وجه جميل تلوح عليه أمارات البشاشة . ولم تسكن حلوة الشائل كأختها ولكنها كانت أكثر منها جاذبية . وابتسمت عندما دخلت ، وظلت تبسم طول الزيارة إلا متى ضحكت ، ثم ابتسمت عندما انصرفت . وكان زوجها رجلاً رزيقاً وقوراً يبالغ من العمر خمسا أو ستا وعشرين سنة ويبدو أوفر أدبا وأرجح عقلاً من زوجته ولكنه أقل منها رغبة فى مشاركة الناس فى سرورهم . ودخل الغرفة تبدو عليه مخايل الغرور ، فأنحنى قليلاً للسيدات دون أن ينبس ببنت شفة ، وبعد أن ألقى نظرة قصيرة عليهن وعلى غرقتهن أخذ صحيفة من النضد ، واستمر فى القراءة طول مدة الزيارة .

وكانت مسز بالر على نقيض ذلك . لم تسكد تجلس حتى أبدت إعجابها بالردهة وكل ما فيها ، وكانت مسز بالر امرأة مهذبة ومرحة معاً .

حسنا ما أجل هذه الفرقة ! لم أر في حياتي ماهو أروع منها . تأمل يا أمه
كيف زادت حسنا عما رأيتهما في زيارتي الأخيرة ! لقد كنت أعتقد دائما أنها
حجرة جميلة ياسيدتي (وهي تلتفت إلى مسز داشوود) ولكنك زدتها روعة
وجمالا ! الأترين ياأختي أن كل ما فيها جميل ! كم وددت لو أن لي بيتا كهذا ! ألا
تتمنى مثل ذلك يا مستر بالمر ؟

فلم يحمر مستر بالمر جوابا بل لم يرفع عينيه عن الصحيفة .

فقلت وهي تضحك : « مستر بالمر لا يسمعي ! إنه لا يسمعي أحيانا . إن
هذا الشيء مضحك جدا » .

وكانت هذه فكرة جديدة تماما على مسز داشوود فلم تألف قط أن يتندر
أحد على أحد لعدم إصفائه ، ولم يسمها إلا ان تدهش الرجل وزوجته .

على أن مسز جينجز ظلت تتحدث بأعلى صوتها ، وتحكي عن دهشتن في
الليلة الماضية عندما رأين مستر بالمر وزوجته ولم تكف عن الكلام حتى فرغت
من قصتها ، وأغرقت مسز بالمر في الضحك عندما تذكرت دهشتن ، وأجمع كل
الحاضرين مرتين أو ثلاث مرات على أنها كانت مفاجأة سارة .

وانحفت مسز جينجز إلى الأمام نحو إيلينور ، وكامتها بصوت خافت كأنها
تريد ألا يسمع كلامها أحد سواها ، مع أنهما كانتا تجلسان في جانبيين مختلفين
من الحجرة ، قالت : « في وسعك أن تصدق مبلغ سرورنا بلقائهما . ومع ذلك
وددت لو أنهما لم يسافرا بمثل هذه السرعة ، ولا قاما بهذه الرحلة الطويلة ، فقد
قدمتا عن طريق لندن لإنجاز بعض الأعمال ، لأنك تعلمين (وهي تهز رأسها

بطريقة ذات مغزى ونشير إلى ابتها) أن السفر مضر بها . وكنت أريد أن تظل في البيت ، وتستريح هذا الصباح ، ولكنها أصرت على الحضور معنا لأنها تتوق كثيراً إلى رؤيتكن جميعاً ! » .

وضحكت مسز بالمر وقالت : إن حضورها لن يضرها على الإطلاق .
واستطردت مسز جننجز قائلة : « ينتظر أن تكون في حالة وضع في فبراير .
ولم تعلق ليدي ميدلتون سماع هذا الحديث أكثر من ذلك ، فالتفتت إلى مسز بالمر وسألته في الصحيفة أخبار جديدة ؟ فأجاب : « كلا ! لا شيء . إطلاقاً »
واستمر في القراءة .

وصاح سير جون : « ها قد جاءت مريان ! وسترى الآن يا بالمر فتاة رائعة الجمال »
ودلف إلى الطرقة من فوره ، وفتح الباب الأمامي وسمح لها بالدخول وسألته مسز جننجز عند حضورها : هل ذهبت إلى ألهم ؟ وقهقهت مسز بالمر ضاحكة لهذا السؤال مما يدل على أنها تفهم المراد منه . وتطلع إليها مسز بالمر عند دخولها وحلق فيها بضع دقائق ، ثم عاد إلى صحيفته . ثم وقع بصر مسز بالمر على الصور الملققة حول الحجره ونهضت لتلقى عليها نظرة فاحصة « عجباً ما أجل هذه الصور ! نعم ! ما أروعها ! تأمل يا ماما ، ما أحلاها ! إنني أصرح أنها فاتنة ، لا أمل النظر إليها أبداً » ثم عادت تجلست وسرعان ما نسيت وجود شيء من هذا القبيل في الحجره .

ولما وقت ليدي ميدلتون استعداداً للخروج وقف مسز بالمر أيضاً ، ووضع الصحيفة وتمطى وأجال النظر فيهن جميعاً .

فقالت له زوجته ضاحكة : « هل كنت نائما يا حبيبي ؟ »
فلم يمر جوابا . وكل ما قاله بعد أن تفحص الحجره : إنها مرصوفة بالحجارة
وإن سقفها متعرج ثم أمخى محببها وخرج مع بقية الأسرة .

وألح سيرجون عليهن جميعا أن يقضين اليوم التالي في البارك . وكانت مسز
داشوود لا تريد أن تتفدى عندهم أكثر مما يتفدون عندها ، فرفضت الدعوة
رفضاً باتاً عن نفسها ، وتركت لبناتها الخيار . ولسكنهن لم يقنن إلى معرفة كيف
يتناول مستر ومسز بالمرغداءهما ، وفيما عدا ذلك لم يتوقنن أية مئة ، فالتنن الأعدار
أيضا لرفض الدعوة ، متعللات بأن الطقس متقلب ، وأنه يحتمل ألا يكون لطيفا .
ولكن سيرجون لم يقنن بذلك ، فقال : إنه سيرسل عربته إليهن ، ولا بد من
حضورهن ، وألحت ليدى ميدلتون عليهن أيضا ، وإن لم تلح على أمهن
وانضمت مسز جنتنجز ومسز بالمر إليهما في الإلحاح عليهن ، وبدا القلق على الجميع
لإصرارهن على عدم حضور المأدبة العائلية ، وأمام هذا الإلحاح لم يسم الأنسات
إلا قبول الدعوة .

وقالت صريان بعد انصرافهم : « لماذا يدعوننا ؟ إن إبحار منزلنا الريني قليل
كما يقولون ، ولكنه يكافنا غالبا إذا وجب علينا أن تتفدى في البارك كلما نزل
بهم أو نزل بنا أحد » .

فقالت إلينور : « إهم يريدون بهذه الدعوات للتكررة أن يظهرنا لنا الآن
من البر والعطف ما أظهره لنا منذ أسابيع قلائل . ولكن مادبهن إذا أصبحت
مملة مضجرة فقدت ما نشده من تقيير المناظر ، وحينئذ يجب أن نشد هذا التقيير
في مكان آخر » .

الفصل العشرون

عندما دخلت الأنستان داشوود حجرة الاستقبال في البارك من الفد ، من أحد بابي الحجره ، خفت مسز بالمر للاقائهما من الباب الآخر ، وأسارير وجهها تدأق بالبشر والسرور كشأنها من قبل ، فصالحتهما معا بكل حب وإخلاص ، وأعربت عن سرورها بلاقائهما مرة أخرى .

وقالت بعد أن جلست بين إينور ومريان : « إنني مسرورة برؤيتكما ، وكنيت أخشى أن تحول رداة الطقس دون حضوركما ، وهو أمر كان يزعجني كثيراً ، لأننا سنسافر غداً مرة أخرى ، وهو أمر لا بد منه لأن آل وستون سيوزروننا في الأسبوع القادم كما تعلمان . والواقع أن قدمنا كان أمراً مفاجئاً تماماً ، ولم أعلم به إلا عندما وقفت العربيه بالباب وحينئذ سألتني مستر بالمر هل أسافر معه إلى بارتون . إنه رجل غريب الأطوار ! فهو لا يتحدثني عن أي شيء . وأنا أسفة لأننا لن نستطيع أن نتمسك هنا أكثر من ذلك . على أن أمل أن أراكا قريباً في لندن مرة أخرى . »

فاضطرتا أن تضعا حداً لهذا الأمل .

فصاحت مسز بالمر وهي تضحك : « لن تذهبا إلى لندن ! إنه ليحزنتني ألا تذهبا إليها . في وسعي أن أدبر لكما أجل بيت في العالم يكون مجاوراً لبيتنا في ميدان هانوفر . يجب أن تحضرا إلينا . وسأكون سعيدة بمراقبتكما في أي وقت حتى يحين وقت الوضع إذا لم ترغب مسز داشوود في الخروج . »

فشكرتاها ولكنها اضطرتنا إلى الاعتذار عن إجابة رجائها .

فصاحت مسز بالمر بزوجها الذي دخل الحجر في تلك اللحظة : « هيا يا حبيبي
ضم صوتك إلى صوتي لإقناع الآنتين داشوود بالسفر إلى لندن هذا الشتاء . »
ولكن حبيبها لم يمر جوابا ، وأخذ يشكو من العلقس بعد أن انحنى
للآنتين انحناء خفيفة .

قال : « تبأ لهذا العلقس ! إنه يجعل الإنسان يضيق برؤية كل شيء وكل
شخص . والمطر يورث الضجر داخل البيت وخارجه ، ويفيض إلى الإنسان
رؤية معارفه وأصحابه . أي شيطان هذا الذي وسوس إلى سير جون ألا يخصص
حجرة للبياردو في بيته ؟ ألا ما أقل الذين يعرفون معنى الترفيه ؟ إن سير جون
والطقس ، سواء في النباء . »

وسرعان ما دخل بقية الرفاق .

وقال سير جون : « أخشى يامس مريان أن تكوني قد قذت بنزهتك المتتادة
إلى ألنهام اليوم . »

فارتسم الوجوم على وجهها ولم تقل شيئا .

وقالت مسز بالمر : « لاتتظاهري بالمكر أماننا لأننا نعرف كل شيء . وأنا
معببة كثيرا بذوقك لأنني أعتقد أنه ذو جمال فائق . وأنت تعلمين أننا لا نبعد
عنه كثيرا في الريف ، ولعل المسافة لا تتجاوز عشرة أميال . »

فقال زوجها : « زهاء ثلاثين . »

« وى ! ليس الفرق كبيراً . وأنا لم أذهب إلى بيته قط ، ولكنهم يقولون :
إنه بيت جميل أنيق . »

فقال مستر بالمر : « لم أر في حياتي أقيح منه . »
ولاذت مريان بالصمت للطبق ، وإن عبرت أسارير وجهها عن اهتمامها
بما قالا .

واستطردت مسز بالمر : « أقيح هو ؟ إذن لا بد أن يكون البيت الجميل
الذى أعرفه بيتاً غيره فيما أظن . »
ولما جلسوا في حجرة الطعام أعرب سير جون عن أسفه لأن عدد ضيوفه
لا يتجاوز الثمانية .

وقال لزوجته : « من دواعي الأسف يا عزيزتى أن يكون عددنا قليلاً . لماذا
لم تدعى آل جلبرت لزيارتنا اليوم ؟ »

« ألم أقل لك يا سير جون عندما كلمتني في ذلك من قبل : إنه متعذر لأنهم
تناولوا طعام الغداء عندنا أخيراً . »

فقالت مسز جننجر : « ينبغي لى ولك يا سير جون ألا تلمسك بهذه الشكليات
فصاح مستر بالمر : « إذا تسكونى امرأة غير مهذبة . »

فقالت له زوجته ، وهى تضحك كعادتها : « يا حبيبي أنت تناقض كل
إنسان . ألا تعلم أنك رجل فظ ؟ »

« أنا لا أعرف أبى ناقضت إنسانا حين قلت : إن أمك غير مهذبة . »
فقالت السيدة المجوز الطيبة القلب : « أجل ! لك أن تشتمنى كما نشاء . لقد

أخذت شارلوت منى ، ولن تستطيع أن تردها إلى مرة أخرى . ولذلك فالسوط
فوق رأسك ! »

وقهقت شارلوت ضاحكة لاعتقادها أن زوجها لا يستطيع التخلص منها
واستخفها الفرح ، وقالت : إنها لا تهم إذا عيس زوجها في وجهها لأنه لا بد لها
من العيش معا . والواقع أنه لم يكن ثمة من يفوق شارلوت في طيبة قلبها ، وتصميمها
على إظهار اللرح والحبور ، ولم تتألم قط لما أبداه زوجها من تعمد الاستخفاف بها ،
وما أظهره من السخط والواقحة بل كانت تضحك إذا أنبها أو شتمها .

ومهتت في أذن إلينور قائلة : « مستر بلر رجل غريب الأطوار ، ودأما
هو معكر المزاج »

ولم تجح إلينور للاعتقاد - بسد أن أنعمت النظر قليلا - بأنه رجل
محبول فعلا على ما كان يريد أن يتظاهر به من خبث الطوية وسوء الأدب . وربما
سادت طباعه قليلا حينما تبين أن الانسياق الأعمى وراء الجمال أوقعه في شباك امرأة
سخيفة العقل ، شأنه في ذلك شأن الكثير من أبناء جنسه . ولكن إلينور كانت
تعلم أن الوقوع في مثل هذا الخطأ أمر شائع الحدوث لا يتأذى به العقلاء من
الرجال على الدوام ، وكانت تعتقد أن الباعث له على احتقار الناس واستخفافه
بكل شيء يراه إنما هو حب الشهرة ، وهذا الباعث أمر مؤلف لا يدعو إلى العجب
واسكن الوسيلة التي لجأ إليها لم يكن من المحتمل أن تجاب له من المودة
إلا مودة زوجته ، وإن نجحت هذه الوسيلة في إثبات تفوقه على غيره في سوء
الأدب .

ولم تلبث مسز بلر أن قالت : « عزيزتى مس داشوود ! أريد منك ومن

أخحك أن تصنعا معي جيلا . هل لكما في زيارتنا وقضاء بعض الوقت في كليفلاند في عيد الميلاد القادم ؟ أرجو أن توافقنا على هذه الدعوة وزيارتنا أثناء إقامة آل وستون عندنا . ليس في وسعك أن تتصورى كم أكون سعيدة بهذه الزيارة ! ستكون ممتة جدا ! - ثم أتجهت إلى زوجها . « ألا تتوق لقدوم الأنتيين داشوود إلى كليفلاند ؟ »

فأجاب ضاحكا : « يقينا ! لقد جئت إلى ديفونشاير لهذا الغرض وحده . »
قالت زوجته : « ها أنا تان تريان أن مستر بالمر يأمل في حضوركما .
فأرجو ألا ترفضوا الدعوة . »
فرفضت كلتاها الدعوة بقوة وإصرار .

« لا ! لا ! لا ! من حضوركما وستحضران : وأنا أعتقد أنكما ستستمتعان بها إلى أقصى حد . وسيكون آل وستون معنا ، وسيكون في ذلك متعة ، أى متعة ! وليس في وسعكما أن تتصورا جمال كليفلاند . ونحن الآن ننعيم بالبهجة والسرور لأن مستر بالمر يطوف دائما في البلاد ليقوم بالدعاية الانتخابية ، ولذلك يأتي إلينا كثير من الناس لم أرحم قط ، ليتناولوا معنا طعام الغداء ، وهو أمر رائع حقا ، ولكن وارتحناه له ! إنه يلقي كثيرا من التعب والنصب لأن الواجب يدعوهم أن يخطب ود كل إنسان . »

ولم تستطع إليينور أن تتمالك من الضحك عندما أقرتها على ما ينطوى عليه هذا الواجب من عناء ومشقة .

قالت شارلوت : « ما أجل أن أراه عضوا في البرلمان ! أليس كذلك ؟ إننى لن أكف عن الضحك ! لأنه من المضحك حقا أن أرى الناس يرسلون إليه خطاباتهم بعنوان « ع ب » - ولكن ألا تعلمين أنه يقول لى : إنه لن يرسل لى خطابا ؟
لقد صرح لى بذلك . أليس كذلك يا مستر بالمر ؟ »

فلم يعرفها مستر بالمر التفانا .

واستطردت قائلة : « إنه لا يطبق الكتابة لأنه يزعم أنها شيء فظيع حقاً » .

قال : « كلا ! لم أقل مثل هذا المرء . لا تنسبى إلى ألقاظ السباب التي

عرفتها في اللغة . »

« ها أنت ذى ترين كيف أنه رجل غريب الأطوار . هذا دأبه وديدته .

يسكت دهرًا ثم ينطق كغفراً فيحدثني عما يعرفه عن كل شيء في العالم . »

وقد دهشت إلي نور كثيراً عندما سألتها مسز بالمر ، الأخبين مستر بالمر كثيراً ؟

فأجابت إلي نور : « بلى ! إنه رجل لطيف » .

« حسناً ! يسرنى أنك تخمينته . وكنت أعتقد ذلك لأنه فعلاً رجل ظريف .

وفي وسعى أن أقول : إنه معجب بك وبأخواتك كثيراً ، وليس في وسعك أن

تتصورى مبلغ استيائه إذا لم تحضرى إلى كليفلاند - إننى لأدرى لماذا تعارضين

في ذلك . »

واضطرت إلي نور أن تكرر رفضها للدعوة ، وأرادت أن تضع حداً

لتوسلاتها ، فقبرت مجرى الحديث ، إذ رأت أنه من المحتمل أن تكون مسز

بالمر - لأنها تقيم مع ولبى في بلدواحد - أقدر على وصف أخلاقه من آل ميدلتون

الذين يعرفونه معرفة جزئية . وكانت إلي نور تحرص على تعرف أخلاقه من أى

إنسان حتى لا يكون هناك احتمال للخوف على مريان ، فسألها . هل رأيت

ولبى كثيراً في كليفلاند وهل تعرفينه حق المعرفة ؟

فأجابت مسز بالمر : « نعم يا عزيزتى . أعرفه كل المعرفة ، ولكن لم أكلمه

في الواقع ، بيدأني رأيتة في لندن دائما . ولم يتفق لي قط - لسبب لأعرفه - أن كنت في بارتون أثناء إقامته في ألهام . أما ماما فقد رأته هنا ذات مرة ، ولكني كنت في ويموث مع عسى . على أنى أؤكد أنه كان من المحتمل أن أراه كثيراً في سمر ستشاير ، لولا أن سوء الحظ شاء ألا نلتقي في الريف قط . وهو قلما يقيم في كومب فيا أعتقد ، وحتى لو أقام فيه كثيراً لمزاره مستر بالمر فيا أظن لأنه ينتمى إلى الحزب للمارض كما تعلمين ، ثم إنه بعيد جداً . وأنا أعرف لماذا نساألين عنه . إن أختك ستتزوجه . وأنا في غاية السرور بذلك لأنها حينئذ ستكون جارة لي كما تعلمين . »

فأجابت إليزبث : « صدقيني أنك تعرفين عن هذا الأمر أكثر مما أعرف إذا كان لديك من الأسباب ما يجعلك على توقع هذا الزواج . »

« لاتدعى إنكاره ، فهو حديث كل إنسان كما تعلمين . وأؤكد لك أنتى سمعته في طريقى إلى لندن . »

« عزيزتى مسز بالمر ! » :

« أقسم لك بشرقى أنتى سمعته - قابلت كولونيل براندون صباح يوم الجمعة في بوند ستريت قبيل مغادرتنا لندن وحدثنى عنه فاه إلى فى . »

« هذا أمر يدهشنى كثيراً . كولونيل براندون يحدثك عنه ! حقا إنك مخطئة . فليس من ديدن كولونيل براندون أن يقضى بمثل هذا النبأ لإنسان لا يهيمه سماعه ، حتى ولو كان صحيحا . »

لكنى أؤكد لك أن هذا ما حدث على الرغم مما تقولين . وسأخبرك كيف

حدث . حينما التقينا عاد وصار معنا ، فأخذنا نتحدث عن أخى وأختى وكيت وكيت وقلت له : « سمعت يا كولونيل أن أسرة جديدة قدمت إلى منزل بارتون الريني ، وأبقتنى ماما أن بناتها تميزن بالجمال ، وأن إحداهن ستزوج مستر ولبي صاحب كومب ماجنا . أصبح هذا ؟ إنك بالطبع أدري بحقيقة الأمر إذ كنت في ديفونشاير أخيراً . »

« وماذا قال الكولونيل ؟ »

« عجباً ! - لم يقل كثيراً ونسكن بدا عليه أنه يعرف أن الخبر صحيح . ومن تلك اللحظة وقر في صدرى أنه أمر محقق . وأنا أصرح أنه سيكون زواجاً رائعاً ! ومتى سيتم ؟ »

« لعل مستر براندون كان يتمتع بصحة طيبة . »

« نعم ، على خير ما يرام ، وقد أتني عايتك كثيراً . ولم يقل عنك إلا كل جميل . »

« يسرنى ثناؤه على . ويبدو لى أنه رجل مفضل . وأعتقد أنه لطيف جداً . »
« وكذلك رأي فيه - فهو رجل حلو الشائل إلى حد يجعلنى أشعر بالأسف عندما أراه ساهم الوجه كاسف البال . وتقول ماما : إنه أحب أختك أيضاً . وأؤكد لك أن هذا الأمر لو صح لكان دليلاً على إعجاباه العظيم بها ، لأنه قلما يحب أى إنسان بسهولة . »

قالت إليينور : « هل مستر ولبي معروف كثيراً في المنطقة التى تقيمون بها في سر سفاير ؟ »

« نعم معروف جداً بمعنى أن جل الناس لا يعرفونه فيما أعتقد لأن كوب ماجنا بعيدة جداً ، ولكنى أؤكد أن كلهم يمتقدون أنه رجل محبوب . ليس تمت من هو أحب إلى الناس منه أبناذهب . وفي وسعك أن تقولى لأختك ذلك . وأقسم بشرفى أنها سعيدةالحظ بالزواج منه ، إلا أنه هو أسعد حظا بالزواج منها ، لأنها على حظ وافر من الجمال والأخلاق للرضية ، بحيث لا يوجد من يصلح لها . على أنى لا أعتقد أنها أوتيت من الجمال حظا أوفر من حظك ، لأنى أرى أنكما تمتازان بفرط الجمال ، وكذلك يرى مستر بالمر كما أعتقد ، وإن لم نستطع حمله على اعتراف بذلك فى الليلة البارحة . »

لم تكن المعلومات التى ذكرتها مسز بالمر عن ولبى ذات قيمة كبيرة ، ولكن كل شهادة لصالحه كانت تبعث فى نفسها السرور ، مهما كانت ضئيلة .

واستطردت شارلوت قائلة : « يسرنى كثيراً أننا تعارفنا فى الليلة الماضية . وأرجو أن تتوثق بيننا دائماً أواصر الصداقة الوطيدة بعد اليوم . وليس فى وسعك أن تتصورى كم كنت أتوق لرؤيتك . وإنه لمن بواعث السرور أن تقيمى فى المنزل الريفى ! إنه بيت لأمثيل له فيما أعتقد ويسرنى أن أختك ستزوج زوجها طيباً ! وأرجو أن تزورى كومب ماجنا كثيراً فهو بيت جميل باعتراف الجميع . »

« ألم تتعرفى بكولونيل براندون منذ زمن طويلى ؟ »

« بلى ، منذ مدة ، منذ أن تزوجت أختى - كان من خاصة أصدقاء سيرجون » وأردفت بصوت خافت : « كان يسره أن يتزوجنى فواستطاع ، وكان سيرجون وليدى ميدلتون يتمنيان ذلك كثيراً . ولكن مالم تر أنه يصلح لى زوجها ، وإلا لتحدث سيرجون إلى السكولونيل فى ذلك ، وتزوجنا فى الحال . »

« ألم يعلم كولونيل براندون باقتراح سير جون على أمك قبل عرضه عليها؟
ألم يصارحك قط بحبه لك؟ »

« كلا! ولكنى أعتقد أنه لولا معارضة أمى هذا الزواج لكان هو يؤثره
على غيره . ولم يكن حينذاك قد رأى أ كثر من مرتين لأنه رأى قبل أن أترك
المدرسة . على أنى سميدة بزوجى الخالى لأنى أحب بالذات ذلك الطراز من
الرجال . »

الفصل الحادي والعشرون

عاد آل بالمر إلى كليفلاند من الهند ، وبقيت أسرنا بارتون ليقبالا الزيارة والمسامرة . ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فما إن نسيت إليفور الزوار الذين زاروها أخيراً وقضت العجب من شعور شارلوت بالسعادة بدون ما سبب ومن تصرف مستر بالمر بمثل هذه السذاجة مع مواهبه الطيبة ، ومن عدم التوافق القريب بين الرجل وزوجته ، حتى جاءها سير جون ومسز جننجز ببعض المعارف الجدد لتراهن وتتعرف إليهن ، جريا على عاداتهما في الحرص على التعارف بين الناس .

وذلك أن سير جون ومسز جننجز قاما برحلة إلى إكستر في الصباح ، فقبلا فتاتين ، فسرت مسز جننجز حين عرفت أنهما تمتان لها بصلة القربى ، وكان هذا كافيًا لأن يدعوها سيرجون في الحال لزيارة البارك . بمجرد أن تنتهى مواعيدهما في إكستر ، فلم يسعها إزاء هذه الدعوة إلا الإلقاء مواعيدهما في أكسفورد على الفور وذعرت ليدي ميدلتون عندما عاد سير جون وأبناها أن فتاتين لم ترهما من قبل سيرجونها بعد قليل . ولم تؤمن بأنقهما ولا حتى بدماتهما لأن تأكيدات زوجها وأمها في هذا الشأن لم تكن تساوى شيئًا . ومما زاد الطين بلة أنهما كانتا تمتان لها بصلة القربى ، ولم تجد محاولات مسز جننجز في التهورين عليها ، إذ نصحت لها أمها ألا تكثر كثيرًا لأنقهما لأنها من الأقارب ، وعلى الأقارب أن يتسامح بعضهم مع بعض .

وإذ لم يكن بدم من زياتهما ، فقد وطنت ليدي ميدلتون نفسها على قبول الأمر الواقع بكل ما تصف به المرأة للهدبة من صبر واحتمال ، واكتفت بتوجيه عتاب رقيق إلى زوجها في ذلك خمس مرات أو ست مرات كل يوم .

وقدمت الفتاتان ، ولم يكن مظهرهما يحافى الأناقة أو الدماعة . كانت
سلابسها أنيقة ، وأخلاقها مهذبة ، وأبدنا إعجاباً بالمرل وأثاثه ، كما أظهرتا من
الحب للأطفال ماجمل ليدى ميدلتون تحسن الظن بهما بعد مرور ساعة على
وجودهما بالمنزل ، فصرحت بأنهما فتاتان لطيفتان حقاً ، وكان هذا الثناء منها
بتأية إعجاب حماسى . وازداد سير جون ثقة برأيه فيها على أثر سماعه هذا الثناء
المستطاب ، فتوجه من فورهِ إلى المنزل الريفى ليخبر الأنسات داشوود بقدموم
الآنستين ستيل ، ويؤكدهن أنهما أحلى الفتيات فى العالم . على أن هذا الثناء لم
يتضمن كثيراً من التعريف بهما إذ كانت إليينور تعرف جيداً أن المرء يستطيع
أن يرى فى إنجلترا أحلى فتاة فى العالم شكلاً ووجهاً وطبعاً وعقلاً على اختلاف
صورها جميعاً . وطالب سير جون أن يتوجه أفراد الأسرة جميعاً من فورهن إلى
البارك ليشاهدن ضيفتيه . ياله من رجل محب للخير وللإنسانية ! لقد كان يعز عليه
أن يحتفظ لنفسه بقريب ثالث ! قال : « أرجوكن ، تعالين الآن — أرجوكن
تعالين — يجب أن تحضرن — إننى أقول لكن تعالين — ليس فى وسعكن أن
تتصورن كم ستعجبن بهما . لوسى رائعة الجمال ، وبشوش الوجه ، ودمشة
الخلق ! الأطفال كلهم يتعلقن بها كأنهم يعرفونها من قديم . كلتاها تتوق إلى
رؤيتكما لأنهما سمعتا فى إكستر أنكمن أجمل نساء العالم، وقلت لهما : إن هذا صحيح
بل أكثر من ذلك . وأنا واثق أنكمن ستعجبن بهما . لقد ملأنا كل العربة
بلعب الأطفال . كيف تعارضن فى الحضور ، وأنتن تملن أنهما تمتنان لكن
بعلة القربى من بعض الوجوه ، فأنتن من أقاربنى ، وهما من أقارب امرأى ، ومن
سم فهما وأنتن من ذوى الأرحام بلا ريب . »

ولكن سير جون لم يوفق فى حملهن على الحضور ، وكل ما استطاع أن

يفعله هو الحصول على وعد بزيارة البارك في غضون يوم أو يومين ، وانصرف مذهولا لعدم اهتمامهن بالزيارة ، وتوجه إلى منزله ليردد فخره بمحاسنهن على أسماع الأنتين ستيل ، كما سبق أن ردد على أسماهن فخره بهما .

ولما قمن بزيارتهن للعودة إلى البارك ، وتمرفن إلى الأنتين لم يجدن في منظر كبراهما ما يتبر الإعجاب ، فقد كانت تناهز الثلاثين ، وكان وجهها خاليا من سمات الجمال لا يدل على رقة الشعور . ولسكن اعترفن بأن الأخرى التي لا يزيد عمرها على اثنتين أو ثلاث وعشرين سنة ، قد أوتيت قسطا وافرا من الجمال ، إذ كانت قسما وجهها جميلة ، ونظراتها حادة وسريعة ، وهيتها أنيقة مما كان يميزها عن أختها ، وإن كانت لا توصف في الواقع بأنها رشيقة أو رقيقة وكان سلوكها يتسم بالجمالة الشديدة . ورأت إلينور أنها على جانب من العقل حين رأتهما يكسبان ود ليدى ميدلتون بما يبديان دائما من ضروب الرعاية والاهتمام الدالة على الفطنة ، فسكانتا تظهران السرور بملاعبة الأطفال ، وتمتدحان جمالم ، وتتوددان إليهم وتسايران أهواهم ، وإذا بقي لديهما شيء من الوقت بعد قضاء هذه الواجبات الملحة التي تقتضيها الجمالة ، صرفناه في إبداء الإعجاب بكل ما تعمله ليدى ميدلتون ، إذا صادف أن عملت شيئا ، أو صرفناه في إعداد نموذج لثوب جديد أنيق رأته على هذه السيدة بالأمس فأنار إعجابهما ، ومن حسن حظ الذين يتوددون إلى الناس عن طريق مواطن الضعف هذه ، أن الأم المفرمة بحب أطفالها هي - إلى كونها أسرع الناس إلى تصيد التناء على أطفالها - أسرعهم أيضا إلى تصديق ما يقال عنهم ، فهي شرهة في طاب التناء عليهم وتتبع كل ما يقال عنهم . ولذلك نظرت ليدى ميدلتون إلى ما أبدته الأنتان ستيل نحو

أطفالها من فرط الحب والاحتمال دون أن تخالجا أدنى دهشة أوربية كما نظرت
بمبن الرضا المعروف عن الأم إلى الاعتداءات الوقحة والحيل الخبيثة التي يتعرض
لها أطفالها ، فشاهدت أطفالها وهم يفككون أحزمتها ، ويشدون شعرها حول
آذانها ، ويفتشون في حقائبها ، ويسرقون مدامها ومقصمها ، دون أن يخالجا
أى شك في أن هذا العبث يمث السرور في نفسيهما ، ودون أن يمتريها شيء من
الدهشة اللهم إلا الدهشة لجلوس إليفور ومريان في سكينه وهدهود دون أن تشتركا
في هذا العبث .

وقالت عندما أخذ جون مندبل جيب مس سليل ، وقذفه من النافذة
« جون في غاية الفرح والفرح اليوم ! إنه يأتي من الحليل السكينة ما يشبه
حليل القروء . »

ولم يابث الولد الثاني أن قرض بمنف أظافر السيدة نفسها ، فقالت أمه بحنان
وحب : « وليم ! ياله من ولد لعوب ! »

واستطردت تقول ، وهي تلاطف بركة وحنان طفلة صغيرة عمرها ثلاث سنوات
لم تحدث ضجة في الدقيقتين الأخيرتين : « ها هي ذى أنامارية ، بنتي الحلوة الصغيرة !
دائما لطيفة ووديمة - لم أر في حياتي ما هو أهدأ من هذه الطفلة الصغيرة الوديمة ! »

ولكن حدث لسوء الحظ - وهي تحف أولادها بهذه الأحضان والقبلات - أن خدش دبوس في لباس رأسها رقبة هذه الطفلة خدشا بسيطا ، فصاحت هذه الطفلة التي وصفها بأنها أعموج الرقة والدعة صياحا عنيفا لا يصدر من أى مخلوق مشهور بين الناس بإثارة الجلبة والضجة ، فكانت دهشة الأم بالنة ، ولكن فزع الأنستين كان أبلغ ، وقام الثلاثة في هذه الأزمة الدقيقة بكل ما تلميه الحجة مما عساه أن يخفف من آلام الطفلة الصغيرة ، فأجلستها أمها في حجرها ، وغمرتها بقبلاها ، وجثت إحدى الأنستين على ركبتيها لتضمد جراحها ، ففلسنها بماء اللاوندا ، أما الأنسة الأخرى فغثت فيها بالمسكرات . وكانت الطفلة أعقل من أن تسكف عن البكاء والصياح أمام هذا العطف الذى استدرته دموعها ، فأخذت تصيح وتبجش بالبكاء ، وترفس أخويها لأنهما تقدا إليها ليمسكها ، وأخفت كل الوسائل التي اتخذتها جيما تهدئة الطفلة إلى أن تذكرت ليدي ميدلتون لحسن الحظ أنها استعملت مربى التفاح بنجاح في أزمة مماثلة في الأسبوع الماضى حين أصيب صدغ الطافلة برضوض ، فاقترحت هذا العلاج نفسه لمداواة هذا الخدش الأليم ، وما إن سمعت الطفلة اسم المربى حتى هدأ صياحا ، فكان ذلك باعثا على الأمل في أنها لن ترفض المربى ، فحملتها أمها بين ذراعيها خارج الحجرة بحثا عن هذا الدواء ، وآثر الولدان أن يقبما أمهما مع إلحاحها عليهما بالبقاء ، وبعيت الأنسات الأربع في هدوء لم تعرفه الحجرة عدة ساعات .

وقالت مس ستيل بمجرد أن خرجوا : « مسكينة هذه الطفلة الصغيرة ! لقد كان يخشى أن يكون الحادث محزنا جدا . » فصاحت مريان : « لأدرى كيف يكون ذلك ، اللهم إلا إذا كانت الظروف تختلف عن ذلك تمام الاختلاف . ولكن هذا هو الأسلوب المعتاد لتهدئيل من الفزع حيث لا داعى للفزع في الحقيقة . »
(م ٠١ - العنل والعاطفة)

وقالت لوسى ستيل : « ماألطف ليدي ميدلتون ! »

فلزمت مريان الصمت لأنه كان من المستحيل أن تقول مالا تعتقد مهما بلغت ثقافته. وهكذا وقع عبء الكذب كله على عاتق إليينور كما اقتضته المجاملة. فبذلت جهودها حينما دعتها الضرورة لذلك ، فلهجت بالثناء على ليدي ميدلتون أكثر مما تعتقد ، وإن كان ثنائها دون ما ذكرته الأنسة لوسى بكثير . »

وصاحت الأخت الكبرى : « وسير جون أيضا ، ياله من رجل ظريف ! » وهذا أيضا كان ثناء مس داشوود ثناء بسيطاً وعادلاً ، صادراً بدون أية ضجة فأكثفت بأن قالت : إنه رجل بشوش ودود .

« وما أظرف أطفالها الصغار ! إننى لم أر أظرف من هؤلاء الأطفال فى حياتى — إننى أصرح أنتى أحبهم حبا جما . والحق أنى أهيمن دائماً بحب الأطفال » فقالت إليينور بابتسامة : « لقد حزرت ذلك مما شاهدت فى هذا الصباح . » فقالت لوسى : « يخيل إلى أنك تظنين أن ليدي ميدلتون تسرف فى تدليل أطفالها . وربما كان هذا التدليل يجاوز الحد ولكنه أمر طبيعى فى ليدي ميدلتون وأنا شخصيا أحب الأطفال الذين تنبض نفوسهم بالحياة والروح ، ولا أطيق منظر الأطفال الذين يخلدون إلى الهدوء والدةة »

فأجابت إليينور : « أعترف أنتى لا أنظر أبدا — وأنا فى بارتون بارك — بعينى لملت إلى الأطفال الذين يخلدون إلى الهدوء والدةة . »

وساد الصمت برهة بعد هذا الحديث ، وكانت مس ستيل أول من قطعته إذ كان يبدو عليها الليل لمجازبة أطراف الحديث فقالت فجأة : « وما رأيك فى ديفو

تشار يامس داشوود؟ أظن أنك شعرت بالأسف الشديد لفارقة سسكس .
فأجابت إليينور أنها شعرت بذلك ، واعتزتها بعض الدهشة لما انطوى عليه
هذا السؤال من الجرأة أو على الأقل للهجة التي قيل بها .

وأردفت مس ستيل : « نورلاند مكان جميل . أليس كذلك ؟ »
وقالت لوسى ، وكأنها تلتبس بعض المذر لجرأة أختها : « لقد سمنا سيرجون
يتنى على نورلاند ثناء مستطابا . »

فأجابت إليينور . « أعتقد أن كل من أتيج له أن يشاهد هذا المكان لا يسمعه
إلا الإعجاب به ، ولكن لا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن إنسانا يستطيع أن
أن يقدر محاسنه كما تقدرها نحن . »

« وهل كان فيه كثير من الفتيان الحسان الظرفاء؟ أظن أنك لا تجد
كثيراً منهم في هذه البقعة من العالم . أما أنا فأعتقد أنه يوجد منهم كثير
دائماً . »

وقالت لوسى ، وقد بدا عليها الخجل من حديث أختها : « ولماذا تظنين أنه
لا يوجد في ديفو نشار كثير من الشبان الظرفاء كما يوجد في سسكس ؟ »

« كلا يا عزيزتى ! أنا لا أدعى أنه لا يوجد منهم أحد ، فأنا واثقة أنه يوجد
كثير من الفتيان الحسان للتأقين في إكستر ، ولكن أنى لى أن أعرف ما عسى
أن يوجد من الفتيان الحسان للتأقين في نورلاند . كل ما كنت أخشاه أن
تسمر الآسات داشوود بالملل في بارتون ، إذ لم يجدن فيها من الفتيان الحسان
ما ألفتنه من قبل . ولكنك معشر الفتيات لا تعبان بالفتيان الحسان ، وسواء

عندكن وجودهم وعدمهم . أما أنا فأعتقد أن وجودهم يبعث على الرضا والسرور بشرط أن يكون مايسهم أنيقا وسلوكهم مهذبا ولكنى لا أطيق أن أرى منظرهم قذراً ، وأخلاقهم سيئة . أما منا الآن فى إكستر مسترروز ، وهو شاب أنيق جدا ، وجميل جداً ، يعمل كاتباً لمستر سمبسون كما تعلمين ، ومع ذلك إذا قابلته فى الصباح لا تطيقين النظر إليه - وأظن أن أخاك يامس داشوود كان شاباً متأنقاً جداً قبل أن يتزوج لأنه كان غنياً جداً . »

فأجابت إليثور: « صدقنى أنى لا أستطيع أن أجيئك لأنى لا أفهم معنى هذه الكلامة تماماً . ولكنى أستطيع أن أقول لك هذا ، وهو أنه إذا كان متأنقاً قط قبل زواجه ، فإنه لا يزال كذلك لأنه لم يطرأ عليه أدنى تغيير . »

« عجباً يا عزيزتى ! إن الناس لا يرون أبداً أن للتزوجين متأنقون لأن لديهم مايشغلهم عن التأنىق . »

فصاحت أختها: « يا حفيظ ! لا حديث لك يا آن إلا عن التأنيقين — ستجملين مس داشوود تعتقد أنك لا تفكرين فى شىء آخر » ثم أرادت أن تحول مجرى الحديث فأخذت تنهى على البيت والأثاث .

وكان فى هذا التندر من حديث الأنتين ما فيه الكفاية . فما أظهرته الكبرى من التبذل والجرأة والحماقة لم يدع مجالاً للتناء عليها ، وما انصفت به الصغرى من جمال وذكاء لم يُعمر إليثور عن خبثها ودهائها ، ولذلك غادرت للتزل دون أية رغبة فى زيادة التعرف إليهما .

أما الأنتين ستيل فقد أبدتا عكس هذه الرغبة — لقد جاءتا من إكستر

وهما تلهجان بالثناء على حسن معاملة سيرجون وأهله وجميع أقاربه ، ووجهتها نصيباً غير قليل من هذا الثناء إلى قريباته الحسنات، فصرحتا بأنهما لم تريا من القتيات من يفقهن جمالا وخرقا وأدباً ولطفاً، وأنهما تحرسان على زيادة التعرف إليهن . ولم تلبث إليثور أن رأت أنه لا مفر من زيادة هذا التعارف لأن سيرجون أيد الأنستين سئيل تأييداً كاملاً ، وبذلك عزز جانبها إلى حد لا تجدى معه المعارضة . ولم يكن بد من الإذعان للجلوس معها ساعة أو ساعتين في حجرة واحدة كل يوم تقريباً ، ولم يستطع سيرجون أن يفعل أكثر من ذلك . ولكنه لم يدر أن الأمر يتطلب شيئاً أكثر ، وكان من رأى سيرجون أن الاجتماع معناه زيادة الألفة ، وأنه متى نجحت خطته في استمرار الاجتماع بينهما ، لم يصبح هناك شك في توثيق عرى الصداقة بينهما .

ومن الإنصاف أن نقول : إنه بذل كل مافي وسعه لإزالة التحفظ بينهما إذ أطلع الأنستين سئيل على كل ما يعرفه ظلماً أو يقينا من أحوال أقربائه صغيرها وكبيرها . ولم تكذب إليثور تقابلها أكثر من مرتين حتى هناها كبراهما بتوفيق أختها في الظفر بشاب جميل أنيق منذ قدمت إلى بارتون .

قالت : « من دواعي السرور حقاً أن تزوج مثل هذا الشاب . وقد سمعت أنه شاب أنيق جداً ووسيم جداً وأرجو أن يسمعك الحظ بمثله قريباً . ولكن لعل لك بالفعل صديقاً في السر » .

ولم تكن إليثور تظن أن سيرجون سيبدى من الكياسة في إعلان مايعالجه من ظنون بصدد جهبا لإدوارد أكثر مما أبداه بشأن مريان ، إذ الواقع أنه كان يرى في أمرها مادة للمزاح والمفاخرة أحب إليه من أمر مريان ، باعتباره أمراً

جديداً قابلاً للحدس والتخمين . ولم تتناول معه الغداء منذ زيارة إدوارد دون أن يشرب نخبها متمنيا لها التوفيق في الحب ، بطريقة ذات مغزى ، مكثرأ من إنفاضة الرأس والغمز بالعين إلى حد يثير اهتمام الجميع . وكذلك كان يردد دائماً ذكر الحرف « ف » ويجد فيه مادة خصبة لنكات لاحد لها حتى استقر في يقين إينور أنه أفسكه حرف من الحروف الهجائية .

وكانت الآنستان سقيل تجدان - كما توقعت إينور - أكبر متعة في هذه النكات التي أثار في كبراهما حب الاستطلاع لمعرفة اسم الرجل المشار إليه وعبرت عن هذا الحب بوقاحة تتفق مع الفضول الذي دفعها إلى البحث في شئون الأسرة . ولكن سيرجون لم يلبث أن أشبع غريزة حب الاستطلاع التي طاب له أن يثيرها ، لأنه كان يخلو له على الأقل ذكر الاسم كما يحاو لمس سقيل سماعه .

فقال في همس، تسمعه الأذن : « اسمه فيرارز ولكن أرجوك ألا تذكره لأنه سر كبير » فردت مس سقيل « فيرارز ! هل مستر فيرارز هو الرجل السعيد ! وى ! أخو سلفتك » يامس داشوود ، إنه رجل لطيف حقاً . إننى أعرفه جيداً ؟

فصاحت لوسى ، وكانت تصحح عادة أقوال أختها : « كيف تقولين ذلك يا آف ؟ صحيح أننا رأيناه مرة أو مرتين في منزل خالى ، ولكن ذلك لا يبرر الادعاء بأننا نعرفه جيداً . » وسمت إينور كل ذلك باهتمام ودهشة . « ومن عسى أن يكون هذا الخلال ؟ وأين يقيم ؟ وكيف تاتى لها التعرف به ؟ » وكانت تود كثيراً أن تواصل الحديث في هذا الموضوع وإن لم نشأ أن نشترك فيه ، ولكنهما كفتا عن الخوض فيه . واعتقدت لأول مرة في حياتها أن مسز جننجز تموزها

القدرة على استطلاع دقائق الأمور ، أو تموزها الرغبة في الإنشاء بها . وكانت
اللهجة التي تحدثت بها مس ستيل عن إدوارد مما زاد من فضولها ، لأنها أحست
أنها صدرت بسوء نية ، وظلت أن هذه الفتاة تعرف أو تتخيل أنها تعرف
أشياء في غير صالحه . ولكن هذا الفضول لم يأت بنتيجة لأن مس ستيل لم تعر
الأمر التفاتا حينما أشار سبرجون إلى اسمه ، أو حتى حينما ذكره صراحة .

الفصل الثاني والعشرون

لم تكن مريان التي تمت كل لون من ألوان الوقاحة والتبذل ، وانعطاط الأخلاق ، بل كل من يختلف عنها في ذوقه ومشربه ، تميل في ذلك الوقت خاصة الذي ساءت فيه حالتها النفسية، إلى الترحيب بالآنستين ستيل أو تشجيعهما على خطب ودها . وإلى هذا الفتور الذي اتسم به مسلك مريان والذي صد كل محاولة من جانبها لتوثيق عرى اللودة ، عزت إلي نور حبها لها هي ، الذي تجلي في مسلك كل منها ، ولاسيا لوسى التي لم تدع فرصة تمر دون أن تتجاذب معها أطراف الحديث ، أو تعمل على توثيق أو اصر الصداقة معها بالإعراب الصريح عن عواطفها .

وكانت لوسى ذكية الفؤاد بفطرتها ، كما كانت ملاحظاتها سديدة ومسلية . وكانت إلي نور لا تعمل حديثها إذا لم يزد على نصف ساعة . ولكن التعليم لم يصل ملـكاتها العقلية ، فكانت جاهلة وأمية . ولم يخف على إلي نور ما تنتظر إليه من الثقافة والمعلومات العامة برغم سعيها الدائب للظهور بمظهر المرأة المثقفة . وكانت إلي نور ترى لها لإهمالها مواهبها التي كان يرجى أن يؤدي التعليم إلى صقلها وتهذيبها ، ولكنها لم ترث كثيراً لما يعوزها من رقة الشعور ، واستقامة السلوك ، ونزاهة القصد مما كشف عنه ما أظهرته في البارك من ضروب الاهتمام والسكد واللق . ولذلك لم يسع إلي نور أن تشمر بالارتياح الدائم لصحبة امرأة تجمع بين النفاق والجهل ، ولأنهاها تماقها للتحدث مع إلي نور على قدم المساواة ، امرأة كان سلوكها نحو غيرها يحمل ما تبديه نحو إلي نور من مظاهر الاهتمام والاحترام امرأة لاقية له .

وقالت لها لوسى ذات يوم ، وهما يسيران معا من البارك إلى المنزل الريفي :
« أخشى أن تمدى سؤالى غريبا : هل تعرفين مسز فيرارز أم « سلفتك » ،
معرفة شخصية ؟ »

وفعلا عدت إلينور هذا السؤال غريبا ، وبدا ذلك على وجهها حين أجابتها
أنها لم تر مسز فيرارز قط .

فقالت لوسى : « صحيح ! إنى لأعجب لذلك لأنى ظننت أنك لا بد قد رأيتها
في نور لاند أحيانا . وإن فلديس في وسعك أن تخبرني عن أخلاقها . »
فأجابت إلينور : « بلى ، لا أعرف عنها شيئا . » وهى تحاذر أن تخبرها
برأيها الحقيقي في أم إدوارد ، ولا ترغب كثيرا في إرضاء فضولها .

وقالت لوسى ، وهى تنفرس في وجه إلينور : « أعتقد أنك تظنين أنى امرأة
غريبة الأطوار حدا السؤالى عنها بهذه الطريقة . ولكن لعل هناك أسبابا -
بودى لو استطعت إبداءها - ولكن أرجو ألا تمتدنى أنى أريد أن
أكون فضولية . »

فردت عليها إلينور ردا مهذبا ، وسارتا بضع دقائق في صمت ، ثم قطعتة
وسى التى جددت الحديث في الموضوع فقالت فى شيء من التردد :

« أنا لا أطيق أن تظنى أنى فضولية . أوكد لك أننى أوثر أى شيء
فى العالم على أن تظننى ذلك امرأة يهمنى أن أظفر بحسن ظنها ، كما أوكد أنه
لا يساورنى أدنى خوف من النقمة بك . والواقع أنه يسرنى أن أسمع نصيحتك فيما
يجب أن أفعله فى الموقف المخرج الذى أواجهه . ولكن لاداعى لإزعاجك .
إننى آسفة لأنك لا تعرفين مسز فيرارز »

فقلت إينور بلهجة تم على مزيد الدهشة : « إنتى آسفة لمدم معرفتى بها إذا كانت لك فائدة فى معرفة رأى فيها . ولكن الواقع أنتى لم أفهم قط أنك تتمين بأية صلة لهذه الأسرة ، ولذلك أعترف بأننى أدهش بعض الدهشة لاهتمامك بالسؤال عن أخلاصها . »

« أعتقد أنك تدهشين ، وأنا لا أعجب لذلك إطلاقاً . ولكن إذا أمكننى أن أحدثك عن كل شىء فلن تدهشى كثيراً . صحيح أنه لاصلة لى الآن بمسز فيرارز — ولكن قديحين الوقت — وموعده يتوقف عليها — الذى يتسنى فيه أن ترتبط ارتباطاً وثيقاً . »

وطأطأت رأسها فى استحياء لطيف وهى تقول ذلك ، ونظرت من طرف تخفى إلى صاحبته لترى أثر الحديث عليها .

فصاحت إينور : « يا لله ! ماذا تعنين ؟ أتعرفين مستر روبرت فيرارز ؟ هل أنت مخطوبة له ؟ »

ولم تشعر بكثير من الارتياح لأن تكون هذه الفتاة ساقفةً لها .

فأجابت لوسى : « كلا ! ليس مستر روبرت فيرارز — فأنا لم أره قط فى حياتى ، ولكن — وسلطت نظرها على إينور — لأخيه الأكبر . »

ماذا شعرت به إينور فى تلك اللحظة ؟ الدهشة التى كان يحتمل أن تكون مؤلمة بقدر ما كانت شديدة لولا أنها افترنت بما يكذب هذا الزعم ، واتجهت نحو لوسى فى ذهول وصمت لأنها لم تستطع أن تحزر سبب هذا القول أو الفرض منه ، واسكنها أبت — رغم تغير لونها — أن تصدقه ، ولم تحش أن تتعرض لقبول عصبية أو تحر مفشياً عليها .

واستطردت لوسى : « من حقا أن تدهشى لأنه لم يكن في وسعك أن تعرفي شيئاً عن هذا الأمر من قبل ، فإدوارد - على ما أظن - لم يشر إليه أدنى إشارة لالكِ ولا لأحد من أهلك ، لأننا تماهدنا على كتابته وأعتقد أنني حافظت على هذا السكتان بإخلاص حتى هذه الساعة ، فلا يعرف هذا الأمر أحد من أسرتي إلا الآن ، ولولا حقى التامة بأنك ستكتمين هذا السر لما أخبرتكم به قط . والواقع أنى رأيت أن توجيه هذه الأسئلة الكثيرة عن مسز فيرارز لا بد أن يبدو لك غريباً ، فأردت أن أوضح لك السبب فى ذلك ، ولا أعلن أن مسز فيرارز سيستاء حين يعلم أنى أفضيت إليك بهذا السر لأنى أعرف أنه يحسن الظن بأمر تسكن كثيراً ، ويعدك أنت وجميع أخواتك بمثابة أخواته هو - ثم سكتت . »

ولزمت إلي نور الصمت بضع دقائق . وكانت دهشها لما سمته تجل عن الوصف فى بداية الأمر ولكنها اضطرت فى النهاية أن تتكلم ، وتتكلم بمحذر ، فقالت بهدوء يخفى دهشها وقلقها : « أسمعين لى أن أسألك : هل مضى على خطبتكما وقت طويل ؟ »

« لقد تمت خطبتنا منذ أربع سنوات : »

« أربع سنوات ! »

« نعم »

على أن إلي نور أبت أن تصدق ذلك ، وإن اعترتها دهشة كبيرة .

قالت : « أنا أعلم أنكما تعارقتما منذ أيام قلائل . »

« لكننا تعارفنا منذ سنوات عدة - لقد ظل في كفالة خالي كما تعلمين

مدة طويلة .

« خالك ؟ »

« نعم ، مستر برات . ألم تسمعيه قط يتحدث عن مستر برات ؟ »

فأجابت إليانور : « أظن أني سمعت » وذلك بلهجة قوية لزدادت بازدياد انفعالها .

« لقد عاش أربع سنوات مع خالي الذي يقيم في لونغستيل بالقرب من بليموث ، وهنا بدأ تعارفنا لأنني كنت وأختي نقيم مع خالي ، وهناك تمت خطبتنا . وإن لم يكن ذلك إلا بعد سنة من تركه للدرسة ، ولكنه كان يقيم معنا في غالب الأحيان بعد ذلك . ولم أكن راغبة في عقد الخطبة - وفي وسعك أن تتصورى ذلك - بدون علم أمه وموافقتها . ولكنني كنت صغيرة ، أحبه كثيراً إلى حد لم أستطع معه أن أتسك بأهداب الحكمة كما يتبنى - ومع أنك يامس داشوود لا تعرفينه كما أعرفه فلا بد أنك اختلطت به كثيراً بحيث شعرت أنه يستطيع أن يحمل أية امرأة على أن تحبه بإخلاص . »

فأجابت إليانور : « يقينا » دون أن تدري ما تقول ، ولكنها أردفت بعد أن أطرقت هنيئة ، بلهجة تتم على تجدد ثقتها بشرف إدوارد ومحبه ، وكذب صاحبها : « مخطوبة لمستر إدوارد فيرارز ! » إنى أعترف بأنى أدهش كثيراً لما تقولين ، وأخشى - ومعذرة في ذلك - أن تكونى أخطأت في الشخص أو اسمه . كلانا لا يمكن أن يعنى شخصا واحداً اسمه مستر فيرارز ... »

فصاحت لومى وهى تبتسم : « كلانا لا يعنى شخصا آخر . إن إدوارد فيرارز ، أكبر أبناء مسز فيرارز التى تقيم في بارك ستريت ، وشقيق « سلفتك » مسز جون

داشود هو الشخص الذى أعنيه . يجب أن تسلمى بأنه ليس من المحتمل أن أخطئ . بن اسم الشخص الذى تتوقف عليه سعادتى كلها . »

فأجابت إينور بلهجة تنم على أشد الارتباك : « من الغريب أنى لم أسمعه قط يذكر حتى اسمك . »

« كلا ، لم يكن هذا مستغرباً بالنظر إلى موقفنا . لقد كان همننا الأكبر هو كتمان الأمر - لم تكونى تعرفين شيئاً عنى أو أمرى ، فلم يكن ثمة داع لأن يذكر لك اسمى ، وكان يخشى دائماً أن تعرف أخته عن الأمر شيئاً ، وهذا مبرر كاف لعدم ذكره لك . »

فلازت بالصمت - وفقدت إينور الثقة بنفسها ، ولكنها ظلت محتفظة بضغط النفس .

وقالت بصوت حازم : « مضى على خطبتكما أربع سنوات ! »

« نعم ، والله يعلم كم سننتظر . مسكين إدوارد ! إن هذا سيثبط من همته . ثم أخذت صورة مصفرة من جيبها وأردفت : « تسكرى وتأملى هذا الوجه حتى لا تظنى أن هناك خطأ . من المؤكد أنها صورة لا تمثله تماماً ، ولكنى أعتقد أنك إن تخطئى فى معرفة الشخص الذى أخذت هذه الصورة له . لقد حصلت عليها منذ أكثر من ثلاث سنوات مضت . »

وألقت الصورة ، وهي تتسكلم ، فى يد إينور ، فلم تشك حين رأتها أنها تمثل وجه إدوارد ، على الرغم من الشكوك الأخرى التى قد يولدها فى ذهنها خوفها من التسرع فى الحكم أو رغبتها فى كشف الكذب . ثم أعادتها إليها على الفور معترفة بأنها صورته .

واستطردت لوسى : « لم أستطع قط أن أبادله صورتي ، وهو أمر يؤلخيه كثيراً لأنه ظل يحرص دائماً على الحصول عليها . ولكنى مصممة على تصوير نفسى عند سنوح أول فرصة . »

فأجابت إليينور بهدوء : « أصبت » ثم سارتا بضع خطوات فى صمت . وتكلمت لوسى أولاً .

قالت : « ليس عندى أى شك إطلاقاً فى أنك ستكذب هذا السر يا خلاص ، لأنك تمدين بلا شك أنه بهيئنا كثيراً الا يصل إلى أمه لأنها فيما أعلن لن توافق على زواجنا مطلقاً ، وأنا أعتقد أنها امرأة متطرسة . »

قالت إليينور : « لم أسع قط إلى الحصول على سرى . وأنت لا تخطين إذا اعتمدت على ، فسرك مصون عندى . ولكن ممدرة إذا أعربت لك عن بعض دهشقى لهذا القول لأن معناه أنك شعرت أن اطلاقى على هذا السر قد يؤدى إلى إفشائه . »

وعندما قالت ذلك حدثت فى لوسى لعلها تكشف فى أسارى وجهها مايدل على كذب الشرط الأكبر من حديثها ، ولكنها لم ترفى وجهها أى تغيير .

قالت : « لقد خشيت أن تظنى أنى تجرأت عليك حين أخبرتك بكل ذلك . إننى لم أعرفك منذ زمن طويل - معرفة شخصية على الأقل ، ولكنها عرفتك وعرفت أسرتك بالوصف منذ زمن . وما إن رأيتك حتى شعرت كأنى أعرفك من قديم . وفضلاً عن ذلك رأيت من حقل على فى قضيتى الحاضرة أن أقدم لك بعض الإيضاح ، وذلك بعد أن سألتك عن أم إدوارد ولم يسعدنى الحظ . إن

يهي لي مخلوقاً أستطيع أن أستشير به . وأن هي الشخص الوحيد الذي يعرف هذا الأمر ، ولكنها لا تبدي رأياً على الإطلاق . والواقع أن ضررها أكبر من نفعها لأنني أخشى دائماً أن تفشى سرى ، فهي لا تعرف كيف تمسك لسانها كما تبين لك . وقد ارتعدت فرائصي أخيراً حينما ذكر سيرجون اسم إدوارد ، خشية أن تفضى بالأمر كله . وأنت لا نستطيعين أن تتصورى كم أعانى من الآلام النفسية من جراء هذا الأمر . وإني لأعجب كيف تسنى لي أن أعيش بعد كل ما قاسيت . من أجل إدوارد خلال السنوات الأربع للاضية . كنت نهياً للبلابل والهواجس . ولم أكن أراه إلا قليلاً - إذ كنا لانتلقى أكثر من مرتين في العام . وإني لأعجب كيف لم يتحطم قلبي . »

وهنا أخرجت مندليها ، ولكن قلب إينور لم يرق لها كثيراً .

واستطردت لوسى بعد أن مسحت دموعها : « أحياناً أقول : ليس من الخير لنا أن نفسخ الخطبة ؟ » وعندما قالت ذلك صرحت نظرها إلى صاحبها : « ولكن من جهة أخرى يخوننى العزم أحياناً - لأنني لا أطيق أن أحزن إدوارد ، وأنا أعلم أن مجرد ذكر هذا الأمر سيحزنه . وأنا أيضاً لا أطيق هذه الصدمة لأنني أحبه حبا جما . ماذا تشيرين به على في هذه الحال ياس داشوود ؟ ماذا تفعلين لو كنت مكانى ؟ »

فأجابت إينور وقد أفرغها هذا السؤال : « معذرة اليس في وسنى أن أسدى إليك أية نصيحة في مثل هذه الظروف ، وعليك أن تسترشدى برأيك . » واستطردت لوسى تقول ، بعد أن ألزم الجانبان الصمت بضع دقائق : « لا بد لأمه أن تكفل له وسائل العيش إن عاجلاً وإن آجلاً . ولكن إدوارد منكسر

الخطاطر بسبب ذلك . ألا ترين أنه كاسف البال في بارتون؟ لقد كان يشعر بالألم حيناً تركنا في لونغستيل ليذهب إليكن حتى لقد خشيت أن تظني أنه مريض .

« هل قدم من عند خالك إذن عندما زارنا ؟ »

« أوه ! نعم ، أقام عندنا أسبوعين . هل ظننت أنه قدم من لندن مباشرة ؟ »

فأجابت إلينور وهي تتنبه لسكر قرينة جديدة تؤيد صدق لوس « كلا ! أذكر أنه أخبرنا أنه أقام مدة أسبوعين عند بعض الأصدقاء في بليموث . وتذكرت إلينور دهشتها أيضاً في ذلك الوقت حين أبى أن يذكر شيئاً عن هؤلاء الأصدقاء وصمت حتى عن ذكر أسمائهم . »

فرددت لوس « ألم تعتقدى أنه كاسف البال ؟ »

« بلى ، لا سيما عندما قدم لأول وهلة . »

« لقد رجوته أن يتجلد خشية أن تظني أنه ألت به نازلة . ولكنه تألم كثيراً لأنه لم يستطع أن يقيم عندنا أكثر من أسبوعين ، ولأنه رأى متأثرة لقرائه — وهاهنا له ! إنى لا أخشى أن يكون الآن كاسف البال أيضاً ، فقد كتب لى بلهجة تقطر أسى ، وقد تلقيت منه خطاباً قبيل مبارحتى لإكستر ، وأخرجت خطاباً من جيبها ، وأطلعت إلينور على عنوانه بدون مبالاة ، « أنت تعرفين خطه . لاشك أنه جميل جداً ، ولكن خطه في هذا الخطاب أقل جمالا من خطه المعتاد — كان متعباً لاشك لأنه ملأ الورقة كلها بالكتابة . »

ورأت إلينور أن الخطاب مكتوب بخطه ، ولم يمد يداورها أى شك في

الأمر . وكانت ترى أن الصورة ربما تم الحصول عليها بطريقة الصدفة ، وربما لم تكن هدية من إدوارد . أما للرسالة بينهما بطريق الخطابات فلا يمكن أن تتم إلا إذا كانا مخطوبين بالفعل ، ولا يمكن التصريح بها إلا في ظل الخطبة . وكاد يستولى عليها الأسي بضع دقائق ، واستبد بها الأيس والقنوط ، ولم تستطع الوقوف على قدميها ، ولكن لم يكن بد من التجلد ، لمحاولت جهدها أن تخفي شعورها بالأسي ووقفت في ذلك سريريا ، وكان توقيتها تاما إلى حين .

وأعدت لوسى الخطاب إلى جيبها وقالت : « للرسالة هي السواى الوحيدة فى هذا القراق الطويل . نعم إن لى سلوة أخرى فى صورته ، ولكن إدوارد للسكين تعوزه حتى هذه السلوة ، فلو كان يحتفظ بصورتى ، لنعم براحة البال كما قال . لقد أعطيته خصلة من شعري وضمها فى خاتم حينما كان فى ونجستيل آخر مرة ، وقال : إن فى ذلك بعض العزاء ، ولكنه لا يعادل الصورة . ولعلك لاحظت الخاتم حينما قابلته . »

قالت إينور : « لقد لاحظته » وذلك بصوت هادىء . يخفى تحت شعورا بالأسي يقصر دونه الوصف . واستولى عليها الكمد والقزع والملعق .

ولحسن حظها أنها وصلنا حينئذ إلى المنزل الرقيق ، فلم يتسن لها مواصلة الحديث ، وجلست الآنستان ستيل مع الأسرة بضع دقائق ثم عادت إلى البارك ، وحينئذ خلا الجو لإينور لتفكر كما نشاء وتمزج كما نشاء .

الفصل الثالث والعشرون

مهما بلغ من شك إينور في صدق لوسى فقد كان من المستحيل عليها عندما تنعم النظر أن تشك في قصتها الحاضرة حيث لا داعى يمدوها إلى اختلاق قصة كاذبة من هذا القبيل . ولذلك لم تستطع إينور أن تشك ولم تعد تجرؤ على الشك في القصة التي أكدت لوسى صحتها ، وأيدها القرائن والبراهين من كل جانب ، ولم يناقضها إلا أمانيا هي . ولقد كانت الفرصة التي سنحت للتعرف بين لوسى وإدوارد بمنزل مستر برات هي الأساس الذى انبنى عليه كل ما حدث بعد ذلك ، وهو أمر لا نزاع فيه ، كما أنه يثير الفزع . وكانت الزيارة التي قام بها إدوارد بالقرب من بليموث ، والكأبة التي خيمت عليه ، وعدم ارتياحه إلى المستقبل ، وتقلب مسلكه إزاءها ، ومعرفة الآنتين سقيل بنورلاند وبأقاربهم معرفة وثيقة أثارت دهشتها كثيراً ، والخطاب والخطام — كل ذلك كان حشداً من الأدلة لا يدع لديها مجالاً للخوف من إدانته بغير حق ، كما ثبت سوء معاملته لها على نحو لا يستطيع أى محب له أن يتقاضى عنه . وكان استيائها لسلوكه ، وسخطها لكونها هي ضحية هذا السلوك مما جعلها ترى لحالها برهة من الزمن ، ولكن سرعان ما طافت بذهنها أفكار واعتبارات أخرى : هل كان إدوارد يتمدد خداعها ؟ هل كان يتظاهر بحب لا يتجلبه ؟ هل مصدر خطبته هو الحب ؟ كلا ! مهما يكن مصدرها في الماضى فلا يمكن فى اعتقادها أن يكون كذلك فى الحاضر . لقد كان يصفىها الحب كله . لم يكن يضالها أى شك فى ذلك . لقد كانت أمها وأخواتها وفانى كلهن يشعرن بحبه لها فى نورلاند . ولم يكن ذلك ضرباً من الوهم زينه لها الفرور . كان يحبها يقيناً .

وما كان أشد تأمير هذا الاعتقاد في تهديئة روعها ! وما أشد ما كان يحملها على عدم القو عنده ! لقد كان ملوما وملوما جدا حين يقى في نورلاند بعد أن شعر أولاً أن سلطان حبها عليه أقوى مما ينبغي . لم يكن له عذر في هذا البقاء . ولكن لئن كان قد أساء إليها ، لقد أساء إلى نفسه أكثر ، ولئن كانت حالها تدعو إلى الرثاء ، لقد كانت حاله تدعو إلى اليأس . لقد أثار تهوره في نفسها لواعج الحزن والألم فترة من الزمن ، ولكنه هو لم يكن أقل حظاً منها في ذلك . إنها قد تنعم بالطمأنينة وراحة البال على مر الزمن . أما هو فإذا يأمل في المستقبل ؟ هل يمكن أن ينعم بالسعادة مع لوسى سقيل ؟ هل في وسعه — بفرض أنه لم يعد يجب إلي نور — أن يرضى مع أماتته وورقه وثقافته عن زوجة مثل لوسى تتصف بالجهل والسكر والأنانية .

لاريب أن الافتتان الذى يعترى الشاب في سن التاسعة عشرة يعميه عن كل شيء إلا جمالها ودمائة أخلاقها ، ولكن من المؤكد أن السنوات الأربع التالية — وهى سنوات إذا أحسن الإنسان الانتفاع بها ثقفت عقله — فتحت عينيه على ما تنصف به من نقص الثقافة بينما قضت هى هذه المدة نفسها في صحبة السفلة من الناس وإتيان الأعمال الطائشة فسلبتها تلك البساطة التى كان يحتمل أن تزيد من جمالها .

وإذا كان قد اقي عقبات كبيرة من جانب أمه عندما سعى إلى الزواج بإلينور فما أشد ما سيلقاه من العقبات إذا كانت الفتاة التى خطبها أدنى منها نسبياً ييقين ، وربما كانت أقل منها ثروة . وقد يتسع صبره لاحتمال هذه العقبات بالإضافة إلى كراهية أمه للوسى . ولكن العجب أن تشمر بالأسمى من فى وسعها أن ترى فى معارضة أمه للمتنتزة وقسوتها ضرياً من العزاء !

لقد بكت عليه أكثر مما بكت على نفسها حينما طافت بذهنها هذه
الاعتبارات للؤلؤة . وكان يعزيبها في مصابها اعتقادها أنها لم تفعل ما تستحق
عليه هذا الشقاء ، وأن إدوارد لم يأت ما يفقده تقديرها ، ولذلك رأت أنها
تستطيع حتى مع هذه الضربة الأليمة التي أصيبت بها أن تتنزع بضبط النفس حتى
يتسنى لها أن تحول دون أن تلمح أمها أو أختها أية شبهة من الحقيقة . وقد
استطاعت أن تحقق ما أرادته للدرجة أنها حين اشتركت معهن في طعام الغذاء
بعد ساعتين فقط من انهيار أعز آمالها ، لم يكن في وسع أحد أن يعرف من منظر
الأختين أن الينور تشعر في قرارة نفسها بالألم لقيام العقبات التي من شأنها أن
تفرق بينها وبين حبيبها إلى الأبد ، وأن مريان تتأمل في باطنها محاسن رجل
تسهر أنها احتلت سويداء قلبه ، وتتوقع أن تراه في كل عربة تمر بالقرب
من الازل .

وكان وجوب كتمان ما استودعته من سر على الرغم مما كان يكلفها من جهد
مستمر لايزيد من آلامها ، بل على العكس كان يخفف منها لأنه أعفاها من
مشوثة الإفضاء إليهن بما يؤلمهن ، كما أعفاها من سماع ما يعتمل أن تسيل به
أفواههن من توجيه اللوم المقذع لإدوارد بدافع من حبهن لها ، وهو أمر أفظع
من أن تطيق سماعه .

ثم عرفت أنها لن تستطيع أن تجد أي عزاء في مشورتين أو حديثهن ،
وأن حنانهن وأسفنهن سوف يزيد من آلامها كما أنهن لن يشجعنها على التنزع
بضبط النفس سواء بالأسوة الحسنة أو الثناء الجميل . وكانت تشعر وهي
وحدها أنها أشد قوة ، وتجد في عقلها وحسن إدراكها ما يعينها على احتمال آلامها
إلى حد أحست معه بأن عزمها لا يتزعزع وأن مظهرها للروح لا يتغير ، وذلك
بالتقدير الذي يمكن أن يحس به أي إنسان يكابد مثل هذه الآلام للبرحة الطارئة .

ولم تلبث أن شعرت برغبة شديدة في تجديد الحديث مع لومى على الرغم من أنها تأملت كثيراً من حديثها الأول في الموضوع ، وهذا لأكثر من سبب ، فقد أرادت أن تسمع من لومى ثانية كثيراً من تفصيلات خطبتهما ، وأرادت أن تفهم بصورة أوضح حقيقة شعور لومى نحو إدوارد ، وهل هى صادقة فيما قالت من أنه تحبه حباً جماً ، ثم أرادت بوجه خاص أن تقنع لومى - باستمداها للتحدث في الموضوع مرة أخرى ، وهدوئها في مناقشته - أنها لا تهتم بالأمر إلا بوصفها صديقة ، وذلك أنها خشيت أن يكون الاضطراب الاضطرابى الذى اعترأها حين استمعت إلى حديثها في الصباح قد ترك على الأقل في نفسها بعض الشك في ذلك .

وكانت إينور تظن أن لومى تشعر بالغيرة منها ، فقد اتضح لها أن إدوارد كان يلهج دائماً بالثناء عليها لا من أقوال لومى بحسب ، ولكن من إقدامها - بعد أن تعرفت إليها بفترة وجيزة - على الإفضاء بسر لا تخفى أهميته . وكذلك كان للخبر الذى أوردته سيرجون موردالطابة بعض الأثر في هذه الغيرة . ولكن الواقع أن إينور كانت تعتقد في قرارة نفسها أن إدوارد يحبها حقاً ، ولذلك لم تكن بحاجة إلى قرينة أخرى تثبت أن غيرة لومى أمر طبيعى ، والدليل على ذلك هو إفضاؤها لها بسرهما . وأى سبب للإفضاء به يمكن أن يتصوره العقل إلا أن لومى تريد أن تفهمها أنها أحق منها بإدوارد ، وتحذرهما من الانصال به في المستقبل ، وهكذا لم تجد عناء كبيراً في فهم الكثير من مقاصد غريبتها . ولكن إينور حين عقدت العزم على معاملتها بما تقضى به مبادئ الشرف والأمانة ، وأن تسكب جراح حبها لإدوارد وتقلل من مقابلته بقدر الإمكان ، أرادت أن تريح بالها بإقناع لومى أن قلبها لم يجرح . وإذا كانت لا تتوقع أن تسمع ما يؤلمها أكثر

كما سمعته من قبل ، لم تشك في قدرتها على سماع قصة لومى مرة أخرى ، بكل هدوء وسكينة .

ولكن الفرصة لم تسنح في الحال ، وإن كانت لومى تميل مثلها إلى انتهاز كل فرصة تسنح لها لتعيد حديثها ، فقد كان الطقس في أغلب الأوقات لا يسمح بخروجها مما للتنزه ، حيث يتيسر لهما أن تفترا عن سواهما بكل سهولة . وعلى الرغم من التقائهما في المساء يوما بعد آخر على الأقل ، إما في البارك وإما في المنزل الريفى - وخاصة في الأول - فإن الغرض من هذا اللقاء لم يكن هو تجاذب أطراف الحديث ، فقد كان ذلك أبعد الأشياء عن تفكير سيرجون ومسز جنجنز . ولذلك لم يكن ثمة إلا فرصة ضئيلة للحديث العام ، ولا فرصة على الإطلاق للحديث الخاص . وكان الغرض من الاجتماع هو الاشتراك في الطعام والشراب والضحك ولعب الورق ولعبة القصة أو أى نوع آخر من اللعب الصاحب .

وتم اجتماع أو اجتماعان من هذا القبيل دون أن تتاح الفرصة لإينور للتحدث مع لومى على انفراد ، ثم جاء سيرجون ذات صباح إلى المنزل الريفى ليرجو باسم الحجة أن يتفضلن جميعاً بتناول طعام الغداء مع ليدى ميدلتون في ذلك اليوم ، وذلك بسبب اضطراره لشهود النـاـدى فى إكستر ، وبذلك ستكون ليدى ميدلتون وحدها هى وأما والآنستان ستيل . وقبلت إينور الدعوة في الحال لأنها كانت ترى أن المجال أفسح لإثارة للوضوع الذى تريده ، بين هذه الجماعة التى يحتمل أن تتمتع بينها بالحرية تحت توجيه ليدى ميدلتون الهادى المهدب أكثر مما تتمتع به حين يجهدها سيرجون على غرض واحد صاخب . وكذلك وافقت مرجريت بعد أن أذنت لها أمها بذلك . وكانت مريان تذكره دائماً أن

تشارك في هذه الاجتماعات ، ولكن أمها أقنعتها بالذهاب كذلك لأنها لا تطيق أن تحرمها من أية فرصة من فرص اللهو والتسلية .

وذهبت الفتيات ، وسعدت ليدى ميدلتون بهن ، لأنهن أزلن الوحشة الخفيفة التي هددتها . وكان الاجتماع تافها كما كانت إلي نور تتوقع . ولم يظهر فيه أى رأى أو قول جديد ، ولم يكن ثمة ما هو أمتع من حديثهن سواء في غرفة الطعام أو حجرة الاستقبال ، وقد راققهن الأطفال في الحجرة الأخيرة ، ورأت إلي نور وهن جالسات فيها أنه يتمذر أن تسترعى انتباه لوسى . ولم يغادرن الحجرة إلا بعد أن رفقت منها معدات الشاى ، ونصبت مائدة الورق ، وعجبت إلي نور لأنها علت نفسها بالأمل في وجود الفرصة المناسبة للحديث في البارك . ثم نهضن جميعاً للاشتراك في لعبة الورق الدائرية .

قالت ليدى ميدلتون للوسى : « يسرنى ألا تنجزى سلة أنا مارية الصغيرة هذا للساء ، لأنى أعتقد أن الاشتغال بالزركشة التخريبية على ضوء الشموع يضر بعينيك . وأنا سأطيب خاطرها بما يموضها عن ذلك غداً ، وحينئذ لن تهتم بالأمر كثير . »

وكانت هذه الإشارة كافية لأن تذكر لوسى فأجابت : « الواقع أنك مخطئة جد الخطأ يا ليدى ميدلتون . لقد كنت أنتظر فقط لأرى هل تستطيعين تكوين فريق اللعب بدونى ، ولولا ذلك لبدأت التخريم من قبل . أنا لا أريد أن أكرس خاطر الفتاة الصغيرة بأى حال من الأحوال وإذا أردت أن أشارك في اللعب ، أنجزت السلة بعد العشاء . »

« إنك طيبة القلب جداً ، وأرجو ألا تضرى عينيك - هل لك في أن تدق
الجرس لإحضار بعض الشموع ؟ إننى أعرف أن الفتاة الصغيرة ستجزن كثيراً
إذا لم تَمِ السلة غدا . وهى واقفة من الحصول عليها غدا ، مع أنى أخيرتها أنها لن
تحصل عليها . »

وأذنت لوسى مائدة الشغل منها ، وجلست أمامها بخفة ومرح بدلان على
أنها لا تجد متعة أكبر من العمل فى تخريم سلة لطفلة مدللة .

واقترحت ليدى ميدلتون على الباقيات أن تلعبن لعبة الورق المعروفة باسم
كازينو ، ولم يمارض فى ذلك إلا مريان التى صاحت دون مبالاة - كما دأبها - بما
تقضى به أصول المجاملة : « أرجوك أن تعفينى من اللعب ، فأنت تلعبن أننى أمقت
لعب الورق . سأذهب إلى البيان فإنى لم أعرف عليه منذ إصلاحه ، ثم ذهبت
إلى للزف . »

ونظرت إليها ليدى ميدلتون وكأنها تحمد الله لأنها لم تتكلم قط بمثل هذه
اللهجة الجافية .

وقالت إينور محاولة التخفيف من وقع الإساءة : « مريان لا تطيق البعد عن
البيان زمنا طويلا ياسيدتى . وأنا لا أعجب لذلك كثيراً لأن هذا البيان أشجى
ما سمعت من المعازف نتما . »

وأخذت الخمس الباقيات تلعبن الورق .

واستطردت إينور : « إذا أتيج لى أن أقطع الأوراق فلعلى أستطيع أن أساعد

مس ستيل في طي الورق وأظن أن السلة لا تزال بحاجة إلى عمل كثير بحيث يتمكن عليها أن تعمل منفردة وأن تفرغ منها هذه الليلة . إنني أرحب بالعمل إذا سمحت لي بالمشاركة فيه . »

فصاحت لومي : « لاشك ، إنني أشكرك على معاونتك ، فقد ظهر لي أن السلة تحتاج إلى عمل أكثر مما قدرت ، وأنا لا أريد أن أكسر خاطر أنا مارية العزيزة على كل حال ، فهذا أمر فظيع . »

وقالت مس ستيل : « أوه ! حقاً سيكون أمراً فظيماً . كم أحبك يا روهي العزيزة ! »

وقالت ليدي ميدلتون لإلينور : « ما أرق شعورك ! وإذ كنت تحببني المشاركة في العمل فأظن أنه يحسن ألا تشتركي في اللعب حتى يبدأ دور آخر أم تريد أن تدخل في الآن ؟ »

وأخذت إليينور بالاقتراح الأول وهي تشعر بالسرور . وهكذا بقليل من الكلام المسول الذي أبت مريان أن تقوله استطاعت إليينور أن تحقق غايتها ، وتدخل السرور على ليدي ميدلتون في الوقت نفسه . وبادرت لومي بإقناع المسكان لها ، وهكذا جلست الفانيتان المتنافستان جنباً لجنب إلى مائدة واحدة ، واشتركتا في عمل واحد وهما في غاية الانسجام والوفاق . ومن حسن الحظ أن البيان الذي جلست إليه مريان مستفرقة في غناها وأفكارها ، حتى نسيت أن أحداً معها في الحجر ، كان قريباً منهما بحيث رأت مس داشوود أن في وسعها أن تبدأ حديثها الهام ، وهي آمنة ، في ضجيج العزف على البيان ، دون أن تخشى أن تسمعه إحدى الجالسات حول مائدة الورق .

الفصل الرابع والعشرون

وبدأت إينور الحديث بلهجة حازمة ، وإن كانت تقسم بالهذر فقالت :
« لا أعد نفسي جديرة بالثقة التي أوليتني إياها إذا لم أشعر بالرغبة في
استمرارها أو في المزيد من المعلومات عن الموضوع ، ولذلك لا أجدني بحاجة إلى
الاعتذار عن إثارته من جديد . »

فصاحت لوسى بمرارة : « شكراً لك لمفاتيحي في الحديث . لقد أرحت
بالي بذلك لأنني كنت أخشى أن أكون أسأت إليك بما أخبرتك به يوم
الاثنين . »

« أسأت إلى ا كيف يتبادر هذا الظن إلى ذهنك ؟ صدقيني (قالت إينور
ذلك بكل إخلاص) إنني أبعد ما يكون عن التفكير في ذلك . وهل يعقل أن
يكون السبب الذي حدا بك إلى الثقة بي سبباً غير شريف أو لا يدل على
التقدير لي ؟ »

فأجابت لوسى وعيناها الحادتان مليقتان بالمعاني : « ومع ذلك أؤكد لك أنني
لاحظت عليك من أمارات الفتور والنفور ما أقلق بالي ، وجماني أعتقد أنك
غضبت مني وظللت أعاتب نفسي من ذلك الوقت لاجترأني عليك بحيث أزعجتك
بالحديث في شتوي . ولسكني أشعر الآن بسرور كبير لأنني عرفت أن ذلك من
هواجس خيالي ، وأنتك غير عاتبة علي . وإذا عرفت كم شعرت بالسوى والعزاء
حين أرحت بالي بالتحدث إليك عما يشغل فكري في كل لحظة من لحظات
حياتي لدفتك الرأفة إلى التجاوز عن كل هفواتي . »

« الواقع أنني أستطيع أن أحرك بسهولة أن إفضاءك لي بمالك كان فيه راحة كبيرة لبالك، وحق أنك لن تندى عليه أبداً. وحالتك تبعث على الأسف الشديد، ويبدولى أن نمة صماباً تعترض سبيلك، ولكن محبتك للتبادة ستكون عوناً لكما على تذليل هذه الصماب. وأعتقد أن مستر فيرارز يمتد على أمه اعتاداً كلياً. »

« إنه لا يملك سوى أنني جنيه. ومن الجنون أن يقدم الإنسان على الزواج بمثل هذا المبلغ، وإن كنت أنا شخصياً لا أطمع في أكثر منه. وقد اعتدت دائماً أن أعيش بدخل ضئيل جداً. وفي وسمى أن أ كافح أى لون من ألوان الفقر في سبيله، ولكنى أحبه حباً يمتنى من أن أكون أنا نية، أسلبه كل ما عسى أن تعطيه أمه إذا تزوج الزوجة التي تريدها. وأرى زاماً علينا أن ننظر، وقد يدوم هذا الانتظار عدة سنين. وهذا الانتظار ينذر بشر مستطير في حق كثير من الرجال، أما إدوارد فأنا أعلم أنه لن يستطيع أحد أن يجرمنى من محبته ووفائه. »

« يجب أن يكون في هذا الاعتقاد أكبر عزاء لك، وهو بلا شك يثق فيك كما تتعين فيه. ولو وهنت قوة حبكما للتبادل — كما يحدث بالطبع بين كثير من الناس وفي كثير من الأحوال، خلال الخطبة التي تدوم أربع سنوات — لكانت حالك تدعو إلى الرثاء حقاً. »

فرقت لوسى عينيها، ولكن إلي نور حرصت ألا يبدو على وجهها أى مظهر يفضي على كلالها معنى يشير الشبهات في نفس لوسى.

وقالت لوسى: « لقد وضعت محبة إدوارد لي موضع الاختبار خلال غيابنا الطويل منذ أن تمت خطبنا، فثبتت على محك الاختبار بحيث يعد ارتياي فيها

ذنباً لا يفتقر . وفي وسعى أن أقول وأنا مطمئنة : إنى لم أر منه منذ البداية ما يثير الخوف فى نفسى لحظة واحدة . »

ولم تدر إلبنور أنضحك أم تنهد لهذا القول .

ثم استطردت لوسى قائلة : « وأنا أيضاً أميل إلى الغيرة بطبعى . وكان اختلاف مركزنا فى الحياة ، وخبرته بأحوال الدنيا أكثر منى ، وفراقنا المستمر ، من الأمور التى جعلتنى أميل إلى الارتياح بحيث أعرف حقيقة الأمر فى الحال إذا لاحظت أدنى تغيير فى سلوكه نحوى عند لقائنا ، أو أى اكتئاب لا أدرى له سبباً ، أو إذا أكثر الحديث عن امرأة دون أخرى ، أو أظهر من السرور فى لونغستيل أقل مما اعتاد أن يظهره على أى وجه من الوجوه . لا أريد أن أقول : إننى دقيقة للملاحظة أو ثاقبة النظر بوجه عام ، ولكن أريد أن أقول : إنه لا يمكن أن يخدعنى فى مثل هذه الحالة . »

وقالت إلبنور فى نفسها : « كل ذلك جميل جداً ولكنه لا ينطلى علينا نحن الاثنين . »

وقالت بمد أن أطرقت هنية : « ولكن ما هو رأيك ؟ هل ترين ضرورة الانتظار حتى تموت مسز فيرارز وهو أمر يثير الأسى والفرع ؟ هل ابنها مصمم على قبول ذلك ، واحتمال ضجر الانتظار عدة سنوات — وهو الضجر الذى قد يعتربك أيضاً — بدلا من أن يتعرض لسخطها برهة من الزمن إذا اعترف بالحقيقة ؟ »

« إذا تأكدنا أن هذا السخط سيدوم برهة من الزمن ! ولكن مسز

فيرارز امرأة عنيدة متكبرة ، وإذا بلنهما انلبر فلن تتردد في فورة الغضب أن توصى بثوتها كلها لروبرت . وكما فكرت في هذا الأمر ، رأيت أن مصلحة إدوارد تدعوني إلى التريث .

« وكذلك مصالحتك أيضاً ، وإلا فأنت تظهرين من نزاهة القصد ما يجاوز حد المقول . »

ونظرت لوسى إلى إينور مرة أخرى ، ولاذت بالصمت .

وسألها إينور : « هل تعرفين مستر روبرت فيرارز ؟ »

« لا أعرفه إطلاقاً — لم أره قط . ولكنى أظن أنه يخالف أخاه كثيراً ، فهو سخيّف ومتحذلق كبير . »

فرددت مس ستييل « متحذلق كبير ! » وطرقت أذنها الكلكتان أثناء توقف مريان عن المزف .

« عجباً أظن أنهما يتحدثان عن مجبان من الفتيان الحسان . »

فصاحت لوسى : « كلا يا أختي ! أنت مخطئتي ظنك . إن أحبابنا من الفتيان الحسان ليسوا متحذلقين . »

وقالت مسز جننجز وهي تقيمه : « أستطيع أن أوكد أن حبيب مس داشوود ليس متحذلقاً ، فهو من أكثر الناس تواضعاً ، وأكثر من عرفت من الشبان أدباً . أما لوسى فهي فتاة صغيرة ماكرة ، ولا سبيل لمعرفة من تحبه . »

فاستدارت مس ستييل ونظرت إليها نظرة ذات مغزى قائلة : « أوكد أن

حبيب لوسى متواضع ومؤدب كحبيب مس داشوود . »

وظهرت على إيلينور حمرة الخجل على كره منها ، وعضت لوسى شفتيها ، ونظرت إلى أختها نظرة تنم على النضب ، ولاذت كلتاها بالصمت برهة . وقطعت لوسى الصمت ، فقالت فى صوت خافت ، وإن كانت صريان تعزف لمن فى ذلك الوقت لحناً موسيقياً قوياً رائماً يحمى الأسماع من سماع صوتها :

« سأحدثك بإخلاص عن مشروع خطر بيالى أخيراً لأوضح لك الأمور والواقع أراى مضطرة لأن أطلعك على السر لأنك من الأطراف التى بهمها الأمر وأظن أنك قابلت إدوارد كثيراً بحيث عرفت أنه يؤثر العمل فى الكنيسة على أى مهنة أخرى . ومشروعى هو أن يبادر إدوارد إلى الدخول فى رتبة الكهنوت ما استطاع ، ثم تتوسلن له لدى أخيك ليعطيه أبرشية نورلاند ، وأنا واثقة أنك ستستخدمين نفوذك لدى أخيك بدافع من صداقتك لإدوارد ، وأرجو أن يكون بدافع من حبك لى أيضاً . وقد علمت أن هذه الأبرشية ذات إيراد طيب ، وأن القسيس الحالى لا يحتمل أن يعمر طويلاً . وهذا يكفيننا لزواج ، ثم ترك الباقى لازم والظروف . »

فأجابت إيلينور : « يسرنى دائماً أن أبدى أى مظهر من مظاهر التقدير والصداقة لإدوارد ، ولكن ألا ترين أن وساطتى فى هذا الأمر قد لا تكون لها ضرورة على الإطلاق ؟ فهو شقيق مسز جون داشوود ، وهذه الصلة تزكية كافية له عند زوجها . »

« ولكن مسز جون داشوود قد لا توافق على دخول إدوارد فى رتبة الكهنوت . »

« إذن لن يكون لوساطتى تأثير كبير . »
ولاذن بالصمت مرة أخرى عدة دقائق ، وأخيراً تهدت لوسى تهدأ
عميقاً وقالت :

« أعتقد أن أصوب وسيلة هى إنهاء هذا الأمر فوراً وفسخ الخطبة . فالصعب
تحيط بنا من كل جانب فيما يبدو ، وإذا كنا سنأسف على ذلك بعض الوقت ،
فقد نشعر بالسرور فى نهاية الأمر ، ولكن ألا تقدمين لى مشورتك يا مس
داشود ؟ »

فأجابت إليفور بأقسامة تخفى ما تشعر به من اضطراب شديد : « كلا !
لن أسدى إليك مشورتى فى الأمر . فأنت تعرفين جيداً أنه لن يكون لرأى ووزن
عندك ، ما لم يكن متفقاً مع رغباتك . »

فأجابت لوسى بلمحة الجد : « الواقع أنك تظلمينى ، فأنا لا أقدر رأى إنسان
كما أقدر رأىك . وأعتقد أنك إذا قلت لى : « إتنى أنصح لك بكل وسيلة أن
تضى حداً لخطبتك مع إدوارد فيرارز لأن هذا سيكون أدمى إلى سعادتك
وسمادته » صممت على فسخها من فورى .

واصطبقت وجنتا إليفور بالجلجلى لنفاق زوجة إدوارد المستقبلية وأجابت : « هذا
الثناء من شأنه أن يجملى أردد فى إبداء رأى فى الأمر ، لو كان لى فيه رأى ،
كما أنه يجملى لى من التأثير أكثر مما لى . وليس فى مقدور شخص محايد أن
يفرق بين شخصين يجمع بينهما الحب الشديد . »

فالت لوسى : « ومن أجل أنك شخص محايد أقيم أنا ووزناً خاصاً لرأىك »

بشيء من الافعال ، ومؤكدة هذه الكلمات « وما كنت لأفكر في استشارتك
لو خاسرني الظن بأنك تتأثرين بمواطفتك بوجه من الوجوه . »

ورأت إلي نور من الحكمة ألا نجيب على ذلك حتى لاسترسل في الحديث ،
إلى حد ترتفع فيه الكلفة ، ويزل التحفظ . وذهب بها الأمر إلى حد أنها أضمرت
في نفسها ألا تذكر الموضوع مرة أخرى . ثم ساد الصمت عقب هذا الحديث
عدة دقائق وكانت لوسي أيضا هي أول من قطعه .

قالت بهجتها الرقيقة للعتادة : « هل ستذهبين إلى لندن هذا الشتاء يا مس
داشود ؟ »

« كلا ! »

فأجابت الأخرى وقد برقت عيناها بالسرور عند سماعها هذا الخبر : « يؤسفني
ذلك وكان يسرني أن ألقاك هناك ! ولكن أظن أنك ستذهبين إليها على الرغم
مما تقولين ، لأنه من المؤكد أن أخاك وأختك سيدعوانك إلى زيارتهما . »

« لن يكون في وسمى أن أجيب هذه الدعوة إذا فعلا ذلك . »

« ياله من أمر يدعو إلى الأسف ! لقد كنت أعول على لقائك هناك .
وسأذهب أنا وآن في أواخر يناير زيارة بعض الأقراب الذين ألقوا علينا في
زيارتهم منذ سنين عديدة ! ولكن لن أذهب إلا لأرى إدوارد لأنه سيكون
هناك في فبراير ، وإلا فلا أرب لي في لندن ، ولا رغبة لي في زيارتها . »

ثم دعيت إلي نور للاشتراك في لعب الورق بعد انتهاء الشوط الأول ،
وبذلك انتهى الحديث الخاص بين الفتاتين عن تراض منها ، لأنه لم يصدر عن
(م ١٢ - الطل و العائقة)

إحداها من القول ما يجعل إحداها تسكره الأخرى أقل من ذي قبل . وجلست إليينور إلى مائدة اللعوب وهي تمتقد آسفة أن إدوارد لا يجب للمرأة التي ستكون زوجته المستقبلية فحسب، بل إن أسباب السعادة الزوجية غير مهياة له ، وهي السعادة التي كان في وسعها أن توفرها له بفضل محبتها الصادقة ، ذلك أن للصاحة الشخصية وحدها هي التي يمكن أن تدفع المرأة إلى حمل الرجل على التمسك بخطبة تشعر هي بأن الرجل قد ملها .

ومن ذلك الوقت لم تثر إليينور للوضوع قط ، وكانت لوسى لاندع فرصة تمر دون أن تثيره ، كما كانت تمحصر على الإفضاء لأميئة سرها بسرورها كلما تلقت خطابا من إدوارد ، ولكن إليينور كانت تسابرها في الحديث بهدوء وحذر ، ثم تالبت أن تقفل بابه متى سمحت أصول المجاملة بذلك ، لأنها كانت تشعر أن مثل هذه الأحاديث منة لا تستحقها لوسى ، كما كانت خطراً عليها هي نفسها .

وطالت زيارة الآنستين ستيل في البارك أكثر مما تضمنته الدعوة الأولى ، وزادت خدماتها فلم يسن الاستفناء عنها ، وعارض سيرجون في سفرهما بشدة ، وأقدمهما بالبقاء قرابة شهرين في البارك للمساعدة في الاحتفال اللائق بذلك للمهرجان الذي يتطلب قدراً غير عادي من حفلات الرقص والمآدب الكبيرة إظهاراً لأهميته ، وذلك على الرغم من ارتباطها في إكستر بمواعيد عديدة منذ زمن بعيد ، وعلى الرغم من ضرورة عودتها للوفاء بها في الحال ، وكان الوفاء بها يتم في نهاية كل أسبوع .

الفصل الخامس والعشرون

كان لمسز جننجز يتها الخصاص على الرغم من قضائها شطراً كبيراً من العام في بيوت أولادها وأصدقائها ، وكانت تقيم كل شتاء في بيت يقع في أحد الشوارع القريبة من ميدان بورتمان ، وذلك منذ وفاة زوجها الذي كان يشتغل بالتجارة في أحد أحياء لندن للتواضعة . وعندما اقترب شهر يناير أخذت تفكر في الذهاب إلى هذا البيت ، فدعت ذات يوم نجاة وعلى غير انتظار الأنتين داشوود الكبيرتين لمراقبتها في السفر ، ولكن إليينور رفضت الدعوة من فورها وهي شاكرة معتقدة أنها تعبر في هذا الرفض عن رغبتها هي وأختها ، دون أن تلاحظ التغير الذي بدأ على وجه مريان ، والنظارة القوية التي تعبر عن سرورها بهذه الدعوة . وكانت حجة إليينور هي عدم رغبتها في مفارقة أمهما في ذلك الوقت من السنة . وقابلت مسز جننجز هذا الرفض بشيء من الدهشة ، وكررت الدعوة من فورها .

« عجباً ! إنني واثقة أنه في وسع أمكا أن تستغني عنك ، وأرجو ألا تضنا على بصحبتك لأنني عقدت العزم على ذلك ، ولا تنوها أنكا فسببان لي شيئا من اللتاغب لأنني لن أتجشم أية مشقة في السفر . كل ما هنالك أنني سأنجشم إرسال « بتي » في عربة البريد ، وأرجو أن يتيسر لي ذلك . أما نحن الثلاثة فنسافر في عريقتي ، وإذا لم ترغبا عندما نكون في لندن أن تذهبا معي حينما ذهبت فيها ونعمت ، ولا عليكما أن تخرجا دائماً مع إحدى بناتي . وأنا واثقة أن أمكا لن تعارض في هذه الزيارة ، لأن جميع بناتي لحسن العظ لن تكن معي ، ولذلك فإن أمكا ستري أنني خير من يرعاكما . وإذا لم أوفق في تزويج إحداكما قبل

انتهاء هذه الزيارة فلن يكون ذلك ذنبى ، وكونا على ثقة أنتى سأتى عليكما خيراً
أمام جميع الشبان . »

وقال سيرجون : « أعتقد أن مس مريان لن تعارض في هذه الزيارة إذا وافقت
أختها الكبرى عليها ، وإنه ليعز على أن تُحرم من هذه اللقمة البسيطة لأن مس
داشوود لا ترغب في ذلك . ولذلك أنصح لكما أنما الاثنين أن تسافرا إلى لندن
عندما تسأمان الإقامة في بارتون ، دون أن تخبرا مس داشوود بذلك . »

فصاحت مسز جننجز : « نعم إن صحبة مس مريان ستسعدنى كثيراً سواء
ذهبت مس داشوود أو لم تذهب . كل مافى الأمر أنه كلما زاد العدد زاد السرور
وأن وجودها معا يزيد من أنسهما ، لأنه إذا ملت إحداهما حديثى أنست بحديث
أختها ، وسخرت من أطوارى القريبة وراء ظهري ، ولكن إحداهما لا بد
أن تصحبنى . رحماك اللهم ! أنتى لى أن أعيش وحدى وأضحى وقتى سدى ،
وأنا التى تموت دائماً أن أصحب شارلوت في هذا الشتاء ا هيا بنا يامس
مريان تعاهد على القيام بهذه الزيارة ، وإذا غيرت مس داشوود رأيها فيها بعد
فيها ونعمت . »

فأجابت مريان بجمرة : « شكراً ياماما ، شكراً جزيلاً - أشكر لك هذه
الدعوة بالحيت ، ويسعدنى كثيراً بل كل السعادة أن أوفق لقبولها ولكن أمى ،
أمى المريرة الرقيقة - إننى أشعر بصواب ماقلته إلي نور . وإذا كان غيابنا سيسبب
لها شيئاً من الألم أو التعب فما من شىء فيها أعتقد يمكن أن يفيرنى بمفارقة أمى .
ويجب^٥ ألا تفعل ذلك إذا هى عارضت فيه . »

فأعادت مسز جننجز تأكيدها بأن مسز داشوود يمكن أن تستغنى عنها تماماً، وفهمت إينور رغبة أختها في هذه الرحلة. ورات أن رغبتها في لقاء مسز ولي مرة أخرى جعلتها تضرب عرض الحائط بأى اعتبار آخر. لذلك أمسكت إينور عن إبداء أية معارضة، واكتفت بأن فوضت لأمها البت في الأمر. على أنها لم تتوقع أن تؤيدها أمها في سعيها لمنع هذه الرحلة التي لم توافق عليها حرصاً على مصلحة مريان، ولأنه كان لديها هي من الأسباب الخاصة مايدعوها لتجنبها، وكانت تعلم أن أمها تسارع إلى تلبية رغبات مريان، ولذلك لم تتوقع أن تحمل أمها على سلوك سبيل الحذر في أمر لم تستطع قط أن تحملها على الارتياح فيه، كما أنها لم تجرؤ أن تبين لأمها السبب في عدم ميلها هي إلى السفر. وكان تجاهل مريان - وهي التي لايمجها المجد، والتي تعرف الأخلاق مسز جننجز كل للمرفة، وتبدي اشمزازها الدائم من هذه الأخلاق - لكل هذه اللتاعب، وتفاضيها عن كل ما لا بد أن يؤذى شعورها أشد الإيذاء جرياً وراء شخص واحد - كل ذلك كان دليلاً صارخاً على منزلة ذلك الشخص في نفس بحيث لم تستطع إينور - على الرغم من كل ماحدث - أن تطيق مشاهدة هذا المنظر.

ولما علمت مسز داشوود بهذه الدعوة رأت أن هذه الرحلة ستهيبه لكريميتها كثيراً من أسباب الترفيه والتسلية كما آنت رغبة مريان فيها، فلم توافق على رفضها للرحلة من أجلها، وأصررت على ضرورة قبولها لهذه الدعوة في الحال ثم أخذت تتنبأ - وهي تشمر بالبهجة والسرور كمادتها - بالفوائد التي ستعود عليهن جميعاً من هذا الفراق.

قالت : « إننى مسرورة بهذه الرحلة ، وهى ما كنت أتمناه تماما . وسأفيد
أنا ومرجريت منها كما تفيدان أتما . وحينما تسافران أتما وآل ميدلتون ستقضى
الوقت بين الكتب واللوسيقى فى سعادة وهدهوء ! وستجدان عند عودتكما أن
مرجريت قد زادت ثقافتها . وأنا أنوى إجراء بعض التغيير فى غرفة نومكما
كذلك ، وهو أمر يتسنى لى عمله الآن دون أن أزعج أحداً ، ومن الصواب أن
تذهبا إلى لندن ، و بودى لو أن كل فتاة فى مثل مركزكما ذهبت إليها ، لتعرف
أحوالها وملاهيها . وستكونان فى رعاية امرأة تحمل بين ضلوعها عاطفة الأم
ولا أشك فى أنها ستحوطكما ببرها وعطفها وأ كبير الظن أنكما ستلقيان أخا كما ،
ومهما يكن من عيوبه وعيوب امرأته ، فإننى حينما أفكر فى أبيه لا أحب أن
تنفصم عرى اللودة بينكما وبينه . »

وقالت إليانور : « على الرغم من أنك ذلت - بحرصك للمتاد على سعادتنا -
كل عتبة يمكن أن تخطر ببالك فى سبيل هذه الزيارة فهناك اعتراض لا يمكن فى
رأى تذليله بسهولة . »

واكفهر وجه مريان .

قالت مسز داشوود : « وماذا تريد ابنتى العزيزة الحكيمة أن تقوله ؟ ماهى
العقبة الهائلة التى تريد أن تتحدث عنها ؟ أرجو ألا أسمع منك كلمة عن نفقات
الرحلة . »

« اعتراضى هو هذا : لا أعتقد أن صحبة مسز جينجز - برغم ما تمكنه من
الحب والعطف - من شأنها أن تبعث فىنا السرور ، ولا أن رعايتها لنا من شأنها
أن ترفع من قدرنا . »

فأجابت أمها : « هذا صحيح . ولكنكم إن تكونا في صحبتها - بعيداً عن صحبة غيرها - إلا قليلاً ، وستظهران دائماً أمام الجمهور في صحبة ليدى ميدلتون . »
وقالت مريان : « إذا كانت إلي نور تخشى صحبة مسز جننجز فهذا على الأقل لا ينعنى من قبول دعوتها ، فأنا لا أخشى تلك الصحبة . وفي وسعى أن أحتمل كل مفض من هذا القبيل دون عناء كبير . »

ولم تتألك إلي نور أن تبسم لما أعربت عنه مريان من عدم اكتراثها بأخلاق امرأة ، كانت إلي نور تتجشم كثيراً من العناء في حمل مريان على معاملتها بشيء من الأدب ، وصحت نيتها على الذهاب إلى لندن إذا أصرت أختها على هذه الرحلة لأنها لم تر من المناسب أن تترك مريان وشأنها أو تترك مسز جننجز - أثناء وقت راحتها في المنزل - تحت رحمة مريان . وبما دعاها إلى قبول ذلك أنها تذكرت أن إدوارد فيرارز - على قول لومى - لن يكون في لندن قبل شهر فبراير وأن زيارتهما - إذا طالت - سقنتهى قبل هذا التاريخ .

قالت مسز داشوود : « إننى أصر على ذهابكما معا وهذه الاعتراضات ضرب من اللغو ، وستجدان متعة كبيرة في زيارة لندن ، ولا سيما في وجودكما معاً ، وإذا كانت إلي نور تلتبس أية متعة ، ففي وسعها أن تلتبسها من مصادر مختلفة ، وربما وجدت بعض ذلك في توثيق أوامر اللودة بينها وبين أسرة زوجة أخيها . »

وكثيراً ما كانت إلي نور تمنى أن تسنح لها الفرصة لتضعف من إيمان أمها بوجود علاقة حب بينها وبين إدوارد ، حتى تكون الصدمة عليها خفيفة حينما تتكشف لها الحقيقة . فلما أشارت أمها إلى هذا الموضوع أقدمت إلي نور على

انتهاز هذه الفرصة لتنفيذ خطتها - وإن لم تأمل في نجاحها كثيراً - فقالت بكل هدوء: إننى أحب إدوارد فيرارز كثيراً، ويسرنى دائماً أن أراه، أما من عداه من سائر أفراد الأسرة فسواء على أعرفتهم أم لم أعرفهم .

فانقسمت مسز داشوود ولم تقل شيئاً . ورفعت مريان عينيها في دهشة ورأت إلبينور أنه يحسن بها أيضاً أن تمسك لسانها . وبعد حديث وجيز استقر الرأي نهائياً على قبول الدعوة قبولاً تاماً فلا تسل عما شعرت به مسز جنتجز من السرور عندما بلغها هذا النبأ ولا عن العبارات التى أكدت فيها عطفها ورعايتها . ولم يقتصر هذا السرور عليها بل شمل سيرجون أيضاً لأن أكبر ما يخشاه هو الوحدة، ولاريب أن إضافة شخص أو شخصين إلى أسرته فى لندن يعد كسباً . بل إن ليدى ميدلتون اهتمت بإظهار سرورها . أما الأناستان سكيل ولا سيبا لوسى فلم يسعدهما قط شيء فى حياتهما كما أسعدهما هذا النبأ .

ووافقت إلبينور على هذه الرحلة التى تتعارض مع رغبتها ، وهى تشعر بامتصاص أقل مما توقعت أن تشعر به . ولم يعد يهمها - فيما يتعلق بنفسها - أن تذهب أو لا تذهب إلى لندن . ولما رأت أمها مسرورة بهذه الرحلة ، ورأت علامات السرور بادية فى نظرات أختها وصوتها وأحوالها ، وأنها عادت إلى نشاطها المعتاد ، وشعرت بأكثر من مرحها المعتاد لم يسعها إلا الرضا بهذه الرحلة ، ولم تشك فيما عسى أن ينجم عنها .

وكانت فرحة مريان تكاد تزيد على السعادة بدرجة ، واستبد بها القلق ، والشوق للرحلة ، وكان امتعاضها لفراق أمها هو العامل الوحيد الذى كُطِف من

شدة شوقها إلى السفر ، وعندما حانت ساعة الوداع اشتدت بها لوعة الأسى ، ولم
تسكن لوعة أمها تقل عن لوعتها . وكانت إينور هى الوحيدة من بين الثلاثة التى
رأت أن الفراق لن يدوم طويلا .

وتم السفر فى الأسبوع الأول من شهر يناير على أن يسافر آل ميدلتون
بعدهما بأسبوع ، وبقيت الأنتان ستيل فى البسارك حتى تسافرا مع بقية
أفراد الأسرة .

الفصل السادس والعشرون

لم تسكد إينور ترى نفسها في «العربة» مع مسز جنجنز ، وتبدأ الرحلة إلى لندن تحت رعايتها وفي ضيافتها حتى أخذت تقضى العجب من حالها وتعامل : ما أقصر الفترة التي عرفتُ فيها هذه السيدة ، وما أشد التباين بيني وبينها في الطباع والسن ، وما أكثر الاعتراضات التي وجهتها إلى هذه الرحلة منذ أيام فلانل ، ولكن مريان وأمها تغلبتا على جميع هذه الاعتراضات أو تجاهلتها في حماسة الشباب التي اشتركت فيها كل منهما على السواء . ولم تستطع إينور على الرغم مما كان يساورها أحيانا من شك في وفاء ولي — أن تشاهد نشوة الآمال الحلوة التي غمرت قلب مريان ، وتألفت في بريق عينيها — دون أن تدرك أنها لا تشمر بأمل في المستقبل ، بل تشعر بالكآبة بالقياس إلى مريان ، ودون أن تدرك أنه يسرها أن تشارك مريان في اهتمامها بالرحلة ، حتى تظل تتطلع إلى ماتصبو إليه ، وتحتفظ بنفس الأمل الذي ترجوه . على أن نوايا ولي لا بد أن تتضح بصفة قاطعة بعد وقت قصير جدا ، وأكبر الظن أنه موجود في لندن بالفعل . وقد دل تليف مريان على الرحلة على تقهها بوجوده فيها . وصممت إينور لا على أن تنكشف حقيقة أخلاقه في ضوء ملاحظتها هي أو أخبار غيرها فحسب ، بل صممت كذلك على مراقبة سلوكه تجاه أختها عن كذب حتى تستوثق من أخلاقه ونواياه قبل أن تتكرر بينهما الاجتماعات . فإذا كانت نتيجة هذه للملاحظات غير مشجعة فقد صممت على أن تفتح عين أختها في كل حال من الأحوال ، أما إن كانت مشجعة فقد وجب عليها أن تسلك طريقا آخر وهو أن تتحاشى كل مقارنة تنطوى على الأنانية بينها وبين أختها ، وأن تتجنب كل

مظهر من مظاهر الأسي من شأنه أن يقلل من شعورها بالرضا نحو سعادة مريان .
وقضين ثلاثة أيام في رحلتين كان سلوك مريان في أثنائها نموذجاً طيباً
لما عسى أن تبديه في المستقبل نحو مسز جننجز من لين الجانب ، ورقة المعاشرة .
جَلَسَتْ صامتة طول الطريق تقريبا مستغرقة في تأملاتها ، وقلما طابت نفسها
بالسكلام اللهم إذا انتزع منها أحد المناظر الرائعة صيحة إعجاب توجهها لأختها
فقط . ولذلك كفرت إلي نور عن هذا السلوك ، فأخذت على عاتقها مهمة المجاملة
التي ارتضتها لنفسها ، فأولت مسز جننجز أكرم رعاية فحادثتها ، وضحكت
معا ، وأصفت إليها ما استطاعت . وكانت مسز جننجز تعاملها من جانبها
بكل ماوسعها من ضروب العطف والبر ، وتوفر لها أسباب الراحة والمتعة ،
ولا شيء يضايقها إلا آمتها عجزت عن حملها على اختيار ألوان الغذاء في الثزل
وانتزاع اعتراف منها بإيثار السلمون على القَدِّ ، أو لحم الدجاج المسلوق
على شرائح لحم العجول . ووصلان لندن في الساعة الثالثة من اليوم الثالث .
وسررن حين انطلقن من سجن «العربة» بعد تلك الرحلة ، وتأهبن للتمتع بالدفء
على ضوء نار طيبة .

كان البيت جميلاً مجيزاً بأثاث جميل ، وسرعان مااحتلت الفتاتان شقة
مزودة بوسائل الراحة ، وكانت هي الشقة التي أقامت فيها شارلوت من قبل ،
ولا يزال الإنسان يرى فوق سجاف اللصطل منظرًا طيبعا مرسوما على
نسيج من الحرير الملون من صنع يديها ، مما يدل على أنها أفادت من السنوات
السبع التي قضتها في إحدى المدارس الكبرى بلندن .

وإذ لم يكن من اليسور أن يتم إعداد طعام النداء قبل ساعتين من وصولهما ، فقد اعتزمت إليثور أن تقضى هذه الفترة في الكتابة لأمها ، فجلست لهذا الغرض . ولم تمض بضع دقائق حتى فعلت مريان نفس الشيء . وقالت لها إليثور : « إننى أكتب خطابا للأسرة يا مريان . أما يحسن أن ترجئ خطابك يوما أو يومين ؟ »

فأجابت مريان بسرعة وكأنها تريد أن تتفادى أى سؤال آخر : « لن أكتب لأمى . » فلم تقل إليثور شيئا ، وخطر ببالها فوراً ، أنها تكتب لولبى حتماً ، واستنبطت من ذلك أنهما مخطوبان ، وإن حاولا إخفاء الخطبة ، وسرها هذا الاعتقاد ، وإن لم تتوافر الدلائل على صحته ، واستمرت في كتابة الخطاب بحفة ونشاط . ولم يستغرق خطاب مريان أكثر من بضع دقائق ، إذ لم يزد على أن يكون تذكرة . وبعد أن انتهت من كتابته طوته ، وأغلقتة ، وعنوته بسرعة وخفة . واستطاعت إليثور أن تميز حرف « و » في العنوان . ولم تسكد مريان تفرغ منه حتى دقت الجرس ، وطلبت إلى الساعى الذى لبي النداء أن يحمل هذا الخطاب إلى صندوق البريد الخاص بالخطابات ذات البنسرين ، وكان هذا هو الذى حسم مادة الشك في الحال .

وظلت تشعر بالفرح والمرح ، ولكن مع شيء من الاضطراب لم يسر أختها كثيراً ، وزاد هذا الاضطراب عندما اقترب مساء . ولم تسكد تذوق شيئا من طعام النداء ، وحينما عادتا بعد ذلك إلى حجرة الاستقبال ، كانت تصنى لصوت كل عربة في لهفة واشتياق .

وكان من دواعى ارتياح إليثور أن مسز جننجز كانت مشغولة كثيراً في

حجرتها الخاصة ، فلم نستطع أن تلاحظ كثيراً مما حدث . وحيء بمدات الشاي ، وكانت مريان قد شعرت بجنينة الأمل أكثر من مرة عندما تسمع دقاً على الباب المجاور ، وإذا بطارق يقرع الباب قرعاً عالياً ، فهرولت نحو الباب ، وخيم الصمت على الجميع ، ولم يكن من الممكن احتمال هذا الصمت أكثر من بضعة ثوانٍ ، ففتحت مريان الباب ، وسارت بضع خطوات نحو السلم ، وأنصتت برهة ، ثم عادت إلى الحجرة في اضطراب ينبئ عن اعتقادها أن الطارق هو ولي ، ولم تتمالك من فرط السرور أن صاحت « وى ! إيلينور ! إنه ولي ! حقاً هو ولي ! » وهمت باللقاء نفسها بين ذراعيه ، لولا أنها رأت كولونيل براندون .

وكانت صدمة أجل من أن تتحمل في هدوء وسكينة ، فنادت الحجرة من فورها ، وشعرت بإيلينور بجنينة الأمل كذلك ، ولكن تقديرها لكولونيل براندون حملها على الترحيب ببقدمه ، وساءها كثيراً أن يلحظ رجل يجب أختها كثيراً أنها لا تشعر عند رؤيته إلا بالحزن وخيبة الأمل . ولكنها سرطان مارأت أنه لم يلحظ ذلك ، بل لحظ مريان ، وهي تفادى الحجرة ، بكثير من الدهشة والقلق بحيث لم ير في سلوكها ما يتنافى مع واجب الجمالة .

قال : « هل أختك مريضة ؟ » .

فأجابت إيلينور بلهجة يشوبها بعض الألم : إنها كذلك ، ثم تحدثت عن الصداع والسكريات والإرهاق وعن كل شيء يسمح لها الأدب أن تعزو إليه سلوك أختها .

واستمع إلى كلامها بكل جوارحه ، ولكن بدا عليه أنه يستجمع قواه

فكف عن الحديث في الموضوع ، وأخذ من فوره يعرب عن سروره برؤيتها
في لندن ، ويواجه الأسئلة المتتادة عن رحلتهم ، وعن خلفته وراءه من
من الأصدقاء .

وبهذا الأسلوب الهادئ وبدون كثير من الاهتمام من الجانبين استمررا يتجاذبان
أطراف الحديث ، وكلاهما يشعر بالانقباض والسكابة ، وكلاهما شارد الفكر
في وادٍ آخر . وكانت إلينيور تتوق كثيراً أن تسأله هل ولي في لندن حينئذ ،
ولكنها خشيت أن تؤلمه بسؤاله عن غريمه . وأخيراً سألته من باب مجازبة
الحديث : هل ظل مقبياً في لندن منذ أن رآته آخر مرة . فأجاب في شيء من
الارتباك : « نعم ، لم أكد أفارقيها من ذلك الحين ، غير أني زرت ديلافورد
مرة أو مرتين لبضعة أيام ، ولكن لم يتيسر لي قط أن أعود إلى بارتون . »

وكان هذا الجواب والاهجة التي قيل بها مما أعاد في الحال إلى ذهنها جميع
الملاحظات التي احتاطت بمفادته هذا للكاتب ، وما أثارته من قلق وشبهات
في نفس مسز جننجز ، وخشيت أن يكون سؤالها قد تضمن من حب الاستطلاع
أكثر مما شمرت به .

وسرعان ما دخلت مسز جننجز ، فقالت بمرحها الصاحب المتتاد : « إيها
يا كولونيل ، إنني مسرورة برؤيتك أعظم السرور ، وأسفة لأنني لم أبادر بالحضور .
معذرة لأنني اضطررت أن ألقى نظرة على ماحولي ، وأرتب أموراً ، إذ مضت
فترة طويلة لم أحضر فيها إلى البيت ، وأنت تمل الأشياء الصغيرة الغريبة التي
يجب على الإنسان أن يعملها بعد أن يغيب عن منزله ، ثم على بعد ذلك أن أسوي

حسابي مع صانع «العربات». رياه ! لقد كنت في عمل دائب كالنحلة منذ الغذاء
ولكن كيف عرفت يا كولونيل أنني سأصل إلى لندن اليوم ؟

« سمعت النبا في بيت بلد حيث تناولت طعام الغذاء . »

« عجبا ! تضديت هناك ؛ حسنا ! وكيف حالهم جميعاً ؟ وكيف حال شارلوت
أنا أؤكد أنها أصبحت رائحة . »

« مسز بلر في صحة طيبة . وقد كلفوني أن أبلغك أنها ستزورك غدا . »

« حقا ، لقد تبادل ذلك إلى ذهني . والآف يا كولونيل أحب أن أقول
لك : إنني جئت معي بفتاتين . أمامك الآن منهما واحدة ، والأخرى في مكان آخر
صديقتك مس مريان ، أيضا — وهو خير لايسووك سماعه . وأنا لا أدري ماذا
أنت فاعل ومسترولي بها . نعم ما أجل أن يجمع الإنسان بين الشباب والجمال
نعم ! كنت أتمتع بالشباب في ماضي الأيام ، ولكني لم أحظ بالجمال الرائع قط —
واسواتاه ! ولكني ظفرت بزوج طيب جدا ، ولا أدري كيف تحصل أجل
امرأة على زوج خير منه آه ! والأسفا عليه ! لقد توفي منذ أكثر من ثمانى سنين
ولكن حدثني يا كولونيل أين كنت منذ افترقنا ؟ كيف حال شئونك للالية ؟
خبرني عن الحقيقة فليس بين الأصدقاء سرا ! »

فأجاب بهدوئه المعتاد عن كل الأسئلة ، ولكن دون أن يشفي غليلها في
واحد منها ثم أخذت إلتور تمد الشاي ، واضطرت مريان إلى الحضور ثانية .

وبعد دخولها استغرق كولونيل براندون في الصمت والتفكير أكثر من ذي

قبل ولم تستطع مسز جنتنجز أن تحمله على البقاء طويلا . ولم يأت زائر آخر في مساء اليوم ، وانتقن جميعا على الذهاب إلى الفراش مبكرات .

واستيقظت مريان في صباح الند ، وقد عادت إلى حالتها الطبيعية ، و بدت عليها أمارات السرور . ويبدو أنها نسيت - في نشوة الأمل الذي ترجوه اليوم خيبة الأمل التي ألمت بها مساء أمس . ولم يمض وقت طويل على تناولهن طعام الفطور حتى وقفت «عربة» مسز بالمر بالباب ، وما هي إلا بضعة دقائق حتى دخلت الحجرة وهي تضعك . وفرحت بلقاءهن جميعا فرحا لا يدرى اللء معه أي أشد فرحا بلقاء أمها أم بلقاء الأنتين داشوود . وأبدت مزيد دهشتها لحضورهما إلى لندن وإن توقعت ذلك دائما ، كما أبدت شدة غضبها لقبولهما دعوة أمها بعد أن رفضتا دعوتها ، وإن لم تكن في الوقت نفسه لتنفرد لهما لو أنهما تخلفتا عن الحضور !

وقالت : « مستر بالمر يسعدني أن يراكا . ماذا تظنان أنه قال عندما سمع بقدمكما مع ماما ؟ لقد نسيت الآن ما قال ، ولكنه قال كلاما غريبا مضحكا .»

وبعد ساعة أو ساعتين قضيتا فيما أسمته أمها حديثا شائقا ، أو بعبارة أخرى في توجيه مختلف الأسئلة عن معارفهما جميعا من جانب مسز بالمر ، اقترحت هذه أن يصحبنها إلى بعض المحلات التجارية لشراء بعض ما يلزمها فوافقت مسز جنتنجز والينور في الحال ، لأنهما أرادتا كذلك شراء بعض الأشياء ، ورفضت مريان الذهاب معها بادى . الأمر ، ولكنها حملتاها على ذلك .

وحيثما ذهبن ، لم تكف مريان بصرها عن مراقبة الناس ، وفي بوند ستريت خاصة الذي كان يشتمل على معظم ما يلزمهما لم تكف عن تفحص الوجوه ،
(م ١٣ - العقل و العاطفة)

وكذلك كان ذهنها في كل محل ذهبن إليه يشرد عن كل ما يقع تحت أبصارهن، وعن كل شيء يسترعى نظرهن ويشير اهتمامهن، وبدا عليها القلق وعدم الرضا في كل مكان، ولم تستطع أخذها استشارتها في أي شيء تريد شراءه، وإن كان يهمها على السواء، وعزفت نفسها عن كل شيء، وتلهفت على العودة إلى البيت، ولم تستطع أن تخفي ضجيرها من مسلك مسز بلمر التي يسترعى نظرها كل جميل أو غال أو جديد في الأشياء، وتتوق إلى شراء كل شيء، ولسكنها تتردد في شرائه، وتضيق الوقت بين الإعجاب والتردد.

وعدن إلى المنزل في ساعة متأخرة. وما إن وصلن إلى المنزل حتى طارت مريان إلى السلم وأقبلتها إليينور، فوجدتها تشيح بوجهها الحزين عن اللائدة، مما دل على أن وافي لم يكن موجوداً.

وقالت للساعي حينما دخل يحمل بعض «الطروود»: «لم يرد لي خطاب منذ أن خرجت؟ فأجاب بالنفي، ثم قالت: «هل أنت متأكد من أن خادما أو يواباً لم يترك لي خطاباً أو تذكرة؟»

فأجاب الرجل بأن أحداً لم يأت بشيء.

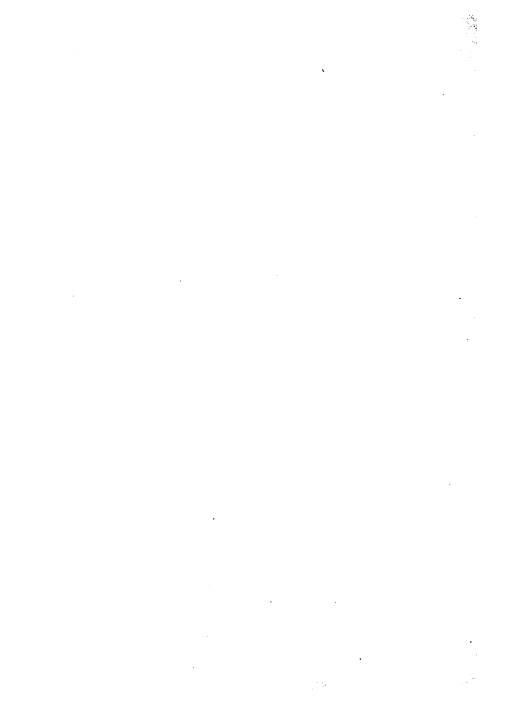
فقال في صوت خافت يائس، وهي تلتفت إلى النافذة: «ما أغرب ذلك!»

ورددت إليينور في نفسها، وهي تنظر إلى أختها في قلق: «حقاً ما أغرب ذلك! لو لم تعلم أنه في لندن لما كتبت إليه كما فعلت، بل كانت كتبت إليه في كومب ماجنا. وإذا كان هو في لندن فما أغرب ألا يحضر أو يكتب إليها آه يا أمي العزيزة! لا بد أنك أخطأت في السماح بعقد خطبة بين فتاة صغيرة السن كهذه

ورجل لا نعرف عنه إلا القليل ، في مثل هذه الظروف الغامضة المريبة ! إنى أتوق إلى استقصاء الخبر . ولكن كيف يطلق تدخلي ؟

وقررت بعد شيء من الروية والتفكير إذا ظلت مريان كاسفة البال عدة أيام، كما يبدو عليها الآن، أن توضح لأمها بأقوى عبارة ضرورة استقصاء الأمر.

وتفدى معهما مسز بالمر وسيدتان كبيرتان من صديقات مسز جنفجز الخلصات قابلتهما في الصباح فوجهت الدعوة إليهما . ثم انصرفت السيدة الأولى عقب الشاي مباشرة للوفاء بمواعيدها المسائية . واضطرت إليفور أن تشارك في إعداد مائدة لعبة الوِسْت لغيرها من السيدات ، ولم تبد مريان نشاطا في الأمرين لأنها لا تعرف هذه اللعبة، ولكنها على الرغم من أنها كانت حرة التصرف في وقتها لم تقض المساء في عمل شيء يجلب لها من السرور أكثر مما وجدته إليفور ، بل قضته في تجمّع غصة الانتظار ولوعة الخيبة . وكانت تحاول أحيانا أن تسلي نفسها بالقراءة دقائق معدودات ولكنها لا تلبث أن تطرح الكتاب جانبا ، ثم تعود فتسلي نفسها بما هو أمتع من ذلك ، فتذرع الحجره جيئة وذهابا ثم تتوقف هنيهة عند وصولها إلى النافذة على أمل أن تسمع الدقة التي طال انتظارها .



التصنُّعُ السَّاحِبُ وَالْمَشْرُوعُ

قالت مسز جننجرز عندما جلست إلى مائدة الفطور في صباح الغدة: « إذا استمر هذا الطقس الجليل طويلاً فلن يرغب سيرجون في مغادرة بارتون في الأسبوع القادم . إنه ليعز على المشتغلين بالصيد أن يحرموا أنفسهم متعة يوم واحد . وارجحتاه لهم ! إننى أرئى لهم دائماً إذا حرموا هذه التمتع — إنه ليحزنى إذا حرموا منها . »

فصاحت مريان بلهجة للرح ، وهى تتجه إلى النافذة أثناء الكلام لتفحص حال الطقس : « هذا صحيح . لم يخطر ذلك ببالى . هذا الطقس سيحمل الكثير من هواة الصيد على البقاء فى الريف . »

وكانت هذه ذكرى سميدة أعادت إليها الشعور بالبهجة وللرح . وأردفت وهى تجلس إلى مائدة الفطور بوجه طلق : « إنه طقس رائع لهم حقاً . ما أجدرهم بأن يتمتعوا به كثيراً ! ولكن (بشيء من القلق الذى عاد إليها) لا ينتظر أن يستمر هذا الطقس طويلاً . ومن المؤكد أننا لن نرى المزيد منه فى مثل هذا الوقت من السنة ، وبعد هذا المطر للتواصل . وسيبدأ الصقيع عما قريب ، وبكل شدة فيما أظن ، وربما كان ذلك بعد يوم أو يومين . وهذا الاعتدال الزائد لا يمكن أن يستمر طويلاً — نعم ، ربما بدأ الصقيع الليلة ! »

وقالت إيلينور ، وهى تريد أن تحول دون أن تفهم مسز جننجرز مقصداً أختها فهما واضحاً كما تفهمه هى : « أؤكد أننا نرى سيرجون وليدى ميدلتون فى لندن

في نهاية الأسبوع القادم . »

« نعم يا عزيزي ! أعتقد أننا سنراها . ومارية دائماً تركب هواها . »

وحدثت إينور في صمت : « والآن سترسل له خطاباً على كومب ، في

بريد اليوم . »

والكنها إذا فعلت ، فإنها تكتب الخطاب وترسله خفية حتى لا يقع عليه
بصر أختها . ومهما تكن حقيقة الأمر ، ومهما يكن من عدم شعور إينور بالرضا
عن ذلك ، فإنه لم يسمها أن تشعر بالسكدر ، وهي ترى أختها تشعر بالبهجة
والسرور ، فقد كانت مريان مسرورة ، وسميدة باعتدال الطقس ، ولكنها كانت
أسعد بتوقع الصقيع .

وقضين معظم ساعات الصباح في ترك البطاقات في منازل صديقات مسز
جننجز لإخبارهن بقدموما إلى لندن ، وظلت مريان مشغولة طول الوقت
بملاحظة اتجاه الرياح ، ومراقبة تقلبات السماء ، ونخيل حدوث تغيير في الهواء .

« ألا ترين يا إينور أن الجو أبرد الآن مما كان في الصباح . يبدو لي أن
ثمة فرقا واضحاً جداً . إنني لا أكاد أشعر بالدفء في يدي حتى وهما في اللوفة^(١) »
ولم يكن الجو كذلك بالأمس فيما أعلن . ويبدو أن السحب تقشعت أيضاً ،
وأن السماء ستشرق بعد هنيئة ، وستمتع بجو سمح في الأصيل . »

وكانت إينور ينتابها الألم والسرور ، أما مريان فقد ظلت على حال واحدة ،

(١) اللوفة (Muff) أسطوانة من فرو توضع فيها اليدان من طرفها لتدفئة (انترجم)

فكانت ترى في ضوء النار كل ليلة، وفي مظهر الجو كل صباح أعراض الصقيع القبل التي لاشك فيها .

لم يكن ثمة من الأسباب ما يحمل الأنتين داشوود على الاستياء من أسلوب معيشة نسر جنجوز وصديقاتها ولا من مسلكها الذي اتسم إزاءهن بالبر والمطف وكانت تسوس أمورها المنزلية على نحو لا يحد من حريتها على الإطلاق ، ولم تتم زيارة أى إنسان تعلم أن التعرف به يؤذى شعورها بوجه من الوجوه ، فيما عدا بعض صديقاتها في لندن اللاتي لم تقطع صلتهن بهن ، وهو مادعا ليدى ميدلتون إلى الأسف . ولما كانت إلي نور تشعر براحة البال من هذه الناحية أكثر مما توقعت فقد تناضت عما كان يعوزها من اللذة الحقة في اجتماعهم للسائبة التي ينتظم شملها سواء في داخل المنزل أو خارجه لالشيء إلا اللعب الورق ، الأمر الذي لم تجد فيه كثيراً من التسلية .

وكان كولونيل براندون مدعواً لزيارة المنزل في أى وقت ، فكان يزورها كل يوم تقريباً . وجاء ليشاهد مريان ، وتحدث إلى إلي نور التي كانت تجسد في حديثه من الارتياح أكثر مما تجد في أى شأن من شئون الحياة اليومية، وإن شعرت في الوقت نفسه بقلق بالغ لاهتمامه الدائم بأختها . وكانت تخشى أن يزداد هذا الاهتمام قوة ، وتمزج لما كان يبدو في نظراته إلى مريان من الجدل والاهتمام ، ولم يكن ثمة شك في أن حالته النفسية أسوأ مما كانت عليه في بارتون .

ونبت بعد قدومهما إلى لندن بنحو أسبوع أن وابت قدم إليها أيضاً ، فقد رأتا بطاقته على النضد ، عندما عادتا من زهرتها الصباحية في « العربية » .

صاحت مريان : « عجباً ! لقد زارنا أثناء نزھتنا » وسرت إينور حينما تأكدت من وجوده في لندن، وقالت لأختها مؤكدة: « ثقي أنه سيمود إلى زيارتنا غداً » ولكن يبدو أن مريان لم تسمعها ، وعندما دخلت عليهما مسز جننجز هربت من الحجرة ومعها البطاقة الأمانة .

وسرت إينور بهذا الحادث ، ولكنه أعاد إلى أختها ماسبق بن أكثر مما سبق أن شعرت به من الاضطراب ، فلم يهدأ بالها منذ تلك اللحظة ؛ وظلت تتوقع حضوره في كل ساعة من ساعات النهار إلى حد جعلها تعزف عن كل عمل وأصرت على البقاء وحدها بالمنزل في صباح الغد عندما خرج غيرها .

وكانت إينور مشغولة البال بما عسى أن يجري في بركلي ستريت أثناء غيابهما . فلما عادتَا نظرت إلى وجه أختها هنيئة ، وكانت هذه النظرة كافية للدلالة على أن ولبي لم يعد للزيارة ، وحينئذ وردت تذكرة ووضعت على المنضدة .

فصاحت مريان وأقبلت مسرعة « لي ! »

« لا ياسيدتي ، بل هي لربة البيت »

ولكن مريان لم تقتنع بذلك ، فتناولتها من فورها .

« حقاً إنها مسز جننجز . إنه لشيء يفيظ ! »

ولم تستطع إينور أن تظل صامته فقالت « كأنك تتوقمين خطاباً ! »

« نعم قليلاً لا كبيراً . »

وأطرقت هنيئة ثم قالت « أنت لاتتقين بي يا مريان . »

« نعم ، إينور ، هذا تأنيب منك — منك يا من لاتتقين في أحد ! »

فردت عليها إيلينور في لهجة يشوبها بعض الاضطراب « منى أنا ! حقاً يا مريان
ليس لدى ما أقوله . »

وقالت مريان بمحبة : « وكذلك أنا . كلانا سواء . ليس لدى إحدانا ما نقوله .
ليس لديك لأنك تكتبين الرسائل ، وليس لدى لآنى لا أخفى شيئاً . »

وتأملت إيلينور لهمة التكميم التي وجهت إليها ، ولم يسمعها أن تنفيها ، ولم
تدر كيف تطالب أختها في هذه الظروف بالزيد من الصراحة . »

وسرعان ما حضرت مسز جنجنز وتسلمت التذكرة فقرأتها بصوت عال ،
فتبين أنها مرسله من ليدى ميدلتون تعلن فيها قدومها هي وزوجها إلى كوندوى
ستريت ليلة أمس ، وتدعو أمها وقربياتها إلى زيارتها في مساء الغد قائلة : إن للانع
من قدومها إلى بركلي ستريت هو مشاغل سيرجون من جهة ، وإصابتها هي
بزكام شديد من جهة أخرى . وقِيأت الدعوة ، ولكن حيناً أذفت ساعة الزيارة
لقيت إيلينور بعض العناء في إقناع أختها بمراقبتها في هذه الزيارة ، لأنها المرولبي
حتى الآن ، على الرغم من أن واجب المجاملة نحو مسز جنجنز كان يقضى بذهابها
مع أختها . ولذلك كانت مريان تكره أن تخرج لتسرى عن نفسها ، بقدر
ما كانت تكره أن يزورها مرة أخرى أثناء غيابها .

ولما انقضت السهرة وجدت إيلينور أن طبع الإنسان لا يتغير تغيراً مادياً بتغير
المكان . ذلك أن سيرجون على الرغم من قلة إقامته بلندن ، استطاع أن يجمع
حوله ما يقرب من عشرين شاباً ، وأن يرفه عنهم بإقامة حفلة رقص لهم . ولكن
ليدى ميدلتون استنكرت هذا العمل لأنها رأت أن إقامة حفلة رقص لم تتخذ لها

العدة أمر جاز في الريف ، أما في لندن حيث يهتم الناس بالرشاقة والأناقة، وحيث يتعذر توافرها فكانت ترى أنها تضجى بالشيء الكثير من أجل الترفيه عن بضع نتيات ، حين يعلم الناس أنها أقامت حفلا راقصا صغيراً يشهده ستة أو ثمانية عشر شخصاً ، وعازفان على الكمان ، ولا يقدم فيه سوى طعام يسير .

وكان مستر بالمر وزوجته من بين المدعويين للحفل ، ولم يكن قد رأيته منذ وصولهن إلى لندن ، وعندما دخلن ، لم يبد ما يدل على أنه يعرفهن ، لأنه كان يحرص ألا يظهر أى اهتمام بمجائته ، ولذلك لم يكن يقترب منها قط ، ونظر إليهن بازدراء دون أن يبدو عليه أن يعرف من هن ، واكتفى بأن أوما برأسه إلى مسز جنتنج من الجانب الآخر من الحجرة ، وألقت مريان نظرة واحدة على أرجاء الحجرة عند دخولها ، وكانت هذه النظرة تكفى للدلالة على أنه ليس موجوداً فيها - وجلست وهي لا تريد أن تشعر بالسرور ، ولا أن تبعث السرور في أحد - وبعد أن اجتمع الشمل بما يقرب من ساعة ، وثب مستر بالمر نحو الأنتستين داشوود ليحرب لهما عن دهشته لقدومهما إلى لندن ، على الرغم من أن كولونيل براندون علم أول ما علم نبأاً قدومهما في بيته ، وأنه هو نفسه علق بكلام غريب عند ما بلغه أنهما سيأتيان .

قال : « كنت أظن أنكما في ديفونشاير . »

فأجابت إليثور : « صحيح ! »

« ومتى تمودان إليها؟ »

« لا أدري . » وهكذا انتهى الحديث .

ولم يكن الرقص أبغض إلى نفس مريان في أى يوم من أيام حياتها منه

في مساء ذلك اليوم ، ولم تشعر بتعب منه كما شعرت في ذلك الوقت ، وشكت من ذلك عندما عادت إلى بركلي سريت .

قالت مسز جننجز : « نعم نعم ! إنني أعرف السبب جيدا . لو أن شخصا معنا لا أذكر اسمه كان حاضرا لما شعرت بشيء من التعب قط ، والحق أنه لم يكن يحمل به ألا يبالي دعوتك إلى لقائه . »

فصاحت مريان : « دعوني ! »

« هذا ما أخبرتني به ابنتي ميدلتون ، لأنه يبدو أن سير جون قابله في مكان

ما في الشارع صباح اليوم . »

فلم تقل مريان شيئا ، ولكن بدا عليها أشد الألم . وحفز هذا الحادث إلينيور إلى ضرورة القيام بعمل يخفف من آلام أختها ، فصممت أن تكتب لأمها صباح الند ، وتثير في نفسها المخاوف على صحة مريان ، فتحملها بذلك على استقصاء الخبر الذي كانت تتوق إلى معرفته من زمن طويل ، وزادها تصميما على ذلك الأمر أنها رأت مريان — عقب طعام الفطور في الند — تعاود الكتابة إلى وليي ، لأنه لم يكن ثمة مجال للظن بأنها تكتب لأحد سواه . »

وفي منتصف ذلك اليوم خرجت مسز جننجز وحدها لبعض شأنها ، فأخذت إلينيور في كتابة الخطاب في الحال ، على حين استبد القلق بمريان بحيث لم تقو على العمل أو الحديث ، بل أخذت تمشي من نافذة إلى أخرى ، أو تجلس بجانب اللدفاة مستغرقة في تأملاتها الحزينة . وقد اصطنعت إلينيور لهجة الجد في مخاطبة أمها فقصت عليها كل ما حدث ، وأفضت لها بما يساورها من الشك في رفاء وليي ، وناشدتها باسم الواجب والمحبة أن تطلب إلى مريان الإفصاح عن حقيقة علاقتها بوليي .

ولم تسكد تنتهى من كتابة خطابها حتى سمعت طارقا يديق الباب ، و إذا به كولوئيل براندون ، وكانت مريان قد رأته من النافذة ، فصادرت الحجره قبل دخوله لأنها كانت تسكره أن ترى أحدا كائنا من كان . وكان يبدو سام الوجه على غير عادته ، وجلس دون أن يتفوه بكلمة ، وإن أعرب عن ارتياحه لأنه وجد مس داشوود وحدها ، وكأنه يريد أن يسر لها بأسر خاص . وأيقنت إليفور أن لديه خبرا يتصل بأختها يريد الإفضاء به ، فأخذت تترقب في شوق ولفقه أن يبدي به . ولم تسكن هذه أول مرة شعرت فيها بمثل هذا اليقين لأنه حدث من قبل — أكثر من مرتان كان يبدأ حديثه قائلا : « إن أختك اليوم ليست على ما يرام » أو « يبدو أن أختك مكثبة » ويبدو أنه يوشك أن يقضى نبأ أو يسأل عن أمر يتصل بها . وبعد صمت استمر عدة دقائق ، قطع الصمت وسألها بصوت يخالجه بعض الاضطراب متى يهئها بأخ لها وفوجئت إليفور بهذا السؤال ، ولم تسكن مستعدة للإجابة عنه ، فاضطرت أن تسلك الملك العادى البسيط في مثل هذا الموقف فسألته : ماذا يعنى ؟ فأجابها وهو يحاول الاقسام : « إن خطبة أختك لمسترولى أمر يعرفه الجميع . »

فردت إليفور : « لا يمكن أن يعرفه الجميع لأن أسرتها ذاتها لا تعرف هذا الخبر . »

فبدت عليه الدهشة وقال : « معذرة ! إنى أخشى أن يكون سؤالى مجافيا للأدب ، ولكن لم يتبادر إلى ذهنى أن فى الأمر سرا ، لأنهاما يتراسلان علانية وحديث زواجهما على طرف كل لسان . »

« أى يكون ذلك ؟ ومن أنبأك هذا ؟ »

« كثيرون — بعضهم لا تعرفين عنه شيئا ، وبعضهم تعرفينه جيدا ، مسز جنجنز ومسز بالمر وآل ميدلتون . ومع ذلك لم يسمعى أن أصدقه ، لأنه حيث لايميل الإنسان إلى تصديق شىء فإنه يلتمس دائما من الأسباب ما يؤكد شكوكه لولا أنى رأيت بطريق الصدقة فى يد الخادم ، وهو يفتح لى الباب اليوم خطابا بخط أختك معنونا باسم مستر ولبى . لقد جئت لأعرف الخبر ، ولكنى اقتنعت قبل أن أسأل . هل تم الاتفاق نهائيا على كل شىء ؟ هل من المستحيل أن ؟ ولكن ليس لى أى حق ، ولم يكن من الممكن أن تتاح لى الفرصة للتجناس . معذرة ياس داشوودا فإنى أعتقد أنى أخطأت لأنى أسرفت فى القول . ولكنى لا أدرى ماذا أصنع . وإنى أعتد كل الاعتماد على حكمتك وفطنتك . قولى لى : إن الأمر قد تم البت غيه نهائيا ، وأنه لا فائدة ترجى من بذل أية محاولة ، وأن الرأى قد استقر على كتمان الأمر ، إن كان الكتمان ممكنا .

لقد تأثرت إلينور كثيرا بهذه الكلمات التى تضمنت اعترافا صريحا بحبته لأختها . ولم تستطع أن تجيبه على الفور . وحتى حينما استجمعت قواها أخذت تقلب فى ذهنها بعض الوقت أنسب جواب يمكن الرد به على سؤاله . وكانت لا تعرف كثيرا عن حقيقة الوضع القائم بين ولبى وأختها بحيث إذا حاولت أن توضحه له كان لإيضاحها عرضة لأن يزيد على الحقيقة أو يتقص منها ومع ذلك كانت تمتد أن محبة مريان لولبى لا تدع مجالاً للأمل فى نجاح كولونيل براندون مهما كانت نتيجة هذه المحبة ، وفى الوقت نفسه أرادت أن تحمى سلوك أختها من اللوم ، فرأت بعد إمعان النظر أن الحكمة والشفقة تقضيان بأن تقول أكثر مما تعرفه أو تمتدعه ، فلذلك اعترفت بأنها لا تشك فى أهمها يتبادلان

الحب ولا تدهش لأنهما يتراسلان ، على الرغم من أنهما لم يخبراها بحقيقة العلاقة القائمة بينهما .

وأصنى إليها باهتمام مقرون بالصمت . وحينما انتهت من كلامها نهض من مقمده في الحال وقال بصوت عاطفي : « أتمنى لأختك كل سعادة يمكن أن يتصورها العقل ، وأتمنى لولبي أن يسمى جاهدا لأن يكون جديرا بها » ثم استأذن وانصرف .

ولم يبعث هذا الحديث في نفس إلينور شيئا من الارتياح ، ولم يخف مایساورها من قلق بشأن الأمور الأخرى ، بل — على العكس — جعلها تعتقد آسفة أن كولونيل براندون يشعر بلوعة الأسى ، ولم يكن في وسعها أن تمنى حتى إزالة هذه اللوعة ، وذلك لاهتمامها بنفس الأمر القبي من شأنه أن يزيد هذه اللوعة .

الفصل الثاني والعشرون

لم يحدث خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية ما يدعو إلي نور إلى الأسف على ما أقدمت عليه من السكتة لأمها . ذلك أن ولي لم يحضر ولم يكتب . وكانت هي وأختها على موعد مع ليدى ميدلتون لمرافقتها في نهاية هذه اللدة إلى إحدى الحفلات التي تخلفت عنها مسز جنتجز ، لتوعك صغرى بناتها . واستعدت مريان لهذه الحفلة دون أن يبدو عليها أى مظهر من مظاهر الأمل أو السرور ، إذ كانت متقبضة الصدر ، غير مهتمة بمظهرها ، يستوى لديها الخروج أو البقاء في منزل ، وظلت جالسة بجانب المدفأة في حجرة الاستقبال ، بعد تناول الشاي ، إلى أن وصلت ليدى ميدلتون ، دون أن تتحرك من مقعدها قط أو تغير من جلستها ، وهي مستغرقة في أفكارها ، غير شاعرة بوجود أختها ، وحينما بلغها أخيراً أن ليدى ميدلتون تنتظرهما لدى الباب تنهت ، وكأنما نسيتم أنها على موعد معها .

ووصلن في الموعد للناسب إلى المكان المقصود . وما إن انصرفت «العربات» التي اصطلت أمامهن حتى نزلن من «العربة» ، وصعدن في الدرج ، وسمعن أسماءهن تملن من «بسطة» إلى أخرى بصوت مسموع ، ودخلن حجرة تتلاها فيها الأنوار ، وتعج بالدعويين ويشدد فيها الحر بدرجة لا تطاق ، وبعد أن أتمنين مسلمات على ربة الدار أذن لمن بالجلوس مع الحاضرين ، ومشاركتهم في حر المكان وضيقة وقد زاد حضورهن منهما بحكم الضرورة . وبعد أن قضين بعض الوقت في كلام قليل ، وعمل أقل ، جلست ليدى ميدلتون إلى إحدى موائد «الكازينو»

ولم ترد مريان أن تنقل في الحجرة ، فجلست هي وإينور بالقرب من المائدة بعد أن أسعدها الحظ بالجولوس على بعض الكرامى .

وإنهما لكذلك وإذا بإينور تلمح ولبي واقفا على مقربة منهما ، ومنهما كما فى الحديث مع إحدى الفتيات الأنيقات ، وسرعان ما التقت عينها بعينه ، فأعنى لها من فوره ، ولكن دون أن يحاول الكلام معها ، أو يقترب من مريان ، وإن لم يسمه إلا أن يراها ، ثم واصل حديثه مع السيدة المذكورة . ولم تتمالك لإينور أن تلتفت إلى أختها لترى هل لم تلاحظ حديثه مع السيدة ، فبصرت به مريان فى تلك اللحظة لأول مرة ، فتألمت أسارىر وجهها من الفرحه ، وهمت بان توجه اليه فى الحال لولا أن أختها أمسكت بها .

وصاحت : « اطربا ! إنه هنا - إنه هنا - واعجبا ! ماله لا ينظر إلى ؟
لساذالاً أكله ؟ »

فصاحت لإينور : « أرجوك ، أرجوك أن تتدعى بضبط النفس ، ولا تظهرى شعورك لكل واحد من الحاضرين ، فر بما لم يلاحظ هو وجودك حتى الآن . »

ولكن ذلك كان أكثر مما تستطيع مريان أن تمتد ، ولم يكن ضبط النفس فى تلك اللحظة أمراً فوق طاقتها فحسب ، بل مخالفا لرغبتها كذلك ، فجلست على أحر من الجمر ، وارتسم ذلك على كل قسبات وجهها .

وأخيراً التفت حوله مرة ثانية ، ونظر إليهما ، فنهضت واقفة تناديه باسمه بصوت نيم على الحب ، ومدت يدها إليه ، فأقترب منهما ، وأقبل على إينور أكثر مما أقبل على مريان ، وكأنه يريد أن يتعاشى عينها ، وألا ينظر إليها ، واستفسر

بلهجة خاطفة عن مسز داشوود ، وسأل كم لبثنا في لندن . فذهلت إليفور لهذمه
اللهجة ، ولم تحر جوابا ، أما أختها فقد بدا عليها الانفعال في الحال ، وتضرج
وجهها ، وصاحت بصوت يرم على أشد الغضب : « عجب لك يا ولبي ! ما معنى
هذا ؟ ألم تقسم خطاباتي ؟ ألا تريد أن تصافحني ؟ »

ولم يستطع حينئذ أن يتجنب مصافحتها ، واسكن بدا عليه الألم حين لمس
يدها ، وأمسك بها هنيئة . وكان ظاهراً في أثناء ذلك أنه يحاول أن يستجمع
قواه . وراقبت إليفور ملامح وجهه ، فبدا عليها المزيد من الهدوء والطمأنينة .
وبعد أن أطرق هنيئة قال بهدوء :

تشرفت بزيارتكما في بركلي ستريت يوم الثلاثاء الماضي ، وأسفت كثيراً
لأن الحظ لم يسهلني بلقاءكما ولقاء مسز جنجنز في المنزل . وأرجو ألا تسكون
بطاقتي قد فقدت . »

وصاحت مريان بلهجة تعبر عن أشد القلق « ولكن ألم تقسم خطاباتي ؟
أعتقد أنك ارتكبت بعض الخطأ - بل خطأ جسيماً . ما معنى ذلك ؟ بربك
يا ولبي حدثني ما الخبر ؟ »

فلم يحرج جواباً ، واربد بحياء ، وعاد إليه كل ما بدا عليه من الارتباك . ولكن
ما إن وقع بصره على الفتاة التي كان يجادتها ، حتى بدا وكأنه أحس بضرورة
التظاهر بضبط النفس ، فاسترد قواه ، وبعد أن قال : « نعم ، سررت حين بلغني
نبأ قدومكما إلى لندن ، وهو النبأ الذي تسكرمت فأبلغتني إياه » انحنى انحناءة
خفيفة ، وانصرف مسرعاً إلى صديقه .

وبدت مريان شاحبة الوجه ، عاجزة عن الوقوف ، فارتمت في كرسياها ،
وخشيت إليفور أن يفشى عليها في أية لحظة ، فخالق بينها وبين رؤية غيرها ،
وأخذت تنمش قواها بماء الخزامى .

وصاحت بمجرد أن استطاعت الكلام: « اذهبي إليه يا إينور، وقولي له :
لا بد أن أراه ثانية - وأن أتحدث إليه حالا - إنني لن أستريح - لن
يهيأ لي بال لحظة واحدة حتى يوضح لي ذلك - أخشى أن يكون ثمة سوء تفاهم
شديد - هيا اذهبي إليه في الحال . »

« أنى يكون ذلك ؟ كلا يا عزيزتى مريان ، انتظري . ليس هذا مكان
الإيضاح . انتظري إلى غد فقط . »

على أن إينور استطاعت بصعوبة أن تمنع أختها من التوجه إليه بنفسها ،
وتعذر عليها إقناعها بأن تهدىء من ثورتها ، وتنتظر مظهرة بالتجدد على
الأقل ، حتى تتحدث معه على انفراد وبصورة مجدية ، ذلك بأن مريان أخذت
تبكي على حالها دون انقطاع ، وتندب حظها بصوت خافت . ولم تلبث إينور أن
رأت ولبي وهو ينادر الحجره متجها صوب الدرج ، فأخبرت مريان أنه انصرف
وأنه يستحيل عليها التحدث معه في ذلك المساء ، وكان ذلك حجة جديدة
تذرع بها إينور لتعيد إليها الهدوء والسكينة ، فتوسلت مريان إلى أختها أن
ترجو ليدي ميدلتون أن تمود معها إلى المنزل ، لأنها لا تستطيع الانتظار لحظة
واحدة لما تشعر به من الألم .

ولما علمت ليدي ميدلتون أن مريان ليست على ما يرام ، تطلقت فوافقت
في الحال على إجابة رغبتها على الرغم من أنها وصلت إلى منتصف الشوط في لعبة الورق
فسلمت الورق إلى صديقة لها ، وانصرفت بمجرد أن جاءت « العربية » . ولم تنبس
إحداهما بكلمة أثناء عودتهما إلى ركلى ستريت . وكانت مريان تعاني سكرة الألم
في صمت و يفاؤها الأسمى إلى حد يعز معه البكاء . ولحسن الحظ لم تمد معها مسر

جئنا ، فاستطعنا أن ندخلا حجرتهما في الخال ، واستنشقت مريان بعض
التشادر ، فانتعشت قليلا ، وسرعان ما خلعت ملابسها ، ووقدت في فراشها .
وبدت عليها الرغبة في البقاء بمفردها ، فخرجت أختها من الحجرة وظلت تنتظر
عودة مسز جئنا ، وأتاح لها هذا الانتظار من الوقت ما استطاعت فيه أن
تفكر في أحداث الماضي .

ولم تستطع أن تشك في قيام نوع من الخطبة بين ولبي ومريان ، ولا أن
تشك في أن ولبي قد مل هذه الخطبة ، لأنها لم تستطع - على الرغم من تشبث مريان
بأذيال الأمل - أن تعزو مثل هذا المسلك إلى حدوث خطأ أو سوء تفاهم أيًا
كان نوعه ، وأنه لا تفسير لهذا المسلك إلا أن عاطفته نحو مريان قد تغيرت . وربما
ازدادت إلينيور مسخطًا عليه لو لم تلاحظ عليه من الارتباك ما دل على شعوره بسوء
تصرفه ، كما منعه ذلك الارتباك أن تعتقد أنه بلغ من الحطة والدناءة بحيث يتلاعب
بمواطف أختها دون مقصد شريف ، ورات إلينيور أنه يحتمل أن يكون غيابه
عنها قد أضعف فيه عاطفة الحب ، وأن تكون المصلحة المادية حملته على نسيانه .
ولكنها لم تشك أن هذا الحب كان قائمًا من قبل .

وعند ما فكرت إلينيور فيما سببه هذا اللقاء لمريان من الآلام ، وما يحتمل
أن يترتب عليه من آلام أشد وأنسى ، لم يسمعها إلا أن تشر بأشد القلق .
وعند ما قارنت نفسها بمريان رأت أنها أحسن منها حالًا لأنها طالما قدرت
إدوارد كما قدرته من قبل ظلت قريرة الدين مهما افترقا في المستقبل . ولكن
جميع الظروف التي من شأنها أن تزيد من مرارة هذا الفراق الأليم تخالفت
- فيما يبدو - لتزيد من شقاء مريان بالانفصال الهائى عن ولبي - انفصلا
عاجلا لا رجعة فيه .

الفصل السابع والعشرون

كانت مريان تمنى - وهي في نصف ثيابها - على إحسدى قواعد النافذة لتستضيء بالنور الضئيل الذى ينفذ منها وتكتب بالسرعة التى يسمح بها الدمع المتون المنهمر من مقلتيها ، وذلك قبل أن توقدا الخادمة النار فى الفد ، وتسطع الشمس فتبدد بأشعتها البرد والظلام فى صباح يوم من أيام شهر يناير . وهبت الينور من نومها على صوت بكائها واضطرابها ، فرأها على تلك الحال وقالت بعد أن نظرت إليها بضع دقائق فى قلق وصمت بلهجة تفيض رقة وحناناً :

« مريان ! هل لى أن أسأل ؟ » -

فأجابت « كلا ! الينور ، لا تسألني شيئاً ، وستعرفين كل شىء بعد هنية . »

ولم يدم الهدوء اليأس الذى قالت به هذه الكلمات أكثر من الفترة التى تكلمت فيها ثم عادت فى الحال إلى ما كانت عليه من البكاء والأسى . ومضت بعض الدقائق قبل أن يدسنى لها الاستمرار فى كتابة الخطاب ، وكانت العبرات التى تمرر عما يحالها من الأسى - تفضطرها أحياناً إلى الإمساك عن الكتابة - دليلاً كافياً يؤيد ما شعرت به الينور من أنها تكتب فى الغالب إلى ولجى للمرة الأخيرة .

وأحاطها الينور بما وسعها من ضروب الرعايه والاهتمام فى هدوء وبدون تطفل ، ولولا أن مريان توصلت إليها بحدة وهى فى أشد حالات الغضب ألا تكلمها بأى حال من الأحوال ، لبذلت المزيد من الجهد لتهدئة أعصابها

والتخفيف من آلامها . وإزاء ذلك كان من الخير لسكل منها أن تبتمد عن الأخرى . وكانت حالة التلق التي تشعر بها مريان لا تسمح بحسب ببقائها لحظة واحدة في الحجره بعد أن لبست ثيابها ، بل كانت تتطلب أيضا المزله والتنقل المستمر معا . لذلك أخذت تتجول حول المنزل حتى حان موعد الفطور ، متحاشية أن ترى أى إنسان .

ولما حان موعد الفطور لم تأكل ولم تحاول أن تأكل شيئا ، وأخذت إلينبور توجه كل همها لا لملها على الطعام ولا الرثاء لخالها ، ولا التظاهر بحبها ، ولكن لصرف أنظار مسز جتنجز إليها هي .

وقد استمر الفطور بمد الوقت لأنه كان الوجبة المحببة إلى مسز جتنجز . وبعد أن فرغن منه ، جلسن حول مائدة الشغل ، وإذا بالخدوم يأتى بخطاب لمريان فأخذته بقوة ، ثم اربد وجهها ، وجرت من الحجره في الحال . وفهمت إلينبور من ذلك بوضوح كالو كانت قرأت العنوان ، أنه من ولى ، فشمرت باشمزاز شديد لم تستطع معه أن ترفع رأسها ، وسرت في أوصلها رجفة خشيت أن تكون مسز جتنجز قد لاحظها ، ولكن هذه السيدة لم تلحظ إلا أن مريان تسلت خطابا من ولى ورأت فيه مجرد نكته طيبة ، فلم تأخذ الأمر مأخذ الجد إذ أعربت عن أمليها ، وهي تضحك ، أن ترى فيه مريان مايسرها . أما ما اعترى إلينبور من هم وكره فإن مسز جتنجز كانت منهمكة في قياس خيوط الصوف اللازم لسجاداتها بحيث لم تلاحظ شيئا على الإطلاق ، بل واصلت حديثها في هدوء فقالت بمد خروج مريان :

« صدقيني أنى لم أر في حياتى فتاة تهيم حبا كما تفعل مريان ! إن بناتى لم

يكن شيئا بالنسبة لها ، وكن مع ذلك في غاية الذبابة . أما مس مريان فهي تختلف عن ذلك تماما . إننى أرجو من صميم فؤادى ألا يضطرها إلى الانتظار طويلا لأنه من المحزن أن يراها الإنسان ، وقد بدت عليها أمارات اليأس والمرض . ليت شمري متى يتزوجان ؟ »

واضطرت إليثور إلى الإجابة عن هذا السؤال على الرغم من أنها كانت أشد ماتكون عزوفاً عن الكلام في ذلك الوقت . ولذلك تكلفت الابتسام فقالت : « هل تمتقدين أن أختي مخطوبة لولبي ؟ لقد كنت أعتقد أن الأمر مجرد نكتة ، ولكن يبدو لي أن سؤالا كهذا يدل على أنه أكثر من نكتة . ولذلك أرجو أن تكوني على بينة من الأمر بعد اليوم . إننى أؤكد لك أنه لا شيء يدهشنى أكثر من أن أسمع أنهما سيتزوجان . »

« واخجلتاه ، واخجلتاه مس داشوود ! كيف تقولين ذلك ! أسنا جميعا نعلم أنها لا بد أن يتزوجا وأنها غارقان في الحب إلى آذانها منذ أول لحظة التقيا فيها ؟ ألم أرهما في ديفو نشاير كل يوم وطول اليوم ؟ أولم أعلم أن أختك جاءت إلى لندن بقصد شراء ملابس الزفاف ؟ دعى عنك ذا ، فإنه لا ينطلى على . ألائك تجميدن أساليب المسكر والخلداع تظنين أن الناس ليست لهم عقول يفقهون بها ؟ ولكن في وسعى أن أقول لك : إن الأمر ليس كما تقولين لأن، الخبر قد شاع وذاع في جميع أنحاء لندن منذ بعيد ، وأنا أحدث به كل إنسان ، وكذلك تفعل شارلوت . »

. فقالت إليثور بلهجة الجد : « الحق ياسيدتى أنك مخطئة . والواقع أنك تعملين عملا غير كريم حين تشرين هذه الشائعة ، وسترفين أنك كنت مخطئة ، وإن كنت لاتصدقينى الآن . »

فضحكت مسزجنجز ثانية ، ولكن إينور لم ترغب في المزيد من الحديث ، وكانت تتوق على كل حال لأن تعرف ما كتبه ولبي فأسرعت إلى حجرتها ، وما إن فتحت الباب حتى وجدت مريان مستلقية على الفراش تكاد تختفيها العبرات ، ويأحدي يديها خطاب و بجانبها خطابان أو ثلاثة . فاقتربت منها إينور ، ولكن دون أن تنفوه بكلمة ، أو جلست على الفراش وأخذت يدها فقبلتها بخنان عدة مرات ثم أجهشت بالبكاء ، وكان بكأؤها لا يقل في البداية عن بكاء مريان ، وشعرت هذه - وان لم تقو على الكلام - بما ينطوى عليه هذا المسلك من حب وحنان ثم أقلت - بعد أن ظلتا تبيكيان فترة من الوقت - بجميع الخطابات في يد إينور ، وغطت وجهها بالمنديل وأجهشت بالبكاء . ورأت إينور أن تترك أختها تنفس عن نفسها بالبكاء ، وإن ألقفها هذا المنظر ، وجلست بجانبها تواسيها حتى يزول ما بها من لوعة الألم ، ثم أقبلت باهتمام على خطاب ولبي فقرأت فيه مايلي :

بوند ستريت ، يناير .

سيدتي العزيزة .

تشرفت الآن بتلقى خطابك ، وأرجو أن أسمى لي بأن أزجي لك خالص شكرى . وإني لأشعر بقلق بالغ إذا كان قد بدر مني في الليلة الماضية ما ساءك ، وإني وإن كنت في حيرة لأنى لا أدرى ما ساءك لسوء الحظ لأرجو أن تسحبي ذيل العفو على ما بدر مني ، وأؤكد لك أنني فملتة على غير قصد مني . ولن أذكر ما نشأ بيني وبين أسرته من مودة في ديفو نشاير دون أن أشعر بأعظم آيات السرور والارتياح ، وأملى ألا تنفصم عرى هذه المودة ، خطأ وقع مني ، أو سوء فهم لمسلكى . إننى أقدر سائر أفراد أسرته تقديراً صادقا ، ولكن إذا

كان سوء الحظ قد شاء أن يؤدي هذا التقدير إلى اعتقادكن شيئاً أكبر مما أشعر به أو مما أردت التعبير عنه ، فإني أنحى على نفسي باللأئمة لعدم تحفظي في الإعراب عن ذلك التقدير ، وأنت تعلمين أنه من المستحيل أن أقصد بهذا التقدير أكثر مما يحتمله ، إذا عرفت أن لي هوى مع امرأة أخرى منذ زمن طويل ، وأعتقد أنه لن تمضي عدة أسابيع قبل أن تتم الخطبة . وإني لأسف أشد الأسف حين ألبى طلبك برد الخطابات التي تفضلت بإرسالها إلي ، وخصلة الشعر التي تكسرت بها على .

وإني لازلت بإسديتي العريضة .

خادمكم المطيع الخاضع

جون ولبى

وفي وسع القارئ أن يتصور مدى السخط الذي تشعر به مسز داشوود عندما تقرأ مثل هذا الخطاب . ومع أنها كانت تشعر قبل قراءته أنه لا بد أن يتضمن اعترافاً بدم وفائه ، ويؤكد فراقه لأختها إلى الأبد ، فإنها لم تشعر أن يملن هذا القراق بمثل هذه اللغة ، ولا كانت تظن أن ولبى يستطيع أن يتجرد من كل مظهر من مظاهر الشرف ورقة الشعور ، أن يتجرد من الأدب الذي يتحلى به الإنسان المهذب ، فيرسل خطاباً يمثل هذه القسوة والوقاحة ، خطاباً لا يمتدح فيه بأنه نكث العهد ، بل ينكر أنه كان يحبها أية محبة خاصة بدلا من أن يقرن فيه رغبته في القراق بمبارات الأسف ، خطاباً كل سطر فيه يمد ضرباً من الإهانة ، وينطق بأن صاحبه تردى في هوة النذالة .

وقلبت النظر فيه بمض الوقت بشيء من السخط والدهشة ، ثم قرأته مراراً وتكراراً ، وكلما قرأته ازدادت مقتناً لسكاته ، وبلغ من سخطها عليه أنها لم تستطع

الكلام خشية أن تجرح شعور مريان جرحاً أشد عمقا إذا فسرت لها فسخ الخطبة لا على أنها خسارة حلت بها ، ولكن على أنها منجاة من أسوأ الشرور التي لاعلاج لها ، وهو الاقتران مدى الحياة برجل لاخلاق له ، منجاة لاريب فيها ونعمة لاتعادلها نعمة .

ونسيت إلينور آلام أختها الراهنة في غمرة تأملاتها في الخطاب ، وفي النفسية المنحطة التي أملت كلماته ، وربما في النفسية المختلفة جدا لشخص مختلف جدا لاصلة له بالأمر إطلافا سوى صلته بكل ماحدث ، وهي الصلة التي أحس بها قلبها ، كما نسيت أن هناك ثلاثة خطابات في حجرها لم تقرأها بمد ، بل لقد نسيت تماما كم لبثت في الحجرة حتى لقد أسرعرت إلى النافذة - عندما سمعت صوت عربة تقف بالباب - لترى من ذا الذي قدم في هذه الساعة المبكرة ، ولشد ما دهشت عندما رأت عربة مسز جننجز ، التي كانت تعلم أنها لم تطلبها إلا في الساعة الواحدة . وقررت إلينور ألا تترك أختها ، وإن لم يكن نمة أمل في أن يساعدها وجودها على التخفيف عنها في الوقت الحاضر ، فأسرعت لتعتذر بتدعك صحتها عن مراقبة مسز جننجز ، فقبلت مسز جننجز العذر دون تردد حرصا منها على راحة مريان ، وودعتها إلينور ، ثم عادت إلى أختها فوجدتها تحاول التهبوض من الفراش ، ومدت إلينور يدها في الوقت المناسب لتحول بينها وبين السقوط على الأرض ، وكانت في حالة إعياء ودوار بسبب الحرمان الطويل من الطعام والراحة ، إذ مضى عليها عدة أيام لم تجد فيها شهوة الطعام ، وعدة ليال لم تذوق فيها طعم المنام . وكانت نتيجة ذلك كله بعد أن تكشفت عنها حمى الانتظار أن شمرت بصداع في رأسها ، وضعف في معدتها ، وإعياء عام في أعصابها . أخيراً ، شعرت بالراحة ، واستطاعت أن تعبر عن بعض إحساسها بما أبدته أختها نحوها من بر وعطف فقالت :

« وارحناه لك يا إينور ! كم أتعبتك ! »

فأجابت أختها : « كل ما أتمناه أن أوفق للقيام بعمل يرفه عنك » .

وكان هذا ، كأي شيء آخر أكثر مما تحتمله مريان ، فلم يسمعها إلا أن

تصيح ، وهي تشعر بلوعة الأسى :

« آه إينور ! إننى شقية حقا » وذلك قبل أن يحنق صوتها بالعبرات .

ولم تستطع إينور أن تشاهد في صمت هذا السيل للنهر من العبرات .

فقالت : « تجلدى يا عزيزتى مريان إذا أردت ألا تقتلى نفسك ، وكل من

يجبك . فكبرى فى أمك ؛ فكبرى فيما تشعر به من الألم حينما تراك تتألمين .

يجب أن تتجلدى من أجلها . »

فصاحت مريان : « لا أستطيع ، لا أستطيع . دعيني ، دعيني إذا ما كنت

أضايقتك ، دعيني ، دعيني ، وانسىنى ! ولكن لاتعذبنى كذلك . آه ! ما أيسر

الحديث عن التجلد على من خلا قلبه من الأسى . إينور ، السعيدة ، السعيدة ،

أنت لا تستطعين أن تتورى كم أعانى من الألم . »

« أئسمنى سعيدة يا مريان ! آه ! لو عرفت الحقيقة ! — وهل تعتقدين أنى

أكون سعيدة ، وأنا أراك فى هذه الحال الآلمة ! »

فطلوقت جيد أختها بذراعيها وقالت : « ساحبنى ! ساحبنى ! أنا أعرف أنك

تتألمين لحالى . أنا أعرف أى قلب يحملينه بين الجوائح . ومع ذلك فأنت — لا بد

أن تكونى سعيدة ؛ إدوارد يجبك — عجبا ! أى شىء يمكن أن يحطم هذه السعادة ! »

فقالت إينور فى لهجة الجد : « كثير ، كثير من الظروف » .

فصاحت مريان بمنف « كلا كلا كلا ! إنه يجبك ولا يجب إلا إياك ! ليس في وسعك أن تشعري بالأسى . »

« لا يمكن أن أشعر بالسرور طالما أراك على هذه الحال . »

« ولن ترضى على غير هذه الحال . إن ما أكابده من الشقاء، ليس له دواء . »
لا تقولى ذلك يا مريان . أليس لديك كثير من أسباب العزاء ؟ أليس لك أصدقاء ؟ هل مصابك يمز على السلوان ؟ مها قاسيت الآن فقكرى فيما كنت تقاسينه لو اكتشفت حقيقة أخلاقها بعد . لو أن خطبتك طالت شهوراً وشهوراً قبل أن يريد إنهاءها ، وهو أمر كان يحتمل أن يحدث . لاشك أن كل يوم يمر وأنت تتقين فيه هذه الثقة التمسة كان يمكن أن يجعل الضربة أشد إبلاماً . »
فصاحت مريان « خطبة ! لم تكن نمة خطبة . »

« لاخطبة ! »

« كلا ! ليس هو ندلاً كما تعتقدين ، فهو لم يخنى قط . »

« ولكنه قال لك : إنه يجبك ؟ » —

« نعم — لا — لم يصرح بذلك قط . كان يقوله كل يوم ضمناً لاصراحة . وكفت أظن أحياناً أنه صرح لى بعجه . ولكن ذلك لم يحدث قط . »

« ولكنك كتبت إليه ؟ »

« نعم . — وهل يمكن أن يعد ذلك إنما بعد كل الذى جرى ؟ — ولكن لا أستطيع أن أتكلم . »

وسكنت إلبنور عن الكلام ، ثم انتقلت إلى الخطابات الثلاثة التى أثارته

فيها حب الاستطلاع بصورة أشد وتصفتها جميعا . وكان أولها الخطاب الذي أرسلته إليه عند وصولها إلى لندن ونصه كما يلي :

بركلى ستريت ، بناير

لشد ما تدهش يا ولدي عندما تتسلم هذا الخطاب . اعتقدا أنك ستدهش كثيرا إذا عرفت أنني في لندن ، فقد سححت لي فرصة الحضور إلى لندن ، وإن كان ذلك بصحبة مسز جننجز ، ولكن هذه الفرصة كان فيها من الإغراء ما لا يقاوم . أرجو أن يصلك خطابي هذا في الوقت المناسب حتى يتسنى لك الحضور هنا في المساء . ولكن إن أعول على ذلك . على كل حال سأنتظرك غدا ، وداعا إلى حين .

م . د . م

وكان خطابها الثاني الذي كتبتة غداة الحفلة الراقصة التي أقيمت في بيت آل ميدلتون كما يلي :

« لا أستطيع أن أعبر لك عما أشعر به من خيبة الأمل لأنه فاني لتعاؤك أول أمس ، ولا عن دهشتي لأنى لم أتلق رداً على الخطاب الذى أرسلته إليك منذ أكثر من أسبوع . لقد كنت أنتظر منك رداً بلى أن أراك أيضا في كل ساعة من ساعات النهار . أرجو أن تزورنى في أقرب وقت ممكن وتفسر لى السبب في اضطرارى إلى كل هذا الانتظار الطويل دون جدوى . يحسن بك أن تحضر مبكراً مرة أخرى لأننا نخرج عادة من المنزل في الساعة الواحدة . وقد قضينا الليلة البارحة عند آل ميدلتون حيث شهدنا حفلة رقص ، وبلغنى أنك دعيت للحفلة . ولكن أيمكن أن يكون الأمر كذلك ؟ لا بد أنك تتهرب عن عهدك منذ افترقنا إذ دعيت للحفلة ولم تشهد لها . ولكن لن أفترض أن هذا ممكن . أرجو أن أتلقى منك قريبا ما يؤكد لى أن الأمر على خلاف ذلك .

م . د . م

وكان مضمون خطابها التالي كما يلي :

ماذا أقول يا ولبى فى تصرفك فى الليلة الماضية ؟ مرة أخرى أطلبك بتفسير لهذا التصرف . لقد تقدمت للقائك وأنا أشعر بالفرحة التى يشعر بها الإنسان عادة بعد القراق ، وبالباشاشة التى يقتضيها ما نشأ بيننا من مودة فى بارتون : لقد رفضت لقائى حقاً ، وقضيتُ ليلة نعمة أحاول فيها جاهدة أن ألتبس لك العذر فى تصرف ، لا يمكن أن أسميه بأقل من أنه إهانة . ومع أننى لم أوفق حتى الآن فى التماس عذر معقول عن هذا التصرف فإننى على آتم استمداد لأن أسمع منك تبريراً له . ربما سعى الواشون بينى وبينك ، أو أبلغوك عنى أمراً أنزلنى من عينك خبرنى ماهو ، وبين لى الأسباب التى حملتك على هذا التصرف ، وسأشعر بارتياح حينما أستطيع أن أقنعك : إنه ليحزننى حقاً أن اضطر الى إساءة الظن بك ، ولكن إذا لم يمكن من ذلك بد ، إذا لم يمكن بد من أن أعرف أنك غير ما كنت أعهد فيك حتى الآن ، وأن محبتك لى كانت ضرباً من النفاق ، وأن مسلكك نحوى كان ضرباً من الخداع ، فدعنى أعرف ذلك بأسرع ما يمكن . إنى لست شك مرئيب . وإنى أود أن أبرئك . ولكن قطع الشك باليقين سواء أكان الأمر هذا أم ذلك ، هو السبيل الوحيدة لتخفيف ما أعانيه . وإذا كنت قد تنيرت عن عهدك فأرجو أن ترد لى خطابتى ، وخصلة الشعر التى أخذتها منى .

د . م

لم تسكن إلبنور تميل إلى الاعتقاد أنه كان فى وسع ولبى أن يرد على هذه الخطابات تمثل ماتضمنه من المحبة والثقة . ولكن سخطها على ولبى لم يمنعها من لوم مريان على إرسال هذه الخطابات . وبينما كانت تشعر بالأسى - فى صمت - للحماقة التى دفعت أختها لكتابة هذه الخطابات التى تمرب فيها عن جهادون

داع ، أو ميرر سابق ، والتي برهنت الحوادث على أنها كانت أمراً منكراً ، إذا
بمريان تقول لها : إنها لاتتضمن أكثر مما يقوله أى إنسان فى مثل موقفها .

وأضافت : « لقد كنت أشعر أنني مرتبطة به كما لو كنا مرتبطين بأغظظ
المواثيق الشرعية . »

فقلت إينور : « إننى أصدقك . ولكن لسوء الحظلم يشعر هو بمثل شعورك . »
« كان يشعر بمثل ذلك بإينور . كان يشعر به أسايح وأسايح . أنا أعرف
ذلك . ومهما تسكن الأسباب التى حملته الآن على التغيير (ولا شئ . يمكن أن
يقبل ذلك سوى الفن الأسود الذى استخدم ضدى) فقد كان يحببى فيما مضى
كل ما يتمناه فؤادى من الحب . وهذه الخصلة من الشعر التى يتخلى عنها الآن
بسهولة التمسها هو منى بكل إلحاح . لو أنك شاهدت منظره وحاله ، لو أنك سمعت
صوته فى تلك اللحظة ! هل نسيت آخر ليلة اجتمعنا فيها بيارتون ؟ وصباح اليوم
الذى افترقنا فيه أيضاً ؟ وحينما قال لى : إنه قد تمضى عدة أسايح قبل أن نلتقى مرة
أخرى — حزنه — هل فى وسعى أن أنسى قط ما اعتراه من الحزن ! »

وسكتت عن الكلام لحظة أو لحظتين ثم أضافت بهجة أكثر حزنا بعد
أن هدأت هذه العاطفة :

« إينور ! لقد عوملت معاملة سيئة ، ولكن لا من لوى . »

« عزيزى مريان ! من أساء إليك غيره ؟ ومن حرضه على ذلك ؟ »

« كل الناس هم الذين حرضوه لاقليه . إننى أميل إلى الاعتقاد أن جميع
معارفى وتواطنى على الرشاية بى عنده ، منى إلى الاعتقاد بأنه طبع على هذه القسوة

هذه المرأة التي أشار إليها في خطابه — أيا ما كانت — أو بالاختصار أى شخص ما عدناك وما عدا ماما وإدوارد ، يحتمل أن تبلغ بها أو به القسوة إلى حد الوشاية بى عنده . وفيما عدا ثلاثكم هل من أحد في العالم لا أسى به الفن إلا ولبى الذى أعرف قلبه حق للعرفة ؟ »

ولم تخالفها إليفور ، واكتفت بأن أجابت : « مهما يكن عدوك للمقوت ، فإنه يجب عليك — يا أختى العزيزة — أن تقوى عليه فرصة الشجاعة ، بأن تظهرى الثقة ببراءتك وحسن سيرتك ، ولا شك أن التظاهر بشيء من الكبرياء المحمود مما يكتب الحقود . »

فصاحت مريان : « كلا كلا ! إن ما بى من الشقاء بمنفى من التظاهر بالكبرياء وأنا لا أبلى من يعرف تعاسى، وليشمت بى من يشاء . إليفور إليفور ! إن الذين يكابدون القليل من المهموم هم الذين يستطيعون أن يتظاهروا بالكبرياء والاعتداد بالنفس كما يشامون — هم الذين يستطيعون أن يقاوموا الإهانة و يردوا للهانة — ولكن لا أستطيع . يجب أن أشعر بالامى — يجب أن أكون تمسة — ولهم أن يفرحوا ما استطاعوا . »

« ولكن من أجل أى وأجلى . »

إننى أضحى من أجل كما بأكثر مما أضحى من أجل نفسى . ولكن أن تظاهر بالسعادة وأنا شقية — آه ! من ذا الذى يستطيع أن يطالبنى بذلك ؟ »

ثم لا ذنا بالصمت مرة أخرى . وأخذت إليفور تمشى وهى مستترقة فى أفكارها من اللدافة إلى النافذة، ومن النافذة إلى اللدافة؛ دزن أن تحس بالدفء من الأولى ، أو تشاهد بعض الناظر من الأخرى . وجلست مريان أسفل الفراش

متكئة برأسها على أحد أعمدته ثم تناوت خطاب ولي مرة أخرى ، وصارت تقول بعد أن تبدي اشمزازها لكل جملة :

« هذا كثير جدا ! آه ولي ، ولي . أيمكن أن يكون هذا خطابك ! فاس فاس - ما إلى براءتك من سبيل . إلينور ، ما إلى براءته من سبيل - وإذا كان أحد أبلغه نبأ عني ، أما كان الأجدر به أن يتثبت منه قبل أن يصدقه ؟ أما كان الأجدر به أن يرجع إلى ، وأن يفتح لي الفرصة لأبرى نفسي ؟ » وخصلة الشعر « (تكررها من الخطاب) « التي تكلمت بها علي » - هذا ذنب لا يقتفر . ولي ! أين كان قلبك حين كتبت هذه الكلمات ؟ آه ! ما أقساها وما أوقعا ! إلينور ! أيمكن التماس العذر له ؟ »

« كلا ! مريان ، لا يمكن إطلاقا . »

ومع ذلك فهذه المرأة - ومن يدري ما صناعتها - كم لبثت تدبر هذه المكيدة وكيف دبرتها بإتقان ! من هي - ومن عساها تكون ؟ - التي سمعته يصفها بالشباب والجازبية بين معارفه من النساء ؟ آه لا أحد ، لا أحد - لم يكن يحدثني إلا عن نفسي .

وأعقب ذلك الصمت ، ثم اعترى مريان اضطراب شديد ، وأنتهت حديثها

: قائلة :

« إلينور ! لا بد أن أعود إلى بيتي . لا بد أن أذهب وأسرى عن ماما .

« ألا يمكن أن نسافر غداً ؟ »

« غداً ، يا مريان ! »

« نعم ، لماذا أبقى هنا ؟ لقد جئت هنا من أجل ولي وحده - والآن من

يهم بي ؟ من يحميني ؟ »

« من المستحيل أن نساغر غداً . إننا ندين لمسز جنتجز بأكثر مما تقضى به
المجاملة . وأدنى ضرور المجاملة ألا تتمجّل السفر على هذا النحو . »
« إذن فليكن بمسء يوم أو يومين ، ولكن لا أستطيع أن أمكث هنا
طويلا ، لا أستطيع أن أمكث هنا لأتلقى أسئلة هؤلاء الناس جميعا وملاحظاتهم :
آل ميدلتون وآل بالمر - كيف أطيق رثاءهم الحالى : رثاء امرأة مثل ليدى ميدلتون
آء ! ماذا يقول هو فى ذلك ! »

ونصحت لها إينور أن ترقد مسرة أخرى ، فرقدت لحظة ولكنها لم تشعر
بالراحة على أية هيئة رقدت ، فصارت تتقلب مما اعترأها من الآلام الجسمية
والنفسية ، وازدادت حالتها العصبية اضطرابا حتى لقيت إينور عناء كبيراً فى
حملها على الرقاد ، وخشيت أن يضطرها الأمر إلى طلب المساعدة ، ولكنها
استطاعت أن تعطىها بعض قطرات من ماء اللاوندا فهدأت أعصابها ، وظلت
ترقد فى الفراش منذ ذلك الوقت هادئة ساكفة الى أن عادت مسز جنتجز .

البصَل الشَّلَاوَن

توجهت مسز جننجز إلى حجرتها بمجرد عودتها ، وفتحت الباب دون أن تنتظر الإذن بالدخول ، ودخلت وقد ارتسمت على وجهها أمارات القلق البالغ . وقالت في صوت مليء بالرحمة والحفاظ لمريان التي أشاحت بوجهها دون أن تحاول الإجابة :

« كيف حالك يا عزيزتي ؟ »

« كيف حالها مس داشوود ؟ وارحمتاه لها ! إنها تبدو في حالة سيئة — ولا عجب ، فالخبر صحيح ، سيتزوج قريباً جداً — إنه رجل تافه لا يصلح لشيء . أنا لا أطيق أن أراه . لقد أخبرتني بذلك مسز تيلور منذ نصف ساعة ، وبلغها الخبر من إحدى صديقات مس جراى نفسها ، وإلا لما صدقته ، وكذت أهوى إلى الأرض عند ما سمعته ، وقلت : قصارى ما أقوله إذا صح هذا الخبر أنه أساء إلى فتاة من معارفى إساءة ممقوتة ، وأتمنى بكل جوارحى أن تمسك عليه زوجته صفوحياته وتبقى أنبى سأقول ذلك دائماً . لم أر في حياتى رجلاً يتصرفون كذلك وإذا أتيت لى أن أقاله يوماً ما فساوجه إليه من اللوم ما لم يسمعه منذ كثير من الأيام . ولكن لك فى هذا عزاء يا عزيزتى مريان ، وهو أنه ليس الشاب الوحيد فى الحياة الجدير بك ، وأنت بما أوتيت من الجمال لن تمدى كثيراً من المعجبين . وارحمتاه لها الا أريد أن أزعجها أكثر من ذلك لأنه يحسن بها أن تسكب دموعها مرة واحدة ، ثم تنتهى . ولحسن الحظ سيزورنا الليلة آل بارى وآل ساندرسون كما تملدين وسيكون فى وجودهما ما يرفه عنها .

ثم انصرفت وخرجت من الحجرة على أطراف أصابعها ، وكأنها تخشى أن يزيد وقع أقدامها من آلام صديقتها الصغيرة .

ولشد ما دهشت إلينبور عندما قررت مريان أن تتناول معها طعام الغداء ، ونصحتها إلينبور نفسها ألا تكلف نفسها هذا العناء ولكنها أبت ، وأصرت على النزول من حجرتها ، وقالت: إنها تتجلد ، فيقل اللفظ حول ذلك الأمر . ولم تقل إلينبور شيئاً لأنه سرها أن تتجلد مؤقتاً لهذا السبب ، وإن لم تعتقد أنه في وسعها أن تستمر في الغداء حتى النهاية . وساعدتها إلينبور في ارتداء ملابسها وهي راقدة في فراشها ثم رافقتها في الذهاب إلى حجرة الطعام حينما دُعيتا إليها .

ولما جلست إلى اللائدة تناولت من الطعام وأظهرت من الهدوء أكثر مما توقعته أختها ، وإن بدت على وجهها أمارات الأسى . ولو أنها حاولت أن تتكلم أو شعرت بنصف ما أبدته مسز جنجنز نحوها من ضروب الرعاية الصادرة بحسن نية وإن اقتصرت بالحاجة ، لما استطاعت أن تحتفظ بهذا الهدوء ، ولكنها كانت شاردة الذهن ، فما نسبت بينت شفة ولا أحست بما يجري حولها .

وقدرت إلينبور ما أبدته مسز جنجنز من عطف و بر نحو أختها ، وإن كانت مظاهره تنير الألم في أغلب الأحيان ، كما تنير الضحك في بعض الأحيان . وكانت إلينبور تقدم لها الشكر ، وترد لها المجاملات التي لا تستطيع أختها أن تردّها بنفسها ، فقد رأت صديقتها الطيبة أن مريان حزينة ، وشعرت أنه يجب عمل كل ما من شأنه أن يخفف من حزنها ، فأبدت لها من مظاهر الحب والتدليل ما تبديه الأم نحو طفلها المحبوبة في آخر يوم من إجازتها ، فحضتها بأحب مكان جانب المدفأة ، وأحضتها بأطيب الأطعمة في المنزل ، وحكت لها جميع أخبار اليوم لتدخل عليها

السرور . ولو أن إليفور لم تأنس في وجه أختها عزوفاً عن اللهو والتسلية ، لما وسعها إلا أن تضحك من المحاولات التي بذلتها مسز جننجز لتُنسِي أختها مرارة الخبية في الحب ، وذلك بتقديم أنواع الحلوى والزيتون وتوفير التدفئة الطيبة . على أن مريان لم تطق البتاء طويلاً بعدما رأت من تكرار هذه المحاولات ، فنهضت في الحال ، وأسرت بالخروج من الحجرة ، وهي تتأفف وتشير إلى أختها ألا تتبعها .

فصاحت مسز جننجز بمجرد أن خرجت: « مسكينة ! ما أشد ما أشعر به من الأذى عندما أراها ! لو لم تخرج دون أن تشرب الكأس ! والكرز الجلف أيضا رياء ! يبدو أنها لا تحب شيئاً . لو أني أعرف شيئاً تحبه ، لبحثت عنه في جميع أنحاء لندن . حقا إن أغرب شيء رأيتُه أن يسيء إنسان إلى هذه الفتاة الجميلة مثل هذه الإساءة ! ولكن إذا وجدت فتاة تملك ثروة طائلة ، وفتاة لا تكاد تملك شيئاً فإن الرجال - رحماك اللهم ! - لا يباليون بمثل هذه الأعمال ! »

« السيدة إذن - أظن أنك قلت إن اسمها مسز جراي - ذات ثروة طائلة ؟ »

« خمسون ألفاً من الجنيهات يا عزيزتي . هل رأيتها قط ؟ يقولون : إنها فتاة رشيقة أنيقة ، ولكنها ليست وسيمة . أنا أذكر جيداً عمتها بيدي هُنشُو ، فقد تزوجت رجلاً ذا ثروة طائلة ، ولكن أفراد الأسرة جميعاً من الأثرياء . خمسون ألفاً من الجنيهات ! ويجمع الكل على أن الدافع لهذا الزواج هو الحاجة لأنهم يقولون : إنه قد أفلس . ولا عجب ! فإنه يفتدو ويروح بمرته وصيدابه ! على أنه

لامعنى للحديث فى ذلك . بيد أنه حينما يأتى فتى ، كأننا من كان ، ويفازل فتاة جميلة ويمنيها بالزواج فليس من حقه أن يتنصل من وعده ، لاسبب إلا أنه أضحى فقيراً ، ووجد فتاةً أغنى منها تبدى استعدادها للزواج منه . لماذا لا يبيع فى هذه الحالة جواده ، ويؤجر بيته ، ويستغنى عن خدمه ، ويصلح من شأنه على الفور ؟ أؤكد لك أن مس مريان كانت تبدى استعدادها للانتظار حتى تصلح أحواله . ولكن ذلك لا يمدى فى هذه الأيام لأن شباب العصر لا يمكن أن يتخلى عن أى شيء يحاب له السرور واللذة .

« أترفين شيئاً عن أخلاق مس جراى ؟ أمى فتاة لطيفة ؟ »

« لم أسمع عنها أى سوء . والواقع أنتى لم أسمع أحداً يذكرها فيما عدا مسز تيور التى قالت هذا الصباح: إن مس ووكر أشارت ذات يوم فقلت: إنها تمقتد أن مستر ومسز إليسون لن يأسفا على زواج مس جراى ، لأنها هى ومسز إليسون لا يفتقان أبداً . »

« ومن هما مستر ومسز إليسون ؟ »

« هما وليا أمرها يا عزيزتى . ولكنها بلفت الآن سن الرشد ، ومن حقه أن تختار زوجها ونم ما اختارته ! — ثم سكتت هنيهة ، وقالت : « أخشى أن تكون أختك قد ذهبت إلى حجرتها لتبكى على حالها . هل من سبيل إلى مواساتها ؟ وارحتاه لها ! إنه لمن القسوة أن نتركها وحدها . ولكن بعض الأصدقاء سيروونا بعد قليل ، وسيكون فى ذلك بعض التسلية لها . ماذا سنلعب ؟ أنا

أعرف أنها تكره لعبة الوست . ولكن هل هناك لعبة تحبها من الألعاب التي
يشارك فيها عدد كبير من اللاعبين ؟

« سيدتي العزيزة : لاداعي إطلاقاً لإظهار هذه الشفقة فأني أعتقد أن
مريان لن تبرح حجرتها هذا المساء ، وسأحملها إذا استطعت على التبيكير بأنوم ،
لأني أعتقد أنها بحاجة إلى الراحة . »

« نعم ، أعتقد أن ذلك خير لها . فلتطلب ما تشاء من العشاء ثم توجه
إلى الفراش . رباه ! لا عجب أن تظهر عليها أمارات الحزن والكآبة خلال هذا
الأسبوع أو الأسبوعين الماضيين ، فقد ظل هذا الموضوع يشغل بالها فيما أظن طول
هذه اللدة ثم جاء الخطاب الذي وصل اليوم فحسم الأمر ! وارحمتها لها ! إنني
أؤكد أنه لو كانت لدى فكرة عن هذا الموضوع لما اتخذت منه مادة للمزاح بأى
حال من الأحوال . ولكن أنى لي - كما تعلمين - أن أحزر هذا الأمر ؟ لقد
اعتقدت أنه ليس سوى خطاب غرامى عادى ، وأنت تعرفين أن الشبان يحبون
أن يتندر الناس عليهم . رباه ! ما أشد ما سيمتري سير جون وبناتي من الهم ،
عندما يعلمن بهذا الأمر ! ولو كنت تفتنت للأمر لزرتهن في كندوى ستريت
في طريقى إلى المنزل وأخبرتهن الخبر ، ولكنى سأراهن غداً . »

« أعتقد أنه لاجابة بك إلى تحذير مسز بالمر وسير جون من أن يذكرا اسم
ولبي إطلاقاً أو يشير أذن إشارة إلى ماجرى في حضور أختي ، وإني أعتقد أن
طيبة قلبهما سوف تشعرهما . أنه من القسوة التظاهر بمعرفة أى شيء عن هذا
الموضوع في حضورها . وأنت ياسيدتي لست بحاجة لأن تعرفى أنه كلما قل
الكلام في هذا الأمر أمامي ، قل ما أشعر به من الحرج . »

«رباه انعم، أعرف ذلك حقا . لاشك أن ذكر هذا الأمر أمامك يفزعك أما أختك فأؤكد لك أنى لن أذكر لها أية كلمة عنه . وقد رأيت أنى أمسكت عن الكلام طول وقت الفداء . ولن يتعرض سير جون ولا بناتى لهذا الحديث لأنهن يحرصن على مراعاة شعور أختك ولا سيما إذا نبهتهن إلى الأمر وسأقل ذلك يقينا، وأنا شخصياً أعتقد أنه كلما قل الكلام في مثل هذه الأمور كان خيراً وأدعى إلى زوال أثرها ونسيانها . وهل تعلمين أن الكلام في مثل ذلك يعود بالغير؟»

« في مثل هذا الأمر لا يمكن أن يعود الكلام إلا بالضرر ، وربما كان الضرر أئد منه في كثير من الأمور الماثلة ، لأنه اكتنفته ملاسات تجعل من غير المناسب أن تتوكله الألسنة حرصاً على مصلحة كل من يعنيه هذا الأمر . و يقتضين الإصاف أن أقول : إن مستر ولبى لم يفسخ خطبة قطمية مع أختى . »
« القانون يا عزيزتى ! لا تتظاهرى بالدفاع عنه . لاخطبة قطمية في الواقع ! بعد أن طاف بها في أرجاء قصر إتهام هاوس وحددا الحجرات التى يقمان بها في المستقبل ! »

ولم تشأ إلينور أن تتأدى في الحديث أكثر من ذلك حرصاً على كرامة أختها ، وكانت ترجو ألا تدعوها الحاجة إلى ذلك حرصاً على سمعة ولبى ، لأنه على الرغم من أن مريان قد تخسر الشيء الكثير ، فإن ولبى لن يكسب إلا القليل من وراء الكشف عن حقائق الأمور .

وبعد أن لزم الجانبان الصمت قليلا عادت مسز جتنجز فانطلقت تقول بحفتها للمهودة .

«حسناً يا عزيزتي ! ما أصدق المثل القائل رب ضارة نافعة ، لأن هذا الحادث سيكون في صالح كولونيل براندون . إنه سيفظفر بها في النهاية . نعم سيفظفر بها . اسمي لي . سيتزوجان في منتصف الصيف . سيكون حقاً خيراً لأختك من ولي . ألقان من الجنيئات بدون ديون ولا ضرائب ماعدا الطفلة غير الشرعية ؛ نعم لقد أنسيتهما ، ولكن يمكن تمهينها خارج المنزل بمبلغ يسير ، ولكن ماذا يهم هذا ؟ وأؤكد لك أن ديلافورد قصر جميل ، قصر قديم جميل مزود بوسائل الراحة ، تحيط به أسوار حديقة كبرى مغطاة بأجمل أشجار الفاكهة في البلاد ، وما أجمل شجرة التوت الموجودة في أحد الأركان ؟ رياه كم كنت أنا وشارلوت نأكل بشرهة أيام إقامتنا هناك ! ثم فيه برج حمام ، وبرك رائعة لتربية الأسماك ، وقناة جميلة للمنظر . وجملة القول أنه يشتمل على كل ما يتمناه لكم . وهو إلى ذلك قريب من الكنيسة ، ولا يبعد عن الطريق للمكس إلا بربع ميل ، ولذلك فهو لا يبعث على السامة والملل ، لأنك إذا ذهبت وجلست في ظل شجرة السدر الجميلة المتينة خلف للزل أمكنك أن تشاهدى جميع العربات التي تمر في الطريق . ياله من قصر جميل ! جزار بالقرب منه في القرية ، ويدت الراعي على مرمى حجر منه . وعندى أنه أجل ألف مرة من بارتون بارك الذي يضطر أهله إلى إرسال الخدم ثلاثة أميال لإحضار اللحم ، وليس لهم جار أقرب إليهم من والدتك . نعم إننى سأشجع الكولونيل على إتمام هذا الزواج في أسرع وقت مستطاع . إن مساراً كما تعلمين يدفع مساراً إلى أسفل . لو استطعنا أن ننزع ولي من رأسها !»

قالت إليونور : « وإذا لم نستطع ياسيدي أن نفعل إلا ذلك كان خيراً لها

سواء تزوجت كولونيل براندون أو لم تزوجه « ثم نهضت وتوجهت إلى مريان فوجدتها - كما كانت تتوقع - جالسة في حجرتها مكبة في صمت وألم على بقايا قليلة من نار كانت هي الضوء الوحيد في الحجرة إلى أن دخلت إليينور .

وكانت الكامة الوحيدة التي بدرت منها لأختها « يحسن بك أن تدعيني » .
فقال إليينور « سأدعك إذا أويت إلى الفراش . » ولكنها أبت أولاً بسبب العناد الوقتي الناشئ عن الألم للقرون بالقلق ، ولكن أختها ألحت عليها فأقمتها - ولكن في رفق - فأصاحت لنصحها ، وراثها إليينور وهي ترقد برأسها للوجهة على الوسادة ، والطمأن قبل أن تنصرف إلى أنها في سبيلها إلى أن تنعم ببعض الراحة . »

ثم توجهت إلى حجرة الاستقبال ، وسرعان ما لحقت بهامسر جننجز ويدها كأس نبيذ مملوء بشراب ما .

وقالت وهي تدخل الحجرة : « عزيزي ! لقد تذكرت أن لدى بعض نبيذ كونستانيا ، وهو من أطيب الأنبيذة الممتعة مذاقا ، فحُثت منه بكأس لأختك . وارجحناه لزوجي ! ما كان أشد غرامه بهذا النبيذ ! وكان يقول كلما عاوده مس من عرق النساء للزمن : إنه ينفعه ما لا ينفعه أى دواء في العالم . أرجو أن تعليه أختك . »

فأجابت إليينور ، وهي تضحك ، لاختلاف علة أختها عن العلة التي وُصِف النبيذ لها : « ما أطيب قلبك يا سيدتي العزيزة ! لقد تركت مريان الآن في الفراش ، وتوشك أن تكون قد نامت . وأعتقد أنه لا ينفعها كالراحة ، وسأشرب أنا النبيذ إذا سمحت لي بذلك . »

ورضيت مسز جتنجز بهذا الحل الوسط ، وإن أبدت أسفها لتأخرها عن إحضار الكأس خمس دقائق . وشربت إينور معظمه ، ولم يكن يههما في ذلك الوقت أن تجرب آثاره الطيبة في شفاء عرق النسا ، ولكنها رأت أنه لا بأس من أن تجرب هي تأثيره في شفاء القلب المجروح كما تجرب به أختها . »

وحضر كولونيل براندون وهما يتشرثمان الشاي ، وأدركت إينور من نظرتة التي تفحص بها الحجرة بحثا عن مريان أنه لم يكن يتوقع أو يتمنى أن يراها هناك ، وبالاختصار أنه كان يعرف سبب غيابها . أما مسز جتنجز فلم تخطر ببالها هذه الفكرة ، لأنها عبرت الحجرة عقب دخوله إلى مائدة الشاي التي جلست إينور على رأسها ، وهمست « الكولونيل يبدو سامم الوجه كما دته دائما . إنه لا يعرف عن الأمر شيئا . أرجو أن تجربيه يا عزيزتي بما حدث . »

ولم يلبث أن سحب كرسيها ، وجلس بجوارها ، وسألها عن أختها بنظرة تنبيء .
عن اطلاعها على حقيقة الأمر .

فأجابت : « مريان ليست على ما يرام ، فقد ظلت متوعكة للزواج طوال اليوم .
وحملناها على التوجه إلى الفراش . »

فقال بتردد . « لعل إذن ما سمعته هذا الصباح قد يحمل من الحقيقة أكثر مما
اعتقدت بادى الأمر . »

« ماذا سمعت ؟ »

« أن رجلاً لدى من الأسباب ما يحمل على الظن - بالاختصار - أن رجلاً
أعرف أنا أنه خطب فتاة - ولكن كيف أخبرك - إذا كنت تعرفين الأمر من

قبل - ومن للؤكد أنك تعرفينه - فأرجو إغفائي من الحديث . »

فتصنعت إلبنور الهدوء وأجابت : « تعنى زواج مستر ولبي بمس جراى . نعم ، نحن نعرف ذلك كله . ويبدو أن الأمور كلها تكشفت فى هذا اليوم . فقد برح الخفاء صباح هذا اليوم نفسه . ومستر ولبي رجل لا يسبر غوره . أين سمعت الخبير ؟ »

« فى محل أحد الوراقين فى بول مول حيث ذهبتُ إليه لبعض شأنى ، فرأيت سيدتين تنتظران عر بهما ، إحداهما تقص على الأخرى أبناء الزواج المرتقب بصوت غير خافت ، بحيث لم يتمذر على سماع الحديث كله . وتردد على سمعى اسم ولبي - جون ولبي - أكثر من مرة . فأثار ذلك انتباهى أولاً ثم تأكد لى بصفة فاطمة ، مما سمعته بعد ذلك ، أنه قد تم الاتفاق بصفة نهائية على الإجراءات الخاصة بزواجه بمس جراى - لم يعد الأمر مرا - بل إن الزواج سيتم فى غضون بضعة أسابيع ، مع ذكر الكثير عن تفاصيل الاستعدادات التى اتخذت للزواج ، وغيرها من الأمور . وأذكر أمراً واحداً بصفة خاصة لأنه أكد لى شخصية الرجل بصفة أكثر وضوحاً ، وهو أنه متى تمت مراسم الزواج فستتوجه الزوجان إلى كومب ما جنا - مقره فى سومر سنشايير . لشدمادهشت ! ولكن يستحيل على أن أصف لك شعورى . وعلمت بعد البحث - لآنى مكنت فى المحل حتى انصرفهما - أن السيدة التى أفضت بهذا النبأ هى مسز اليسون ، وهى كما علمت ولاية أمر مس جراى . »

« هذا صحيح . ولكن هل سمعت كذلك أن مس جراى تملك خمسين ألف جنيهه ؟ ففى ذلك يمكن أن نجد - ان أمكن أن نجد - تفسيراً لهذا الحادث . »

« ربما كان الأمر كذلك . ولكن ولى يستطيع - أعتقد ذلك على الأقل -
وسكت هنيهة ثم أضاف بصوت يرم على الشك والارتياب « وأختك - كيف -
« لقد تأملت أشد الألم ، وأرجو ألا يطول هذا الألم . لقد كانت محنة ،
إنها محنة قاسية إلى أقصى حد . وأعتقد أنها ظلت حتى أمس لا تشك في حبه
لها قط ، وربما لا تشك في ذلك حتى الآن . ولكنى أنا أكاد أعتقد أنه لم يخلص
لها الحب قط . لقد كان رجلا مخادعا ! ويبدو لى أن مسلكه في بعض النواحي
يتم على قسوة القلب . »

فقال كولونيل براندون : « آه ! لقد أصبت كبد الصواب ! ولكن أختك -
وأظنك قلت ذلك - لا ترى رأيك تماما . »

« أنت تعرف طبيعتها . وفي وسعك أن تعتقد أنها لا تزال تبرر مسلكه بشدة
ما استطاعت . »

فلم يجر جوابا ، وسرعان ما أعرض بالضرورة عن الحديث في الموضوع بعد
رفع مائدة الشاي ، والاستعداد للعب الورق . وكانت مسز جننجز تراقبهما
بسرور وهما يتحدثان ، وتتوقع أن يكون لما تفضى به مس داشوود أثره السريع
في إدخال السرور على كولونيل براندون على نحو يليق برجل يشعر بمفنون الشباب
والأمل والسعادة ، ولكنها دهشت عند ما رأته سامم الوجه شارد الفكر طول
ذلك المساء أكثر من عادته .

الفصل الحادى عشر والثلاثون

استيقظت مريان صباح غد بد ليلة نمت فيها بالكرى أكثر مما كان متوقفاً ، لتتجرع غصص الآلام التى أغمضت عاينها غيظاً فى الليلة البارحة .

وشجعتها إلبور بقدر ما استطاعت على التحدث عما تشعر به ، فأخذتا قلبان النظر فى الموضوع مرة بعد أخرى قبل تناول الفطور ، وكانت إلبور تتحدث بما هو معهود عنها من ثبات الرأى والإخلاص فى النصيح ، ومريان بما هو معروف عنها من الاندفاع والتهور وتقلب الرأى ؛ طوراً ترى أن ولبى سىء الحظ برىء مثلها ، وطوراً ترى أنه لا يمكن أن يكون بريئاً ، ففقد كل أسباب العزاء والسوان . وتارة لايهمها الاختلاط بالناس جميعاً ، وتارة تمنح إلى اعتزالهم إلى الأبد ، وتارة أخرى تقاوم هذه العزلة بكل قوة ، على أنها كانت تثبت على أمر واحد ، عندما يتطرق الأمر إلى جوهر الموضوع ، ألا وهو تماشى حضور مسز جننجرز ، والزام الصمت المطبق عند ما تضطر إلى احتمال حضورها ، فكان قلبها ينفر من أى مظهر من مظاهر الشفقة تبديه هذه السيدة لمواساتها فى أحزانها .

صاحت مريان : « كلا ، كلا ؛ لا يمكن أن يكون ذلك . إنها عديمة الشعور . إن شفتها ليست مشاركة وجدان ، ودمايتها ليست ضرباً من الحنان . كل ما تريده هو الثرثرة ، وهى لاتحببى الآن إلا لأنى أتبيع لها فرصة الثرثرة . »

لم تسكن إلبور بحاجة إلى ذلك لتتأكد من الإحجاف الذى تنساق إليه

أختها في رأيها عن الخير بسبب نزقها وانفعالها ومثالاتها في أهمية رقة العواطف ،
ومزايا الخلق المهذب . ولم تكن مريان مع مواهبها الفاتحة وأخلاقها الفاضلة تنصف
بالاعتدال أو الصراحة ، شأنها في ذلك شأن نصف بقية العالم إذا كان أكثر
من نصفه من الأذكياء والفضلاء . وكانت تتوقع من الناس أن يمتنعوا آراءها ،
ويشعروا بمشاعرهما ، وتحكم على البواعث التي تدفعهم إلى أعمالهم بما لأفعالهم
من أثر مباشر في نفسها . ولذلك وقع حادث بينما كانت تجلس هي وأختها في
حجرتهما بعد تناول الفطور زادها إيماناً بقسوة قلب مسز جننجز ، لأنه اتفق أن
أصبح هذا الحادث — بسبب ضعفها هي — سبباً جديداً في مضاعفة آلامها ،
وأن الدافع إليه من جانب مسز جننجز هو حسن النية إلى أقصى حد .

دخلت عليهما مسز جننجز تمد يدها بخطاب تحملها ، ووجهها يعلوه الابتسام
معتقدة أن هذا الخطاب سيجلب لها أسباب العزاء والصلوان فقالت :

« اسمي يا عزيزتي ! لقد أتيت لك بشيء أعقد أنه يسرك . فأرعتها
مريان سمعها ، وصور لها الوهم لحظة أن الخطاب من ولي ، وأنه يفيض رقة وندما
ويفسر لها ما حدث بعبارة مرضية مقننة ، وأن ولي سيحضر في أعقاب هذا
الخطاب من فورهم ، ويندفع إلى الحجرة جاثياً أمام قدميها ، مؤكداً لها ببلغة
عينية ، ما يحمله الخطاب من تأكيدات . ولكن الصرح الذي بناه الوهم في
لحظة هدم في لحظة أخرى ، إذ تبين أن الخطاب بخط أمها ، ولم يثر هذا الخط
قط من الالتماس أكثر مما أثار في ذلك الوقت ، وكان ما شعرت به من الألم
حتى هذه اللحظة لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب مرارة الخيبة التي أعقبت ما شعرت
به من نشوة تفوق لغة الأمل .

وما كان لأى لمة تسمف . ريان فى أسعد لحظات بلاعتها أن تعبر عن قسوة مسز جننجز ، وكل ما استطاعت الآن تفعله هو أن توخها بالموع التى أسهرت من مقتلها بفزارة ، على أن هذا التوبيخ لم يؤثر فى نفس مسز جننجز إطلاقاً ، فانسحبت بعد أن عبرت عن إشفاتها بكلمات كثيرة ، وهى لاتزال تشير إلى الخطاب على أنه سبب من أسباب العزاء والسوان . ولكنه لم يجب لها كثيراً من العزاء بعد أن هدأت ثورتها وقرأته . وكان ولى يملأ كل صفحة من صفحاته ، إذ كانت أمها لاتزال تعتقد أن خطبتها قائمة ، ولا تزال تعمل كمهدا على وقائه . وكل ما فى الأمر أنها استجابت لرجاء إينور ، فطلبت إلى مريان مزيداً من الصراحة معها مما ، وكان الخطاب يفيض بعبارة الخنان لها والحب لولى ، والإيمان بسعادتها الزوجية المستقبلية إلى حد جعل مريان تبنى من الألم خلال الخطاب كله .

وعادت الآن فتلهفت بكل قواها على العودة إلى المنزل ، وصارت تحب أمها أكثر من أى وقت مضى ، نجها أكثر بسبب فرط ثقها الخاطئة فى ولى ، وتلح إلحاحاً شديداً فى السفر . ولم تستطع إينور نفسها أن تقرر : أمن الخبير لمريان أن تكون فى لندن ، أم فى بارتون ؟ فنصحت لأختها بالصبر حتى يتبين رغبة أمها وأخير أظفرت بموافقة أختها على الانتظار حتى تتعرف ذلك .

وتركها مسز جننجز ، وخرجت مبكرة أكثر من المعتاد لأنه لم يبدأ لها بال حتى يشاركها آل ميدلتون وبالمر فى أحزانها . ورفضت ماعرضته إينور من مراقبتها رفضاً باتاً ، فخرجت وحدها بقية ساعات الصباح . وجلست إينور إلى اللادة وهى حزينة الفؤاد ، وهى تشعر بالألم الذى ستففى به لأما وترى كما هو ظاهر من خطاب مريان أنه لا أساس لهذا الألم ، وأخذت تكتب لأمها

م - ٦١ العقل والمالفة

خطاباً تمص فيه أنباء ما حدث ، وتسألها عما ينبغي عمله في المستقبل في حين دخلت مريانات حجرة الاستقبال بعد انصراف مسز جتنجز ، وظلت رابضة أمام النضد الذي تسكتب عنده إلبنور ، ترأب حر كات قدها ، وهى تشفق من صعوبة المهمة ، والسكها تشفق أكثر من وقع هذا الخطاب في نفس أمها .

وعلى هذا النحو بقيت الأختان حوالى ربع ساعة ، وإذا بمريان التى لم تحتمل أعصابها إذ ذاك سماع أى صوت مغاجى . تنهض قائمة عندما سمعت صوت طارق بالباب .

فصاحت إلبنور : « من هذا ياترى ؟ وقد آتى أيضا مبكرا ! لقد ظننت أننا أصبحنا فى أمان . »

فدخلت مريان إلى النافذة .

وقالت وهى تتبرم : « إبه كولونيل براندون . إنا لن نخلص منه أبداً . »

« لن يدخل ، لأن مسز جتنجز خارج المنزل . »

وعادت القهقرى إلى حجرتها قائلة : « لن أركن إلى ذلك . إن رجلا ليس

لديه ما يشغل به وقته لن يتورع عن تضییع وقت غيره . »

وقد أثبت الواقع صدق حدسها ، وإن كان مبنيا على الظلم والخطأ ، إذ دخل

كولونيل براندون بالقل . ولكن إلبنور لم تغفر لأختها استخفافها بقدره ، اعتقاداً منها أن سبب حضوره هو اهتمامه بأمر مريان الذى تجلى فى نظرها القلقة الحزينة ، وفى سؤاله عنها ، وإن كان هذا السؤال وجيزاً .

قال بعد أن خياها أولاً : « قابت مسز جتنجز فى بوند ستريت ، فشجعتنى على الحضور ، وزادنى تشجيماً أننى ظننت أنه يحتمل أن ألقاك مفردة ، وهو ما

كنت أرغب فيه . وغرضي من الحضور - قصدي - قصدي الوحيد من الحضور أرجو - أعتقد أنه - أن أشارك في اللواسة - كلا ، لا أقول للواسة - اللواسة في الوقت الحاضر - ولكن أن أتلقى فؤاد أختك ببرد اليقين ، اليقين الدائم إن حبي لها ولك ولأمك - هل تسمحين أن أبرهن على هذا الحب ، فأقص بعض الظروف وللإسبات التي لاشيء سوى الحب للقرون بمحض الإخلاص لاشيء ، سوى الرغبة الصادقة في أن يكون الإنسان نافعاً لغيره - أعتقد أنني محق وإن قضيت عدة ساعات في إقناع نفسي بأنني على حق ، أليس هناك من الأسباب ما يحمل على الخوف من أن أكون مخطئاً ؟ » ثم سكت عن الكلام .

قالت إليانور: « إنني أفهم ما تقول - تريد أي نفضي لي بأخبار تلقى للزبد من الضوء على أخلاق ولي . إن إفضاءك لي بها سيكون أكبر دليل على صداقتك لمرين ، ولك شكري ممجلاً على كل نبأ نفضي به إلي في هذا الصدد . أما شكر مريان فستظفر به على مر الزمن - أرجوك أرجوك أن تسمعي ما لديك من أخبار .

« لك ذلك ، وموجز أقول أنني عندما غادرت بارتون في أكتوبر للماضي - ولحسن ذلك لن يعطيك أية فكرة - يتعين على أن أرجع إلى الورا ، قليلاً . ستجدين يامس داشوود أنني محدث غير لبق ، فأنا لأدري من أين أبدأ ، أعتقد أنه يجب أن أحدثك عن نفسي حديثاً وجيزاً ، ولا بد أن يكون حديثاً وجيزاً ، وتنهى بشدة ثم قال « في مثل هذا الموضوع لا أجد ما ينري بالإسهاب . »

وسكت هنيئة ليتذكر ما يقول ثم استطرده بعد أن نهى مرة أخرى :

« لملك نسيت حديثاً (فلا أظن أن هذا الحديث ترك في ذهنك أي شيء)

حديثا جرى بيننا مساء يوم في بارتون مساء يوم قامت فيه حفلة رقص ، وأشرت فيه إلى سيدة سبق لي التعرف إليها وهي تشبه أختك مريان من بعض الوجوه .
فأجابت إلي نور : « الواقع أني لم أنس هذا الحديث » فأشرق وجهه بالسرور لهذا التذكر وأضاف :

« إذا أنا لم أنثر بزوات الهوى في سرد ذكر يأتي الحبيبة ، قلت : إن وجه الشبه بينهما قوى جدا سواء من الناحية العقلية أو الجسمية : كلتاها تمتاز بجمارة الماطفة ، وقوة الخيال والروح - كانت هذه السيدة من أقاربى الأديين ، قيمة منذ نعومة أظفارها ، وفي ولاية أبي ، وكنا متقاربين في السن ، وتوثقت بيننا عرى الصداقة والزمالة في اللعب منذ الصغر . ولا أذكر وقتا لم أحب فيه إليزا . وعندما كبرت أحببتها حبا ربما تخيل إليك أني لم أشعر به قط عندما تنظرين إلى ما أعانيه الآن من الكتابة والأسى . وأعتقد أنها كانت تحبني حبا جما يضارع حب أختك لولبي . وكان هذا الحب مقرونا بسوء الحظ ، وإن كان السبب مختلفا في الحالين . ولما بلغت السابعة عشرة فقدتها إلى الأبد ، إذ تزوجت بأخي على غير رغبتها ، وكانت طائلة الثراء ، أما ضيعة أسرتنا فكانت متقلبة بالديون . وأخشى أن يكون هذا هو كل ما يمكن أن يقال عن سلوك رجل كان عمها وولي أمرها في الوقت نفسه . لم يكن أخي جديرا بها بل لم يكن يحبها . وكنت أرجو أن تظل على حيي في كل مدة . وفلا ظلت على ذلك فترة من الزمن . ولكن سوء حالها - لأنها لقيت معاملة قاسية - تدلب على قوة إرادتها . ومع أنها وعدتني أنه ما من شيء - كيف أتخبط في رواية قصتي ! إنني لم أخبرك قط كيف حدث هذا . كنت على وشك الفرار بها إلى إسكتلندا ، ولكن خادمة ابن عمي أفضت بسرنا خيانة

أو غباوة ، فنفيت إلى منزل ناه لأحد أقاربي ، وحرمت هي من الحرية والاختلاط بالمجتمع والملاهي ، إلى أن تدخل أبي في الأمر . وكنت أعول كثيراً على ما تتمتع به من صبر وجلد ، إذ كانت الضربة اليمية . ولكن لو أن زواجها بأخي كان موقفاً . لكان مرور بضعة أشهر - على الرغم من صغر سني في ذلك - كفيلاً بأن يحملني على قبول زواجها من أخي ، أو على الأقل لأبكي الآن على هذا الزواج . ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فلم يكن أخي يجيها ، وكانت مآذاته وشهواته على غير ما ينبغي أن يكون ، وأخذ يسومها سوء المعاملة منذ البداية ، وكان أثر ذلك في نفس امرأة شابة مرحة غير مجربة مثل مسز براندون أمراً طبيعياً . صبرت أول الأمر على سوء حالها ، ولو أنها لم تمش حتى تقاسمى هذه الأحران التي تثيرها ذكر يأتي الآن لكان خيراً ، ولكن أكان عجباً أن تزل قدما بسبب هذا الزواج الذي يدفع سلوكه للمرأة إلى الخيانة ؟ وبدون أن يكون لها صديق ينصحها أو يردعها (إذ توفي أبي بعد زواجها ببضعة شهور وكنت أنا مع كتيبتني في جزر الهند الشرقية) ولو أنني بقيت في إنجلترا ربما - ولكنني أردت أن أهيب . لها أسباب السعادة بأن أرحل عنها عدة سنوات ، ولهذا الغرض بادلت زميلاً بمكانتي ، واستطرد يقول في صوت شديد الاضطراب : « كانت الصدمة التي سببها هذا الزواج لي هينة ، بل لم تكن شيئاً بالقياس إلى ما شمرت به عندما علمت بعد حوالي سنتين بطلاقها ، فكان هذا هو الذي أورتني هذه الكتابة ، بل جعلني أذكر حتى الآن ما خالطني من الألم » .

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك ثم نهض مسرعا وأخذ يذرع الحجره جيئة وذهابا بضع دقائق ، ولم تستطع بالنور أن تتكلم لأنها تألمت لقصته ، وتألمت أكثر لأله ، وآنس هو ما اعترأها من المم ، فأقبل عليها وتناول يدها

وشد عليها قبلها باحترام يرم على الشكر ، واستطاع بعد بضع دقائق من التجلد القويون بالصمت أن يواصل حديثه في هدوء .

لم أعد إلى إنجلترا إلا بعدما يقرب من انقضاء ثلاث سنوات على هذه الفترة الأليمة ، وكان أول همى عند وصولي هو البحث عنها بالطبع ، ولكن البحث كان ضراباً من العبث بقدر ما كان مثيراً للأسى فلم أستطع أن أقف لها على خير أكثر من خير الرجل الذي اغراها أول مرة ، وكان هناك ، من الأسباب ما يحمل على الخوف من أنها فارقت لتنزلق إلى الدرك الأسفل وكانت نفقتها الشرعية لا تنكافأ مع ثروتها ، ولا تكفل لها حياة هنيئة ، وعلت من أخى أنها تنازلت عنها إلى شخص آخر ، وقال : إنه يظن ويظن ظناً قويا أن إسرافها وما ترتب عليه من وقوعها في الضيق والشدة حملها على التنازل عن النفقة للحصول على الثوب السريع . على أنى استطعت أن أعثر بعد أن عدت إلى إنجلترا بستة شهور ، فقد كان لي خادم سابق نكته الأيام فرج به في السجن لدين عليه ، فملنى حبي له على زيارته في سجنه ، فوجدت في هذا السجن نفسه أختى محبوبسة لمثل هذا السبب . ورأيتها وقد تغيرت جداً وذبلت جدا - وشقها الألم من كل لون ، ولم أك أدق أن الشبح الحزين السقيم اللائل أمام ناظرى هو حطام الفتاة الفارحة اليافعة أغرمت بها في يوم من الأيام . إن ما كابدته عندما شاهدتها على هذه الصورة - ولكن ليس من حق أن أخرج شعورك بأن أصف لك ما رأيت ، فقد آلت شعورك إلى حد يفوق الوصف . وكان أكبر عزاء لي أن رأيتها تعانى آخر مراحل السل كما كان واضحاً - نعم لقد كان في هذه الحال أكبر عزاء ، فلم يكن في الحياة أى خير لها أكثر من أن أتبع لها فرصة الاستعداد للموت على نحو أفضل ، وهذا ما قد حدث ، إذ نقلتها إلى غرفة مريحة

وهيات لها وسائل الخدمة والرعاية الواجبة ، وواظبت على زيارتها في كل يوم من أيام حياتها ، وشهدت آخر لحظات أيامها .

ثم عاد فسكت ليهترد أنفاسه ، وعبرت إلينور عن مشاعرها بصوت يتم على الحزن والأسى لمصير صديقه المتكوبة .

وقال : « أرجو ألا تنضب أختك للشبه الذي تخيلته بينها وبين قريبتى المسكينه المحطلة بالعار . إن مصيرهما لا يمكن أن يكون واحدا . ولو أن الشرائل الجلوة التي فطرت عليها إحداها حصنت بقوة الإرادة أو الزواج السعيد لكان من المحتمل أن تكون هي على الحال الذي ستميشين حتى ترين عليه الأخرى . ولكن بما المهدف من ذكر ذلك كله ؟ بيدولى أنى أملكك دون داع . آه . مس داشوود ! إن موضوعا كهذا ظل مطوبا أربعة عشر عاما ، من الخطر أن يثيره الإنسان على الإطلاق ولكن سأستجمع شجاعتي وأجز في القول : لقد تركت في كمالى طفلتها الوحيدة ، فساتة صغيرة هي ثمرة خطئها ، وكان عمرها إذ ذاك حوالى ثلاث سنوات ، وكانت تحب هذه البنت ولا تفارقها قط . وكانت هذه الطفلة أمانة ثمينة في يدي . وكان بودى أن أحافظ عليها بأدق معانى الكلمة بأن أشرف على تعليمها بنفسى ، لو أن ظروف سمحت لى بذلك . ولكن لم تكن لى أسرة ولا منزل ، ولذلك ألحقت ليزا الصغيرة بالمدرسة ، وكنت أزورها ما استطعت ، وبعد وفاة أخى (حدث ذلك منذ حوالى خمسة أعوام وترتب عليه أن آلت إلى أملاك الأسرة) ظلت تتردد على فى ديلافورد . وكنت أقول : إنها قريبتى من بعيد . ولكننى أعلم أن الناس يعتقدون بوجه عام أنها أمس رجحا لى . وقد مضت الآن ثلاث سنوات (وكانت قد بلغت الرابعة عشرة) منذ أن نقلتها من المدرسة لأعهد بها إلى امرأة فاضلة تقيم فى دورستشاير وترعى أربع

أو خمس بنات غيرها كلهن مقاربات السن . وكان لدى من الأسباب ما يحملنى على الرضا بمحالها مدة سنتين . ولكن حدث فى فبراير الماضى أى منذ ستة تقريباً أن اخضت فجأة ، وقد سمحت لها (جهلا منى كما انضح فيما بعد) أن تذهب إلى مدينة باشمع إحدى صديقاتها الصغيرات التى كانت تقوم على رعاية أبيها المريض ، وكنت أعرف أنه رجل فاضل ، وأحسن الظن بابنته أكثر مما تستحق لأنها تشبت بأهداب السكمان فى طيش وعناد وأبت أن تقول لى شيئاً أو تدلنى عليها مع علمها بكل شىء . وكان أبوها رجلاً حسن النية ، واسكنه غير ذكى فلم يستطع حياً أعتقد أن يمدنى بأية معلومات لأنه كان حبيس البيت ، بينما كانت الفتاتان تترتان فى المدينة وتمرحان كما تشاءان ، وحاول أن يقنعنى كما كان هو نفسه مقتنماً بأن بنته لا شأن لها بالأمر إطلاقاً . وبالاختصار لم أستطع أن أقف على شىء إلا أنها اخضت . وفيما عدا ذلك بقى كل شىء متروكاً للحدس والتخمين ثمانية شهور طوال . وفى وسمك أن تتصورى ما خالجنى من الظنون والمخاوف بل وما طانيت من الآلام أيضاً . »

فصاحت بالنور : « يا لله ! أيمكن أن يكون - أيمكن أن يكون ولى ! » واستطرد يقول : « وأول نبأ عنها عرفته من خطاب أرسلته إلى فى أكتوبر الماضى فى ديلافورد وتسلمته صباح اليوم الذى تقرر فيه أن أسافر جميعاً إلى هويتويل . وكان هذا هو السبب فى مفادرتى بارتون على هذا النحو للفاجىء ، وهو الأمر الذى بدا - بلا شك - غريباً لسكل إنسان ، وأعتقد أنه أساء إلى البعض . وأظن أن مستر ولى قلما كان يتصور - حينما حدجنى بنظرة تم على التأنيب لآنى لم أراع الجماملة فى مقاومة الجماعة - أنتى دعيت لإقناذ فتاة أسلمها هو إلى الفقر والشقاء . وماذا كان يمدى لوعلم بذلك ؟ هل كان ذلك يتقص من بهجته

موسروره بابتسامات أختك ؟ كلا ! لقد قل ما لا يفعله أى إنسان فى قلبه ذرة من العطف والحنان . لقد ترك الفتاة التى جنى على شبابها ومستقبلها فى أشد حالات الكرب والضيق - دون مسكن لائق ، ودون معونة ، ودون أصدقاء ، ودون أن تعرف عنوانه . تركها ووعداها بالعودة فإعاد إليها ولا كتب لها ولا أنقذها . فصاحت إليفور : « لاشئ ، أظلم من ذلك . »

« لقد بسطت لك أخلاقه . رحل مسرف مبذر بل أسوأ من ذلك والآن وقد عرفت كل ما عرفته أنا منذ عدة أسابيع ، تصورى ماذا يكون شعورى عندما أرى أختك تطارحه الغرام ، وعند أعلم أنها قررت أن تزوجه . تصورى ماذا أشعر به نحوكن جميعا . وعندما جئت إليك فى الأسبوع اللأضى ووجدتك وحدك جئت عاقداً العزم على معرفة الحقيقة ، وإن لم أقرر ما أفضل حينما أعرفها . لاشك أن مسلكى بدا غريباً لك فى ذلك الوقت ولكنك الآن تستطيعين أن تفهميه هل أسمح لأحد أن يخذعكن جميعاً - واسكن ماذا كان فى وسعى أن أفضل ؟ لم يكن لدى أمل فى أن ينجح تدخلى ، وأحياناً كان يخالجنى الفن بأن أختك ستصلح من شأنه بتأثيرها ونفوذها . ولكن الآن وبعد هذه الماملة من يدرى ماذا كان يدبره لها ؟ ولكن مهما يكن ما دبره لها فليها الآن وعليها فى المستقبل أن تحمد الله على حالها إذا فارتها بحالة أليزا المسكينة ، وإذا نظرت إلى حالة البؤس والشقاء التى تعانيها هذه الفتاة المسكينة ، وإذا تصورت أن أليزا كانت تحبه حباً يعادل فى قوته حبها له ، وأن الندم سيظل يؤرق ضميرها طول حياتها . لا شك أن هذه المقارنة تنمود عليها بالفائدة فستجد أن ما تمنيه من الألام ليس شيئاً مذكوراً لأن هذه الألام ليس مصدرها أنها اقررت إثما أو ارتسكبت عاراً بل على العكس ، إن كل صديق لا بد أن يزداد صداقة لها

إذا عرف سبب آلامها وإن ما شعر به أصدقائها من المم والقلق لما اعتراها من الآلام وما شعروا به من الاحترام لها لصبرها على تلك الآلام من شأنه أن يزيد من محبة أصدقائها .

استعملى حكمتك مع ذلك في الإفضاء إليها بما أخبرتك . إنك تعلمين حق العلم ما سيكون أثره في نفسها . ولو أنى لم أعتقد من صميم قلبي اعتقاداً صادقاً أن ماقلته لك سيكون ذا فائدة لها، وأنه سيخفف من أحزانها، لما سمحت لنفسى أن أزعجك بأن أحكى لك قصة محتى العائلية ، قصة قد يبدو منها أنى قصدت أن أرفع نفسى على حساب غيرى .

قدمت له إلتينور أخلص الشكر على هذا الحديث ، وأكدت أنه سيمود بفائدة مادية على مريان .

وقالت : « إن أكبر ما ألتنى هو محاولتها تبرئة ولى ، وهذا يميظها أكثر مما يميظها أشد الإيمان بسوء أخلاقه ، ولـكنى الآن أعتقد أنها وإن تأملت في البداية سرعان ما ستشعر براحة البال » واستطردت بعد أن أطرقت هنيهة قائلة : « هل رأيت ولى منذ أن فارقته فى بارتون ؟ »

فأجاب متجنباً : « نعم ، قابلته مرة واحدة . كان لقاء لا مفر منه . »

فدهشت إلتينور للمجته ، وحملت فيه قائلة باهتمام :

« عجباً ! هل قابلته لـكى »

لم يكن فى وسعى أن أقالبه لغير ذلك . لقد اعترفت لى إلزرا ، ولو على مفضض باسم حبيبها . وعند ما عاد إلى لندن بعد عودتى إليها بأسبوعين تقابلنا بناء .

على موعد سابق ، لسكى يدافع هو عن نفسه ، ولسكى أعاقبه أنا على سلوكه .
وخرجنا من الاجتماع بدون جراح ولذلك لم يعلم أحد نبأ هذا الاجتماع .
وتنهدت إلي نور لما تخيله من ضرورة هذا الاجتماع ، ولسكنها لم نشأ أن توجه
إليه اليوم لمقد هذا الاجتماع باعتباره رجلا وجنديا . وقال كولونيل براندون بعد
أن أطرق هنيئة: « هذا هو الشبه المحزن بين مصير أم وبناتها ! وهكذا أقصرت في
أداء الأمانة ! »

« الأتزال في لندن ؟ »

« كلا ! ما إن انتهت من الولادة - لأني وجدتها على وشك الوضع - حتى
نقلتها هي وطفلها إلى الريف ، ولا أتزال هناك لأن . »

وسرعان ما تذكر أن وجوده ربما يحول دون اجتماع إلي نور بأختها فأهسى
زيارته ، وتلقى منها خالص الشكر مرة أخرى ، وتركها وقلبا يفيض إشفاقا عليه .
تقديرآ له .

الفصل الثاني والثلاثون

لم تلبث مس داشوود أن أعادت تفاصيل هذا الحديث على مسامح أختها ولكنه لم يترك في نفسها من الأثر ما كانت إلي نور ترجوه تماما ، ولا يرجع ذلك إلى أنها كانت تشك في صدق أي جزء منه ، فقد أصفت إليه بكل انتباه في ثبات وخضوع دون أن تبدي أية ملاحظة أو اعتراض ، ودون أن تحاول الدفاع عن ولبى ، إذ ذات دموعها على شموورها باستحالة الدفاع عنه . ولكن إلي نور لاحظت أن لوعة أختها لم تخف ، على الرغم من أن مسلكها أكد لها اقتناعها بجرمه ، وعلى الرغم من أنها كانت تنظر بعين الارتياح إلى أثر هذا الاقتناع الذي تجلب في أنها لم تعد تتحاشى مقابلة كولونيل براندون عند زيارته ، كما تجلب في إقبالها على محادثته بمحض رغبتها مع إبداء شيء من الاحترام للقرون بالعطف ، وعلى الرغم من أنها لاحظت أن أختها لم تعد تتور بعنف كما كانت تفعل من قبل . صحيح أن حالتها النفسية قد هدأت ، ولكنه هدوء تفشاه السكابة . وكانت صريان أشد أسفا على إفلاس ولبى من الأخلاق منها على قساوة قلبه ، فكان تفرره بمس وليامز وهجره لها ، والشقاء الذي حل بهذه الفتاة المسكينة ، والشك الذي ساورها هي بشأن ما كان يدبره لها في يوم من الأيام ، كل ذلك أرق فؤادها لدرجة أنها لم تطلق أن تتحدث لأختها عما تشمر به وظلت تكتم أحرزاتها في صمت ، وبذلك سببت لأختها من الآلام أكثر مما لو كاشفتها بهذه الأحرزات في كل لحظة وبكل صراحة .

وإذا أردنا أن نصف مشاعر مسز داشوود أو أقوالها عندما تلمت خطاب إلي نور وردت عليه ، لم يسكن ذلك الوصف إلا تكراراً لـ مشاعر بنتيها وأقوالها

السابقة ؛ خيبة أمل لانكاد تقل إبلاما عن خيبة أمل مريان ، وسخط أشد من سخط إليثور . وسرعان ماوردت منها خطابات مسببة متوالية ، تعبر فيها عن آلامها وأفكارها وتعرب عن قلقها على مريان ، وترجو أن تصبر على هذه المحنة ، ولا بد أن تكون محنة مريان عظيمة عندما تتحدث أمها عن الصبر ! ولا بد أن يكون مصدر هذه الأحران التي تطلب أمها ألا تسترسل فيها مهينا ألما !

وقررت مسز داشوود - مضحية براحتها الشخصية - أنه من الخير لمريان أن تظل في الوقت الحاضر في أى مكان آخر خلاف بارتون لأن كل ماتراه في بارتون يعيد إلى ذهنها ذكريات الماضى بأقوى صورته وأشدّها إبلاما لها ؛ فيجعل صورة ولبي ماثلة أمام ناظرها دائما ، كما كانت تراه في بارتون دائما . لذلك أشارت على كريتيها ألا تحتصرا مدة زيارتها لمسز جنتجيز بأية حال من الأحوال وكان الجميع يتوقعون أن تطول هذه الزيارة خمسة أسابيع أو ستة على الأقل ، وإن كانت مدتها لم تتحدد قط بالضبط . وقالت أمها : إن كثيراً من الأعمال ، والنشاط ، والأصدقاء مما لا يتسنى وجوده في بارتون لا بد أن يكون موفوراً في لندن ، أملة أن يصرف ذلك مريان عن التفكير في حالها أحياناً ، بل قد يتبع لها بعض التسلية . وإن كانت مريان أصبحت تمتت كلا الأمرين .

ورأت أمها أن وجودها في لندن سيجعلها على الأقل بئامن من رؤية ولبى كما تكون بئامن من رؤيته في بارتون ، لأن كل من يسمين أنفسهم صديقاتها سيتجنبن الآن صحبته للاحالة ، فالقصد لا يمكن أن يجمع بينهما ، والإهمال لا يمكن أن يعرضها للقاء مفاجئ ، ، والصدفة أبعد عن أن تجمع بينهما في زحمة لندن منها في عزلة بارتون حيث يحتمل أن تلتقى به حينما يقوم بزيارة إلها في مناسبة زواجه ، ذلك الزواج الذى أصبحت مسز داشوود ترى أنه أمر مؤكد بعد أن كانت ترى أنه أمر محتمل .

على أنه كان لديها سبب آخر يحملها على الرغبة في بقاء بنتها في لندن ، ذلك أنها تلقت خطابا من ابن زوجها يقول فيه : إنه سيكون هو وزوجته في لندن قبل منتصف فبراير ، قرأت من المناسب أن تشاهدا أباها أحيانا .

وكانت مريان قد وعدت أن تعمل برأى أمها ، ولذلك أذعنت له دون معارضة على الرغم من اختلافه تماما عما كانت تريد وتوقمه ، وعلى الرغم من شعورها بخبطه ، وقيامه على أسس غير صحيحة ، وأن أمها حين طابت إليها إطالة إقامتها في لندن حرمتها من الوسيلة الوحيدة التي تخفف من آلامها الأوهى عطف أمها الشخصي ، وقضت عليها برؤية مجتمع ومناظر يحولان دون أن تذوق طعم الراحة لحظة واحدة .

ولسكن مما جلب لها كثيراً من العزاء والسلوان عليها أن ما يعود عليها الضرر ، قد يعود على أختها بالنفع في حين أن إليانور كانت تعزى نفسها - ظلما منها أنه لن يكون في مقدورها أن تتحاشى رؤية إدوارد إطلاقا - بأنه إذا كانت إطالة إقامتها قد تتعارض مع سعادتها هي ، فقد تكون خيرا لمريان من العودة إلى ديفونشاير في الحال .

ولم يخلُ حرصها على حماية أختها من ذكر ولي من العائلة ، وجنت مريان كل هذه العائلة من حيث لا تشعر ، لأن مسز جنجنز وسيرجون ومسز بلر نفسها امتنعوا تماما عن ذكر اسمه أمامها . وكانت إليانور تود لو امتنعوا أيضا عن ذكره أمامها هي ، ولكن ذلك لم يكن ممكنا ، فاضطرت أن تستمع لهم وهم يصبون جام غضبهم عليه يوما بعد يوم .

ولم يكن سيرجون يستطيع أن يتصور أن يتكون هذا ممكنا ، إذ كان لديه

دائماً من الأسباب ما يجعله على حسن الظن بولبي ! وكان يعتقد أنه رجل طيب القلب ! وأنه ليس في إنجلترا أشجع منه فارساً . لقد كان هذا عملاً لا يمكن تفسيره . وكان سيرجون يدعو عليه من صميم فؤاده ، ويقول : إنه لن يكله أبداً حيث وجده ! كلا ، ولو اجتمعوا معا فيمكن الصيد في بارتون ، واضطر إلى الانتظار معه مدة ساعتين . ياله من وغد أئيم ! وكلب مخادع ! لقد كانت آخر مرة التقيا فيها هي للذة التي عرض عليه فيها جروا من جراء فولى . وهذه نهاية العهد بينهما !

وعبرت مسز بلر عن غضبها كذلك بطريقتها الخاصة ، فقالت : إنها سمعت . ألا تسمى إلى التعرف إليه ، وحدث الله لأنها لم تتعرف إليه على الإطلاق ، وتمنت من سويدها قلبها لو أن كومب ماجنا لم تكن من قرى كليفلاند ، ولكن هذا لا يهم لأنها أبعد من أن تزار . وبلغ من بغضها له أنها سمعت ألا تذكر اسمه مرة أخرى ، وأن تحدث كل إنسان عما رأت وتقول : إنه رجل عاطل لا يصلح لشيء .

أما البقية الباقية من عطف مسز جنتنجز فقد تجذرت في اعتزامها استقصاء كافة المعلومات التي يمكنها الحصول عليها فيما يتعلق بزواجه المقبل ، وإبلاغ ذلك إلى إليانور ، ووعدت أن تخبرها قريباً باسم صانع العربات الذي يعمل له العربة الجديدة ، والمصور الذي سيرسم صورته ، والحل الذي يمكن فيه مشاهدة ملابس مس جرائى .

وكان ما أبدته ليدي ميدلتون - في هدوء وأدب - من عدم اهتمام بهذه الحوادث ، مما رَوَّح عن نفس إليانور - التي ضاقت بما أبداه غيرها من مظاهر

المعطف الصاخبة ، وكان من أكبر أسباب العزاء لها أن ترى شخصاً واحداً من بين أصدقائهن لا يبدي شيئاً من الاهتمام ، أن ترى شخصاً واحداً لا يدفنه الفضول إلى السؤال عما حدث أو إبداء شيء من القلق على صحة أختها .

إن كل صفة من الصفات ترتفع أحياناً بسبب الملابس الراحنة التي تحيط بها إلى أكثر من قيمتها الحقيقية ، لذلك كانت إيلينور تضيق بالعزاء المصطنع وترى أن حسن الذوق أدى إلى اللواسة من طيبة القلب .

وكانت ليدى ميدلتون تعبير عن شعورها بإزاء هذا الحادث مرة أو مرتين في اليوم إذا خاض المتحدثون فيه كثيراً ، فقول : « إنه فظيع حقاً ! » وبهذا الحكم الدائم — وإن كان حكماً رقيقاً — استطاعت أن تلقى الأنتين داشوود منذ البداية دون أن يظهر عليها أدنى انفعال ، ولكنها سرعان ما استطاعت أن تلقاهما دون أن تذكر أية كلمة عن الحادث . وبعد أن حافظت على كرامة جنسها وأعربت عن استنكارها لأخطاء الجنس الآخر ، رأت أنها في سعة من القيام بواجبها نحو صديقاتها ، فقررت (وإن خالف ذلك رأى سيرجون) أن تترك بطاقتها لمسز ولبي متى تزوجت لأنها امرأة تجمع بين الأناقة والثروة .

ولم تكن مسز داشوود تضيق قط بأسئلة كولونيل براندون الدقيقة الخالية من التطفل ، وكان براندون قد ظفر بميزة البحث الدقيق في مصاب أختها ، بما إبداه من غيرة صداقة في العمل على تخفيفه ، ولذلك كانت إيلينور تتحدث معه دائماً دون كلفة . وكان جزاؤه الأكبر على الجهود الأليم الذي بذله في الإقضاء بما كابده من أحزان في ماضيه ، وما يعانیه من اللتاعب في حاضره ، يتمثل في فطرات مريان الحانية التي ترمقه بها أحياناً ، وفي رقة صوتها (وإن لم يحدث (١٦٢ — العطل الماطنة)

ذلك دائماً حينما تكون مكرهه أو تكره نفسها على الكلام معه ، وهذان الأمران أكدا له أن مجهوده أسفر عن زيادة حسن ظنها به ، وشجعا إلبينور على الأمل في زيادة حسن ظنها في المستقبل . ولكن مسز جنجنز لم تعرف شيئاً من كل ذلك ، ولم تعرف إلا أن الكولونيل لا يزال ساهم الوجه كعادته ، وأنها لم تستطع أن تحمله على طلب يدها أو تفويضها في الأمر بالنياية عنه ، ولذلك رأت بعد يومين أنهما لن يتزوجا إلا في عيد الملائكة ميخائيل بدلا من عيد ميلاد يوحنا المعمدان ، وأنه لن يتم الزواج قطعاً في نهاية الأسبوع ، وقد دل حسن التفاهم بين الكونيل ومس داشوود ، على أنها هي التي سوف تنظر بشرف الحصول على شجرة التوت ، والقناة ، وشجرة السدر ، وفعلا أمسكت مسز جنجنز بمض الوقت عن التفكير في مستر فيرارز إطلاقاً .

وفي أوائل فبراير وفي غضون أسبوعين من تسلّم خطاب ولبي قامت إلبينور بتلك المهمة الأثمية ألا وهي إخبار أختها بزواجه ، وحرصت أن تلبسها الخبر بنفسها بمجرد علمها بانتهاء حفلة الزفاف ، لأنها لم ترد أن تتلقى مريان الخبر من الصحف العامة التي رأت مريان تتفحصها باهتمام صباح كل يوم .

وتلقت مريان الخبر بهدوء شامل ، ولم تعلق عليه ، ولم تذرف الدمع في بداية الأمر ، ولكنها أخذت تجمّش بالبكاء بعد قليل ، وظلت بقية اليوم في حالة تدعو إلى الرثاء كحالها عندما توقفت هذا الحادث .

وغادر ولبي وزوجته لندن بمجرد زواجهما ، وأخذت إلبينور ترجو الآن بعد أن أمّنت أن ترى أحداً منهما ، أن تحمل أختها - التي لم تخرج من المنزل منذ أن تلقت الصدمة أول مرة - على أن تخرج مرة أخرى بالتدريج كما كانت تصنع من قبل .

وفي ذلك الوقت وصلت الأناستان ستيل مؤخراً إلى بيت ابن عمهما في بارتلتز بلدنج بهلبورن ، وزارتا أقاربهما العظام في كندوى وبركلى ستريت فرحبوا بهما بكل حفاوة .

ولم يأسف أحد لرؤيتهما سوى إليينور التي كانت تضيق دائماً برؤيتهما ، ولم تدر كيف ترد رداً كريماً على فرحة لوسي عندما وجدتتها لا تزال في لندن .

قالت لوسي : « كنت أشعر بنجية الأمل ولم أجد أنك لازلت في لندن » وظلت تردده هذه العبارة مؤكدة كلمة «لازالت» ولكنني كنت أعظن دائماً أنني سأشعر بنجية الأمل . وكنت واثقة تقريباً - مع ذلك - أنك لن تبارحني لندن بعد قليل وإن كنت أخبرتنني في بارتون - كما تعلمين - أنك لن تقيمي فيها أكثر من شهر ولكنني اعتقدت في ذلك الحين أنك ستغيرين رأيك في الغالب عندما يحين البحث في هذا الشأن . ولا شك أنه كان من دواعي الأسف الشديد أن تفتادري لندن قبل أن يحضر أخوك وأختك والآن أعتقد أنه لا حاجة بك إلى الإسراع في السفر . إنني في غاية السرور لأنك لم تترسكي برأيك . »

وكانت إليينور تفهم قصدها تماماً ، فاضطرت أن تمتصم بضبط النفس وتنتظر بأنهما لم تفهم قصدها .

قالت مسز جننجر : « وكيف سافرت يا عزيزتي ؟ »

فأجابت مس ستيل بإبتهاج شديد : « أؤكد لك أنني لم أسافر في العربة ، بل جئنا بأقصى سرعة . وكان يرافقنا شاب أنيق ، إذ كان الدكتور ديفيز يريد السفر إلى لندن ، فرأينا أن نركب معه في مركبة بريد ، وعاملنا بكل رقة ولطف

ودفع عشرة شلنات أو اثني عشر شلناً أكثر مما دفعنا . »

فصاحت مسز جفنجز : « واfrحتاه ! جميل حقاً ! أؤكد لسكناً أن الدكتور رجل أعزب . »

فقات مس سقيل وهي تتكلف الابتسام : « هاقد صح ما توقعت ! كل إنسان يضحك منى بسبب هذا الدكتور ولا أدرى لماذا ؟ فبنات عمى يقنن إننى قت بفزوة موقفة ، ولسكنى أصرح أننى لم أفكر فيه ساعة واحدة . قالت بنت عمى منذ أيام قلائل ، عندما رأته يعبر الشارع إلى المنزل . « رياه ! ها قد جاء حبيبك يا نانسى ! » فقلت : « حبيبى ، حقاً ! »

« إننى لا أدرى من تمنين : إن الدكتور ليس حبيبى . »

« نعم نعم ، هذا كلام جميل ، ولكن لا طائل وراه . أنا أعرف أن الدكتور هو الرجل . »

فأجابت بنت عمها وهي تصطنع الجذ : « كلا حقاً ! وأنا أرجوك نى هذا الضبر متى سمعت أحدا يتحدث به . »

فأكدت لها مسز جفنجز على الفور أنها لن تتحدث عن ذلك ، فارتاحت مس سقيل لذلك كل الارتياح .

وعادت لوسى إلى الحديث بمد أن كفت عن إبداء بعض الغمزات :
« أظن أنك يامسز داشوود ستهبين وتقيمين مع أخيك وأختك عندما يأتیان إلى لندن . »

« كلا ، لا أعلن أننا فعل ذلك . »

« أوه ! بلى . أعتقد أنك ستفعلين ذلك . »

ولم تشأ إيلينور أن تجاريها في الحديث بإبداء المعارضة .

« ما أعجب أن تستغنى مسز داشوود عنكما مثل هذا الوقت الطويل ! »

فاعترضت مسز جننجر : « الوقت الطويل ! كلا ! إن زيارتهما لم تبدأ إلا

سند قليل ! »

فلم تحمر لوسى جواباً .

وقالت مس ستيل : « إننى آسفة لأنى لم أر أخذك يامس داشوود . آسفة لأنها

متوعدة للزواج ... » وكانت مريان بارحت الحجره عند قدميهما .

« هذا شعور طيب جدا . إن أختى ستأسف أيضا لأنها لم تسعد برويتك

إذ أصيبت بصداع شديد يمنعها من مقابلة الزائرين أو التحدث معهم . »

« يا لله ! يا للأسف الشديد ! ولكن صديقاتها القديمات مثل لوسى ومثلى !

أعلن أنه لاضير من أن ترانا ، وأعتقد أننا لن نقول كلمة . »

فرفضت إيلينور هذا الاقتراح بأدب جم بحجة أن أختها ربما كانت راقدة

في الفراش أو مرتدية لباس النوم ، وبذلك لا تستطيع أن تحضر لهما بلتتهما . »

فصاحت مس ستيل : « إذا كان هذا هو كل مافي الأمر ، كان خليقا بنا

أن نذهب نحن ونراها . »

وأحست إيلينور أن لاقيل لها بهذه الوطاحة ، ولكن لوسى كفتها مؤونة

الرد ، فزجرت أختها زجراً شديداً كفكف من غلوائها كما حدث في مناسبات

أخرى سابقة ، وإن كان هذا الزجر لم يصف كثيراً من الجبال على أخلاق لوسى .

الفصل الثالث والثلاثون

أذعت مريان لرجاء أختها بعد أن أبدت بعض المعارضة ، فوافقت على الخروج معها ومع مسز جننجز صباح ذات يوم لمدة نصف ساعة ، واشترطت عليهما بصراحة عدم القيام بأية زيارة ، وأبت أن تفعل أكثر من راقتهما إلى محل جرای في ساكفيل ستريت حيث أرادت إينور أن تفاوض المحل في استبدال بعض الجواهر القديمة لأمرها .

وعندما وقفن بالباب ، تذكرت مسز جننجز أن هناك سيدة في الطرف الآخر في الشارع ينبغي لها أن تزورها . ولما لم يكن لها أرب في محل جرای ، فقد رأت أن تزور هذه السيدة ربنا تقوم صاحبها بقضاء حاجتها ثم تعود إليهما . وعندما صعدت الأستان داشوود السلم وجدت كثيراً من الناس أمامها في قاعة الليبعات ، حتى لم يكن هناك بائع يتفرغ لهما لقضاء طلبهما ، فاضطرتا إلى الانتظار ، وكل ما استطاعتا أن تفعلاه هو الجلوس في نهاية نضد الصراف ، وكان يبدو لهما أن هذا المكان يتيح لهما أسرع فرصة لقضاء مأربهما إذ كان الواقف هناك رجلاً واحداً ، وكانت إينور تأمل أن يحدوه الأدب إلى إنجار مهمته بسرعة ، ولكن نظراته المهذبة ، وذوقه الرقيق كانا يفوقان أدبه . وكان هذا الرجل يريد شراء علية من خلال الإنسان لنفسه ، وإلى أن انتهى خياله للبدع من تحديد حجم العلية وشكلها وزر كشتها مما استغرق مدقربع ساعة ، فخص خلالها كل علية في المحل ، لم يكن لديه من الوقت ما يكفي للاهتمام بالسيدتين الأهم إلا ثلاث نظرات عريضة أو أربع حدجها بها ، مما جعل إينور على الاعتقاد بأنه رجل تافه بحق ، وإن كان يزدان بيرة جميلة من أحدث طراز .

وكفت سرعان نفسها مشونة الشعور بالاحتقار والاستياء لهذه النظرات الوقحة التي حدجها بها ، والنزور الذي بدا في طريقة إبداء رأيه في كل ما دق وجل من علب الخلال التي قُدمت إليه لفحصها ، إذ ظلت لا تحس بما يدور حولها لأنها استطاعت أن تحصر تفكيرها في دائرة نفسها ، وتجهل ما يدور حولها في محل جرای كما لو كانت في فراش نومها .

وأخيراً استقر رأيه على ما يشتره ، وتحدد موعد تسليم العاج والذهب والدر . وبعد أن حدد آخر يوم يستطيع فيه أن يواصل الحياة بدون علبة الخلال لبس قفازيه بعناية وتؤدة ثم ألقى نظرة أخرى على الآنستين داشوود ، ولسكنها نظرة تدل فيا يبدو على أنه يطالهما بالإعجاب به بدلاً من أن تعبر عن إعجابه بهما ، وخرج يزهي بنفسه ، ويصطنع عدم الاهتمام بهما .

وأسرعت إليتور بعرض طلبها ، وإنها لتوشك أن تنتهي منه ، وإذا بها ترى رجلاً آخر بجانبها ، فأدارت عينها إليه واعترتها بعض الدهشة حين رأت أنه أخوها .

وكان ما يجلي من حبهما وسرورهما في هذا اللقاء منظرأً جديراً بالفخر في محل جرای ، والواقع أن جون داشوود كان أبعد من أن يأسف لرؤية أخيه مرة أخرى ، على العكس أبدى ارتياحه لهذا اللقاء ، وكانت أسئلته عن أمهما تتم على الاحترام والاهتمام

وعلمت إليتور أنه وصل هو وفاني إلى لندن منذ يومين .

قال : « كان بودي أن أزوركن بالأمس . ولكن ذلك كان مستحيلاً لأننا اضطررنا أن نأخذ هاري ليشاهد الحيوانات التوحش في إكس ترا كشتينج ، وقضينا بقية اليوم مع مسز فيرارز ، وسرهاري سروراً عظيماً بما شاهده . ونويت صباح

هذا اليوم أن أزوركن إذا أتيت لي من الوقت نصف ساعة ، ولكن الإنسان يواجه دائماً كثيراً من الأشغال حالما يأتي إلى لندن . لقد جئت هنا لأعمل خاتماً لغاني ، ولكي أعتقد أنه سيقسني لي غدا أن أزور بركلي ستريت ، وأتصرف إلى صديقتك مسز جننجز ، وقد علمت أنها امرأة طائفة الثراء . وكذلك أرجو أن تعرفيني بآل ميدلتون ، ويسعدني أن أظهر لهم كل احترام باعتبارهم أقارب زوجة أبي . لقد علمت أنهم نعم الجيران لكن في الريف » .

« حقاً لهم نعم الجيران . إن اهتمامهم براحتنا ، وتوددهم إلينا أكثر مما أستطيع التعبير عنه . »

« الحق أتبي في غاية السرور لسماع ذلك . ولكن هذا ما ينبغي أن يكون ، فهم قوم أثرياء ، وهم يمتنون إليكن بصلة القرى ، وليس بغير أن يظهر وال لكن من ضروب الجمالة والخفاوة ما يرفه عنسكن ، ولذلك فأنتن تمنعن بالرافية والمناة في منزلكن الريفي الصنير ولا تردن شيئاً ! لقد نقل إلينا إدوارد وصفا رائعا للمنزل ، فقال : إنه منزل نموذجي في نوعه ، وأنسكن تمنعن بالإقامة فيه إلى حد لا مزيد عليه . وقد شعرنا بارتياح عظيم لسماع هذا النبأ . »

وشعرت إلي نور بشىء من الخجل من أخيها ، ولم تأسف لعدم استطاعتها الرد عليه ، إذ قدم خادم مسز جننجز فقال : إن سيده تنتظرهما لدى الباب .

وراقصهما مستردا شوود في النزول على الدرج ، وتعرف إلى مسز جننجز عند باب عربتها واستأذن في الانصراف ، بعد أن ردد أمله في أن يقسني له زيارتهما في القند .

وقدم للزيارة في الوقت المناسب ، وقال : إن زوجته تمتلذذ عن عدم الحضور

لارتباطها مع أمها بمواعيد كثيرة بحيث لا نجد وقتاً لزيارة أى مكان . على أن مسز جننجز أكدت له من فورها أن لاداعى للتمسك بالشكليات لأنهن كلهن أقارب أو ما يشبه ذلك ، وأنها ستزور مسز جون داشوود قريباً وتصطحب معها أخواتها ليشاهدنها . وكان أسلوب معاملته لهما يتم على العطف ، وإن اقترن بالهدوء ، ومعاملته لمسز جننجز غاية فى الأدب . وعندما قدم كولونيل براندون بعده بقليل نظر إليه مستر داشوود نظرة استطلاع تنهى . بأن كل ما يريد هو أن أن يعرف عنه أنه رجل غنى ، حتى يعامله بأدب واحترام كذلك .

وبعد أن مكث معهن نصف ساعة طلب إلى إيلينور أن تمشى معه إلى كوندوى ستريت لتعرفه بسيرجون وليدى ميدلتون ، وكان الطقس رائماً ، فواقتت بلا تردد . وما إن خرجا من المنزل حتى جاءت أسئلته تترى :

« من هو كولونيل براندون ؟ هل هو رجل غنى ؟ »

« نعم ، له أملاك كثيرة فى دورستشاير ... »

« إنى مسرور لسماع ذلك . يبدو أنه رجل مهذب ، وأعتقد يا إيلينور أن فى

وسعى أن أهنتك بأنك ستقبولين منزلاً كريماً فى المستقبل . »

« أنا يا أخى ! ماذا تعنى ؟ »

« إنه يحبك . لقد راقبته عن كثب . وأنا مقتنع بهذا . ما مقدار ثروته ؟ »

« أعتقد أنها حوالى ألفين فى العام . »

« أفتان في العام ! » ثم حاول أن يصطنع لهجة الكرم والسخاء الفياض فأضاف : « إلي نور ! بودي لو كانت هذه الثروة ضعف ذلك حتى تنسى بها . »

فأجابت إلي نور : « حقاً إنني أصدقك ، ولكن كولونيل براندون ليست لديه أدنى رغبة في الزواج بي . »

« أنت مخطئة يا إلي نور ! أنت مخطئة جداً ! إن جهداً يسيراً من جهتك كفيل بأن يقع في شباكك . ربما كان متردداً في الوقت الحاضر ، فضلاً عن ثروتك قد تحمله على الإحجام ، وجميع أصدقائه قد يحذرونه من هذا الزواج ولكن بعض الجمالات والمشجعات اليسيرة التي تستطيع السيدات أن يقدمنها بسهولة كفيلة بتثبيت عزمه ، رغم أنه . ولا أدري سبباً يدعو إلى إحجامك عن محاولة اقتناصه . لا يتبادر إلى ذهنك أني أريد أن تكوني أنت البادئة بحبه وخطب وده - بالاختصار أنت تعرفين أنه لا محل لشيء من هذا القبيل - فالاعتراضات عليه كثيرة لا يمكن تذييلها ، ولديك من الحصافة والدكاء ما يملك تفهمين ذلك . إن كولونيل براندون لا بد أن يكون هو الرجل ، ولن أتردد في القيام بأية محاولة من جانبي لأحمله على الإعجاب بك وبأسرتك . إنه زواج سينال رضا الجميع حتماً ، وبالاختصار هو أمر « وخفض من صوته إلى درجة الهمس » « سيليقي ترحيباً عظيماً من جميع الأطراف » ولكنه استجمع نفسه وأضاف : « أريد أن أقول - إن جميع صديقاتك يحرصن جداً الحرص على زواجك ، وبخاصة فاني التي أؤكد لك أنها تهتم بأمرك اهتماماً كبيراً جداً ، ثم أمها أيضاً ، مسز فيرارز وهي امرأة طيبة القلب . أؤكد لك أنه يسرها زواجك كثيراً . لقد قالت ذلك منذ أيام قلائل . » فلم ترد عليه إلي نور .

واستطرد يقول: « قد يبدو عجبياً بل غريباً أن يتزوج أخو فاني وأختي في وقت واحد ، ولكنه أمر ليس بعيد الاحتمال »

فقالت إلي نور بقوة: « هل إدوارد فيرارز سيتزوج ؟ »

« لم يتقرر ذلك بالفعل ، ولكن يدور كلام في ذلك . له أم طيبة جداً ، فسز فيرارز ستقدم بكل سخاء على ترتيب ألف جنيه له في العام إذا تم الزواج . واسم الزوجة الأنورابل مس مورتون ، وحيدة اللورد مورتون الراحل ، وهي تملك ثلاثين ألف جنيه - وهو زوج سرغوب فيه من الجانبين . ولا ريب عندي في أنه سيم في الوقت المناسب . صحيح أنه كثير على الأم أن تهب ابنها ألف جنيه في العام، ولكن مسز فيرارز امرأة نبيلة الأخلاق . إليك مثلاً آخر على سخائها: منذ أيام قلائل ، بمجرد قدومنا لندن ، أدركت أن نفودنا لا يمكن أن تكفيها فأعطت فاني أوراقاً مالية تبلغ قيمتها مائتي جنيه . وكان هذا منها صنيعاً جميلاً ، لأن الإقامة في لندن تتطلب نفقات كثيرة . »

وأطرق هنيئة منتظراً أن تبدى موافقتها على قوله وعطها عليه ، فاضطرت أن تقول :

« لاشك أن نفقاتك في لندن والأقاليم كبيرة ، ولكن دخلك كبير ! »

« أو كذلك أنه ليس كبيراً كما يظن كثير من الناس . هل أنتي لا أقصد الشكوى . لاشك أن دخلي لا بأس به ، وأرجو أن يزيد في المستقبل . إن أرض نورلاند كومون التي يجري استصلاحها الآن تستنزف مواردى ، ثم إنى اشتريت

بعض الأرض في غضون النصف الأخير من هذا العام وهي مزرعة « ايست كنجهام فارم » ولا بد أنك تذكرين هذه المزرعة التي كان جيسون الكبير يقيم فيها . وكنت شديد الرغبة في تملكها من كل الوجوه لأنها تلاصق أملاكى ، ولذلك رأيت من الواجب شراءها ، ولم تطوع لى نفسى أن تقع هذه الأرض فى يد غيرى . ويجب على المرء أن يضحي بالمال فى سبيل مصلحته ولذلك كلفتنى مقداراً كبيراً من المال . »

« أكثر مما تستحق فى ظنك ؟ »

« كلا ، أرجو ألا يكون الأمر كذلك ، إذ كان فى وسى أن أبيعها فى اليوم التالى بأكثر مما اشتريتها به . أما فيما يتعلق بتمن الشراء فربما كنت أكون سيء الحظ فى الواقع لأن السندات كان سعرها منخفضاً فى ذلك الوقت بحيث لو لم يكن الثمن المطلوب مودعا فى البنك لمنيت بخسارة كبيرة فى بيع سنداتى . »

ولم يسع إلينوا أن تبسم .

« وقد تكبدنا أيضاً نفقات كبيرة لم يكن منها بد عندما جئنا إلى نورلاند أول مرة ، فوالدنا المحترم ، كما تعلمين جيداً ، أوصى لأملك بكل مابقى فى نورلاند من أمتعة وأثاث ستاندهل (وكان هذا ذا قيمة كبيرة) وحاشانى أن أستشعر الندم على صنيعه هذا ، فن حقه لاشك فيه أن يتصرف فى أملاكه كما يشاء ، ولكن ترتب على ذلك أن اضطررنا إلى شراء مقدار كبير من البياضات والخزف الصينى . . . إلخ لنموض مأخذ منا . ويمكنك أن تقدرى من هذا أننا

بعد أن تكبدنا كل هذه النفقات أبعد من أن نكون أغنياء ، وأن تقدرى كم
كان لمكرمة مسز فيرارز من وقع جميل في نفوسنا .»

قالت إينور : « بالتأ كيد ، وأرجو لك أن تعيش في رغد بفضـل
كرمها وسخائها . »

فأجاب برصانة ووقار : « قد نميش في ذلك بعد سنة أو سنتين . على أن
الأمر لا يزال يتطلب الكثير من الجهد ، فلم يوضع أى حجر في مكن فاني ، ولم
نعمل سوى تصميم الحديقة . »

« وأين سببى للمكن . ؟ »

« على الأكمة الواقعة خلف البيت وقد اجتمعت أشجار الجوز المتينة لتفسح
المكان له . سيكون منظره جميلا إذا شاهدته الإنسان من كثير من أجزاء الحديقة .
وستكون حديقة الأزهار منحدره أمامه . وستكون حديقة رائمة . وقد استأصانا
جميع الأشواك القديمة التي نمت في أجزاء متفرقة على جانب التل . »

وكلمت إينور غيظها ، وعتبها عليه ، وحمدت الله لأن مريان لم تكن
موجودة فتشاركها في هذا الاستفزاز . وبعد أن قال مافيه الكفاية لإثبات فقره ،
والتخلص من ضرورة شراء قرط لكل من أختيه في زيارته التالية لمحل جراى :
بدت عليه مظاهر البهجة والسرور ، وأخذ يهنئ إينور بصدقة مسز جنتنجز .

« يبدو أنها امرأة ذات ثروة طائلة ، فينتها وأسلوب حياتها يدلان على
دخل كبير . ولن تقف الفائدة التي عادت عليك من معرفتها عند الحد الذي

وصلت إليه حتى الآن ، بل ستعود عليك هذه المعرفة بالفائدة المادية في النهاية .
من الخفق أن دعوتها لك إلى لندن ستعود عليك بفائدة كبرى ، كما أنها تدل
أصدق دلالة على حبها لك . وأكبر الظن أنها لن تنسأك عند موتها فمن المؤكد
أن لها ثروة كبيرة ستتركها بعد موتها .

« لاشيء على الإطلاق فيما أظن لأنها لا تملك سوى بائنة عقارية ستؤول
إلى أولادها بعد مماتها . »

« ولكن لا يمكن الإنسان أن يتصور أنها تنفق كل دخلها ، قليل من
أهل الفطنة من يفعل ذلك ، وكل ماتدخره تستطيع هي التصرف فيه .
« ألا تظن أن ترك ذلك لبناتها أقرب إلى الاحتمال من تركه لنا ؟ »

« إن بنتيها كليلهما كل منهما متزوجة بزواج من الأثرياء ، وبذلك لا أستطيع
أن أرى ضرورة تدعوها إلى زيادة ثروتهما في حين أني أرى أنها بما تبديه من اهتمام
بك ، وبمعاملتها لك على هذا النحو ، قد جعلت لك حقاى رعايتها لك في المستقبل ،
وهو أمر لا تستطيع امرأة ذات ضمير حى أن تفعله . ليس نمت ما هو أكرم من
معاملتها لك ، ولا يمكن أن تقدم على ذلك دون أن تدرك الآمال التي تثيرها
هذه للعاملة في النفوس . »

« ولكنها لا تثير شيئا من الآمال في نفس الذين يعينهم الأمر كثيرا .
والواقع أنك يا أخى تعالى في اهتمامك برفاهيتنا وورخاتنا . »

فقال ، وهو يحاول أن يستجمع قواه : « إنى لأعجب لأن الناس لا يملكون

إلا القليل - القليل جدا . ولكن يا عزيزتى إينور ، ماذا أصاب مريان ؟ - إنها تبدو على غير ما يرام ، فقد تغير لونها ، ونحف جسمها . هل هى مريضة ؟ »

« صحتها متوقعة ، وهى تشكو من ضعف أعصابها منذ عدة أسابيع . »

« يؤسفنى ذلك ! إن أى مرض يعترىها فى هذه السن يذهب بنصارتها إلى الأبد . لقد تمتعت بهذه النضارة كأجمل ما رأيت من الفتيات الجليات ، أمدأ قصيراً ! لقد كانت فى سبتمبر الماضى تضارع فى جمالها أية فتاة جميلة . وكان فى جمالها معنى يأسر قلوب الرجال . إننى أذكر أن فانى كانت تردد أنها ستزوج قبلك ، وستزوج زوجاً خيراً من زوجك . ليس معنى ذلك أنها لا تحبك أنت كثيراً . ولكن هكذا بدا لها . على أنها ستبتين أنها كانت مخطئة . وإنى أشك أن تتزوج مريان الآن رجلاً تزيد ثروته على خمسمائة أو ستائة جنيه فى العام على الأكثر . ولأعدو الصواب إذا قلت إن حظك فى الزواج سيكون خيراً من حظها . دورستشاير ! لا أعرف إلا القليل عن دورستشاير . ولكن يا عزيزتى إينور يسرنى غاية السرور أن أعرف الكثير عنها . وفى وسعى أن أوكد أنتى سأكون أنا وفانى فى مقدمة من يهههم زيارتك . »

وحاولت إينور أن تقنعه أنه لا أمل فى زواجها من كولونيل براندون . ولكن هذا الأمل كان يسره إلى حد لم يستطع معه أن يتخلى عنه ، وصمم على توثيق عرى المودة مع ذلك الرجل ، وتشجيع هذا الزواج بكل وسيلة ، وذلك أنه كان يشمر بوخز الضمير لأنه لم يسد جيلاً لأخواته ، فكان حريصاً على أن

يسدى لمن غيره الشيء الكثير . وكانت أسهل وسيلة للتكفير عن إعماله هي الزواج من كولونيل براندون .

وقد أسعدهم الحظ بوجود ليدى ميدلتون في المنزل ، وحضور سيرجون قبل انتهاء زيارتهم ، وتبادل الجانبان الكثير من عبارات المجاملة ، وكان سيرجون على استعداد لأن يحب كل إنسان ، فوصف مستر داشوود بأنه رجل دمث الأخلاق ، وإن لم يعرف الكثير من صفات الخليل . ورأت ليدى ميدلتون أن مظهره يدل على انتمائه إلى الطبقة الراقية في المجتمع ، ولذلك فهو جدير بالتعرف إليه . وانصرف مستر داشوود وهو يبدي إعجابه بهما .

وقال عندما عاد مع أخته: سأحدث فاني حديثا متما عما رأيت . ليدى ميدلتون امرأة غاية في الظرف ! وأنا على ثقة من أن فاني يسرها أن تعرف مثل هذه السيدة . ومسز جننجز امرأة مؤدبة للغاية ، وإن لم تكن خريقة كفتها ، ولاداعي لأن تتحرج أختك من زيارتها ، والحق أنها ظلت تتحرج من زيارتها وهو أمر طبيعي لأن كل ما كنا نعرفه هو أن مسز جننجز أرملة رجل كسب ماله من طريق خسيس . ولذلك كانت فاني ومسز فيرارز تريان أن مسز جننجز وبناتها لسن أهلا لأن تختلط فاني بهن . ولكن في وسمى الآن أن أحدثها عنهما حديثا مرضيا . »

الفصل الرابع والثلاثون

كانت مسز جون داشوود تتق كثيراً برأى زوجها ، فزارت في اليوم التالي مسز جننجز وبناتها ، ورأت أن ثقتها في محلها ، إذ وجدت أن الأولى وهى المرأة التى تقيم عندها أختها زوجها ليست غير جديرة بالزيارة إطلاقاً . أما ليدى ميدلتون فوجدتها من أطرف النساء فى العالم !

وسرت ليدى ميدلتون من مسز داشوود أيضاً ، وكانت كلتاها تنصف بلون من الأنانية المقرونة بقساوة القلب ، مما أدى إلى التجاذب بينهما . وكانت كل منهما تشارك الأخرى فى قلة الجمالة للناس وفى الافتقار إلى الذكاء والفهم .

على أن الأخلاق التى حبيت مسز جون داشوود إلى ليدى ميدلتون ، لم ترق فى نظر مسز جننجز إذ رأت أنها ليست سوى امرأة متكبرة ، لاتعرف الجمالة ، فقد قابلت أختى زوجها مقابلة خالية من مظاهر الود ، ولم تتحدث إليهن بكلمة تقريباً ، وظلت صامته سبع دقائق ونصف دقيقة على الأقل فى ربيع الساعة الذى مكنته فى بركى ستريت .

وكانت إليفور تتوق إلى أن تعرف — وإن لم نشأ أن نسأل — هل إدوارد فى لندن حينئذ . ولكن فانى ما كانت لتذكر اسمه أمامها من تلقاء نفسها إلا بعد أن يتسنى لها أن تخبرها بأن زواجه من مس مورتون قد أصبح أسراً مقررأ ، أو أن يتحقق ظن زوجها فى كولونيل براندون ؛ لأنها كانت تعتقد أنهما لا يزالان يجب بعضهما بعضاً بحيث لا يختلفان فى قول أو فعل فى جميع الأوقات .

على أن النبا الذي أبت هي أن تفضي به جاء من جانب آخر إذ حضرت لوسي بعد قليل اتدعى أن إليثور ستأسف لعدم استطاعتها رؤية إدوارد على الرغم من قدومه إلى لندن مع مستر ومسز داشوود ، وهو لايجرؤ على الحضور إلى بارته بلدنج خشية اكتشاف أمره ، وهما لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً في الوقت الحاضر سوى للرسالة ، على الرغم من أنه لايجوز التحدث بشأن اشقياق كل منهم للقاء الآخر .

وقد تأكدن بعد قليل من وجود إدوارد في لندن إذ زارهن في بركلي ستريت مرتين ، ووجدن أنه ترك بطاقته مرتين على المائدة ، عندما عدن من مواعيدهن الصباحية . وسرت إليثور بزيارته ولكنها سرت أكثر لأنها فاتها لقاءه .

وسر آل داشوود سروراً كبيراً بلقاء آل ميدلتون إلى حد أنها قرر دعوتهما إلى مأدبة غداء . وما إن تم التعارف بينهما حتى دعواهما إلى الغداء في هارلي ستريت حيث استأجرا بيتا جميلاً لمدة ثلاثة شهور . ووجها الدعوة أيضاً إلى أختيهما ومسز جنتنجز . وحرص جون داشوود على دعوة كولونيل براندوز فقبل هذه الدعوة الرقيقة الملحة بشيء من الدهشة واسكن مع كثير من السرور إذ كان يسره أن يكون دائماً حيث تكون الأنتستان داشوود . وكان لا بد أن تقابلا مسز فيرارز ولكن إليثور لم تستطع أن تعرف هل سيحضر ابناها إلى اللأدبة ، على أن توقع رؤيتها كان كافياً لأن يثير اهتمام إليثور بهذه المأدبة لأنها كانت أشد ما تكون رغبة في لقاء أم إدوارد ، ومعرفة أحوالها ، على الرغم من أنها تستطيع أن تلقاها الآن دون أن تشعر بذلك الاهتمام الشديد

الذى كان يحتمل فيما مضى أن يكتشف هذا اللقاء ، ومن أنها تستطيع الآن أن تراها دون أن تبالى إطلاقاً برأيها فيها .

وسرعان ما ازداد اهتمامها بهذه المأدبة على نحو يفلب فيه عنصر القوة على عنصر السرور ، عندما علت بدعوة الأنتين سقيل إليها .

وكانت الأنتان سقيل قد تركتا أثراً حسناً في نفس ليدى ميدلتون بما أبدأته من ضروب الاهتمام بها ، فدعتهما هي وسيرجون إلى قضاء أسبوع أو أسبوعين في كوندوى ستريت ، على الرغم من أن لوسى لم تكن ظريفة ، وأن أختها لم تكن رقيقة . وكان من حسن حظ الأنتين سقيل بصفة خاصة - بمجرد أن عرفت دعوة آل داشوود - أن تبدأ زيارتهما قبل المأدبة ببضعة أيام وربما كانت جدارتهما باهتمام مسز جون داشوود ، بوصفها بنتى أخت الرجل الذى ربى أخاها ، لا تحملها كثيراً على دعوتها إلى المأدبة ، ولكن الواجب كان يمنح عليها أن ترحب بهما بوصفهما ضيفتى ليدى ميدلتون . ولما كانت لوسى قط أسمعدها عندما تلقت بطاقة مسز جون داشوود ، إذ كانت تتوق منذ زمن طويل إلى أن تعرف أفراد الأسرة شخصياً ، وتتعرف عن كذب على أخلاقهم والعقبات التى تقف في سبيلها ، وأن تتاح لها الفرصة لكسب رضاهم .

وكان أثر ذلك في إينور مختلفاً ، إذ جزمت على الفور أن إدوارد الذى يقيم مع أمه لا بد أن أخته قد دعته مع أمه إلى المأدبة . وما أعجب أن تراه لأول مرة بعد كل ما حدث في صحبة لوسى ! - لم تدر كيف تطبق ذلك .

وربما كانت هذه المخاوف لا تقوم على اللطق تماماً ولا على الحقيقة إطلاقاً ولكن الذى خفف منها ، لم يكن هو رباطة الجأش التى اعتصمت بها ، بل هو

حسن نية لوسى التى اعتقدت أن إلبنور ستشعر بخيبة أمل شديدة إذا أخبرتها أن إيدوارد لن يحضر إلى هارلى ستريت يوم الثلاثاء ، بل لقد أملت أنها ستزداد المسآ حين أوهمتها أن الدافع لإيدوارد على عدم الحضور هو أنه يحبها حبآ لا يستطيع إخفاءه حينما يجتمعان سوياً .

وجاء يوم الثلاثاء الخطير الذى تقرر فيه تقديم الفتاتين إلى هذه الحماة الرهيبة .

وقالت لوسى لإلبنور ، وهما يصعدان الدرج سوياً ، إذ وصل آل ميدلتون عقب مسز جنتجز مباشرة بحيث تبموا الخادم جميعاً فى وقت واحد : « حنايك عزيزتى مس داشوود إلا أحد هنا إلاك يستطيع أن يعطف على ! إنتى أحس أن قدى ترتجفان من نحتى . رحماك اللهم ! إن هى إلا لحظة ثم أشاهد للراءة التى تتوقف عليها سعادتى ، التى ستكون حماتى . » —

وكان فى وسع إلبنور أن تخفف عنها فى الحال ، فتقول : إن للراءة التى سيشاهدانها بعد قليل يحتمل أن تكون حماة مس مورتون لاحتماها هى ! ولكنها أكدت لها — بدلا من ذلك — وبكل إخلاص ، أنها تشفق عليها ، وهو الأمر الذى أدهش لوسى كل الدهشة ، لأنها كانت تأمل على الأمل — مع ماها من ضجر وقلق — أن تشعل نار الغيرة فى قلب إلبنور .

كانت مسز فيرارز امرأة قصيرة نحيفة ، ممتدلة القامة إلى درجة تشعر بالفظاظة ، مهيبة للنظر إلى درجة العبوسة . وكان وجهها شاحباً ، وقسماته صغيرة ، خلوا من الجمال ، وخلوا من التعبير . ولكن جبينها كان متفضناً لحسن الحظ ، فأخذ وجهها من وصمة البلادة بأن أضفى عليه سمات الكبرياء وخبث الطوية .

ولم تكن امرأة كثيرة الكلام بل كانت أفاضها على قدر معانيها ، على تقيض ما يفعله الناس عامة. ولم تخص مسز داشوود بكلمة من الكلمات القليلة التي أفلتت من فمها بل حدجتها بنظرة تم على أنها مصممة بقوة على بغضها مهما كانت الأحوال .

ولكن إينور لم تشعر الآن بالاستياء لهذه المعاملة التي كان يمكن أن تؤلمها كثيراً منذ بضعة شهور، ولم يكن في وسع مسز فيرارز أن تسيء إليها بهذا السلوك الآن - ولم يسمعها إلا أن تضحك لاختلاف معاملتها للآنستين ستيل ، وهي المعاملة التي تعمدت بها أن تذلل كبرياءها ، كالم يسمعها إلا أن تبتسم لما أبدته الأم وبنها من رقة للمعاملة نحو لوسى بالذات - لأنهما اختصتا لوسى بحسن المعاملة - وهي الفتاة التي لو عرفنا عنها ما تعرفه إينور ، لكأنا أحرص الناس على إزلالها ، ولكنها حين ابقست لحسن المعاملة التي وضعت في غير موضعها ، لم تفكر في النباء الدال على الدناءة الذي دفع إلى هذه المعاملة ، ولا في ملاحظة ضروب اللودة التي أبدتها الآنستان ستيل لاستدامة هذه للمعاملة ، إلا وشعرت بالاحتقار التام للأربعة جميعاً .

وقد سرت لوسى غاية السرور لاختصاصها بشرف هذه المعاملة. وكان كل ما تريد من ستيل حتى تشعر بنهاية السرور أن يقندر عليها أحد بشأن الدكتور ديفيز .

كانت مأدبة الفداء مأدبة نعمة ، وكان عدد الخدم كبيراً ، وكل شيء يدل على حب ربة البيت للظهور ، وعلى مقدرة رب البيت في مساعدتها على ذلك . وعلى الرغم من الإصلاحات والزيادات التي أجراها في ضيعة نورلاند ، وعلى الرغم من أنه كان مضطراً يوماً ما إلى بيعها بخسارة تبلغ بضعة آلاف من

الجنهيات ، لم يكن ثمت ما يدل على أى مظهر من مظاهر الفقر الذى حاول هو أن يستدل عليه من ذلك . لم يكن ثمت فقر من أى نوع كان اللهم إلا الفقر فى الحديث - ولكن الفقر فى ذلك كان كبيراً . لم يكن كثير مما قاله جون داشوود عن نفسه جديراً بالاستماع إليه ، وكان حظ زوجته من ذلك أقل من حظه . ولكنهما لم ينفردا بهذه الصمة ، بل شاركهما فيها معظم الزائرين الذين أعوزهم حسن المحاضرة لاتصافهم بعب من هذه العيوب : الافتقار إلى العقل سواء أكان كسبياً أم وهيباً - الافتقار إلى الظرف والكياسة - الافتقار إلى البشاشة والمحاشاة - الافتقار إلى رقة الطباع .

ولما انتقلت السيدات بعد المأدبة إلى حجرة الاستقبال بدا هذا الفقر بشكل واضح لأن الرجال تناولوا الحديث فى موضوعات شتى متنوعة - فتحدثوا فى السياسة ، وتسييج الأراضى ، وترويض الجياد ، وهنا انتهى الأمر . ولكن موضوعاً واحداً شغل بال السيدات إلى أن حضرت القهوة - ألا وهو المقارنة بين طول هارى داشوود ، ووليم الابن الثانى لليدى ميدلتون ، وكان الولدان متقاربين فى السن .

ولو أن الولدين كانا هناك لأمكن البت فى الأمر بقياس طولهما على الفور ، ولم يحضر سوى هارى ، فقد كانت المقارنة بين طولهما قائمة على الحدس والتخمين من كلا الجانبين ، وكان من حق كل منهن أن تجزم برأيها وأن تردد هذا الرأى مراراً وتكراراً كلما حلا لها ذلك .

وكان موقعهن جيما على النحو الآنى :

سألت كل من أم الولدين برأى الأخرى من باب المجاملة ، وإن كانت كل
منها تؤمن في قرارة نفسها أن ابنها هو أطول الولدين .

أيدت كل من الجدتين بشدة رأى بنتها على نحو لا يقل عنها محاباة ،
ولكن يزيد عليهما إخلاصا .

لم تكن لوسى على إرضاء أحدهما أقلّ منها حرصا على إرضاء الأخرى ،
فأرت أن الولدين أطول كثيراً بالنسبة لسنهما ، ولم تر أدنى فرق بينهما إطلاقا .
وأبدت مس سئيل رأيا بمهارة وبأسرع ما تستطيع في صالح كل من الولدين .

وكانت إينور قد أبدت رأيا ذات مرة في صالح وليم ، فأغضبت مسز
فيرارز ، وأغضبت فاني أكثر ، فلم تر ضرورة لتأ كيد هذا الرأى مرة أخرى .
ولما دعيت لإبداء رأيا أغضبتين جميعاً بأن قالت : إنه لا رأى لها لأنها لم تفكر
في الأمر قط .

وكانت إينور قبل انتقالها من نورلاند قد رسمت لزوجها أختها صورتين
بالألوان ، وثبتت الصورتين في إطار وعلقتهما في حجرة الاستقبال الحالية لتزيينها .
وعندما دخل جون داشوود الحجرة وراء للدعوين ، وقع بصره على هاتين
الصورتين فناولها بطريقة تنطوى على الفضول إلى كولونيل براندون ليستشير
إعجابها بها .

قال : « هاتان الصورتان من صنم أختي الكبرى ! أعتقد أنك ستعجب بها
باعتبارك رجلا سليم الذوق . ولا أدري هل سبق أن شاهدت إحدى صورها .
ولكنها تمد على العموم بمن يجيدون فن الرسم . »

ولم يدع كولونيل براندون أنه من أهل الخبرة ، ولكنه أبدى من الإعجاب

الشدبد بالصورتين ما يديه بأية صورة من عمل مس داشوود ، وتحركت غريزة حب الاستطلاع في نفوس الآخرين بالطبع ، فأخذوا يتداولون الصورتين لفحصهما . ولم تسكن مسز فيرارز تدرى أن الصورتين من عمل إينور ، فطلبت بإلحاح أن تطلع عليها ، فقدمتها فأنى لأمها بعد أن أعربت أيدي ميدلتون عن إعجابها بهما ، وتلقت فأخبرت أمها في الوقت نفسه أنها من عمل مس داشوود .

فهممت مسز فيرارز وقالت : « جميلتان جدا » ثم أعادتهما إلى بنتها بدون أن تنظر إليهما على الإطلاق .

ويظهر أن فاني رأت سلوك أمها قد اتسم بالجفوة إذ قالت من فورها بعد أن تغير لونها قليلا :

« إنها جميلتان جدا ياسيديتي - أليس كذلك ؟ » ولكنها عادت خشية أن تكون قد تجاوزت حد الجمالة وبالفت في عبارات التشجيع فأضافت في الحال :

« ألا ترين ياسيديتي أن طريقةتها في التصوير تشبه إلى حد ما طريقة مس مورتون ؟ إنها ترسم أجمل الصور ! ما أجمل للنظر الطبيعي الذي رسمته آخر مرة ! »

« حقا إنه جميل ولكنها تجيد كل شيء . . »

ولم تطلق مريان ذلك - واشتد استياؤها من مسز فيرارز . وسرطان ما استفزها هذا الثناء غير المناسب على امرأة أخرى بقصد الفض من إينور ، وإن لم يكن لديها أية فكرة عن القصد الرئيسي منه فقالت بحدة :

« هذا إعجاب كبير جدا ! أين مس مورتون منا ؟ من ذا الذي يعرفها

أو يهتم بها ؟ إن إينور هي التي تتكلم عنها وتفكر فيها . »

وبعد أن قالت ذلك أخذت الصورتين من يد زوجة أخيها لتبدي إعجابها بهما كما ينبغي أن يكون الإعجاب . وبدا الغضب الشديد على وجه مسز فيرارز ، ووقفت أشد ماتكون انتصاما ، وردت بهذا الكلام البذيء :

« مس مورتون هي ابنة اللورد مورتون ! »

وبدا الغضب على وجه فاني أيضا ، وامتلا زوجها رعبا من جراءة أخته . وتأملت إليينور لما أبدته أختها من الحمية والحدة أكثر مما تأملت للسبب الذي دفعها إلى ذلك . ولكن نظرات كولونيل براندون التي تركزت على مريان كانت تنطق بأنه لاحظ في مريان أحب الصفات فيها ألا وهو القلب الودود الذي لا يطيق أدنى إهانة لأختها .

ولم تقف عاطفة مريان عند هذا الحد ، فقد خيل إليها أن مسالك مسز فيرارز الذي يقسم بالوفاة والجفوة يخشى أن يسبب لأختها كثيرا من اللعاب والآلام التي أحس بها فؤادها الجريح إحساساً مقرونا بالفزع والملح فاستفزتها سورة قوية من عاطفة الحب ، فانتقلت بعد هنيهة إلى كرمى أختها ، وافتت ذراعيها حول جيدها ، وألصقت وجنتها إلى وجنتها ، وقالت بصوت خافت ولكنه قوى :

« عزيزتي عزيزتي إليينور ! لاتأهبي لمن ! لاتسمعي لمن أن يسئ إليك . »

ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك ، إذ غلبها التأثر فأخفت وجهها في كتف أختها ، وأجهشت بالبكاء - فأجهت إليها جميع الأنظار ، واهتم السكل بالأمر . فمض كولونيل براندون ، وذهب إليها دون أن يدرى ماذا فعل - وأعطتها مسز بجنون أملها في الحال وهي تقول بمباراة تنطوي على القهيم : « آه ! عزيزتي المسكينة ! » وشمر سيرجون بالغضب الشديد على من كان السبب في هذا الانهيار العصبي ، لدرجة أنه غير مكانه في الحال وانتقل إلى مقعد مجاور للوسى ستيل وقص

عليها في همس حديثاً قصيراً عن هذا الحدث للروع .

وما هي إلا بضع دقائق حتى أفاقَت مريان لتضع حداً لهذه الضجة وتجلس بين بقية الحاضرين ، وإن ظل أثر هذا الحادث عالقاً بذهنها طول السهرة .

وقال أخوها لكتورلونييل براندون ، بصوت خافت بمجرد أن تمكن من استرخاء سمعه : « إنها لا تتمتع بصحة طيبة كأختها - فهي عصبية جداً وليست بنيتها قوية كبنية إينور ، ولا بد للإنسان من التسليم بأن المرأة الجميلة التي فقدت محاسنها لا بد أن تشعر بكثير من الألم . قد لا تتصور ذلك . ولكن مريان كانت رائمة الحسن منذ بضعة شهور ، مثل إينور تماماً ، ولكنك ترى الآن أن كل ذلك قد ذهب . »

الفصل الخامس والثلاثون

شفت إينور غليلها برؤية مسز فيراز ، ووجدت فيها كل ما من شأنه أن يجعل المزيد من الارتباط بين الأسترتين أمراً غير مرغوب فيه ، ورأت من كبرياتها ودناتها وكرهيتها المتأصلة لها ما يكفي لأن تفهم كافة العقبات التي كانت تمرقل خطبتها لإدوارد ، وتؤخر زواجها به ، لو كان متحرراً من سلطان أمه ، ورأت منها ما يدعو إلى تقديم الشكر لها لأن عقبة كبرى عصمتها من تجشم كافة العقبات الأخرى من صنع مسز فيراز ، عصمتها من أن تكون تحت رحمة أهوائها ونزواتها ، أو تهتم باستجلاب رضاها : ورأت أنه ينبغي لها على الأقل - إذا لم يرقها زواج إدوارد بلوسى - أن تفرح بهذا الزواج فيما لو كانت لوسى أكثر رقة ولفظاً .

وكانت تعجب من سرور لوسى بما تبديه لها مسز فيراز من ضروب الجمالة كما تعجب حين يعميها الفرور والمصلحة الخاصة لدرجة تجعلها تتصور أن مانتظره لها مسز فيراز من ضروب الرعاية والاهتمام لا لشيء إلا أنها ليست إينور ، إنما هو تحية لشخصها - أو تجعلها ترى بعض التشجيع في حب مسز فيراز الذي يرجع سببه الوحيد إلى جهلها بحقيقة أمرها ولم يتضح ذلك من نظرات لوسى في ذلك الوقت فحسب ، بل لقد صرحت به مرة أخرى صباح غد ، حين أقلتها ليدى ميدلتون - بناء على رغبتها الخاصة - إلى بركلى ستريت أملاً في أن تتاح لها الفرصة لمقابلة إينور على انفراد كي تعرب لها عن سرورها .

وقد أسعدها الحظ بسنوح هذه الفرصة ، إذ وردت رسالة من مسز بالمر عقب وصولها بقليل ، فاضطرت مسز جئنجز إلى الخروج .

قالت لوسى بمجرد أن خلالها الجو: «صديقتى العزيزة! لقد جئت لكي أتحدث إليك عما أشعر به من السعادة. هل هناك ما هو أدمى للسرور من معاملة مسز فيرارز لى بالأمس؟ كم كانت بشوشاً! أنت تعلمين كم كنت أخشى لقاءها. ولكن ما إن تعرفت إليها حتى أبدت من البشاشة والمهاشة ما ينطق بأنها أحببتى. أليس كذلك؟ لقد رأيت كل شىء. ألم تدهشى له كل الدهشة؟»

«حقاً لقد كانت مؤدبة معك جداً.»

«مؤدبة! ألم تلاحظى شيئاً إلا الأدب؟ لقد رأيت ما هو أكثر من ذلك رأيت من العطف ما لم يظفر به أحد غيرى! لا كبرياء، ولا غطرسة! ورأيت من زوجة أخيك مثل ذلك تماماً. كل رقة وبشاشة!»

وكانت إينور تود أن تتحدث فى أمر آخر، ولكن لوسى ألحت عليها أن تعترف بأنها على حق فى سرورها، فاضطرت إينور أن تسايرها.

قالت: «لا شك أنهما لو علمتا بأمر خطبتك لما كان أدمى إلى السرور من تلك للماملة، أما والأمر بخلاف ذلك» فردت عليها لوسى فى الحال: «لقد خامرنى الظن بأنك ستقولين ذلك ولكن لاسبب إطلاقاً يدعو مسز فيرارز إلى التظاهر بحببتى إذا كانت لا تحببى. وحبها لى هو كل شىء. لن تستطيعى أن تقنعينى بأنه لا داعى لسرورى. إننى واثقة أن كل شىء سينتهى بخير، وأنه لن تنشأ عقبات على الإطلاق تحول دون ما تمودت التفكير فيه. إن مسز فيرارز امرأة جذابة، وكذلك زوجة أخيك. كلتاها امرأة رائدة حقاً! إنى أعجب! إذ لم أسمعك تقولين قط: ما ألطف مسز داشوود!»

فلم تجب إينور ولم تحاول الإجابة.

« هل أنت مريضة ، مس داشوود ؟ يظهر أنك متوعكة - إنك لا تتكلمين
ظاهراً أنك لست على ما يرام . »

« لم أتمتع قط بصحة طيبة كما أتمتع الآن . »
« إنى مسرورة من صميم فؤادى لسماع ذلك ، ولكن الواقع أن مظهرك
لا يدل على ذلك . إنه ليحزنتى أن تكونى مريضة ، أنت كنتِ لى أكبر سلوة
فى الدنيا ! الله يعلم ماذا كنت أفضل لولا صداقتك . »
وحاولت إينور أن ترد عليها رداً مهذباً ، وإن خالجهما الشك فى نجاح هذه
المحاولة ، ولكن يظهر أن ذلك أرضى لوسى لأنها أجابت على الفور :

« الواقع أنى مقتنعة تماماً بحببتك لى . وهذه المحبة هى أكبر سلوة لى بعد
محبة إدوارد . وارحمتاه لإدوارد ! ولكن ثمة أمر يبعث على الرضا والسرور -
سيكون فى وسعنا أن نلتقى ، ونلتقى أكثر من مرة ، لأن ليدى ميدلتون معجبة
بمسز داشوود ، ولذلك أعتقد أننا سنلتقى كثيراً فى هارلى ستريت وإدوارد يقضى
نصف وقته مع أخته - وفضلا عن ذلك فليدى ميدلتون ومسز فيرارز سيتزاوران
الآن . وقد تفضلت مسز فيرارز وزوجة أخيك فقالتا أكثر من مرة : إنه يسرها
أن ترىنى . ما أظنهما ! وأنا واثقة أنه لن يكون فى وسعك أن تبالنى كثيراً إذا
أتيت لك الفرصة يوماً ما نتحدثى زوجة أخيك عن رأى فيها . »

ولكن إينور أبت أن تشجعهما على الأمل فى أنها ستخبر زوجة
أخيها بذلك .

واستطردت لوسى تقول :

« إننى واقعته أنه لو كانت مسز فيرارز تكرهنى ، لما فاتنى أن ألاحظ ذلك فى وقته ، ولو أنها جاملتنى بجمالة شكلية مثلا دون أن تقول كلمة ، ثم لم تلق لى بالآ بعد ذلك ، أو تنظر إلى نظرة لطيفة - وأنت تعرفين ماأقصده - لوأنى عومت هذه المعاملة البنيضة ، لفضت يدى ياساً من الأمر كله ، ولما استطعت احتمالها ، لأنى أعلم أنها إذا كرهت إنسانا أسرفت فى كراهيته . »

وفتح الخادم الباب ، فخال بين إينور وبين الإجابة على هذه الشئمة المهذبة ، وأعلن قدوم مسز فيرارز ، ودخل إدوارد فى الحال .

وكانت لحظة حرجة جدا ، كما بذا ذلك على وجوه الجميع . وأظهر الجميع من الغباء مالا مزيد عليه ، إذ وقف إدوارد متردداً بين الخروج من الحجرة ، والدخول فيها خطوة أخرى ، ووجدوا أنفسهم فى المأزق الحرج الذى كان كل منهم يحرص على تحاشيه أشد الحرص ، إذ لم يجتمعوا هم الثلاثة فحسب ، بل اجتمعوا دون أن يكون معهم رابع يلفظ من حدة هذا الجرح . وأفادت السيدتان أولاً من غشية الموقف . ولم يكن من شأن لوسى أن تبدأ بالكلام ، بل كان يجب عليها أن تتظاهر بالسكمان ، لذلك لم يسمعها إلا أن تنظر نظرة تفيض بالرقة والحنان ، وتحدثت إليه حديثاً قصيراً ثم أسكتت عن الكلام .

ولكن إينور احتفت بمقدمه أكثر من ذلك . وكانت تحرص على إظهار الحفاوة به ، من أجله ومن أجل نفسها ، فأقبلت بعد لحظة ملكت فيها جأشها على الترحيب به بنظرة ولهجة تكاد تجلو من التكلف وتنسم بالصراحة ، ثم تشبعت وتجلدت ، فباللت فى الترحيب به . ولم ينعما وجود لوسى ولا امتاضها

لما ارتكبه من إساءة في حقها من التعبير عن سرورها برويته وأسفها لوجودها خارج المنزل حينما زارها في بركلي ستريت . ولم تمنعها نظرات لوسى — وإن لاحظت أنها تراقبهما عن كثب — من إبداء ما يستحقه بوصفه صديقا وقريبا من ضروب الرعاية والاهتمام .

وقد أدخل هذا الترحيب بعض الطمأنينة في نفس إدوارد ، فتشجع على الجلوس ، ولكن الحرج الذى شعر به كان يفوق ما شعرت به السيدتان ، وكان في الموقف ما يبرره ، وإن كان هذا الحرج نادرا في أبناء جنسه ، لأن قلبه لم يعرف الاستهتار الذى اتصفت به لوسى ، وضميره لم يشعر بالراحة التى شعر بها ضمير إينور .

وتظاهرت لوسى بالحشمة والرزانة ، وبدت وكأنها مصممة على عدم المشاركة في إدخال السرور على غيرها ، فأبت أن تقول كلمة واحدة ، وتحملت إينور عبء الكلام ، واضطرت أن تتطوع بالإدلاء لإدوارد بسائر المعلومات عن صحة والسيما وقدمهن إلى لندن .. الخ ، مما كان ينبئ لإدوارد السؤال عنه بنفسه ولكنه أبى أن يفعل .

ولم تقف رباطة جأشها عند هذا الحد ، إذا لم تلبث أن استشعرت الشجاعة فصممت أن تتركها على انفراد وتمتلت بأنها ذاهبة لإحضار مريان وبعثت ذلك بألطف أسلوب ، إن تربت بضع دقائق على منبسط الدرج بكل صبر وحلاد قبل أن تذهب لأختها ، ولكن ما إن قامت ذلك حتى انتهت فرحة إدوارد ، إذ دفع السرور مريان إلى الدخول في الحال في حجرة الاستقبال وكان سرورها (م ١٩ — العقل والملافة)

بلقائه كسكل شعور من مشاعرها ، قويا في ذاته ، وقويا في عبارته فصافه
بحرارة ، وبصوت يعبر عن محبة الأخت لأخيها .

صاحت : « عزيزي إدوارد ! هذه لحظة من لحظات السعادة العظيمة — إن
هذه اللحظة تكاد تكفر عن كل شيء .. »

وحاول إدوارد أن يرد التحية بمثلا ولكنه لم يعجز أن يعبر عن نصف
ما يشعر به أمام هؤلاء الشهود . ثم عدن فجلسن جميعا ، ولقد بالصمت دقيقة
أو دقيقتين ، بينما كانت نظرات مريان تعبر عن أشد الخنان ، تارة تنظر إلى
إدوارد وتارة إلى إيلينور ، غير آسفة إلا لأن وجود لوسي البهيمض يحد من فرحة
كل منهما بلقاء الآخر . وكان إدوارد أول من تكلم فلاحظ تغير وجه مريان
وقال : إنه يخشى أن يكون جو لندن لا يناسبها .

فأجابت بمحبة ، وإن اغرورقت عينها بالدموع وهي تكلم : « وى !
لا تفكر في ! لا تفكر في صحتي ! إيلينور بصحة جيدة كما ترى . وهذا يكفي ! »

وزاد هذا القول من حرج إدوارد وإيلينور ، كما أنه لم يرض لوسي التي
حدجت مريان بنظرة لانتم على العطف .

وقال إدوارد ، الذي أراد أن يقول شيئا يتخلص به إلى موضوع آخر :
« هل تحبين لندن ؟ »

« كلا ! على الإطلاق . لقد توقعت أن أرى فيها الكثير مما يسرني ،
ولكني لم أجد شيئا . ولإن رؤيتك يا إدوارد هي السعادة الوحيدة التي ظفرت بها
في لندن . والمحمد لله ! فأنت كما كنت دائما ! »

ثم سكنت ، ولم يسكلم أحد .

وقالت بعد قليل : « أعتقد يا إيلينور أنه يجب علينا أن نستعين بإدوارد في أن يرافقنا في عودتنا إلى بارتون وأظن أننا سنسافر بعد أسبوع أو أسبوعين ، وأنا أعتقد أن إدوارد لن يحجم عن القيام بهذه المهمة . »

وتتم إدوارد للسكين ببضع كلمات ، ولكن أحداً لم يدر ماقال ، حتى هو نفسه . بيد أن مريان التي لاحظت ارتباكها واستطاعت أن تمرزه بسهولة إلى أي سبب يروق لها شعرت بالارتياح التام وسرعان ما تحدثت في موضوع آخر .

« لقد قضينا يوماً بالأمس يا إدوارد في هارلى ستريت وباله من يوم ! يوماً عبوساً قظيراً ! ولكن لدى الكثير مما أود أن أقوله لك في هذا الموضوع ، ولا يمكن أن أقوله الآن . »

وبهذا التصرف الحكيم أرجأت التحدث إليه فيما بدا من أقاربهما من فظاظة وامتصاصها من أمه بصفة خاصة إلى أن تنهياً الفرصة للحديث على انفراد .

« ولكن لماذا لم تكن هناك يا إدوارد - لماذا لم تحضر ؟ »

« كنت مرتبطاً بموعد في مكان آخر . »

« مرتبطاً بموعد ! ولكن كيف ترتبط بهذا الموعد في الوقت الذي تقرر

فيه التقاء مثل هؤلاء الأصدقاء ؟ »

فصاحت لوسى وهي تتوق للتشفي من مريان « أنت تعتقدين أن الشبان

لا يستطيعون بموايدهم قط إذا لم يميلوا إلى الوفاء بها تافهة كانت أم هامة . »

فاغتاضت إينور ، ولكن مريان بدت وكأنها لم تشعر بهذه المنزلة إطلاقاً
إذ أجابت بهدوء :

« ليس الأمر في الواقع كذلك لأنني أقول بلمهجة الجدد : إنني متأكدة أن ضمير
إدوارد هو الذي منعه من الحضور إلى هارلى ستريت وأعتقد حقاً أن له أرق
ضمير في العالم ، وأشد حرساً على مراعاة أي موعد مهما كان تافهاً ، وهما كان
مخافتاً لمصلحته أو رغبته ، وهو أشد الناس خوفاً من إيلاام الناس وإخلاف ظنهم
وأبعد عن الأنانية من أي إنسان عرفته . إدوارد ! الأمر كما قلت ، وسأظل
أقول ذلك . عجباً ! أتخجل أن تسمع ثناء الناس عليك ! إذن يجب ألا تكون
صديقاً ، لأن من يقبل محبتي وتقديري يجب أن يقبل ثنائي الصريح . »

على أن طبيعة ثنائها في القضية الحالية ، لم يصادف هوى في نفوس ثلثي
سالمبها ، ولم يبعث سروراً كبيراً في نفس إدوارد ، فلم يلبث أن قام لينصرف .
قالت مريان : « أتصرف بمثل هذه السرعة يا عزيزي إدوارد ؟ إن هذا
يجب ألا يكون . »

وانتجت به جانباً وهمست في أذنه أن لوسي لن تلبث أن تنصرف .
ولكن حتى هذا التشجيع لم يحمله على البقاء بل أصر على الانصراف . وسرعان
ما انصرفت لوسي وهي التي ما كانت لتتنصرف لو استمرت زيارته ساعتين .

وقالت مريان عند انصرافها : « ماذا يحملها على تكرار الزيارة لنا ! إنها رأته
أنا أردنا أن نخرج ! ما أشد ما سببت لإدوارد من الكدر ! »

« لماذا تقولين ذلك ؟ لقد كنا جميعاً صديقاته . وقد عرف لوسي قبل أن

يعرفنا . ومن الطبيعي أن يحب أن يراها كما يرانا نحن . »

فصوبت إليها مريان النظر وقالت : « أنت تعرفين يا إينور أنني لا أطيق هذا النوع من الحديث . وإذا كنت لا تريدن بذلك إلا أن أناقض كلامك - وهو ما أظن أنك تريدنه - فإنه ينبغي لك أن تذكرى أنني آخر امرأة فى العالم تفعل ذلك . إننى أربأ بنفسى أن يخدعنى أحد حتى ينزع منى أقمه الا لاداعى لها فى واقع الأمر »

نم غادرت الحجره ، ولم تجرؤ إينور أن تقبهها لتقول لها شيئاً ، لأنها سبق ان وعدت لوسى بكتبان أمرها ، فلم يكن فى وسعها أن تفضى لمريان بأية معلومات تقنعها ، ولم يكن بد من أن تذعن لإينور للأمر مها كانت نتائج استمرار مريان فى خطئها أليمه . وكل ما كانت ترجوه ألا يعرضها إدوارد أو يعرض نفسه كثيراً للألم الناجم عن سماع حدة مريان الخاطئة ، ولا إلى تكرار شيء من الألم الذى صاحب لقاءهما الأخير - وكان لديها من الأسباب ما يجعلها على توقع ذلك .

الفصل السادس والثلاثون

أعلنت الصحف على العالم في غضون أيام قلائل بعد ذلك الاجتماع أن السيدة زوجة السيد توماس بالمر المحترم قد وضعت بسلام ذكراً وورثاً . وهو خير بيمت السرور والارتياح في نفوس جميع الأقارب الذين كانوا يعرفون الأمر، على الأقل .

وترتب على هذا الحادث الذي أسعد مسز جننجز كثيراً تغيير مؤقت في تنظيم وقتها ، كما أترى مواعيد صديقتها الصغيرتين . ذلك أنها أرادت أن تكون بجانب شارلوت ما أمكن فكانت تذهب إليها صباح كل يوم بمجرد أن تردى ملابسها ولا تعود إلا في ساعة متأخرة من الليل ، كما كانت الأنتان داشوود تقضيان سحابة اليوم في كندري ستريت بناء على طلب آل ميدلتون . وكانتا تؤثران - حرصاً على راحتيهما - أن تبقىا طول فترة الصباح على الأقل في منزل مسز جننجز ، ولكنهما لم تتمسكا بذلك ، لأنه كان يخالف رغبة الجميع . ولذلك كانتا تقضيان وقتها مع ليدي ميدلتون والأنتين ستيل وكان هؤلاء لا يملن إلى صحبتها كثيراً بقدر ما كن يطلبنها بصراحة .

وكان لديهما من وفور العقل والذكاء ما لا يرغب الأولى في صحبتهم ، وكانت الأخرى ان تنظران إليهما بعين الحسد ، لأنها تطلعتا على أرضهما ، وشاركتاهما العطف الذي أرادت أن تحتكراه لنفسيهما . وكانت ليدي ميدلتون لا تحب إلي نور ومريان في الواقع على الرغم من حسن معاملتها لهما ، ولا تعتقد أنها تتصفغان بالرفقة والاعطف لأنها لم يتملقاها هي وأولادها ، بل تهتمهما بالميل إلى الهجاء لولاهما بالقرارة وربما دون أن تعرف تماماً ماهو الهجاء . ولكن ذلك لا يهم لأنه كان

من الشائع أنه ضرب من اللوم والدم ، يمكن توجيهه إلى الناس بسهولة .

وكان وجودهما قيداً عليها هي ولوسي ، إذ حال دون كسل الأولى ، رعل
الأخرى ، فكانت ليدي ميدلتون تنجبل من عدم قيامها بأى عمل أمامها ،
ولوسي تخشى أن تحتقرها لما تبديه من التملق الذى تفخر بالتفكير فيه أحيانا
ويأظهاره أحيانا أخرى . وكانت مس سئيل هي أقل الثلاثة تبرما بوجودها ،
ولان كان في مقدورهما أن ينالا رضاها التام عن ذلك . ولو أن إحداها حدثتها
عن قصة مريان وولبي حديثا شافيا وافيأ لرأت في ذلك عوضاً كافيا عن تضحيتها
بأحسن مكان بجانب اللدفاة عقب طعام النداء ، وهي التضحية التى نشأت عن
وجودها ، ولكنهما لم تعملأ على إرضائها ، لأنه على الرغم من أنها أعربت لإينور
مراراً عن عطفها على مريان ، وعلى الرغم من أنها أنحت باللائمة على العشاق
أمام مريان أكثر من مرة ، لم يكن لذلك أى أثر اللهم إلا نظرة تدل على عدم
الاكتراث من جانب الأولى ، وعلى الامتعاض من جانب الأخرى . على أنه
كان في وسعها أن يكسب صداقتها بمجهود أيسر من ذلك إلا وهو التندر عليها
بشأن اللدكتور ! ولكنهما قلما كانتا تميلان إلى إرضائها ، شأنها في ذلك شأن
غيرها إلى حد أنها قد تقضى اليوم كله — إذا تغدى سير جون خارج المنزل —
دون أن تسمع نكتة واحدة عن هذا الموضوع اللهم إلا ما تتكرم به هي على نفسها .
على أن مسز جنتجز لم تلاحظ إطلاقا هذا الحسد ولا هذا الاستياء ، حتى قد
كانت ترى أن اجتماع الفتيات معا من دواعى سرورهن ، وتهنئ بوجه عام
صديقتها الصغيرتين كل ليلة بنجاحهما من محبة امرأة عجوز غبية طيلة هذا الوقت
وكانت تلحق بهن أحيانا في منزل سير جون ، وأحيانا في منزلها هي . وأيسنا
التقت بهما كانت تشعر بجلء السرور والفخر ، وتمزوا إلى عنايتها حسن حال

شارلوت ، وأصف حالتها وصفا دقيقا على الوجه الذى يرضى فضول مس ستيل وحدها . وكان لايزعجها سوى شيء واحد ، تدأب على الشكوى منه كل يوم ، ألا وهو تمسك مستر بلر بالرأى الشائع بين أبناء جنسه ، الذى لا يتفق مع عطف الأبوّة ، وهو أن الأطفال كلهم سواء . ومع أنها كانت تلاحظ بجلاء فى مختلف الأوقات أكبر شبه بين هذا للولود وبين كل طفل من أقاربه من جهة أمه وأبيه ، لم تجد سبيلا لإقناع آبيه بوجود هذا الشبه ، ولا سبيلا للحل على الاعتقاد أنه لا يشبه تماما أى طفل آخر من لداته ، ولا سبيلا للحل على الاعتراف بهذه القضية البسيطة ، وهو أنه أجمل طفل فى العالم .

والآن أنتقل إلى قصة الكارثة التى نزلت بمسز جون داشوود فى ذلك الوقت ، وذلك أنه اتفق أن قدمت إحدى صديقاتها لزيارتها أثناء زيارة أخنى زوجها لها بصحبة مسز جننجز فى هارلى ستريت لأول مرة ، وهو حادث فى حد ذاته لا يمحتمل فيما يظهر أن يجلب شيئا من الضرر ، ولكن حينما يجمع الخيال بالناس إلى تكوين أحكام خاطئة عن سلوكنا ، والحكم عليه بظواهر الأمور البسيطة ، فلا شك أن سعادة الإنسان تصبح إلى حد ما تحت رحمة المصادفات دائما . وفى الحادث الراهن جمع الخيال بهذه السيدة حتى جاوز حد الحقيقة والاحتمال ، فحكمت بمجرد أن سمعت اسم الأنتين داشوود ، وعلت بأنهما أختا مستر داشوود ، أنهما يقيان فى هارلى ستريت ، وأدى بها هذا الفهم الخاطئ إلى أن أرسلت بعد يوم أو يومين بطاقات دعوة للأنتين ولأخيهما وزوجته لشهود حفلة موسيقية بمنزها . وترتب على ذلك أن اضطرت مسز جون داشوود إلى أن تتجشم مشقة كبيرة الناية ، ألا وهى إرسال عربتها للأنتين داشوود ، وأدهى من ذلك أن تتجشم مشقة التظاهر بحسن معاملتها ، ومن يدرى أنها قد لا تتوقان

الخروج معها مرة أخرى ؟ صحيح أنها هي صاحبة الرأي في خروجها معا ولكن الأمر لن يقف عند هذا الحد ، لأن الناس إذا اعتادوا اتباع طريقة من السلوك يعلمون أنها خاطئة ، استاءوا إذا طلب إليهم أن يتبعوا طريقة أمثل .

ثم اعتادت مريان تدريجياً الخروج كل يوم بحيث أصبحت لا يتألى خرجت أو لم تخرج ، وكانت تستعد أكل موعد في المساء بطريقة آلية وهادئة ، ولكن بدون أن تتوقع من هذا للوعد أية تسلية ، وبدون أن تدري في أغلب الأحيان أين تذهب إلا في اللحظة الأخيرة .

وأصبحت لاهتم أى اهتمام بلبسها ومظهرها بحيث لا توليها خلال فترة زيتها كلها نصف الاهتمام الذى تبديه مس ستيل خلال الدقائق الخمس الأولى من اجتماعها . ما ، وهى الفترة التى تنهى فيها مريان من تلك الزينة .

وكانت مس ستيل لا ترى شيئاً دون أن تسأل عنه ، فكانت ترى كل شيء وتساءل عن كل شيء ، ولا يهدأ لها بال حتى تعرف عن كل جزء من ملابس مريان . وكان فى وسعها أن تقدر عدد ملابس مريان تقديراً أصح من تقديرها هى نفسها . ولم تتخل عن الأمل فى أن تعرف ، قبل افتراقها كم تنفق مريان على غسل ملابسها كل أسبوع ، وعلى نفسها فى كل عام . زد على ذلك أنها كانت تحم الوفاحة التى يتسم بها مثل هذا النوع من الأسئلة بمبارات التناء التى يراد بها التلطيف من حدة هذه الوفاحة ، ولكن مريان كانت تمدها غاية الوفاحة ، إذ كانت بعد الأسئلة الدقيقة عن قيمة ملابس مريان وعلامتها التجارية ولون حذائها وتسريحة شعرها تؤكد لمريان بشرتها أنها تبدو غاية فى الأناقة وأنها ستفرو قلوب كثير من الرجال .

وبمثل هذه العبارات المشجمة خرجت مريان في ذلك الوقت لتركب عربة أخيها . وركبتا فيها بعد خمس دقائق من وقوفها بالبواب ، وهى دقة فى المحافظة على المواعيد لم ترق كثيرا فى نظر زوجة أخيها التى سبقتهما إلى دار صاحبتهما ، وهى تتوقع أن تتأخرا عن الحضور تأخيرا يضايقها أو يضايق السائق .

ولم يحدث فى السهرة ما هو جدير بالذكر ، فقد ضم الحفل - كأمى حفل موسيقى آخر - عددا كبيرا من الناس يتذوقون للموسيقى - قما ، وعددا أكبر لا يتذوقونها على الإطلاق . وكان المازفون أنفسهم فى تقديرهم وتقدير أصحابهم القريين هم أوائل المازفين الخصوصيين فى إنجلترا كما جرت العادة .

ولما كانت إينور لا تعرف للموسيقى ولا تدعى ذلك ، لم تتخرج من أن تصرف النظر عن البيان العظيم متى حلا لها ذلك ، بل إن القيثارة والكمبان الجهير لم يستافتنا نظرها ، فأخذت تردد النظر كما تشاء فى أى شئ فى الحجر . وفى أثناء هذه النظرات الشاردة وقع بصرها بين ثلة من الرجال على نفس الرجل الذى أعطى محاضرة عن غاب الخلال فى محل جراى ، وسرعان ما رأت بعد ذلك أنه ينظر إليها ويتحدث مع أخيها بلا كلفة . وإنما لهم بالاستفسار من أخيها عن اسمه وإذا بهما يدلغان إليها . فقدمه مستر داشوود إليها باسم مستر روبرت فيرارز .

فتحدثت معها برقة وأدب وأخفى رأسه على شكل قوس بما يؤكد بوضوح يعادل وضوح العبارة أنه هو عين المذكور الذى سمعت لوسى تتحدث عنه . وما كان أسعدها لو كان حبا لإدوارد يعتمد على مزاياه الخاصة أقل من اعتماده على مزايا أقاربه الأدينين ! إذن لكنت انحناءة أخيه هى الضربة القاضية بعد كل الذى رآته من سوء طباع أمه وأخته . وانكسها إذ عجبت للاختلاف بين الرجلين لم يحملها

تفاهة أحدهما وغروره ، على النض من فضل الآخر وتواضعه . وقد شرح لها روبرت نفسه سر اختلافها في أثناء حديثه الذي استغرق ربع ساعة إذ تأسف في حديثه عن أخيه على الحماقة التي حالت - فيما يعتقد - بين إدوارد والاختلاط بالعناصر الطيبة في المجتمع ، وعزا ذلك بصراحة إلى كثرة التعليم الخاص أكثر مما عزاها إلى أي نقص طبيعي في أخيه ، في حين أنه هو نفسه استطاع أن يختلط بالمجتمع كأى انسان آخر ، وإن كان ذلك لا يرجع إلى مواهب طبيعية فائقة خاصة ، وإنما يرجع إلى أنه تلقى تعليمه في مدرسة عامة .

وأضاف : « لعمري إن الأمر لا يبدو أن يكون كذلك . وهكذا أقول لأخي كثيراً حينما تتأسف على هذا الأمر . أقول لها دائماً : « لا تأسنى ياسيدتى العزيزة ! إن العلة لا يمكن علاجها الآن ، ولقد كان ذلك من صنع يديك . لماذا أذعنت لرأى عمى سير روبرت وعدلت عن رأيك ، فأرسلت إدوارد إلى مدرسة خاصة في أخرج أوقات حياته ؟ لو أنك أرسلته إلى وستمنستر كما أرسلتني أنا بدلا من إلحاقه بمدرسة مستر برات لما حدث كل ذلك . » هذا هو رأيي في الأمر دائماً وأمى مقتنعة بخطئها تماماً .

ولم تعارضه إليانور في هذا الرأي لأنه مهما يكن تقديرها العام لمزايا المدارس العامة فإنه لم يسهما أن تنظر بعين الارتياح إلى إلحاق إدوارد بمدرسة مستر برات . ثم قال بعد ذلك : « أظن أنك تقيمين في ديفونشاير في منزل ريفي بالقرب من دولش . »

فصححت له إليانور موقع المنزل ، وكان يرى بعض الغرابة في أن يقيم أحد

في ديفونشاير دون أن يقيم بالقرب من دولش ، على أنه أعرب عن استحسانه القلبي لنوع المنزل .

قال : « إنني شخصياً أحب للمنازل الريفية حجابها ، فهي تهيبه للإنسان كثيراً من وسائل الترويح عن النفس ، وتتأزر بالكثير من الرشاقة . وأؤكد أنه لو كان لي بمحض المال لا اشتريت قطعة أرض صنيعة ، وبنيت عليها منزلاً ريفياً على مسافة صغيرة من لندن حتى أستطيع أن استقل عربتي إليه في أي وقت مع «شلة» من الأصدقاء ، وأنفياً ظللال السماء في رحابه . وقد جاءني صديق لورد كورتلاند منذ بضعة أيام بقصد استشارتي ، وعرض على ثلاثة تصاميم مختلفة لمنزل بونومي وطلب إلى أن أختار أحسنها ، فما كان مني إلا أن أقيمتها جميعاً في النار ، وقلت له : لا تختبر واحداً منها بل شيد منزلاً ريفياً بأية وسيلة وأظن أنه سينتهي إلى هذا الرأي . »

« ويظن بعضهم أن المنزل الريفي تنقصه وسائل الراحة والرفاهية ، كما تنقصه السعة والرحابة . ولكن ذلك غير صحيح . لقد زرت في الشهر الماضي منزل صديقي إليوت بالقرب من دارتفورد ، وأرادت ليدي إليوت أن تقيم حفلة راقصة فقالت : « كيف يمكن إقامة هذه الحفلة ؟ عزيزي مستر فيرارز ، خبرني ماذا أفضل ، فليس في هذا المنزل الريفي حجرة تسع لعشرة أزواج ؛ وابن يمكن تقديم طعام العشاء ؟ » وبدا لي على الفور أنه لا عتبة في الأمر إطلاقاً ، فقلت : « عزيزتي ليدي إليوت ؛ لا تنزعجي ! قاعة الطعام تسع لثمانية عشر زوجاً بسهولة . وموائد الورق يمكن وضعها في حجرة الاستقبال والمكتبة يمكن فتحها لتناول الشاي والربطات الأخرى . وطعام العشاء يمكن تناوله في الصالون . » فسرت ليدي إليوت بهذه الفكرة وتمت إقامة الحفلة على نحو ما اقترحت تماماً

ومن ذلك ترين في الواقع أنه إذا عرف الناس كيف يدبرون أمورهم تهيأت لهم أسباب الراحة سواء في المنزل الريفي أو في أكثر المنازل رحبا وسعة .

فواقفت إليتور على كل ما قال لأنهما لم تر أن كلامه يستحق تحية للمعارضة لمنطقية .

وكان جون داشوود كأخته الكبرى لايهوى الموسيقى ، فأنصرف ذهنه إلى التفكير في أمر آخر ، نطرت له ففكرة أفضى بها إلى أمراته لتوافق عليها عندما يعودان إلى المنزل . ذلك أن الظن الخاطيء الذي حمل مسز دينيسون على الاعتقاد بأن أختيه هما ضيفتان عليه أوحى إليه أنه يحسن به أن يدعوها لينزلا عنده كذلك أثناء غياب مسز جننجز عن المنزل للوفاء بمواعيدها . وقال : إن نفقات ضيافتهما إن تسكون كبيرة والمشقة إن تسكون أكبر . فضلا عن ذلك فإن هذه الدعوة ستسكون لفنة كريمة يحدهه ضميره أنها ستحله إحلالا تاما من عهدته وعده لأبيه ، فإكان من فاني إلا أن ذعرت لهذا الاقتراح .

فقالت : « لا أدري كيف يمكن تنفيذ هذا الاقتراح دون الإساءة إلى ليدي ميدلتون لأنهما تقضيان كل يوم معها ، وإلا فانه يسرى غاية السرور . وأنت تعرف أنتي على اعتماد دائم لأن أوليها كل رعاية في مقدوري ، كما فعلت حين اصطحبتهما معي في هذه السهرة . ولكسهما ضيفتان على ليدي ميدلتون وكيف أدعوها إلى تركها ؟ »

ولم يقتنع زوجها بقوة معارضتها ، ولسكنه أبدي خنوعا شديدا « لقد قضنا بالفعل أسبوعا على هذا النحو في كوندوى ستريت ، ولا يمكن أن نستأه ليدي ميدلتون من السماح لهما بزيارة أقاربهما مثل هذا العدد من الأيام . »

وسكنت فاني برهة ثم قالت بحدة :

« يا حبيبي ! أنا لا أتردد في دعوتكما إذا كان ذلك في مقدري ، ولكني نويت في قرارة نفسي أن أدعو الآنتين ستيل لقضاء بضعة أيام معنا . إنهما آنتان مؤدبتان و رقيقتان وأظن أنهما جديرتان بالرعاية . كما أحاط لهما إدوارد برعايته . وأنت تعلم أنه في وسمنان ندعو أختيك في عام آخر . ولكن الآنتين ستيل قد لا تأتيان إلى لندن مرة أخرى وأنا وثقة أنك ستحبهما الواقع أنت تعلم أنك أحبيتهما كثيراً من قبل . وكذلك والدتي تحبهما ، كما أن هاري يحبهما ! »

فاتتعت مستر داشوود بقولها ، ورأى ضرورة دعوة الآنتين ستيل في الحال وارتاح ضميره بالعزم على دعوة أختيه في عام آخر . ولكنه في الوقت نفسه رأى في مكر وخبث أن إرجاء الدعوة عاماً آخر سيجعل هذه الدعوة لاضرورة لها إذ ستحضر إيلينور إلى لندن كزوجة كولونيل براندون ومريان بصفتهما زائرة لهما .

وفرحت فاني لتخاصصها من دعوتها ، وشعرت بالزهو والفخر لحضور يديتها التي مكنتها من هذا التلخص فكتبت في صباح الغد إلى لوسي تدعوها وأختها إلى زيارتها بضعة أيام في هارلي ستريت بمجرد أن تسمح لهما نيدي ميدلتون بذلك . وكان هذا كافياً لإدخال السرور على قلب لوسي وشموورها بالسعادة الحقة ، وقد بدا لها أن مسز داشوود تعمل لمصلحتها هي نفسها ، وأنها تشاطرها آمالها ، وتعمل على تحقيق أغراضها ! ولا ريب أن إتاحة مثل هذه الفرصة للاجتماع بإدوارد وأميرته هي قبل كل اعتبار أكبر شيء يخدم مصلحتها ، وأن مثل هذه الدعوة

هي أكبر باعث على سرورها ! لقد كانت هذه الدعوة منة يقصر دونها الشكر ، ولا يجوز التواني عن استغلالها . وتبين لهما أن زيارتهما لليدى ميدلتون التي لم تجدد مدتها من قبل سنتهي بعد يومين .

ولما اطلمت إليينور على بطاقة الدعوة بعد وصولها بمشر دقائق شاركت لوسى لأول مرة بعض مآنوقته من آمال لأن مثل هذا المظهر من مظاهر العطف غير العادى الذى بدأ بعد معرفة قصيرة الأمد ، يدل على أن مصدره أمر آخر غير مجرد الحقد على إليينور ، ويمكن أن يؤدى بفعل الزمن وفضل ذلاقة اللسان إلى تحقيق كل ماتتمناه لوسى ، فقد استطاعت باللق والرياء أن تطامن من كبرياء ليدى ميدلتون ، وأن تتغافل إلى قلب مسز جون داشوود ، وهاتان النتيجةتان تفتحان باب الأمل فى حدوث ما هو أعظم .

وانتقلت الآنستان سئيل إلى هارلى ستريت . وكان كل ما بلغ إليينور عن تأثيرها هناك يقوى لديها احتمال ماتتوقعه من أمور فقد زارها سيرجون أكثر من مرة وعاد يقص عليها ما لقيته من مظاهر الحب والعطف الرائعة . فلم تسر مسز جون داشوود قط سرورها بقاء هاتين الفتاتين . وأعطت كل واحدة منهما مأبرة من صنع بعض المهاجرين ، ونادت لوسى باسمها الحقيقى ، ولم تدر كيف تطيق فراقيها يوما ما .

الفصل السابع والثلاثون

تحسنت صحة مسز بالمر بعد أسبوعين ، فرأت أمها أنه لم يدمتة داع لأن تنقطع إليها ، فعادت إلى منزلها بعد تلك المدة مكثفةً بزيارتها مرة أو مرتين كل يوم ، وعادت إلى ممارسة ما اعتادته ، ووجدت الأنتين داشوود على اعتماد كبير لمشاركتها من جديد في هذه العادات .

وفي صباح اليوم الثالث أو الرابع ، بعد أن عدن فاستقرن في بركلي ستريت على هذا النحو ، عادت مسز جنجنز من زيارتها المعتادة ، وأسرعت بدخول حجرة الاستقبال حيث جلست إلي نور بمفردها ، على نحو ينطوى على مغزى بحث أعدّ ذهن إلي نور لسماع نبأ عجيب ، ولم تمهل إلي نور إلا ريثما دارت بخلفها هذه الفكرة ، فقالت من فورها ما حقق ظنّها :

« رياه ! عزيزتى مس داشوود ! هل سمعت الخبر ؟ »

« كلا ياسيدتى ! ما هو ؟ »

« خير غريب جدا ! ولكنى سأقصه عليك كله - عندما وصلت إلى منزل شارلوت ، ووجدتها في حالة قلق شديد على الولد . اعتقدت أنه مريض جداً - بكى وتلملم وتناثرت على جلده البثور ، فنظرت إليه في الحال وقلت : « رياه ! عزيزتى ليس في الأمر سوى طفح جلدى . » وقالت الممرضة مثل ذلك . ولكن شارلوت أبت أن تقتنع . لذلك استدعينا مستر دناظن ، ولحسن الحظ كان آتيا لتوّه من هارلى ستريت ، فدخل في الحال ، وما إن رأى الطفل حتى قال ماقلناه ،

(م . ٢٠ - العنق والمطافئ)

وإن كل ما في الأمر أنه يشكو من طفح جلدي ، وحينئذ اطمان بال شارلوت .
وفيا كان بهم بالخروج خطر بيالي - ولا أدري كيف اتفق لي أن أفكر في ذلك
خطر بيالي أن أسأله : أهنالك أخبار ؟ فتكاف الابقسام عند ذلك ، وتجهم
وجهه ، وبدا عليه أنه يعرف نياً ما ، وأخيراً همس في أذني قائلاً : « خوفاً من أن
يبلغ الأستين اللتين تقيان في كنفك خبر سيء عن مرض زوجة أخيهما أظن أنه
يخس بي أن أقول : إنني أعتقد أنه لا مهرب للخوف . وأرجو أن تتماثل مسز
داشوود للشفاء . »

« وى ! هل فاني مريضة ؟ »

« هذا ماقلته تماما ياسيدتي . » فقلت : « رباها ! هل مسز داشوود مريضة ؟ »
ثم اتضح لي كل شيء . وخلاصة الأمر حسبما علمت أن مستر إدوارد فيرارز ،
وهو عين الشاب الذي اعتدت أن أمزح معك في شأنه (ومع ذلك يسرفني
كثيراً - كما اتضح في النهاية - أن الأمر لم تكن فيه قط أية ذرة من الحقيقة)
أن مستر فيرارز - فيما يبدو - عقد خطبته منذ أكثر من عام على بنت عمي
طوسي ! - وهذا نبأ لك خاصة يا عزيزتي ! - ولا يعلم مخلوق أي حرف عنه سوى
خانسي ! - أكان يدور بخلدك أن هذا يمكن أن يحدث ؟ لاشيء يدعو إلى العجب
في أن يجب كل منهما الآخر ، ولكن أن يصل الأمر بينهما إلى هذا الحد دون
أن يعلم به أحد ! إن هذا لأمر عجاب ! - لم يتفق لي قط أن رأيتها معا وإلا
لا كشفت السر من فوري . ولكنها تكتمنا الأمر خوفاً من مسز فيرارز ، فلم
تعلم عنه شيئاً لاهي ولا أخوك ولا زوجة أخيك - إلا في صباح هذا اليوم
إذ أقشت نانسي المسكينة المر كله ، وهي كاتعلمين إنسانة حسنة النية ، لا تلقى

القول على عواهنه . قالت فى نفسها : « رياه ! إنهن جميعا يحببن لوسى ، ومن المؤكد أنهن لن تقمن عقبات فى الأمر . » وعلى ذلك توجهت إلى زوجة أخيك التى كانت تجلس بمفردها ، وقلما خطر ببالها ما ستحدثها به نانسى - لأنها قالت لأخيك منذ قليل - منذ خمس دقائق فقط - إنها تفكر فى تزويج إدوارد من بنات أحد اللوردات - نسيت اسمها . ولذلك فى وسعك أن تتصورى كم كانت الضربة الهيمة لفرورها وكبريائها ! فتهاوت من فورها وتشنجت ، وهى تصرخ صراخا عاليا وصل إلى مسامع أخيك ، وهو جالس فى حجرة الزينة واللبس فى الطبقة السفلى ، يفكر فى كتابة خطاب لوكيله فى الريف ، فطار على الفور ، وحدثت ضجة هائلة ، إذ حضرت لوسى فى ذلك الوقت وقلما خطر ببالها ما حدث يالها من مسكينة ! إنى أرى للحالما . وأرى لزاما على أن أقول : إنها عولمت بقسوة لأن زوجة أخيك أوسعتها لوما وتعنيفا ، فنشى عليها فى الحال . أما نانسى فقد جثت على ركبتيها ، وأخذت تدرف الدمع السخين . وأما أخوك فأخذ يذرع الحجره جبهة وذهويا ، وقال : إنه لا يدرى ماذا يفعل . وقالت مسز : داشوود إنه يجب ألا تمكثنا فى المنزل دقيقة واحدة ، واضطر أخوك أن يجثو على ركبتيه يرجوها أن تسمح لهما بالبقاء ريثما تحزمان ملابسهما . وحينئذ عادت فتشنجت ، فاعتراه الخوف واستدعى مستر دنافان ، فلما حضر وجد هذه الضجة فى البيت ، وكانت العربه واقفة بالبواب انتقل بنتى عمى المسكينتين فرأهما تستقلان العربه ، وهو خارج من المنزل ، وقال : إن لوسى المسكينة لا تكاد تستطيع المشى ، ونانسى لا تقل عنها سوما . إننى أصرح أنى ضقت ذرعا بزوجة أخيك ، وأرجو من صميم قلوبى أن يتم هذا الزواج رغم أنفها . رياه ما أشد

ما يخالج إدوارد من القلق والأضطراب عند ما يبلغه أن حبيبته عولت بمثل هذا الأزدراء! لأنهم يقولون : إنه يجبها حباً بها ، وحق له ذلك . فلا عجب إذا نارت نائته ! ويرى مستر دناغان هذا الرأي . وقد جرى بيني وبينه حديث طويل في هذا الشأن . وخير ما يمكن عمله هو أن يعود إلى هارلى ستريت حتى يفسق استدعاؤه في الحال حينما تعلم مسز فيرارز بالخبر لأنهم استدعوا بمجرد أن خرجت بنتا عى من البيت ، وذلك لأن زوجة أخيك لا يخالجه شك أنها هى الأخرى ستشجع ، وهو أمر محتمل فيما أعتقد ولكن لا أرئى لأى واحدة منها . إننى لا أدرى لماذا تقوم كل هذه الضجة من أجل المال والعظمة ، فلا مبرر على الإطلاق يمنع من زواج إدوارد ولوسى ، لأنى أعتقد أن مسز فيرارز تستطيع أن تساعد ابنا ، وأن لوسى وإن لم تملك شيئاً ؛ فهى تعرف كيف تدبر معيشتها على أحسن وجه . وأعتقد أن مسز فيرارز لوربتت له مبلغ خمسمائة جنيه في العام ، ولماشت به لوسى فى سعة كما تعيش أى امرأة أخرى بثمانمائة جنيه . رباه ما أجل أن يبقا فى منزل ريفى كمنزلكما أو أكبر قليلا ومعها خادمتان وخادمان ! وأعتقد أن فى وسعى أن أساعدهما بخادمة لأن خادمتى بقى لها أخت لا تجد عملا ، وهى تصلح لخدمتها تماما . »

وهنا انتهت مسز جننجرز من حديثها . وإذا كان لدى إليونور من الوقت ما يسح لها بأن تستجمع أفكارها فقد استطاعت أن ترد وتبدي من الملاحظات ما تقتضيه طبيعة الموضوع وسرت حين وجدت أن مسز جننجرز لم تلاحظ عليها اهتماما غير عادى بالأمر ، وأنها (كما كانت ترجو أخيرا أن يكون الأمر عليه) لم تعد تتصور أن إليونور تحب إدوارد على الإطلاق ، وسرت قبل كل شئ . لأنها استطاعت - فى غياب مريان - أن تتحدث عن الأمر دون حرج وأن تبدي رأيها كما

تعتقد ، وبدون محاباة في تصرف كل من يعنيه الأمر .

ولم تستطع إينور أن تجزم بالنتيجة التي ينتظر أن يفتى الأمر إليها ، وإن حاولت جاهدة أن تطرد من ذهنها احتمال إنهائه بشير زواج إدوارد من لوسى . وكانت تتوق إلى سماع ما تقوله مسز فيرارز وما تفعله ، وإن لم تشك في كنه هذا القول والفعل ، ولكنها كانت أتوق إلى أن تعرف كيف يتصرف إدوارد في الموقف ، وكانت تترقب لحاله كثيرا ، ولحال لوسى قليلا وقد تجشمت كثيرا من العناء لإكراه نفسها على هذا التليل ، أما بقية الزمرة فلم ترث لخالهن على الإطلاق . وإذ كانت مسز جننجز لا تتحدث إلا في هذا الموضوع ، فقد رأت إينور ضرورة إعداد مريان لبحثة ومناقشته ، ولم تتردد في تبصيرها بالأمر وإطلاعها على حقيقته ، وترويضا على سماعه من النير دون أن تظهر الشمور بأى قلق على أختها أو أى استياء من إدوارد .

وكانت مهمة إينور مهمة شاقة لأنها ستزيل ما كانت تعتقد أنه أكبر سلوة لأختها ، وتقص عليها من أنباء إدوارد ما تخشى أن يهدم حسن ظنها فيه إلى الأبد ، وتشعر مريان بخيبة الأمل مرة أخرى حين ترى وجه الشبه واضحا بين حالها وحال أختها ، وهو شبه يبدو في نظرها قويا . ولكن مهما كانت هذه المهمة بغيضة ، فلم يكن بد من القيام بها ، ولذلك بادرت إينور إلى أدائها .

ولم ترغب كثيرا في الإسهاب في وصف شعورها ، أو اللبائفة في تصوير آلامها اللهم إلا ما يسمح به ضبط النفس الذي تذرعت به منذ أن علمت لأول مرة بمخطبة إدوارد ، من الإشارة إلى أمر فيه فائدة لمريان . وكانت روايتها لوقائع الحوادث واضحة وبسيطة ، وهي وإن لم تخل من التأثر ، لم تقترن بالهلع أو الجزع

- بل كان ذلك من شأن مريان التي استمعت لهذا الحديث بكثير من الملح وبكت بالدمع الممتون . وكان من عادة إينور أن تعزى غيرها فى مصابها هى ، كما تعزىهم فى مصابهم فأخذت فى تعزية مريان بلا تردد ، فأكدت لها أنها تشعر بهدوء البال ، وتصدت لنفى كل تهمة عن إدوارد اللهم إلا تهمة النهور .

ولكن مريان ظلت بعض الوقت لا تصدق أيا من الأمرين ، فقد بدا لها أن إدوارد ما هو إلا ولي آخر ، واعترفت كما اعترفت لإينور أنها كانت تحبه أخلص الحب ، وهل يمكن أن تكون عاطفتها أقل من عاطفه أختها ؛ أما لوسى فقيل فكانت تمدها فتاة بغيضة كل البغض ، لا يمكن أن تظفر إطلاقاً بحجة أى إنسان عاقل بحيث أبت أولاً أن تصدق أن إدوارد سبق أن أحبها ثم أبت بعد أن تنفر له هذا الحب ، بل لقد أبت أن تعترف بأن هذا كان أسراً طبيعياً ، ولكن إينور تركتها لتقتنع بأن الأمر كذلك بالوسيلة الوحيدة للإقناع ألا وهى معرفة الطباع البشرية على نحو أفضل .

ولم يتجاوز أول ما أفضت به إينور لأختها نبأ الخطبة ومدتها، وحينئذ انفجرت مريان باكياً ، فلم تستطع إينور أن تواصل سرد الوقائع بانتظام وكل ما استطاعت أن تفعله خلال فترة من الوقت أن تخفف من آلامها وتهدىء من روعها، وتلطف من حدة استيائها . وكان أول سؤال من جانبها أدى إلى ذكر تفاصيل أخرى هو :

« متى علمت بهذا الأمر ؟ هل كتب لك ؟ »

« لقد عرفته منذ أربعة شهور خلت . أسرّت لى لوسى نبأ خطبتها حينما

قدمت فى نوفمبر الماضى إلى بارتون أول مرة . »

وعندما سمعت مريان هذه الكلمات أعربت عنها عن الدهشة التي لم تستطع شفتاها أن تعبر عنها ثم صاحت بعد أن أطرقت هنيئة وهي في عجب :

« أربعة أشهر ! هل عرفت هذا منذ أربعة أشهر ؟ »
فأكدت لها إيلينور ذلك .

« عجباً ! أكان هذا السر يخبئ على قلبك ، وأنت تواسينني في الآمي - وأنا أعنتك لأنني أراك سعيدة ! » .

« لم يكن من اللائق أن تعرفي حينئذ أني على تقيض ذلك . »

فصاحت مريان : « أربعة أشهر ! وتظهرين مثل هذا الهدوء ! - مثل هذا الابتهاج ! - كيف احتملت هذا ؟ » -

« لشعوري بأني أؤدى واجبي - وعدى للوسى أرغنى على الكتمان . كان واجبي نحوها يقتضيني أن أتجنب أية إشارة إلى الحقيقة . وكان واجبي نحو أسرتي وأصدقائي يقتضيني ألا أبعث في نفوسهم قلقاً على لا أستطيع أن أفنعمهم بأسبابه . »
فذهلت مريان كثيراً .

وأضافت إيلينور : « كثيراً ما أردت أن أطلعك وأطلع والدتي على حقيقة الأمر . وحاولت ذلك مرة أو مرتين . ولكن ما كنت لأستطيع أن أفنعمكما دون أن أخون الأمانة . »

« أربعة أشهر ! ومع ذلك كنت تخمينه ! »

« نعم ، ولكنى لم أحبه هو وحده ، فقد كنت أحب أن أواسى غيرى
وتلك كان يسرنى إلا أفضى لهم بما يؤلنى . والآن أستطيع أن أفكر فى الأمر
وأتحدث فيه دون أن يخالفنى كثير من الألم . لم أرد أن تتألمى من أجلى ، وأؤكد
لك أنتى لم أعد أشعر بألم محسوس ، فلى عزاء فى كثير من الأمور . إننى أشعر
أنتى لم أجلب على نفسى بسبب تهورى ما أصابنى من خيبة الأمل . وقد احتمات
هذه الخيبة بصبر جميل دون أن أحدث بها إنسانا . إننى أبرىء إدوارد من وصمة
سوء التصرف ، وأتمنى له السعادة وأنا واثقة أنه سيظل يؤدى واجبه حتى يصبح
سعيداً فى النهاية على الرغم مما قد يشعر به الآن من بعض الندم والأسف . ولوسى
لا يتقصها العقل ، وهذا هو الأساس الذى يقوم عليه كل خير . وعلى الرغم
بامريان مما يبدو من جمال الفكرة القائلة بالزواج الواحد الدائم وكل ما يمكن أن
يقال عن توقف سعادة المرء على شخص بعينه فليس المقصود - ليس من المناسب -
ليس من الممكن - أن يكون الأمر كذلك . إن إدوارد سيتزوج لوسى . سيتزوج
امرأة تفوق فى جمال شخصها وراححة عقلها نصف بنات جنسها ، وسينسى بفعل
الزمن وإلف العادة أنه سبق أن رأى امرأة تفوقها عقلا وجمالا . »

قالت مريان : « إذا كان هذا هو أسلوب تفكيرك ، إذا كنت تترين أنه
« لكل شىء إذا فارقته عَوْضٌ »^(١) فليس للمرء أن يعجب لما تصفين به من

(١) هذا هو الشطر الأول من أحد الأبيات الشعرية المشهورة وهو يؤدى معنى التمس الانجليزية .

و البيت كله هو .

حوة العزيمة ورباطة الجأش - وفي وسى الآن أن أدرك أنك تتصفين بهاتين
الخصلتين . »

« إننى أفهم قصدك . أنت لا تعتقدين أننى شعرت بالكثير من الألم قط
لقد ظل هذا الأمر يامريان يحتم على فؤادى أربعة أشهر دون أن أكون فى حل
من الإقضاء به إلى أى مخلوق ، وأنا أعلم أنه سيحزنك أنت ووالدتى أشد الحزن
إذا أخبرتكما به ، ومع ذلك لا أستطيع أن أهيب . له ذهنتكما على الأقل - لقد
أبلغت هذا الأمر - لقد أبلغت به كرها - إلى حدما - من نفس للمرأة التى
حطمت خطبتها السابقة كل آمالى ، وأخبرتني به - كما اعتقدت - بلهجة
الشهامة ، ولذلك اضطررت أن أنفى ظنون هذه المرأة بأن أظاهر بدمم الاكترت
فى الوقت الذى كنت فيه أشعر بأعظم الاهتمام . ولم يحدث ذلك مرة واحدة .
لقد كانت تضطر فى مراراً وتكراراً إلى سماع ما يخالجه من آمال وأفراح . لقد
عرفت أنى افتقرت عن إدوارد إلى الأبد ، دون أن أسمع أية واقعة من شأنها أن تقلل
من رغبتى فى الزواج به ، فلم أسمع شيئاً يثبت أنه رجل غير فاضل ، أو أنه أصبح
لا يهتم بى . واضطررت أن احتمل جفوة أخته ، ووقاحة أمه ، وتحملت عذاب
الحب دون أن أتمتع بشمراته . وكان كل ذلك يحدث فى وقت تعطين جيداً أننى
لم أكن أقاسى فيه آلامى وحدها . وإذا كان فى وسعك أن تعتقدنى أننى أستطيع
أن أشعر بالألم يوماً ما ، فى وسعك أن تعتقدنى حقاً أننى قد شعرت به الآن .
لإن رباطة الجأش التى استطعت بها أن أتحدث فى الأمر الآن ، والعزاء الذى سرنى
بالاعتراف به كانا ثمرة التجلذ الدائب الأليم ، - لم ينشأ من تلقاء نفسها - ولم

يحدثالى ليخفنا من آلامى فى البداية - كلا يامريان - وإلا فمن المحتمل أنتى
لوم أتمد بالكتمان ، لما منهنى شىء . - حتى واجبى نحو أعز أصدقائى - من
أن أظهر صراحة حزنى وآلامى .

نخسعت مريان وذلت -

وصاحت : «عجبا ! إلي نور ! لقد جعلتنى أمقت نفسى إلى الأبد . ما كان أقدانى
عليك ! أنت التى كنت أكبر سلوى ، التى واسيتنى فى آلامى وأحزائى ، التى
كنت تتظاهرين بأنك لا تتألمين إلا من أجلى ! أهذا هو عرفانى بالجميل ؟ أهذا
هو جزاؤك عندى ؟ أن أنحى عليك باللائمة لأنك كنت تهيبين نى أن أتجمد . »

وأقبلت على أختها بندهذا الاعتراف تفرها بأحر القبلات والأحضان . ولم
تجد إلي نور عناء فى أن تتبرع من مريان فى هذه الحالة النفسية التى انتابتها الآن
أى وعد نشاء ، فضهدت لها - بناء على طلبها - ألا تتحدث لأى إنسان عن هذا
الموضوع بما يدل أدنى دلالة على أى شعور بالمرارة ، وأن تقابل لوسى دون أن
تظهر لها أقل كراهية ، وتقابل إدوارد نفسه - إذا جمعتما الصدفة - دون أى
إفلال من مظاهر المودة التى اعتادت أن تقابله بها . وقد أبدت مريان تساهلا
عظيما فى تقديم هذه الوعود ولكنها كانت تشمر أنها حيث أسامت فليس
بكثير أن تقدم أية ترضية تطلب منها .

وبرت مريان بما وعدت به من مراعاة الحكمة والروية إلى درجة تدعو إلى
الإعجاب ، فأصفت لكل ما أرادت مسز جنجنز أن تقوله عن الموضوع دون أن

يبدو على وجهها أى مظهر من مظاهر التأثر، ولم تخانفها فى أى قول من أقوالها، وممعتها إلبينور تقول ثلاث مرات « نعم، ياسيدتى » - واستمعت إلى ثنائها على لوسى دون أن تبدى حراكا اللهم إلا الانتقال من كرسي إلى آخر. ولما تحدثت مسز جتنجز عن محبة إدوارد، لم يسبب لها هذا الحديث سوى تقلص فى حلقها - وكان هذا التقدم الذى أحرزته مريان نحو التمسك بأهداب الشجاعة بما جعل إلبينور تشعر بأن فى مقدورها هى أن تقوى على كل شئ.

وجاء صباح الغد بتجربة أخرى فى هذا الباب، إذ قدم أخوها زائرا وهو متحجم الوجه ليحدثهما عن الحادث الجلل ويقص عليهما أبناء زوجته.

وما إن جلس حتى قال بلهجة الجذ والوقار: « أظن أنكما سممتان نبا الحادث المفزع الذى وقع تحت سقف بيتنا بالأمس.

ففطرتا إليه نظرة تم على الموافقة، وكانت اللحظة رهيبية لا تسمح بالكلام.

واستطرد يقول: « إن « سلفتكما » قاست آلاما مروعة، وكذلك مسز فيرارز - وبالاختصار كان المشهد حافلا بالآلام الكثيرة - ولكنى أرجو أن تنقش الغمة دون أن يصاب أحد منا بسوء. وارحمتاه لغافى! لقد تشنجت طوال أمس ولكن لن أزججكما كثيرا. فدناقان يقول: إنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف الشديد، فبنيتهما قوية، وعزيمتهما تستطيع التغلب على أى شئ.

لقد تحمات الأمر كله بصبر جميل! وقالت: إنها لن تحسن الظن بعد اليوم بأى إنسان. ولا عجب فى ذلك بعد أن خدعت على هذا النحو! فقوبلت بالبحود بعد الذى أسدته من حسن الصنيع، وأظهرته من كبير الثقة. لقد دعت

هاتين الفتاتين إلى منزلها بدافع من طيبة قلبها ، لا لسبب إلا لأنها كانت تعتقد أنهما تستحقان بعض الرعاية والاهتمام ، وأنهما فتاتان بريئتان مؤدبتان ، تأمل أن تأنس بصحبتهم . وإلا فقد كنا نتمنى كثيراً أنا وهي أن ندعوك أنت ومريان لتكونا معنا أثناء زيارة صديقتكما الكريمة لكرمتهما . والآن تأملا كيف كان جزاؤنا ! لقد قالت فاني باهجتها الودية : « كنت أتمنى من صميم فؤادي أن أدعو ختيك بدلا منهما . »

وهنا نوقف عن الكلام ليلتقي الشكر منهما ثم أردف : « ليس في وسعي أن أصف ما شعرت به مسز فيرارز من الألم حينما أبلغتها فاني الخبير أول مرة . هل كان يتبادر إلى الذهن في الوقت الذي دفعتمها فيه أصدق مشاعر الحب إلى التفكير في تزويجه فتاة ذات حسب ونسب أن يكون قد عقد خطبته سرا على فتاة أخرى طول هذه المدة ! إن مثل هذه الفكرة ما كانت لتخطر ببالها فطو إذا خطر ببالها أن يخطف أبة امرأة أخرى ، فلا تكون من هذا الطراز . وقالت : « لو أنه خطب الفتاة ياها لما شعرت بشيء من القلق . » والواقع أنها كانت في محنة . على أننا تشاورنا فيما يجب عمله ، وأخيراً استقر الرأي على استدعاء إدوارد فخر ، ولكن يؤسفني أن أروى ما حدث بعد ذلك . فكل ما قائلته مسز فيرارز لملحه على إنهاء هذه الخطبة ، معززا بحججى وتوسلات فاني لم يُجِدْ نفعاً ، فقد ضرب عرض الحائط بالواجب والمحبة وكل شيء . لم أكن أظن أن إدوارد عنيد إلى هذا الحد ، قاس إلى هذا الحد . وقد شرحت له أمه للعاملة السخية التي تنوى معاملته بها إذا تزوج مس مورتون ، وأخبرته أنها سوف تهب له ضيعة نور فولك ، وهي ضيعة مغفاة من ضريبة الأراضي تدر إيراداً يبلغ ألف جنيه في العام ، بل لقد عرضت عليه

أن ترفع هذا المبلغ إلى ألف ومئتي جنيه إذا ساءت الأمور . وأوضحت له أنه إذا عارض هذا الاقتراح ، وأصر على هذا الزواج الوضع فإن مصيره إلى الفقر المدقع ، وقالت : إن الأنثى جنيه التي يملكها ستكون هي كل ما يملك وأنها لن تراه بعد اليوم ، وستمتنع عن تقديم أدنى مساعدة له بحيث إذا فكر في ممارسة أية مهنة بقصد تحسين دخله فإنها ستبذل كل ما في وسعها للحيلولة دون نجاحه فيها .

وهنا اعترت مريان نوبة من الغيظ والحلق ، فصفت يديها وصاحت :
« رحماك اللهم ! أيمكن أن يحدث هذا ؟ »

فأجاب أخوها ! « من حقت يا مريان أن تعجبي للعناد الذي يقف في وجه حجج كهذه . إن تعجبك أمر طبيعي جداً . »

وهمت مريان بالرد عليه ، ولكنها تذكرت وعددها ، فأمسكت عن الكلام . واستطرد : « على أن كل ماقالته أمه ذهب سدى ، فلم يتكلم إدوارد إلا قليلاً . ولكن ما قاله قاله بلهجة الحزم والعزم وما من شيء يمكن أن يحمله على فسخ الخبطية ، بل أصر عليها مهما كلفه الأمر . »

وصاحت مسر جنتنجز بإخلاص وصراحة ولم تطلق الصمت أكثر من ذلك فقالت : « إذن فقد سلك مسلك الرجل الشريف . معذرة يا مستر داشوود إذا قلت : إنه لو فعل غير ذلك لسكان في رأي نذلا وضيقاً . إن الأمر يعني قليلاً كما يعنيك لأن لوسى بنت عمى . وأعتقد أنه ما من فتاة في العالم هي خير منها ، ولا فتاة هي أجدر منها بزواج صالح . »

فأبدى جون داشوود دهشته الكبيرة ولكنه كان رجلاً هادئاً لا يميل إلى

الاستغزاز ولا يرغب قط في الإسائة إلى أحد ولا سباً إذا كان ثرياً . ولقد كنت أجاب بدون امتعاض :

« إننى لا أريد بأية حال أن أتحدث بازدياء عن أى أحد من أقاربك ياسيدتى وأؤكده أن مس سئيل فتاة جليلة القدر . ولكنك تعلمين أن الزواج فى القضية الحالية يعد أسراً مستحيلاً . وعقدتها خطبة سرية على شاب فى رعاية خالها ، هو ابن امرأة طائفة الثراء كمنز فيرارز ، ربما لا يخلو من الغرابة إطلاقاً . وجملة القول أننى لا أريد أن أعيب سلوك أى شخص تحبينه يامسز جننجز . إننا جميعاً نتمنى لها كل السعادة . وقد كان سلوك مسز فيرارز خلال الأمر كله هو السلوك الذى تنتهجه كل أم حية الضير طيبة القاب فى ظروف مماثلة . لقد كان سلوكا ينطوى على الإباء والكرم . ولقد رسم إدوارد مصيره وأخشى أن يكون مصير أسيتاً . وتهدت مريان معربة عن مثل هذه المخاوف وتمزقت نياط قلب إلبينور حزننا على إدوارد وهو يواجه وعيد أمه بسبب امرأة لا تصلح له .

وقالت مسز جننجز : « نعم ياسيدى ، وكيف انتهى الأمر ؟ »

« يؤسفنى ياسيدتى أن أقول : إنه انتهى بقطعة محزنة إلى أقصى حد - فقد حرم إدوارد من رؤية أمه إلى الأبد وغادر للنزل بالأمس ولكن لا أدرى أين ذهب وهل لا يزال فى لندن لأننا بالطبع لانستطيع أن نقوم بشئ من التحرى . »

« ياله من فتى مسكين ! وماذا سيحل به ؟ »

« ماذا ياسيدتى ! إنه لأمر محزن . رجل وُلد لينعم بمثل هذه الثروة ! لانستطيع أن أتصور موقفاً أدعى إلى الرثاء من موقفه . فائدة أنى جنبه - - كيف

يتسنى لإنسان أن يعيش بها! وإذ أضيف إلى ذلك أنه كان في وسعه — لولا حماقته — أن يتسلم في غضون ثلاثة أشهر ألفين ونصف ألف من الجنهات كل عام (لأن مس مورتون تملك ثلاثين ألف جنيه) فلا يسهى أن أتصور ماهو أسوأ من حالته. يجب علينا جميعاً أن نرثي لحاله وبخاصة لأنه ليس في مقدورنا أن نساعدته إطلاقاً.»

فصاحت مسز جنتنجز: «يا له من شاب مسكين. إنني أرحب بأن يتام ويأكل في منزلي. ولو أنني رأيته لقلت له ذلك، إذ ليس من اللائق أن يعيش الآن على نفقتي في حانة أو غرفة بالإيجار.»

فشكرتها إليينور بقلبيها لما أظهرته في العطف على إدوارد وإن لم تتمالك من الابتسام لنوع هذا العطف.

قال جون داشوود: «لو أنه أحسن إلى نفسه كأراد جميع أصدقائه أن يحسنوا إليه، لكان الآن في الوضع الذي يليق بمقامه، ولما احتاج إلى شيء. ولكن الواقع أن أحداً لا يستطيع أن يمد إليه يد المساعدة. وهناك إجراء يتخذ ضده الآن — ومن المؤكد أنه سيكون أسوأ من أي إجراء آخر، وهو أن أمه قررت — وهذا أمر طبيعي جداً — أن تهب الضيعة لروبرت في الحال بشروط مناسبة، وهي الضيعة التي كان يمكن أن تكون نصيب إدوارد. لقد تركتها صباح اليوم مع محاميها لبحث هذا الموضوع.»

قالت مسز جنتنجز: «حسن! وهذا هو انتقامها! لكل امرئ فيا يحاول مذهب. ولكن لاظن أن مذهبي هو أن أوفر لأحد أولادي سعة العيش لأن ولداً آخر خالفني.»

وقامت مريان وتمشت في الحجرة .

واستطرد جون : « هل من شيء هو أغيبظ لقلب الرجل من أن يرى أخاه الأصغر يحوز الضيعة التي كان يمكن أن تكون ملكا له ؟ مسكين إدوارد !
إني أرثي له حقا ! . » .

ثم أنهى زيارته بعد دقائق قليلة قضاها في مثل هذا الحديث ، وانصرف بعد أن أكد لأخيه مرارا أنه لا ضرر يخشى من توقعك فاني وأنه لا داعي لقلقهما عليها . وخرجت السيدات الثلاث من هذه المقابلة وهن متفقات في شعورهن إزاء هذا الأمر فيما يتعلق - على الأقل - بمسلك مسز فيرارز ، وآل داشوود ، وإدوارد وأعربت مريان عن سخطها بمجرد مغادرته الحجرة . ولما كان سخطها قد جعل التحفظ من جانب إلينور مستحيلا ، ولا ضرورة له من جانب مسز جنتنجز ، فقد اشتركن جميعا في نقد الجماعة تقدما حامى الوطيس .

الفصل الثامن والثلاثون

تحسنت مسز جنتجز في ثنائها على مسلك إدوارد ، ولكن إينور ومرينان
وحدهما هما اللتان كانتا تفهماان هذا المسلك على حقيقته ، وتعرفان أنه لم يكن
لدى إدوارد كثير من اللبرات التي تقر به بمخالفة أمه ، ولا عزاء له عن فقدان
أصدقائه وثروته سوى شعوره بأنه لم يعد الصواب في تصرفاته . وكانت إينور
تفخر باستقامته ، ومرينان تفخر له كل سيئاته أسفاً على ما حل به من عقاب .
ولكن لا واحدة منهما كانت تحب الإسهاب في هذا الموضوع على الرغم من
عودة الثقة بينهما إلى وضعها السحيح ، بعد أن برح الغفاء وأصبح الأمر معروفاً
للجميع ، فكانت إينور تتحاشى التحدث في الموضوع من حيث اللبداً ، لأن
ذلك من شأنه أن يثبت في ذهنها بصورة أقوى - عن طريق تأكيدات مرينان
الحماسية القطعية - الاعتقاد باستمرار محبة إدوارد لها ، وهو ما كانت تميل إلى
إزالته من ذهنها . وكانت مرينان تخونها الشجاعة وهي تحاول التحدث في موضوع
تخرج منه دائماً وهي أشد ما تكون سخطا على نفسها ، بسبب ما يتخض عنه
بالضرورة من المقارنة بين مسلكها ومسلك إينور .

وقد شعرت مرينان بأثر هذه المقارنة شعوراً قوياً ، ولكن هذا الأثر لم يكن
هو حشها على التجلد في الوقت الراهن ، بل هو الشعور المستمر بوخز الضمير
وشدة الندم على أنها لم تجلد من قبل ، وهكذا لم ينتج عن هذه المقارنة سوى
عذاب الندم دون الأمل في تحسن حالتها إذ ضمقت روحها المنوية إلى حد
(٢١٢ - الفن والمائة)

اهتضت معه أن التجلد في الوقت الراهن ضرب من المستحيل ، ولذلك لم تؤد هذه المقارنة إلا إلى تشبيط همتها أكثر من ذي قبل .

ولم تبلغهن بعد يوم أو يومين أنباء جديدة عن سير الأمور في هارلى سقرت أو بارتلز بلديج . ولكن مسز جننجز صممت منذ بداية الأمر على زيارة بنتي معها بأسرع ما تستطيع بقصد المواساة واستقصاء الأخبار على الرغم من وقوفها على كثير من الأخبار عن الحادث بحيث كان يحتمل أن تجد الكثير من العمل في نشرها على نطاق أوسع ولم يمتها من أداء هذه الزيارة في أثناء هذه المدة سوى كثرة الزوار بدرجة أكبر من المعتاد .

وقد وافق اليوم الثالث الذي أعقب علمهن بتفاصيل الحادث يوماً من أيام الأحاد كان الطقس فيه جميلاً رائعاً ، فأغرى كثيراً من الناس بالخروج إلى حدائق كيننجتون ، على الرغم من أن ذلك الوقت لم يتجاوز الأسبوع الثاني من شهر مارس . وكانت مسز جننجز وإليزور من بين من خرجوا . ولكن مريان كانت تعلم أن ولي وزوجته عادا إلى لندن ، وتخشى دائماً أن تلتقي بهما ، فأثرت البقاء بالمنزل ، على المجازفة بالخروج إلى أحد الأماكن العامة .

وانضمت إليهما إحدى صديقات مسز جننجز الجميات ، عقب دخولها الحدائق ولم تأسف إليزور لبقائها معهما ، واستئثارها بمحدث مسز جننجز كله لأن ذلك أتاح لها الفرصة للتأمل الهادئ . ولم تر ولي وزوجته ولا إدوارد ، وظلت بعض الوقت لا ترى أى شخص آخر ممن يههما لقاءه بطريق الصدفة السعيدة أو غير السعيدة ، وأخيراً وجدت أمامها - مع شيء من الدهشة - مس ستيل التي أعربت

عن ارتياحها الشديد إلى لقائهما ، وإن بدا عليهما شيء من الخجل . وعندما لقيت
بعض التشجيع من مسز جتنجز التي شملتها بهطها الخاص تركت صديقاتها فترة
قصيرة لتنضم إليهما وسرعان ما همست في أذن إليفور :

« استق منها الأخبار كلها يا عزيزتي . ستخبرك بكل شيء . إذا سألتها .
ها أنت ذى تجربين أننى لا أستطيع أن أترك مسز كلارك . »

على أن إفشاءها بأى نأ دون سؤال كان أذى إلى إرضاء فضول مسز
جتنجز ، وإليفور أيضا ، لأنه ما كان يمكن معرفة شيء بدون ذلك .

قالت مس ستيل ، وقد تأبطت ذراعها بلا كلفة ، « إننى مسرورة بلقائك لأنى
كنت أشد ما أكون شوقا إلى رؤيتك . » ثم خفضت صوتها وقالت : « أظن
أن مسز جتنجز قد سمعت كل شيء عن الأمر . هل هى غاضبة ؟ »

« غير غاضبة منك على الإطلاق . »

« هذا خبر سار . وليدى ميدلتون ، هل هى غاضبة ؟ »

« لا أظن أنه من الممكن أن تكون غاضبة ؟ »

« إننى فى غاية السرور بذلك . رحماك اللهم ! لقد نهت بذلك السرور
كثيراً . لم أر لوسى فى حياتى تشعر بمثل هذا النضب قط . لقد أفسمت أولاً
ألا تجربين لى قبعة جديدة ، ولا أن تعمل لى شيئاً آخر ما دامت حية .. ولكن
غالبها صفا الآن وعدنا صديقتين كما كنا . انظري ! لقد صنعت هذا القوس لقمعتى

وزينته بالريش فى الليلة الماضية . وأرى أنك ستضحكين منى أيضا : ولكن
مالى لا أيس أسطرطه وردية اللون ؟ لا يهينى أن يكون هو اللون الذى يفضله
الدكتور . وأؤكد لك أننى ما كنت لأعرف أنه يفضل هذا اللون على جميع
الألوان لولا أننى علمت ذلك منه بطريق الصدفة . وقد تندر على بنات عمى
بسبب ذلك ! وأنا لا أدرى أين أتجه بعينى فى حضورهن . »

ورأت أنها استطردت إلى موضوع لا تستطيع إلبنور أن تتحدث فيه ،
ولذلك سرعان ما رأت من المناسب أن تعود إلى الموضوع الأول .

وقالت بلهجة الانتصار : « نعم ! مس داشوود ! للناس أن يقولوا ما يشاءون
حول تصريح مستر فيرارز بأنه لن يتزوج لوسى ، لأنه ليس من شأنى أن أحدثك
بذلك . ومن العار أن تذيب هذه الإشاعات الخبيثة بين الناس . وأنت تعلمين
أنه مهما يكن رأى لوسى فيه ، فليس من شأن غيرها أن يجزموا به . »

قالت إلبنور : « أؤكد لك أننى لم أسمع قط إشارة إلى موضوع من هذا
القبيل . »

« عجباً ! ألم تسمى ؟ ولستكنى أعرف جيدا أنه قد قيل ذلك ، وعلى لسان
أكثر من واحدة لأن مس جند باى أخبرت مس سبارك أنه مامن إنسان لديه
مسكة من عقل يمكن أن يتصور أن يمدل مستر فيرارز عن امرأة مثل مس
مورتون تبلغ ثروتها ثلاثين ألف جنيهه إلى الزواج بلوسى ستيل التى لا تملك شروى
تغير . وسمعت ذلك من مس سبارك نفسها . وعلاوة على هاتين سمعت ابن عمى

وتشارد نفسه يقول : إنه إذا تم هذا الزواج فسيكون مصير إدوارد هو الطرد .
وإذ لم يتردد علينا إدوارد طوال ثلاثة أيام ، لم أستطع أن أجزم بشيء . وأعتقد
أن لوسى قطعت الأمل من الأمر كله ، لأننا غادرنا منزل أخيك يوم الأربعاء ، ولم
نر له أثراً يوم الخميس والجمعة والسبت ، ولم ندر ماذا حدث له . وفكرت لوسى
ذات مرة أن تكتب إليه ، ولكنها عادت ، فمزفت عن ذلك . على أنه جاءنا
صباح اليوم عندما عدنا من الكنيسة ، وحينئذ اتضح كل شيء . كيف استدعى
يوم الأربعاء إلى هارلى ستريت وكيف تحدث إليه أمه وجميع أهله ، وكيف صرح
أمامهم جميعاً أنه لا يجب أحداً سوى لوسى ، ولن يتزوج امرأة غير لوسى ، وكيف
أنه انزعج لما حدث . وما إن خرج من بيت والدته حتى امتطى جواده ، وسافر
إلى مكان ما في الريف ، وكيف أقام في حانة طوال يوم الخميس والجمعة لكي
ينسى ما حدث . وقال : إنه بعد أن قلب النظر في الأمر بداله ، وقد أصبح الآن
معدماً خالي الوفاض ، أنه من انقسوة أن يقيدها بالخطبة لأن ذلك يعود عليها
بالضرر لا بمحالة ، إذ لا يملك شيئاً سوى ألفين من الجنيهات ، ولا أمل لديه في
الحصول على مال آخر ، وإذا تقرر أن يصبح كاهناً — كما كان بنوى — فلن
يحصل إلا على وظيفة نائب خوري ، وكيف ينسى لها أن يعيشا بدخل هذه
الوظيفة ؟ — وقال : إنه لا يطيق أن يرى نفسه عاجزاً عن أن يعمل لها شيئاً أفضل
وقد لك التمس منها أن تضع حداً للأمر في الحال إذا كان لديها أدنى رغبة في ذلك
وأن تتركه وشأنه . سمعته يقول ذلك بكل صراحة يتصورها المرء . وإذا كان قد
تحدث عن فسخ الخطبة ، فلحرصه على مصاحبتها ، لا مصلحته هو . إنني أقسم
أنه لم تخرج من فم كلمة تشعر بأنه ملَّ صحبتها أو أنه يرغب في الزواج من مس

مورتون ، أو أى شيء من هذا القبيل . ولكنى أؤكد أن لوسى لن تصفى
لأى حديث من هذا النوع . لذلك قالت له من فورها (مع كثير من عبارات
النزل ، أنت تعلمين ، وكل ذلك - أوه ، وى ! تعلمين أنه ليس فى وسعى
أن أردد مثل هذه الأشياء . . .) - قالت له على الفور : إنه ليس لديها بآية
حال من الأحوال أدنى رغبة فى فسخ الخطبة لأنها تستطيع أن تعيش بالقليل ،
ومهما قل مالهديه ، فإنها ستشعر بكثير من السرور إذا أعطهاها كله أو بمضه .
وعندئذ سر إدوارد غاية السرور ، وتحدث بعض الوقت عما يجب عليهما عمله ،
فاتفقا أن يكرس نفسه من فورهِ ، وأن يرجئا الزواج حتى يحصل على وظيفة
كهنوتية . وعندما وصل الحديث إلى هذا الحد ، لم أستطع أن أسمع للزيد منه ،
لأن بنت عمى نادتنى من أسفل لتقول لى : إن مسز رنشاردسون قد وصلت فى
عربتها وستأخذ إحدانا إلى حدائق كينسجتون . لذلك اضطررت أن أدخل
الحجرة ، وأقطع عليهما الحديث ، لأسأل لوسى هل تحب أن تذهب . ولكنها لم
تشأ أن تترك إدوارد ، فصعدت الدرج ، ولبست جوربين من حرير وخرجت
مع آل رنشاردسون .

قالت إليفور : « لا أفهم ماذا تعنين بقولك : إنك قطعت عليهما الحديث .
أفقد كثير جميعاً فى نفس الحجرة ، ألم تكونى معهما ؟ .. »

« كلا ! لم تكن . عجيباً ! مس داشوود ، أنتظنين أن الناس يتفزلون على
مراى من أحد؟ واخجلتناه الابد أنك تعلمين أكثر من ذلك (تضحك بتكلف)
كلا كلا ! لقد كانا يفتقان عليهما باب حجرة الاستقبال ، وإنما سمعت ما سمعت
باستراق السمع لدى الباب . »

فصاحت إليزور : « كيف ! أكنت ترددين على سمى ما لم تسمعيه إلا باستراق السمع لدى الباب ؟ إننى آسفة لأننى لم أعرف ذلك من قبل ، ولو عرفته لما سمحت لك أن تقصى على تفاصيل حديث ما كان ينبغي لك أن تعرفيه . كيف تتصرفين مع أختك على هذا النحو غير اللائق ؟ »

« أوه ! عجباً ! لا جناح علىّ فى ذلك . كل ما فعلته أنى وقتت لدى الباب ، واستمعت ما استطعت . وأنا أعتقد أن لوسى كانت تفعل معى مثل ذلك ، لأنها لم تتحرج من الاختفاء فى مقصورة أو خاف لوح المصطفى بقصد سماع ما أقوله حينما كنت أتناجى مع مارتا شارب منذ سنة أو سنتين . »

وحاولت إليزور أن تتحدث فى حديث آخر ، ولكن مس ستيبيل لم تستطع أن تصبر نفسها أكثر من دقيقتين عن التحدث فى الموضوع الذى يشغل بالها .

قالت : « يقول إدوارد إنه سيتوجه إلى أكسفورد قريباً ، ولكنه الآن يقيم بمنزل رقم — فى بول مول . بالأمة من امرأة خبيثة الطوية . أليس كذلك ؟ وما كان أقسى أخاك وزوجته ! على أننى لن أقدم فيها أمملك ظالمق يقال إنهما أقبلنا إلى منزلنا فى عربتهما ، وهو أكثر مما كنت أتوقه . وكان أكبر ما أخشاه أنا شخصياً أن تطلب زوجة أخيك علب الخياطة التى أهدتها لنا قبل ذلك بيوم أو يومين ، ولكنها لم تشر إليها بكامة ، وقد حرصت على إخفاء علبتى عن الأنظار . ويقول إدوارد إنه سيذهب إلى أكسفورد لبعض شأنه ، وسيمكث بها فترة من الزمن ، ثم يرسم قسا بعد ذلك ، بمجرد عثوره على أحد الأساقفة . ولا أدرى أية وظيفة كنسية سيحصل عليها ! — رحماك اللهم !

(تضحك مستهزئة وهي تتكلم) ليت شمري ماذا سيقوله أفار . عندما يبلنهم ذلك ! سيقولون يجب أن أكتب للدكتور حتى يتوسط لإدوارد في الحصول على أبرشيته الجديدة . أنا أعرف أنهم سيقولون ذلك . ولكني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل إطلاقاً . سأقول لهم من فوري : « عجباً ! كيف تفكرون في مثل هذا الأمر ؟ أنا أكتب للدكتور - حقاً !

فقلت إليفور : « على كل حال ، بما يريح البال ، أن يستعمل المرء لأسوأ الاحتمالات . لقد أعددت الجواب على سؤالهم . »

وهمت مس سقيل بارد عليها في هذا الموضوع نفسه ، ولكن صديقتها أقبيلن ، فاضطرت أن تخوض في حديث آخر .

« عجباً ! هاقد أقبيل آل رنشاردسون . كنت أود أن أقول لك أشياء كثيرة . ولكن لا أستطيع أن أتخلف عنهما أكثر من ذلك . أوكد لك أنهما على جانب كبير من اللطف والالطف ، فستر رنشاردسون رجل طائل الثراء ، ولهما عربة . لم تتح لي فرصة التحدث مع مسز جننجز في الأمر بنفسى ، ولكنى أرجو أن تخبريها أنتى جد سعيدة لأنها غير غاضبة علينا ، وأن تخبرى ليدى ميدلتون بمثل ذلك . وإذا اتفق أن خرجت مع أختك لبعض شأنسكا ، ورغيت مسز جننجز فيمن يؤنس وحدتها ، فيكون من دواعى سرورنا أن نزرورها ونعسكث معها أطول وقت نشاء . وأظن أن ليدى ميدلتون لن تدعونا لزيارتها هذه المرة . وداعاً ! إنتى آسفة لأنى لم أرمس مريان . تحيأتى إليها . عجباً ! لماذا لا ترتدين ثوبك المصنوع من الموسلين الرقش ! ربما خشيت أن يكون عرقاً ! »

وهكذا ودعتني هذه الكلمات ، لأنها لم تلبث بعد ذلك إلا ريثما حيت مسز جننجز تحية الوداع قبل أن نطأها مسز رشاردسون . وخرجت إلي نور من هذا الحديث بمعلومات تصاح مادة غزيرة للتفكير فترة من الزمن ، وإن كانت هذه المعلومات لا تزيد كثيراً عما توقعته ورتبته في ذهنها من قبل ، فقد عرفت أن لوسى وإدوارد قد عقدا العزم على الزواج ، وأن موعد عقده لا يزال غير معروف بصفة قاطعة كما فهمت من قبل ، وأن كل شيء يتوقف — كما توقعت تماماً — على الوظيفة الكسبية التي لا يبدو الآن أدنى أمل في حصوله عليها .

وما إن عادتا إلى العربية ، حتى ناقت مسز جننجز إلى معرفة الخبر . ولكن إلي نور أرادت أن تذيب أقل ما يمكن من الأخبار التي أمكن الحصول عليها قبل كل شيء بطريقة غير شريفة ، فالتصرت على تكرار بعض الوقائع البسيطة التي أيقنت أن لوسى تحب إذاعتها تمزيقاً لمركزها ، فكان استمرار الخطبة والوسائل التي تقرر اتخاذها للوصول بها إلى نهايتها المحتومة هو كل ما أفضت به .

وهذا حمل مسز جننجز على إبداء الملاحظة الطبيعية الآتية :

« ينتظر حتى يحصل على وظيفة كنسية ! نعم ، نحن نعلم كيف ينتهى ذلك ، — إنهما سينظران اتى عشر شهراً . وبعد أن يجدا أنه لا فائدة من البحث ، سيضطران إلى قبول وظيفة نائب خورى التي يبلغ إيرادها خمسين جنيهاً في العام بالإضافة إلى فائدة الأتني جنية التي يملكها ، وما عسى أن يقدم لهما مستر ستيل ومستر برات من نرد يسير — ثم إنهما سينجبان طفلاً كل عام . كان الله في عونهما ! ما أشد الفقر الذي سيحل بهما ! يجب أن أفكر فيما يمكن أن أسام به في تأنيث منزلهما . خادمتان وخادمان في الواقع ! كما قلت منذ أيام — كلا ،

كلا ! يجب أن يستخدما فتاة قوية تستطيع النهوض بكافة الأعمال للنزلية —
وأخت بتي لا يمكن أن تصالح لهما الآن . »

في صباح الند ورد لإلينور خطاب من لوسى من فئة البنسبن . ونصه كما يلي :

بارتلز بلديج - مارس .

أرجو يا عزيزتي مس داشوود أن تتجاوزي عن اجترائي عليك في كتابة
هذا الخطاب . ولكنني أعلم أن صداقتك لي ستحملك على السرور بسماع قصتي
وقصة عزيزي إدوارد ، بعد كل المتاعب التي لاقيناها أخيراً . ولذلك فإني
لن أعتذر مرة أخرى بل أمضى فأقول : الحمد لله ! فحن على الرغم مما قاسيناه
من آلام مروعة ، نتمتع بصحة طيبة ، ونتمتع بالسعادة كما يجب أن نتمتع بها في
ظل الحب الذي يسكنه كل منا لقرينه . لقد قاسينا محنا عظيمة ، ولاقينا أذى
كثيراً ، ولكننا مع ذلك نشعر في الوقت نفسه بالشكر والامتنان لكثير من
الأصدقاء . ولست أنتِ أقل هؤلاء شأنا . الذين سأظل دائماً أنا وإدوارد الذي
أنباته بذلك - نذكر مع الشكر ما أبدوه من عطف عظيم . وأنا على يقين أنه
يسرك - كما يسر عزيزتي مسز جننجز - أن تعلمي أنني قضيت ساعتين سعيدتين
معه بعد ظهر أمس ، إذ أرى أن يوافق على افتراقه عنه على الرغم من أنني - استجابة
لنداء الواجب - ألححت عليه في ذلك مراعاة للحكمة ، وأبدت رغبتي في الفراق
على الفور إذا وافق على ذلك ، ولكنه قال : إن هذا لن يكون أبداً ، وإنه
لا يآبه لفضله أمه مادام يتمتع بحبي له . إن طريق المستقبل ليس مشرقاً أمامنا
بلا ريب ، ولكن يجب علينا أن ننتظر ونأمل خيراً ، فإدوارد سيرسم قسا عما
قريب . وإذا أتبع لك في أي وقت أن تركيه لدى أي شخص يمكن أن يمنحه .

وظيفة كنيسية فأنا واثقة أنك لن تنسينا ، وكذلك أعتقد أن مسز جنتنجز ستبقى علينا لدى سيرجون أومستر بالمر ، أو أي صديق في وسعه أن يساعدنا . إن آن المسكينة ملومة كثيراً على ما فعلت ، ولكنها فعلت ذلك بحسن نية ، ولذلك فأنا لا أقول شيئاً . وأرجو ألا نجد مسز جنتنجز عناء كبيراً في زيارتنا متى عن لها أن تمر بمنزلنا صباح أي يوم . ستكون هذه الزيارة فضلاً عظيماً ، وسيفخر أقاربي بالتحرف إليها والآن يجدر بي أن أختتم خطابي ، وأرجو أن تبليها أسمى شكرى واحترامى هي وسيرجون وليدى ميدلتون والأطفال الأعزاء متى - منحت لك الفرصة لقاہم ، ومحبتى لمس مريان .

وأنا ... الخ ... الخ ..

وما إن انتهت إلي نور من قراءته حتى فغذت مارأت أنه القصد الحقيقي من كتابته فناولته مسز جنتنجز التي قرأته بصوت جدير مع كثير من التعقيب الذي ينم على الارتياح والثناء .

حقاً جميل جداً ! - ما أجمل أسلوبها في الكتابة ! - نعم كان من اللائق تماماً أن تفسخ الخطبة إذا أراد . هذا ما يليق بلوسى تماماً . مسكينة . هي ! بودى لو استطعت أن أحصل له على وظيفة كنيسية ! لاحظي أنها تسميني مسز جنتنجز العزيزة . إنها من أطيب الفتيات قلباً - لعمري إنه لخطاب جميل . هذه الجملة صيغت في عبارة جميلة . نعم نعم ، سأوجه إلى زيارتها حقاً . ما ألفتد . أن تفكر في كل إنسان ! أشكرك يا عزيزتى لإطلاعي على هذا الخطاب . إنه من أجمل ما رأيت من الخطابات في حياتي . وهو يشهد بمصافة اللب و ورقة القلب .

الفصل التاسع والثلاثون

قضت الأستان داشوود أكثر من شهرين في لندن حتى الآن ، وأخذت مريان تزداد لهفة على الرحيل كل يوم ، واشتاقت إلى هواء الريف وحريرته وهدوئه وخيل إليها أنه إذا كان ثم مكان تنعم فيه براحة البال فهو بارتون . ولم تكن إليينور أقل من أختها شوقا إلى الرحيل ، وكل مافي الأمر أنها لم ترغب فيه على الفور ، لشعورها بما تنطوى عليه هذه الرحلة الطويلة من مشاق أبت مريان أن تعترف بها ، على أنها أخذت تفكر في السفر بصورة جدية ، فأعربت بالفعل عن هذه الرغبة لمضيفتها السكرينة التي عارضت فيها بكل ما أوتيت من بلاغة الحب والود ، ثم اقترحت فسكرة رأسها إليينور ادعى إلى القبول من غيرها ، وإن كان من شأنها أن ترجى ، سفرهما بضعة أسابيع أخرى ، ذلك أنه تقرر أن يسافر آل بالمر إلى كليفلاند في نهاية مارس لفضاء إجازة عيد الفصح ، فأرسلت شارلوت إلى مسز جنجنز دعوة ملحة بالسفر معهم . ولم تكن هذه الدعوة كافية في حد ذاتها لحل مس داشوود على السفر معهم ، فتقدم بها مستر بالمر بنفسه بكل أدب ، وعززها ما طرأ على سلوكه نحوها من تحسن عظيم منذ أن عرف أن أختها تعاني لوعة الأسمى ، لحملها ذلك على قبول الدعوة بكل سرور .

على أنها حينما أخبرت مريان بما فعلت ، كان أول رد لها لا يبعث على السرور . قالت بلهجة تم على القلق الشديد : « كليفلاند ! كلا ، لا يمكن أن أذهب إلى كليفلاند » .

فأجابت إليينور برفق : « أنت تفسين أن موقعها ليس ... ليست في جوار ... » .

« ولكنهما في سمر ستشاير - لا يمكن أن أذهب إلى سمر ستشاير - هناك ، حيث كنت أنتطلع إلى الذهاب ... كلا يا إينور ! لا تنتظري منى أن أذهب إليها . »

ولم تشأ إينور أن تتجادل معها في وجوب نسيان هذه المشاعر - وإنما حاولت أن تزيل أثرها من نفسها بإثارة مشاعر أخرى - فصورت الأمر على أنه وسيلة لتحديد موعد عودتهما إلى أمهما العزيزة التي كانت هي تتوق إلى رؤيتها كثيراً ، على نحو أفضل وأدعى إلى الراحة من أبة وسيلة أخرى ، وربما بدون تأخير كبير ، ذلك أن المسافة من كليفلاند التي تبعد عن برستول بضعة أميال إلى بارتون ، لا تتجاوز يوماً واحداً ، وإن كان السفر يستغرق اليوم بطوله ، ثم إن خادمة والديهما يسهل أن تأتي إليهما لترافقهما في طريق العودة ؛ وإذا لم يكن من المحتمل أن تزيد مدة إقامتهما في كليفلاند على أسبوع ، فمن الممكن أن تعودا إلى منزلها بعد ثلاثة أسابيع أو تزيد قليلاً . ولما كانت مريان تحب أمها محبة صادقة ، فقد كان من المؤكد أن تتغلب دون كبير عناء على المخاوف الوهمية التي أعربت عنها .

كانت مسز جننجز أبعد من أن تمل صحبة ضيفتيها فألحت عليهما أن تعودا معها من كليفلاند ، فشكرتها إينور على هذه الجمالة ، ولم تقبر من عزمها على السفر ، ثم إن أمهما أبلغتهما موافقتها على السفر ، فأعدتاه العدة بأسرع ما يمكن . وأخذت مريان تنفَس الصعداء ، ونحصى الساعات التي تفصلها عن بارتون .

وقالت مسز جننجز للكولونيل عندما زارهن لأول مرة بعد أن تقرر

مفارقة لها : « آه ! كولوئيل ، لا أدرى ما سأفعل أنا وأنت بدون الآنتين داشوود ، لأنهما عقدتا النية على السفر إلى أهلها بعد انتهاء زيارتهما لآل بالمر . كم سنشمر بالوحشة بعد عودتي ! - رباه ! سنجلس معا ويتناهب كل منا في وجه الآخر في خمول وكسل كما تفعل القطة . »

رعا كانت مسز جئنجز تأمل بهذا التصوير الحى لما سيشران به من الللل والضجر أن تستعنه على التقدم بالعرض الذى يمكن أن يهيبه له مخرجا من هذا لللل . وإذا كانت تأمل كذلك ، فقد وجدت بعد قليل من الأسباب القوية ما يحمل على الاعتقاد بتحقيق هذا الأمل . وذلك أنه عندما انتقلت إلينبور إلى النافذة لتقبس على وجه السرعة أبعاد إحدى الصور التي أرادت أن ترسمها لصديقها سار براندون وراها إلى النافذة وهو يرمقها بنظرة ذات معنى ، وتحدث معها عدة دقائق . ولم يفتمأ أن تلاحظ أن إلينبور قد تغير وجهها ، واعتراها الاضطراب وبلغ من اهتمامها بحديثه أنها لم تستطع أن تواصل عملها ، على الرغم من أنها (أى مسز جئنجز) كانت أنبل من أن تصفى لحدثها حتى لقد غيرت مقعدھا حتى لا تسمعه ، إلى مقعد بالقرب من البيان الذى كانت مريان تعرف عليه . ومما قوى أملها أيضا أنه في الفترة التي انتقلت فيها مريان من درس إلى آخر طرقت أذنها لا محالة بعض كلمات للسكولوئيل يبدو أنه يمتدح فيها عن سوء حالة بيته ، وهذا قطع الشك باليقين . وعجبت في الواقع لاعتقاده أنه من الضروري أن يمتدح عن ذلك ، ولكنها رأت أن هذا مما تقضى به آداب المجاملة . ولم تستطع أن تبين رد إلينبور عليه ، ولكنها استنتجت من حركة شفيتها أنها لا ترى في ذلك مانعا قويا . وأثنت عليها مسز جئنجز في نفسها لهذه الصراحة . ثم أخذتا يتحدثان بضع دقائق بدون أن تلتقط من حديثهما حرفا ، وإذا بمريان

تتوقف عن العزف مرة أخرى لحسن حظها ، فسمع هذا الكلمات من حديث الكولونيل الهادى :

« أخشى ألا يتم هذا الأمر عاجلاً . »

فدهشت وذعرت لهذا الكلام الذى لا يعبر عن الحب وأوشكت أن تصيح :
« ربه ! ماذا يعوق الأمر ؟ » ولكنها كبحت جماح نفسها ، فاكثفت بهذه العبارة الصامتة :

« هذا غريب جداً ! لا حاجة به حقاً أن ينتظر حتى يهرم . »

على أن هذا الإرجاء والتسويق من جانب الكولونيل لم يسبب فيما يبدو أدنى غضب أو ألم لصاحبه الحستاء ، لأنه عندما فرغ من الحديث بعد قليل ، وراح كل منهما فى طريقه ، سمعت مسز جنتجز - بكل وضوح - بالنيور وهى تقول بصوت يدل على إحساسها بما تقول :

« سأعد نفسى دائماً مدينة لك بالشكر والامتنان . »

وسرت مسز جنتجز بما أعربت عنه من الشكر ، ولكنها لم تعجب إلا لأنها - بعد سماع هذه الجملة - رأت الكولونيل يستأذن من فوره بكل برود وبدون أن يرد عليها ، ولم تكن تظن أن صديقتها المعجوز يبدى مثل هذا القصور نحو خطيئته .

والواقع أن الحديث الذى دار بينهما كان مؤداه ما يلى :

قال بلهجة تشف عن الأسمى : « لقد بلبنى نبأ للماملة الجائرة التى لقيها صديقك

مستر فيرارز من أمرته وأنها - إذا صح ما بلغنى - نبذته نبذاً تاماً لتسكبه
بخطبة فتاة أهل للزواج منه . فهل ما بلغنى صحيح ؟ هل الأمر كذلك ؟
فأخبرته بالينور أنه صحيح .

فأجاب بلهجة تدل على العطف الشديد : « إن القسوة ، القسوة الجائرة التي
تدعو إلى التفريق أو محاولة التفريق بين خطييين شابين أحب أحدهما الآخر
زمننا طويلاً هي قسوة مهروعة . إن مسز فيرارز لا تدرى مغية عملها ، وما
تسوق ابنها إليه . لقد رأيت مستر فيرارز مرتين أو ثلاث مرات في هارلى
ستريت ، وأعجبت به كثيراً . وهو شاب لا يستطيع الإنسان أن يوثق معه عرى
للعودة في فترة قصيرة ، ولكن عرفت عنه ما يكفي لأن أتمنى له الخير ، حباً فيه
وبوصفه صديقاً لك . ولا أزال أتمنى له المزيد من الخير . لقد علمت أنه يريد
الانخراط في سلك الكهنوت . فهل تتكلمين بأن تخبريه أن أبرشية ديلافورد
التي خلت الآن كما علمت من بريد اليوم هي له إذا رآها جديرة بالقبول . ولكنني
كنت أود أن يكون إيراد هذه الأبرشية كبيراً نظراً لظروفه السيئة في الوقت
الراهن ، ومن الثمنون تبارى في هذا الأمر . وهي وظيفة نائب خورى ولكنها
وظيفة صغيرة . وأعتقد أن القسيس السابق لم يظفر منها بأكثر من مائة جنيه
في العام . صحيح أن هذا اللباغ قابل للزيادة ، ولكنني أخشى ألا يزيد إلى الحد
الذي يتيح له دخلاً كبيراً . على أنه إذا قبلها ، فإني سأشعر بسرور كبير حين
أقدمها له . أرجو أن تؤكدى له ذلك . »

ولم تكن دهشة الينور لهذا التسكيف تزيد على دهشتها فيما لو عرض
(م ٢٢ - الفن والماثقة)

عليها السكولونيل يده ، فالوظيفة التي كانت ترى منذ يومين اثنين أنه لا أمل لإدوارد في الحصول عليها أتاحت له الآن لتمكينه من الزواج . وكانت هي دون غيرها التي وقع عليها الاختيار لإسباغ هذه الوظيفة على إدوارد ! وبلغ بها التأثير حدا جعل مسز جنتجز تعزوه إلى سبب يختلف كثيراً عن سببه الحقيقي . ولكن مهما شاب هذا التأثير من مشاعر السكر والنفور فإنها أعربت بحماسة عن تأورها وتقديرها للسكرم الفياض ، وشكرها للود الصادق اللذين دفعا كولونيل براندون إلى هذا العمل ، فشكرته من صميم فؤادها على ذلك وأثنت على أخلاق إدوارد وطباعه بما هو أهله ، ووعدت بأداء المهمة بكل سرور إذا كان يرغب حقيقة في إسناد هذه المهمة السارة إلى غيره ، لكن لم يسرها في الوقت نفسه إلا أن تقول إنه لا أحد أقدر منه هو على أدائها، وإنها بالاختصار مهمة تود لو أعفاها منها لأنها لا تريد أن تجرح شعور إدوارد بتقبل اللئنة منها ، ولكن كولونيل براندون رفض القيام بهذه المهمة لنفس السبب الذي أبدته هي من مراعاة شعور إدوارد ، وأعرب عن شديد رغبته في قيامها هي بهذه المهمة ، فلم تشأ أن تبدي أية معارضة لسبب ما . وكانت تعتقد أن إدوارد لا يزال في لندن ولحسن الحظ سبق لها أن سمعت عنوانه من مس ستيل ، ولذلك استطاعت أن تنهه بإبلاغه الأمر في بحر يوم . وبعد أن تقرر ذلك أخذ كولونيل براندون يتحدث عن مزية نظره بمثل هذا الجار اللطيف الجدير بالاحترام . وعندئذ ذكر مع الأسف أن المنزل صغير ومتواضع - وهو عيب لم تهتم به إليفور كثيراً - كما ظنت مسز جنتجز - ولا سببا فيما يتعلق بحجبه على الأقل .

قالت : « لا أستطيع أن أتصور أن صغر المنزل قد يندب أية مضايقة لهما لأنه سيكون متناسبا مع عدد الأسرة ودخلها . »

ودعش كولونيل براندون لهذا القول ، لأنه يدل على أنها ترى أن زواج مستر فيرارز نتيجة مؤكدة لهذه الوظيفة الدينية ، إذ لم يكن يرى من الممكن أن تنل ابرشية ديلافورد إيراداً يتيح لأى إنسان بمارس أسلوب حياته أن يتزوج به ، وصرح بهذا الرأي أيضا فقال :

هـ هذه الأبرشية الصغيرة لا يمكن أن تؤدي إلى أكثر من أن يحيا حياة طيبة كأعزب ، ولا يمكن أن تمكنه من الزواج . إننى آسف لأن أقول إن مساعدتى له تقف عند هذا الحد ، واهتمامى بأمره لا يتجاوز هذا القدر . ولكن إذا حدث ما ليس فى الحسبان ، وأمكنتى أن أسدى إليه خدمة أكبر ، وجب أن أفكر فى شأنه تفكيراً مختلفاً كثيراً عما أراه الآن اللهم إلا إذا لم أكن مستمداً لخدمته حينذاك استعداى لخدمته بإخلاص فى الحاضر . إن ما أسديه الآن من خدمة لا يبدو فى نظرى شيئاً مذكوراً على الإطلاق ، لأنه ليس سوى خطوة قصيرة نحو هدفه الأساسى الوحيد وهو السعادة . أما الزواج فيجب أن يعلم أنه لا يزال أملاً بعيداً ، إذ أننى أخشى على الأقل ألا يتم قريباً .

هذه هى الجملة التى جرحت بحق مشاعر مسز جنتجزز الرقيقة عندما أساءت فهمها ، ولكن بعد أن قصت عليها إلبنور حقيقة ماجرى بينها وبين كولونيل براندون وهما واقفان لدى النافذة : أعربت له عند الوداع عن شكرها شكراً ربما لا يقل بوجه عام فى حرارته وعبارته عن الشكر الذى كانت تعرب عنه فيما لو عرض عليها الزواج .

الفصل الأربعون

قالت مسز جنجنز وهي تبتسم على نحو يدل على النعنة الثاقبة ، بمجرد أن خرج الرجل :

« مس داشوود ! لا أطلب منك أن تقص على ما قاله الكولونيل لك ، لأنني استطعت أن أتلقف من كلماته ما يكفي لفهم مقصده ، على الرغم من أنني أقسم لك بشرفي أنني اجتهدت أن أكون بعيدة عن مسامعها . وأؤكد لك أنني لم أمر قط كما سررت بهذا الحديث . وأتمنى من صميم قلبي أن تكوني مسرورة به . »

قالت إينور : « أشكر لك ياسيدتي . إنه لأمر يسرنى كثيراً . وأنا أقدر كل التقدير ما أسداه كولونيل براندون من حسن الصنيع . كثير من الناس يأبون أن يفعلوا مثل ما فعل . قليل منهم من يحمل مثل هذا القلب الرحيم . مدهشت قط أكثر من دهشتي الآن . »

« رباه ! عزيزتي ، إنك متواضعة جداً . أما أنا فلم أشعر بأدنى دهشة ، لأنه بدالني في الأيام الأخيرة أنه ما من شيء هو أكثر احتمالاً من ذلك . »

« لقد حكمت بذلك لما تعلمين عن الكولونيل من حب الخير والمعروف ولكن ما كنت تتوقعين على الأقل أن الفرصة ستسبح بمثل هذه السرعة . »

فرددت مسز جنجنز : « الفرصة ! عجباً ! إن الرجل متى عقد العزم ،

فسرعان ما يجرد القرصة على نحو ما . حسن يا عزيزتى ، أتمنى لك السرور دوما .
وإذا كان في العالم زوجان سعيدان فأنا أعتقد أنى لن ألبث أن أعرف أين
أبحث عنهما . »

قالت إليثور بابتسامة خفيفة : « تمنين أنك ستذهبت وراى ٤٠ إلى
ديلافورد . »

« نعم ! يا عزيزتى . هذا ما سأفعله حقا . أما فيما يتعلق بسوء حالة المنزل فأنا
لأدرى ماذا يريد الكوارنيل ! إنه منزل طيب كأحسن منزل رأيته . »

« قال إنه لا يقبل الترميم . »

« حسن ، ومن المسئول عن ذلك ؟ لماذا لا يرممه ؟ من سواه يجب أن
يفعل ذلك ؟ »

وقطع عليهما الخادم الحديث إذ دخل ليقول إن العربة لدى الباب فقالت مسر
جتنجز وهى تهم بالخروج :

« معذرة يا عزيزتى . أنا مضطرة الآن إلى الخروج قبل أن أفرغ من نصف
حديثى . ولكن فى وسعنا أن نفرغ منه فى المساء لأننا سنكون وحدنا . ولا أطلب
إليك أن ترافقينى لأنى أعتقد أن الأمر يشغل بالك بحيث لا ترغبين فى مرافقتى ،
وفضلا عن ذلك فأنت تتوقفين بلاشك إلى إخبار أختك بكل شىء . »

وكانت مريان قد غادرت الحجرة قبل بدء حديثهما .

« حقاً ياسيدتى . سأطلع مريان عليه ، ولكن لن أذكره في الوقت الحاضر
لأى إنسان آخر . »

قالت مسز جنتجز بشيء من الامتناع : « وى ! جميل جداً كأنك
لاتريدين أن أخبر لوسى به ، فأنا أنوى الذهاب إلى هليوزن اليوم . »

« كلا ياسيدتى ولا للوسى ، من فضلك . إن الانتظار يوماً واحداً لن يضر
كثيراً . وأعتقد أنه ينبغي عدم ذكره لأى إنسان حتى أكتب لإدوارد .
وسأكتب إليه من فورى . فن المهم الاتوائى في إبلاغ الأمر إليه ، لأنه سيكون
مضطراً بالطبع إلى اتخاذ كثير من الإجراءات الخاصة برسامته . »

وقد سبب هذا الكلام لمسز جنتجز كثيراً من الحيرة والارتباك في البداية
إذ لم تستطع أن تفهم في الحال فيم العجلة في الكتابة لاستر فيرارز حول الأمر
ولسكنها بعد أن فكرت بضع دقائق خطرت لها هذه الفكرة الموقفة
فصاحت :

« وى ! وى ! قد فهمت مرادك . إن مستر فيرارز هو الزوج المرتقب .
حسن ! خير البر عاجله . نعم حقاً يجب أن يتم تكريسه في الحال . إننى مسرورة
لاتفاقكما على التعجيل بالأمر . ولكن الأترين يا عزيزتى أن ذلك يخالف
للألوف ؟ أما كان يجب أن يكتب إليه الكولونيل نفسه ؟ حقاً إنه هو الخليق
بنلك . »

ولم تفهم إيلينور الشطر الأول من كلام مسز جننجز، ولم تره جديراً بالسؤال عنه . ولذلك اكتفت بالإجابة عن الشطر الأخير .

إن كولونيل براندون رجل رقيق الشعور ، فأراد أن يكلف شخصاً غيره بإبلاغ نواياه إلى إدوارد .

« كأنه كلفك أنت أداء هذه المهمة . عجباً ! هذا ضرب غريب من رقة الإحساس ! على أنى لن أزعجك (إذ رأيتها تم بالكتابة) أنت أدرى بمصلحتك . وداعاً يا عزيزتى ! ما سمعت بشىء سرنى أكثر من ذلك منذ أن وضعت شارلوت مولودها . »

ثم خرجت ولسكنها عادت بعد لحظة .

« لقد خطرت ببالي الآن أخت بيتى ، يا عزيزتى . يسرنى كثيراً أن تكون فى خدمة ربة بيت طيبة كهذه . ولكنى لأستطيع أن أجزم هل تصلح أن تكون وصيفة لسيدة . هى خادمة بيت ممتازة ، ماهرة فى شغل الإبرة . ومع ذلك أرجو أن تفكرى فى الأمر على هينتك . »

فأجابت إيلينور : « بالتأكد ياسيدتى » دون أن تسمع كثيراً مما قالت ، وهى أحرص على أن تخلو بنفسها منها على أن تكون ربة البيت للشار إليها .

وكان أكبر ما يشغل بالها الآن هو كيف تبدأ الخطاب — كيف تعبر عن أفكارها فى خطابها لإدوارد . إن ظروفها الخاصة جعلت من الصعب العسير ما كان يمكن أن يكون أسهل شىء فى العالم على أى شخص آخر ، ولسكنها كانت تخشى على السواء أن تقول أكثر أو أقل مما يقتضيه اللقاء . وجلست

وهي تتروى في الأمر فوق الورق والقلم في يدها ، وإذا بإدوارد يدخل عليها فيقطع عليها سلسلة التفكير .

وكان إدوارد قد قابل مسز جننجز لدى الباب ، وهي تنجبه إلى العربية بينه كان قادما ليترك بطاقته مودعا ثم اعتذرت له عن عدم عودتها معه ، واضطرتته إلى الدخول حين أخبرته أن مس داشوود في الطبقة العليا وأنها تريد التحدث إليه في موضوع خاص .

وكانت إلي نور منذ لحظة تحدث نفسها في غمرة حيرتها أنه إذا كان من الصعب أن تعبر عن أفكارها في خطاب تعبيراً صحيحاً فمن الأفضل على الأقل أن تبتلع الخبز شفها ، وإذا به يدخل عليها ، فيرغمها على إبداء أعظم مظاهر التجلذ ورباطة الجأش . وقد اعترأها كثير من الدهشة والارتباك عندما حضر على هذا النحو المفاجيء ، إذ لم يسبق لها أن رأته منذ أن شاع نبأ خطبته ، لامتذ أن عرف هو أنها علمت بهذا النبأ . وهذا بالإضافة إلى شعورها بما كانت تفكر فيه ، وما أرادت أن تحدثه به — جعلها تشعر بكثير من الحرج بضع دقائق . وكان هو يشعر بالهم والأسى أيضا تجلسا معا في حالة يكتمنها الحرج الشديد ، فلم يستطع أن يذكر هل اعتذر لها عن تطفله عليها بالدخول في الحجره ولكنه رأى أن يأخذ بالأحوط فقدم لها اعتذاره بعبارة لاثقة عندما استطاع أن يتكلم بعد أن أخذ كرسياً وجلس عليه .

قال : « أخبرتنى مسز جننجز أنك تريدن أن تتحدثن معي ، أو على الأقل هذا ما فهمته منها — وإلا لما تطفلت عليك على هذا النحو ، ولكن كنت سأشعر بغاية الأسف إذا غادرت لندن دون أن أراك وأختك ، ولا سيما أنه يحتمل كثيرا

أن أغيب حيناً من الزمن ، ولايحتمل أن أسعد قريباً بلقائك مرة أخرى .
سأذهب إلى إكسفورد غداً .»

وعادت إلي نور فلسكت جاشها ، وصممت على نسيان ماتمشاه كثيراً ،
بأسرع ما يمكن وقالت : « على أنه ما كان لك أن تسافر دون أن تتلقى تمنياتنا
الطيبة حتى ولو عجزنا عن تقديمها شخصياً . ولقد صدقت مسز جننجر فيما قالت ،
فلدى نيا هام أود الإقضاء به إليك ، وكنت على وشك أن أخبرك به عن طريق
الكتابة . لقد كلفت أداء مهمة تبعث في نفسى أعظم الرضا (وتنفست أسرع
من المعتاد وهي تتكلم) فقد رغب إلى كولونيل براندون الذى كان هنا منذ عشر
دقائق أن أبلغك بأنه يسره كثيراً بعد أن علم أنك تنوى الانخراط فى سلك
الكهنة . أن يعرض عليك أبرشية ديلافورد التى خلت الآن ، وكان يتمنى
لو أن هذه الأبرشية تغل لإراداً أكبر . اسمح لى أن أهنتك بهذا الصديق المحترم
المائل وكنت أتمنى مثله لو كانت هذه الوظيفة الكنسية أكبر إراداً - تغل
الآن حوالى مئتي جنيه فى العام - وكانت بحيث تتمكنك من أن - إذ ليست
إلا وسيلة مؤقتة لتيسير أسباب الحياة لك - تتمكنك بالاختصار من أن تحقق
ماتمتناه من السعادة . »

وليس فى وسع أحد أن يعبر عما شعر به إدوارد ، لأنه هو نفسه عجز عن
التعبير عن مشاعره ، فقد نظر بعين ماثرها الدهشة التى لم يكن بد من أن يثيرها
فى نفسه مثل هذا النبأ للفاغىء الذى لم يخطر على باله . ولكنه اكتفى
بهاتين الكلمتين :

« كولونيل براندون . »

واستطردت إلي نور بعد أن ملكت جأشها ، إذ انتهى بعض ما كانت
تخشاها « كولونيل براندون يريد أن يكون ذلك دليلاً على قلقة لما حدث
أخيراً — للموقف القاسي الذي وضعك فيه تصرف أهلك الجائر — وهو قلق
أو كد لك أن مريان وإيبي وجميع أصدقائك يشعرون به — وأن يكون أيضاً
دليلاً على تقديره العظيم لأخلاقك العامة ، وإعجابة الخاص بمسلكك في
في الموقف الراهن . »

« كولونيل براندون يعطيني أبرشية ! أهذا معقول ؟ »

« إن قسوة أهلك جعلتك تدعش لأن وجدت الصداقة عند غيرهم . »

فأجاب فجأة : « كلا ، لم أدعش لأني وجدتها فيك أنت ، فأنا لا أستطيع أن
أجهل أنني مدين بذلك كله لك ، لفضلك — إنني أشعر بذلك . وبودي
لو استطعت أن أعبر عن شعوري ، ولكنك تعرفين جيداً أنني لست بخطيب . »

« إنك مخطيء جداً . أو كد لك أنك مدين بذلك كله — كله تقريباً
على الأقل — إلى فضائلك الشخصية ، وتقدير كولونيل براندون لهذه الفضائل .
وليس لي يد في ذلك ، بل لم أكن أدري أن الأبرشية خالية إلى أن فهمت
قصده ولا خطر بيالي قط أن لديه أبرشية يمكن أن يهبها لأحد . فهو كصديق
لي ، وصديق لأسرتي ربما يسره — الواقع أنني أعرف أنه يسره كثيراً أن يهب
هذه الأبرشية . ولكنني أو كد لك أنك لاتدين بشيء إلى وساطتي . »

واسكن حب الحقيقة أجبرها على الاعتراف بأن لها نصيباً ضئيلاً في الأمر .

ولسكنها كانت تسكره في الوقت نفسه أن تتظاهر بأنها أسدت إلى إدوارد معروفًا ومن هنا اعترفت بشيء من التردد ، مما قوى في نفسه الشبهة التي دارت بخلدّه أخيراً . وجلس هنيهة وهو مستغرق في التفكير بعد أن سكنت إينور عن الكلام ، وأخيراً قال بمد لآى :

« يبدو أن كولونيل براندون رجل على جانب كبير من الفضل والاحترام . لقد سمعت الناس دائماً يتحدثون عن انصافه بهذه الخلال ، وأنا أعلم أن أخاك يمكن له أعظم التقدير . لا شك أنه رجل عاقل . وهو في أخلاقه مثال الرجل المهذب الكامل . »

فأجابت إينور : « أعتقد أنك ستجده - عندما تزداد معرفة به - يتحلى بكل ماسمعت من الصفات . وبما أنكما ستكونان جارين متقاربين (لأنى علمت أن الأبرشية قريبة من قصره) فمن المهم جداً أن يكون متحلياً بكل ذلك . » فلم يجب إدوارد بشيء ، ولسكنها حينما أدارت وجهها ، نظر إليها في جد ينيء عن عدم ابتهاجه ، وكأنه يريد أن يقول إنه قد يتمنى في المستقبل أن تكون المسافة بين الأبرشية والقصر أكبر من ذلك .

وسرعان ما قال وهو ينهض من كرسيه : « أظن أن كولونيل براندون يقيم في شارع سنت جيمس . »
فأخبرته إينور برقم المنزل .

« يجب أن أسرع إذن لأقدم له الشكر الذى أبيت أن أقدمه لك ، لأؤكد له أنه جعلنى رجلاً سعيداً جداً - سعيداً للغاية . »

ولم تحاول إينور أن تمنه من الخروج ، وافترقا وهى تؤكد له من جانبها

تمنياتها الطيبة الدائمة لسعادته في جميع صروف الحوادث التي تلم به ، وهو يحاول من جانبه أن يرد على تمنياتها الطيبة بمثلاً أكثر مما يقدر على التعبير عنها .

وحدثت إلي نور نفسها بعد أن أغلقت الباب وراهه : « عندما أراه ثانية سأراه زوجا للوسى . »

وهذا التوقع السارجلست لتعميد النظر في الماضي ، وتستحضر كلمات إدوارد ، وتحاول أن تفهم جميع مشاعره ، وتتأمل بالطبع في مشاعرها هي بشئ . من عدم الرضا .

ولما عادت مسز جننجز إلى المنزل ، كان السر الهام الذي تعرفه - على الرغم من أنها عادت من زيارة قوم لم ترم من قبل ، وتود أن تقول الكثير عما عرفت عنهم - يشغل بالها أكثر مما سواه بحيث عادت إلى ذكره بمجرد أن حضرت إلي نور :

صاحت قائلة : « خبريني يا عزيزتي . لقد أرسلت إليك الرجل . ألم أفضل صواباً ؟ وأظن أنك لم تجدى عناء كبيراً - لم تجدى أنه لا يرغب كثيراً في قبول طاب الزواج . »

كلا ياسيدتي . إن هذا لم يكن أمراً قوياً الاحتمال .
« حسن ، ومتى يستعد لذلك ؟ إذ يبدو أن كل شيء يتوقف على هذا . »

قالت إلي نور : « في الحق أنتى لأعرف عن هذه الإجراءات الشكلية لإقلاق بحيث لا أستطيع الحدس بشأن الزمن أو الاستعداد اللازم . ولكنى أعتقد أن رسامته ستم في غضون شهرين أو ثلاثة . »

صاحت مسز جنجنز : « شهران أو ثلاثة ! رباها ! عزيزتي ، كيف تتحدثين عن هذا بهذا الهدوء ؟ هل في وسع الكولونيل أن ينتظر شهرين أو ثلاثة ! رحماك اللهم ! إن صبري يكاد ينفد ! ومهما سر الإنسان لإسداء بعض الجليل لإدوارد المسكين ، فإنه لا يجدر بالكولونيل الانتظار شهرين أو ثلاثة من أجله . من حقه أن يبحث عن آخر محل محله ، تمت رسامته من قبل . »

قالت إينور : « سيدتي العزيزة ماذا تفكرين فيه ؟ عجايب إن هدف كولونيل براندون الوحيد هو أن يسدى خدمة لمسترفير ارز . »

« بارك الله فيك يا عزيزتي ! لك لائق صديق أن تقنعيني بأن الكولونيل إنما يتزوجك من أجل إعطاء عشرة جنيهات لمسترفير ارز . »

لم يسكن من الممكن أن يستمر الخداع بعد ذلك ، فتم إيضاح الأمر في الحال وسرت كل منها بذلك سروراً كبيراً إلى حين ؛ دون أن يقلل ذلك من شعورهما بالسعادة ؛ لأن مسز جنجنز استبدلت سروراً بسرور دون أن تفقد الأمل في الأول .

وقالت مسز جنجنز ، بعد أن هدأت ثورة الدهشة والارتياح التي اعترضتها في البداية : « نم ، نم ، دار السكاهن صغيرة فعلاً ، ومن المحتمل جداً ألا تكون قابلة للترميم ، وليكن مما يدعو إلى السخرية حقاً أن أسمع رجلاً يعتذر — كما ظننت — من أجل بيت أعلم أنا أنه يشتمل على خمس غرفات للجلوس في الدور الأرضي ، وينفع كما قالت لي مديرة المنزل لخسة عشر سريراً . » ويعتذر أيضاً

لك أنتِ التي تعودت الإقامة في بارتون كوتيج ! ولكن يا عزيزتي يجب أن نبحث الكولونيل على إصلاح البيت وتوفير وسائل الراحة لها قبل أن تذهب لوسى إليه .

« ولكن الكولونيل لا يرى إطلاقاً أن دخل الأبرشية يسمح له مساً بالزواج . »

« إن الكولونيل رجل أبه يا عزيزتي ! الآن دخله ألعاجبية في العام يظن أنه لا يستطيع أى إنسان آخر أن يتزوج بأقل منه . صدقيني أنه إذا كان في الأجل بقية فسأزور أبرشية ديلافورد في عيد القديس ميخائيل . ولن أذهب إليها ما لم تكن لوسى فيها . »

وكانت إلبنور توافقها تماماً على رأيها بشأن احتمال عدم انتظارها لأكثر من ذلك الموعد .

الفضل المحادى والأزيفون

بعد أن قدم إدوارد شكره لسكولونيل براندون توجه إلى لوسى وهو يشعر بالسعادة ، وكان الشمور بهذه السعادة يضره عندما وصل إلى بارتلز بلدنج للدرجة أنها أكدت لمسز جننجز عندما زارتها في الغد مرة أخرى لتقدم لها تهانيا ، أنها لم تره مبهجا قط كما رأته في ذلك اليوم .

ولم يكن ثمة شك في شعورها بالسعادة والسرور ، وشاركت مسز جننجز من صميم فؤادها في توقعها أن يستقر بهما المقام في أبرشية ديلافورد قبل عيد القديس ميخائيل . ولم تحجم في الوقت نفسه عن أن تعزو إلى إلتينور من القفض ما يعزوه إدوارد إليها ، حتى تحدثت عن صداقتها لها بأخلص عبارات الشكر ولم تتردد في الاعتراف بامتنانها لها ، وقالت بصراحة إنها لن تدهش لأى مجهود تبذله مس داشوود لصالحهما سواء في الحاضر أو المستقبل ، لاعتقادها أنها تبذل قصارى جهدها في سبيل من تقدرهم في الواقع . أما فيما يتعلق بكولونيل براندون فلم تبد استمداها فحسب ، لأن تبده بوصفه قديسا ، بل أبدت حرصها الشديد أيضا على وجوب معاملته كذلك في جميع الشؤون الدنيوية ، وحرصها على ضرورة زيادة عشوره إلى الحد الأقصى ، وصممت في سرها على الانتفاع في ديلافورد ما استطاعت بخدمة ، وعربته ، وبقرة ، ودواجنه .

وكان قد مضى الآن أكثر من أسبوع منذ أن زارهن جون داشوود في بركلى ستريت ، ونظرا لأنهن لم يبدن أى اهتمام بمرض زوجته منذ ذلك الوقت (م ٣٣ - القتل والمطابقة)

إلا مرة واحدة سألت فيها عن صحتها شفويا ، فقد رأيت إليينور من الواجب أن تزورها . على أن هذا الواجب لم يكن يتعارض مع رغبتها فحسب بل إنه لم يلق أى تشجيع من إحدى صاحبتها ؛ فريان لم تكف برفض الزيارة رفضا باناما بل ألحت على أختها ألا تقوم بها إطلاقا ، ومسز جننجز التي كانت تضع دائما عريتها في خدمة إليينور ، كرهت مسز جون داشوود كراهية شديدة لدرجة أن تلهفها على رؤيتها بعد إذاعة النبأ الأخير ، ورغبتها الشديدة في إهانتها بالوقوف إلى جانب إدوارد ، لم يحملاها على مرافقة إليينور . وكانت النتيجة أن خرجت إليينور بمفردها لأداء الزيارة التي لم يكن أحد في الواقع أقل منها رغبة في أدائها والمجازفة بمحادثة امرأة لم يكن لدى أحد من الأسباب ما يحمله على كرها أكثر مما لدى إليينور .

وقيل لها : إن مسز داشوود غير موجودة ، ولكن زوجها خرج بطريق الصدفة ، قبل أن يقسنى للعربة أن تنصرف من المنزل ، فأعرب عن عظيم سروره بلقاء إليينور ، وأخبرها أنه كان يهتم منذ لحظة زيارة بركلي ستريت ، ثم دعاها إلى الدخول مؤكدا لها أن فاني سفسر برؤيتها .

وصعدا الدرج ، ودخلا حجرة الاستقبال - ولم يكن فيها أحد .

وقال : أظن أن فاني في حجرتها . سأذهب إليها حالا ، لأنى واثق أنه لن يكون لديها أدنى مانع من رؤيتك أنت ، حاشاها من ذلك . والآن بصفة

خاصة لا يمكن أن يسكون . على أنها كانت تحبك أنت ومريان دائما . لماذا
أبنت مريان أن تحضر ؟ »

والتمست لها إلي نور ، اوسمهها من الأعدار .

فأجاب : « إننى غير آسف لأنى رأيتك ، فأنا أحب أن أقول لك الشئ
الكثير . هذه الأبرشية الخاصة بكولونيل براندون — أصبح هذا ؟ هل وهبها
لإدوارد حقا ؟ لقد سمعت ذلك أمس بمحض الصدفة ، وهممت بزيارتك لأعرف
المزيد عن هذا الأمر » .

« صحيح تماما ، لقد وهب كولونيل براندون أبرشية ديلافورد
لإدوارد . »

« صحيح ! إنه لأمر يدعو إلى الدهشة ! لاقربة الاصلة بينهما ! وفي
الوقت الذى تجلب فيه الأبرشيات مثل هذا الإيراد ا كم يبلغ قدره ؟
» « حوالى مائتى جنيه ، فى العام » .

« جميل جداً ؟ إننى أؤكد أنه كان فى وسعه أن يحصل على ألف
وأربعمائة جنيه فى مقابل تعيين أحد الأشخاص فى أبرشية تغل مثل هذا
الربع ، مكان القسيس الأخير إذا كان هذا القسيس قد طعن فى السن وأصبح
مریضا بحيث يحتمل أن يتخلى عن هذه الوظيفة قريبا . ولماذا لم يقرر هذا
الأمر قبل موت هذا الشخص ؟ لقد فات الآن فى الواقع أوان ييهما ، ولكن
عجبا ، لرجل عاقل مثل كولونيل براندون ! إننى أعجب كيف لا يتبصر فى العواقب
فى أمر عادى طبيعى كهذا الأمر ! نعم أعتقد أن كل إنسان لا يتخلو من

التناقض . على أنى أظن - بعد إيمان النظر - أن الأمر يحتمل أن يكون هكذا:
أن يتقلد إدوارد الأبرشية حتى يكبر الشخص الذى باع له الكولونيل الوظيفة
بالفعل - نعم ، نعم - حتى أن هذه هى الحقيقة » .

ولكن إليور نفت ذلك بلهجة فاطمة ، وأفهمته أنها كانت هى الواسطة فى
إبلاغ العرض من الكولونيل إلى إدوارد ، ولذلك فهم الشروط التى تم
بها ، فاضطر أن يذعن لقولها .

فصاح قائلاً ، بعد أن سمع ماقالته : « إن الأمر فى الواقع يدعو إلى الدهشة .
وما الدافع الذى حدا بالكولونيل إلى ذلك ' »

« أمر بسيط جداً ، هو خدمة مستر فيرارز » .

« جميل ، جميل ! مهما يكن كولونيل براندون ، فإن إدوارد رجل حسن
الحظ جداً ! أرجو مع ذلك ألا تذكرى الأمر لقانى لأنها لا تحب أن تلوكم
الأسننة كثيراً ، على الرغم من أنى تطلقت فى إبلاغها إياه واحتملت سماعه
بصبر وجلد » .

وهذا لم تجرد إليور مندوحة عن القول بأنها تعتقد أن قانى لن يسوءها أن
يفتقر أخوها بثروة ، مادامت هذه الثروة لا تنتقص من مالها هى أو مال ابنها .

فأضاف ، وقد خفض صوته إلى الحد الذى يتناسب مع أهمية الموضوع : « مسز
فيرلزز لإتلم شيئاً عن هذا الموضوع فى الوقت الراهن . وأعتقد أنه يحسن أنمانه

عنها أطول مدة ممكنة . وعندما يتم الزواج ، فإننى أخشى أنها لا بد أن تفعل على سقطة الأمر .

ولكن ما الذى إلى اتخاذ مثل هذه الحيطة ؟ إذا لم يكن من المحصل أن تشعر مسز فيرارز بأدنى ارتياح حين تعلم أن ابنتها لديه من المال ما يكفيه — لأن ذلك أمر مستحيل — فلماذا يظن — بعد مسلكها الأخير — أنها تشعر نحوه بأى شيء على الإطلاق ؟ لقد قطعت كل صلة بابنتها ، ونبذته إلى الأبد ، وحملت كل من لما نفوذ لديه على نبذته كذلك . ومن المؤكد أنه بعد أن فعلت ذلك لا يمكن لأحد أن يتصور أنها تخزن أو تفرح من أجله — لا يمكن أن تهتم بأى شيء يصيبه — ولن يصل بها الضعف إلى الحد الذى تنبذ فيه راحة الأبن ، ثم تحتفظ بقلق الأم ؟

فقال : « آه ! إليز . إن تفكيرك منطقي جدا ، ولكنه مبنى على الجهل بالطبيعة البشرية . تمى أنه عندما يتم زواج إدوارد ، غير للوقوف فإن أمه ستسنى أبداً أن إدوارد ابنتها .

« إننى لأدهش لما تقول . فأننا أعتقد أنها ستكون قد نسيت ذلك تقريبا عندما يتم هذا الزواج .

« إنك تطليبتها كثيراً ، فإن مسز فيرارز من أكثر الأمهات فى العالم حبا لأجانبها .

فسكتت إليزور .

وقال مستردا شوود بعد أن سكت فترة قصيرة :

« نحن نفكر الآن في زواج روبرت من مس مورتو » .
وابتسمت إينور لهجة الرزينة القاطمة التي تكلم بها أخوها وأجابت في
هدوء :

« أظن أن هذه السيدة ليس لها خيار في الأمر » .

« خيار ! ماذا تعنين ؟ »

« أعني فقط أنني فهمت من لهجة كلامك أنه سواء على مس مورتو
أ تزوجت إدوارد أم روبرت » .

« حقا ، لا يمكن أن يكون ثمة فرق ، لأن روبرت يعتبر الآن هو الابن
الأكبر من كافة الوجوه . وفيما عدا ذلك كلاهما شاب لطيف مقبول . ولا أعلم
أن أحدهما يفوق الآخر » .

فلم تزد إينور على ذلك ، ثم سكت سرجون كذلك برهة قصيرة . وأنهى
تفكيره على النحو الآتي :

تناول يدها برفق وتكلم في همس رهيب قائلاً : « شيء واحد في وسعي
أن أؤكد يا أختي العزيزة ، أؤكد له أنني أعلم أنه لا بد أن يسرك . لدى من
الأسباب ما يحتملني على الاعتقاد - - - الواقع أنني علمت ذلك من أوثق المصادر ،
وإلا لما رددته ، لأنه لو كان بخلاف ذلك لكان من أكبر الخطأ أن أقول
عنه حرفاً - ولكنني استقيته من أوثق المصادر - ليس معنى ذلك أنني سمعته على
وجه الدقة من مسز فيرارز ولكن بنتها تحدثت عنه ومنها علمته -

وغواه بما يحاز أنه مهما يسكن من اعتراض على زواج - زواج معين - أنت
تفهمين قصدى - فإن هذا الزواج كان أحب إليها بكثير - وما كان ليسبب
لها نصف ما سببه هذا الزواج من ألم وكدر . لقد سررت بالغ السرور حين سمعت
مسز فيرارز تنظر إليه هذه النظرة - وهو كما تعلمين أمر بسرنا جميعا . قالت :
« لو أن هذا الزواج تم لما كان تمت وجه للمقارنة - على الأقل يمد أخف الضررين
ويسرها أن توافق عاينه الآن باعتباره ليس أسوأ من غيره » . ولكن ذلك
كله مستحيل - لا يمكن التفكير فيه أو ذكره - فأنت تعلمين أن الزواج - لا يمكن
أن يتم أبدا - كل ذلك قد مضى واهضى والسكنى رأيت أن أذكر لك ذلك لأننى
عرفت أنه يسرك لا لمحالة ، ولا يمزك يا عزيزتى إيتور . فلا شك أنك ستوقنين
إلى الزواج من رجل صالح ، وربما كان خيرا منه إذا نظرنا إلى جميع الاعتبارات .
هل اجتمعت بكولونيل براندون أخيراً ؟ »

وكان ماسمته إيتور يسكنى لأن يثير أعصابها ويشغل فؤادها إن لم يرض
غروورها ، ويزيد من كبريائها . ولذلك سررت كثيراً عندما دخل مستر روبرت
فيرارز إذ أعفاهها من الرد على أخيها وسامع للزبد منه ، وتذكر جون داشوود بعد
حديث استغرق بضع دقائق أن فانى لم تعلم بوجود أخته ، فقاد الحجر ليبحث
عنها ، وترك إيتور لتزداد معرفة روبرت الذى عزز رأياها السيء فى ليه وقلبه
باستهتاره للرح وغرووره ، وزهوه بما غرته به أمه - - بغير حق - من حب
وكرم للإضرار بأخيه المنبوذ ، وهو أمر ظفر به بسبب إسرافه وانغماسه فى اللذات
واستقامة أخيه .

ولم تسكد تمض دقيقتان على جلوسها معا حتى أخذ يتحدث عن إدوارد ، لأنه هو أيضا سمع عن الأبرشية ، وطلب مزيداً من المعلومات عن الموضوع ، فرددت إليور على مسامحه ماذكرته لجون من تفاصيل . وكان أثرها في نفس روبرت لا يقل عنه في نفس جون ، وإن اختلف كثيراً ، فقد أعرق في الضحك عندما علم أن أدوارد سيكون قسيما وسيقيم في منزل صنير بالإبرشية ، ولم يرما هو ادعى إلى السخرية من تخيل إدوارد وهو يتلو الصلوات في حلة كهنوتية ويمان قصد الزواج بين جون سميث ومارى بروان .

وبينا كانت إليور تنتظر انتهاء هذه الحفلة ، وهي صامتة ساهرة الوجه لا تبدي حراكا لمسمعها إلا أن ترمقه بنظرة ملؤها الاحتقار ، ولكنها كانت نظرة سديدة لأنها فرجت من همومها دون أن يفهم هو منها شيئاً . بيد أنه ارعوى عن السخرية إلى الحكمة بإحساسه المرهف لأبأى توبيخ منها .

وأخيراً قال ، بعد أن كف عن الضحك المصطنع الذى أطال فترة المرح في تلك اللحظة : في وسمننا أن نعد الأمر مجرد نكتة ، ولعمري إنه لمن أخطر الأمور . مسكين أدوارد ! لقد أفلس إلى الأبد . إننى أرئى له كثيراً - لآنى أعرف أنه إنسان طيب القلب سليم الطوية ربما لا يقل في ذلك عن أى إنسان آخر في العالم . يجب ألا نتحكى عليه يامس داشوود من تلك للعرفة البسيطة - مسكين إدوارد إن أخلاقه ليست بالتأكيد أرضى الأخلاق - ولكننا جميعا لم نوهب ملكات ولا قوى واحدة - ولا طريقة واحدة في الحديث - وأسفاه عايه ! حينما أراه يعمش بين زمرة الغرباء ! - لاشك أنه أمر يدعو إلى الرثاء ! - واسكنى أقسم أنه من أطيب الناس قلبا في هذه للملكة ، وأصرح بل أوكد لك أنتى لم

أصعق في حياتي كما صعقت عندما علمت بهذا الأمر - لم أستطع أن أصدقه - كانت أمي أول من أخبرني به ورأيت أن الواجب يدعوني إلى التصرف بحزم وعزم فقلت لها في الحال : « سيدتي العزيزة ! لا أدري ماذا تريدن أن تفعل في هذا الموقف . أما أنا فأرى لزاماً علي أن أقول : إن أدوارد إذا تزوج هذه الفتاة فلن أراه بعد اليوم مرة أخرى . » هذا ماقلته من فوري . لقد صعقت إلى أقصى حد بحق ! مسكين إدوارد ! لقد جنى على نفسه تماماً وحرم نفسه من كل مجتمع كريم ! ولكني - كما قلت لأمي على الفور - لا أشعر بأدنى دهشة لهذا الأمر فقد كنت أتوقمه دائماً بسبب نوع التعليم الذي تلقاه . لقد كادت أمي يمن جنونها .

« هل رأيت السيدة قط ؟ »

« نعم ، ذات مرة ، بينما كانت تقيم في هذا المنزل حضرت على غير انتظار ومكنت عشر دقائق وعرفت عنها الكثير ، فهي مجرد فتاة ريفية خرقاء مجردة من الأناقة والرشاقة ، تكاد تخلو من الجمال . إنني أكرها جيداً ، وهي من ذلك الطراز من الفتيات الذي يستهوى إدوارد المسكين . وقد اقترحت في الحال حينها قصت على أمي الخبر أن أحدث إليه بنفسى وأصرفه عن الزواج ، ولكن الأوان كان قد فات حينئذ ، فلم يكن في وسعي أن أعمل أى شيء ، إذ لم أعلم بالأمر منذ البداية أسوء الحظ ، ولم أعلم به إلا بعد أن حدثت القطعية ، ولم يكن من شأني حينئذ أن أتدخل كما تعلمين . ولو أني علمت به قبل ذلك ببضع ساعات لكان من المحتمل كثيراً أن أهتدي إلى حل كان من المؤكد أن أفجع إدوارد بجمع أقوى كأن أقول له : « تدبري أخى العزيز ما أنت فاعل . أنت مقبل على زواج يحلب العار والشنار ، زواج تستكركه أمركت بالإجماع . » وبالاختصار لايسمى إلا أن أقول : إننا ما كنا لنلتم وسيلة لإقناعه .

ولكن لقد فات الأوان الآن . لا بد أن يموت جوعا كما تملين . هذا أمر لا ريب فيه ، يموت جوعا بلا شك . »

وما أن انتهى من هذه الكلمة التي قالها بهدوء كبير حتى دخلت مسزجون داشوود ، فوضعت حدا للكلام في هذا الموضوع . ومع أنها لم تتحدث عن هذا الأمر قط . إلى أحد من غير أهلها ، فقد استطاعت إيلينور أن ترى تأثيره في نفسها ، تأثيراً يتجلى في الاضطراب الذي بدا على وجهها عند دخولها ، وفي محاولة التودد إليها ، بل لقد زادت على ذلك إلى حد أنها أعربت عن قلقها لما بلننها عن مفارقة إيلينور ومريان للندن عما قريب ، لأنها كانت ترجو أن تقابلها مرة أخرى ، ورأى - في ذلك - زوجها الذي رافقها عند دخولها الحجرة ، وأصغى إلى كلامها بشغف ، أعظم مظاهر الحب والالطف .

وكانت نهاية اللقاء بين الأخ وأخته في لندن ، زيارة أخرى قصيرة قامت بها إليانور إلى هارلي ستريت تلت في أنفائها نهاية أخوها بسفرهما وأختها نحو بارتون ، دون أن تتكبد شيئاً من نفقات السفر حتى الآن ، وتهانیه لها بالقتاء كولونيل براندون أنهما بعد يوم أو يومين . وكان كل ما ينبغي باحتمال أي لقاء بينهما في الربيف هو دعوة ترة من فاني لزيارة نورلاند كلما سرت إليانور بها في طريقها . وهو أمر يعد أبعد الأشياء احتمالاً - وتأكيذاً حاراً من أخيها ، وإن لم يكن بصفة علنية - بأنه سيوزورها في ديلافورد وشيكا .

ومما يبعث على التسلية أنها لاحظت أن جميع أصدقائها مصممون على إرسالها إلى ديلافورد ، وهي آخر مكان كانت في ذلك الوقت تفكر في زيارته أو ترغب في الإقامة فيه . فكان أخوها ووسز جننجز يمدان هذا للسكان منزلها للمستقبل ، بل إن لوسي دعتهما بالحاح عند الوداع إلى زيارتها فيها .

وفي أوائل شهر أبريل وفي ساعة مبكرة من النهار ، سافر أهل « هانوفر سكوير » و « بركلي ستريت » من منازلهم ، والتقوا على الطريق بناء على موعد سابق ، وانفقوا حرصاً على راحة شارلوت وابنها أن تستغرق الرحلة أكثر من يومين وأن يسرع مستر بلير بالسفر مع كولونيل براندون بحيث يلحقان بهم في كليفلاند عقب وصولهم بقايل .

وعلى الرغم من أن مريان لم تنعم براحة البال في لندن إلا ساعات قليلة ،

وعلى الرغم من أنها ظلت تتوق كثيراً إلى مفادرتها ، فإنها حين أزلت ساعة الرحيل لم تستطع - دون أن تشعر بلوعة الأسى - أن تودع البيت الذى نمت فيه للمرة الأخيرة بما علقته على ولبى من آمال ، وما أولته من ثقة ، وما الأسران اللذان ذهبا الآن هباء منشوراً إلى الأبد ، كما أنهم لم تستطع - دون أن تذرف ماء الشون - أن تفارق للسكان الذى أقام فيه ولبى ، وهو مشغول بمواهبه الجديدة ومشروطاته الجديدة .

وكانت إينورا أكثر منه ارتياحاً عند ساعة الفراق . لم يكن لديها ما يشغل ذهنها . ولم تخلف وراءها مخلوقاً تأسف لحظة واحدة على فراقه إلى الأبد ، بل كانت تشعر بالسرور لأنها تخلصت من نعمة صداقة لوسى وتحمد الله لأنها خرجت بأختها من لندن ، دون أن ترى ولبى منذ زواجه ، وكانت تأمل أن تسترد أختها راحة البال ، وأن تنعم هى بالمزيد منها بعد شهور قلانل تقضيها فى بارتون .

وقد تمت الرحلة بسلام ، فوصلوا فى اليوم الثانى إلى مقاطعة سمرست التى كانت سريان تراها تارة محبوبة ، وتارة محرمة . ووصلوا إلى كليفلاند فى صباح اليوم الثالث .

وكانت كليفلاند داراً فسيحة مبنية على الطراز الحديث تقع فى سروج منحدر . ولم يكن بها حديقة ، ولكن فناءها كان واسماً إلى حد لا بأس به . وكانت الأشجار تتخللها كأى دار أخرى تضارعها فى الأهمية ، وفيها عشب من الشجيرات المتضاربة ، وطريق مفروش بالحصى يلف حول مزرعة ، ويؤدى إلى واجهة الدار . وكانت المروج تتخللها الأشجار ، والدار ذاتها تكتنفها

أشجار الشربين والإجاص والسنت التي يتخللها شجر الحور ، فصحب مرافقه الدار وملحقتها .

ودخلت مريان الدار بقلب يفيض بالتأثر لملها أنها تبعد عن بارتون ثمانين ميلا فقط لاثلاثين ميلا من كومب ماجنا ، ثم خرجت منها قبل أن تقضى بين جدرانها خمس دقائق ، بينما شغل الآخرون بمساعدة شارلوت على تسليم ابنتها لمديرة المنزل ، وتسلات من خلال الشجيرات المتعرجة التي أخذت تلبس حلة الجمال في ذلك الوقت وتمد فروعها إلى مسافة بعيدة ، وجالت بعينها من اللبند الإغريقي ، في رقعة فسيحة من الإقليم إلى الجنوب الشرق ، ثم استقر بصرها على حافة التلال البعيدة التي تترامى في الأفق ، وخيل إليها أنها تستطيع مشاهدة كومب ماجنا من قم هذه التلال .

وفي مثل هذه اللحظات التي عانت فيها لوعة الأسمى ، فرحت - وهي تذرف دموع الألم - لوجودها في كليفلاند . وعندما عادت إلى المنزل من طريق آخر ، وهي تشر بنعمة الحرية في الريف - حرية التجول من مكان إلى آخر في عزلة مطلقة ترفه عن النفس ، قررت أن تقضى معظم ساعات النهار في التمتع بهنم الجولات المنفردة طوال إقامتها مع آل بلر .

وعادت في الوقت المناسب لتلحق ، بالأخريات وهم ينادون للمنزل للقيام بجولة تفقد للبانى للملحقة به ، وقضين بقية ساعات الصباح في تفقد حديقة الطبخ ، وخص الأزهار للتهلة على جدرانها ، والاستماع إلى حشرات البستاني على الآلات الزراعية - وفي تفقد بيت النبات حيث ضحكت شارلوت للطفه

نباتاتها المحبوبة بسبب الإهمال في وقايتها من المؤثرات الجوية ، وطول مدة الصقيع الذى أدى إلى وقف نموها - وفى تفقد حظيرة الدواجن حيث وجدت أوانا جديدة من القسلبية فيما أعربت عنه الحلابة من خيبة الأمل بسبب هجر الدجاج لأكفانها ، وسرقة الثعالب لها وسرعة تدفص فراخها الصغيرة .

وكان الطقس فى الصباح جميلا وجافا ، ولم تقدر مريان فى الخطة التى وضعتها لتنزه خارج المنزل أن الطقس سيطرأ عليه أى تغيير خلال إقامتها فى كليفلاند ، ولذلك دهشت كثيرا عندما حال المطر الغزير للتواصل دون خروجها بعد الغداء . وكانت تأمل أن تقوم بجولة وقت الغسق إلى المبد الإغريق وربما فى المنطقة كلها ، ولو كان الجو فى المساء بارداً أو رطباً نجس ، لامتدتها ذلك من هذه الجولة ولكنها رأت أن المطر الغزير المتصل لا يبهي الجو الجاف اللطيف الذى يصلح للترفيه .

وكن زمرة قليلة العدد فرت الساعات فى هدوء . وكانت مسز بالمر تحمل ابنها ومسز جينجيز ، شغل ٩-جاء ، وتحدثن عن خلفن وزامن من لأصدقاء ، ونظمن مواعيد ليدى ميدلتون وآسامان هل يستطيع سنر - مار وكوله نيل براندون أن يتجاوزوا فى سفرهما ريدج فى تلك الليلة؟ واشتركت إيلينور فى الحديث ، وإن كان لا يعنىها كثيرا . ولكن مريان التى كانت تعرف ببراعة كيف تتلس طريقها إلى المكتبة فى كل بيت تحمل فيه - مهما بلغ من تجنب الأسرة لاستعمالها بوجه عام - لم تلبث أن أخذت كذا بالقرأه .

ولم تدخر مسز بالمر جهداً فى إظهار ما أمكن من الود والبشاشة حتى تشرهن بحسن الحفارة وكان ما أظهرته من الصراحة والودية يسكفر عن ضعف

ذاكرتها وقلة ظرفها وكياستها مما حال كثيراً دون مراعاتها أصول الجملة . وكانت رقة قلبها ، التي تزينها ملاحظة وجهها ، تأسر القلوب . وكانت حماقتها - مع وسع البتور لا تدعو إلى الاشمزاز ، لأنها لم تسكن مقرونة بالفرور . وكان في ظهورها - أن تغفر لها كل عيوبها لولا ضحكاتها .

ووصل الرجلان في الفد بمد موعد الفداء بسكثير ، فزادا من عدد الجماعة وسرورهم ، كما ساعد حضورهما على تنوع الحديث الذي خفض هطول المطر طول الصباح من أصواتهم فيه .

ولم تر إليتور - مستر بالمر إلا قليلا ، وفي خلال هذه الفترة القليلة أتت لها أن تلاحظ تغيرا كبيرا في حديثه . معها ومع أختها بحيث لم تدر ما ذا ينتظر أن يكون سلوكه مع أسرته . بيد أنها وجدته مثل الرجل المهذب في معاملته لجميع زواره ولا يبدي التقاظة لزوجته وأنها إلا أحيانا ، كما وجدت لديه الاستعداد للطف المباشرة ، وكل ما ينتمه من إظهار ذلك على الدوام ، هو شعوره بأنه أرفع مقاما من الناس عموما ، وشعوره - وبلا ريب - بأنه أرفع مقاما من مسز جننجز وشارلوت . أما فيما عدا ذلك من الأخلاق والمادات ، فلم تلاحظ إليتور عليه شيئا يخالف المألوف في بني جنسه وفي مثل سنه . كان يتأنق في طعامه ، ولا يراعى الدقة في مواعيده ، ومحب ابنه وإن تظاهر باحتقاره ، ويزجى وقته صباح كل يوم في لعب البليارد ، وهو ما كان ينبغي أن يقضيه في العمل . على أنها أجبته بوجه عام ، أكثر مما توقعت ، ولأنأسف . في قراره نفسها على أنها لم تستطع أن تحبه أكثر من ذلك - لأنأسف أن يحملها تأهه في الطعام وأنانيته وغزوره على

الشمور بالرضا والارتياح عندما تذكر ما يتصف به إدوارد من ساحة الطبع
والزهد والحياء .

وقد حدثها كولونيل براندون - الذي سافر إلى دورسششاير أخيراً - عن
بعض شئونه . وكان كولونيل براندون يدها صديقة مستر فيرارز المنزهة عن
الفرس ، كما يدها أمينة سره هو في الوقت نفسه ، فحدث إليها كثيراً عن
أبرشية ديلافورد ووصف لها عيوبها ، وأخبرها بما ينوي أن يعمله لإزالتها . وكان
تصرفه معها في هذا وفي كل شأن آخر ، وسروره بلقاها بعد غيبة لم تتجاوز عشرة
أيام ، وإقباله على التحدث معها ، وإحترامه لرأيها ، مما يبرر اقتناع
مسز جننجز بحبه لها ، وربما كان هذا يكفي لأن تلاحظ هي هذا الحب لولا أنها
كانت لاتزال حتى هذه اللحظة تمتد كما اعتقدت منذ البداية أن مريان هي
محبوبته الحقيقية . ولكن الواقع أن هذه الفكرة ما كانت لتدور بظنها لولا
أن مسز جننجز هي التي أوحىها ، ولم يسمها ألا تلاحظ أنها هي أدق الاثنتين .
ملاحظة ، إذ كانت ترقب نظرات عينيه ، بينما مسز جننجز لاتفكر إلا في
سلوكه . وفي حين أن هذه السيدة قائنا أن تلاحظ ما يبديه من نظرات القلق لما
شمرت به مريان في رأسها وحلقها من بوادر نزلة برد شديدة ، لأنه لم يعبر عن
هذا القلق بالكلام ، استطاعت هي أن تلاحظ في هذه النظرات ما يشعر به
الحب من ذعر واشفاق لامبرر لهما .

وكانت مريان قد قامت بنزهة ممتعة وقت الفسق في مساء اليوم الثالث .
والرابع من وجودها هناك لاهي الطريق الجلف للقروش بالحصباء بين الأشجار
مخسب ، بل في جميع أماكن النزهة ، ولا سيما في أجزائها المتطرفة التي كانت

مقفرة أكثر من الأجزاء الأخرى ، والتي كانت حافلة بأقدم الأشجار وأطول
الأعشاب ، وأكثرها مللا ، فأدى ذلك — بالإضافة إلى ما ارتكبته من حماقة
أعظم وهو الجلوس في حذاءها وجواربها المبتلة — إلى إصابتها بركام شديد
أثار قلق الجميع . كما أثار اهتمامها بسبب ما أحدثته من مضاعفات ، مع آسها
ظلت يوما أو يومين تستهين به وتتكبره . فأنهالت عليها الوصفات الطيبة من كل
جانب ، ورفضها جميعا كما هي المادة . ومع آسها كانت تشعر بالسكابة والحى
ووجع الأطراف وتشكو من السعال والأنهال الحلق ، فقد كان إخلادها إلى الراحة
النائمة ليلة واحدة هو السبيل لشفائها . وقد استطاعت إلبينور بصوبة أن تقنعها
عند ما أوت إلى الفراش أن تتناول دواء أو اثنين من أبسط الأدوية .

الفصل الثالث والأربعون

استيقظت مريان صباح غد في موعدها للمتاد وأجابت على كل استفسار بأنها أحسن حالا ، وحاولت أن تثبت ذلك بأنها كفا في أعمالها للمتادة . ولكن يوماً تفضيه جالسة وهي ترتش أمام اللدفاة ، ويدها كتاب لا تستطيع قراءته أو ترقد على الأريكة وهي متعبة واهنة القوى ، لا يدل كثيراً على تحسن صحتها وعندما بكرت بالنوم أخيراً بعد أن ازدادت توقعاً لم يسع كولونيل براندون إلا أن يدهش لرباطة جاش أختها التي كانت تتق كريان بفائدة النوم وتأثيره ، ولا تشمر بأذى خوف مع أنها كانت تلازم مريان وتمرضها طوال اليوم رغم أنها وتكرهها على تناول الأدوية أثناء الليل .

ولكنها قضت ليلة عانت فيها آلام الأرق والحى ، فأخلفت ظنهما . وعندما اعترفت مريان بعجزها عن السهر بعد إذ أصرت على هجر الرقاد وعادت بمحض لإرادتها إلى الفراش ، بادرت إليثور إلى الأخذ بنصيحة مسز جينجز التي أشارت باستدعاء طبيب أكل بالمر .

فحضر وفحص المريضة ، وطمأن مس داشوود بأن أختها ستقبل من مرضها بعد بضعة أيام إلا أنه عندما صرح بأنها تحمل أعراض الحى العفنة ، وتلفظ بكلمة « العدرى » ذعرت مسز بالمر ، وخشيت على ابنها في الحال . وكانت مسز جينجز تميل منذ البداية إلى الاعتقاد بأن مرض مريان أخطر مما تظن إليثور ، فلما سمعت كلام مستر هاريس بدا عليها القلق ، وأيدت شارلوت في خوفها

وحذرهما ، فرأت وجوب انتقالها في الحال هي وابنها من البيت . ولم يعارض
مستر بالرغم من أبعده زوجه من قلق وبلجاجة ، وإن رأى أن مخاوفها ضرب من
المراء ، فاستقر الرأي على رحيلها من البيت ، ففادرت بعد قدوم مستر هاريس
بساعة ، مع ابنا الرضيع وممرضته إلى منزل أحد أقارب مستر بالر على الجانب
الأخر من باث ووعد زوجها - بناء على إلحاحها - أن يلحق بها بعد يوم أو يومين ،
وألحت على أمها أن ترافقها أيضا . ولكن مسز جنتنجز أظهرت من العطف والبر
ماضاعف من حب إينور لها ، فأعلنت عزمها على عدم الانتقال من البيت .
مادامت مريان مريضة ، وأنها ستحاول أن تعوضها عن حنان الأم التي أخذتها
هي منها . وكانت إينور تجد في مسز جنتنجز خير معين لها في كل مناسبة ،
وتأنس منها الرغبة في مشاركتها في كل متاعها ، كما كانت تفيد من خبرتها
في التمريض .

ولم يعد في وسع مريان المسكينة أن ترجو الشفاء في غدها ، لما كانت تشرم
به من ضعف ووهن يرجعان إلى طبيعية المرض الذي أصابها أو من ألم يسرى
في جميع أعضائها . وحينما فكرت فيما كان يأتي به الغد لولا هذا المرض للنكود
اشتد عليها المرض ، إذ كان من المقرر أن يبدأ سفرها إلى منزلها في ذلك اليوم ،
وأن تقاينا أهمها في صباح الغد يرافقهما خادم مسز جنتنجز طول الطريق .
وكانت السكالات القليلة التي تفوهت بها تفيض بالأسف على هذا التأخير الذي
لا مفر منه ، وإن حاولت إينور أن تشجعها وتوهمها - كما تعتقد حينئذ بالفعل -
أن هذا التأخير لن يطول أمره كثيرا .

وجاء الغد دون أن يطرأ تغير يذكر على حالة المريضة . والواقع أنها لم تكن

أحسن حالا ، كما أنها لم تبد أسوأ حالا على الرغم من أنه لم يطرأ على صحتها أى تغيير . ثم قل الآن عدد أصحابهما لأن كولونيل براندون أقع أخيراً مستر بلر بضرورة زيارة زوجته وفاء بوعدهما ، على الرغم من عدم رغبته في ذلك ورجع ذلك إلى شفقتة وكرم أخلاقه كما يرجع إلى كراهته أن يظهر بمظهر الخائف من زوجته . وبينما كان يتهيأ للخروج بدأ كولونيل براندون يلح في الانصراف هو أيضاً . ولكن مسز جننجز تدخلت وأبدت من مظاهر العطف والبر ما يبعث على الرضا ، لأنها رأت أن انصراف الكولونيل في الوقت الذى تشعر فيه بحبوبته بالقلق على أختها ، ممتناه حرمانها معا من أسباب العزاء والسوان ، فأخبرته من فورها أنها لا تستغنى عن إقامته في كليفلاند لأنها تريد أن يلعب معا لعبة الاثنتين والثلاثين في المساء أثناء قيام مس داشوود بمراقبة أختها في الطبقة العليا الخ وناشدته البقاء بإلحاح ، فلم يعد في وسعه . وقد أيقن أنه باستجابته لطلبها إنما يستجيب لأحب الأمانى إلى قلبه - أن يتظاهر بالرفض لاسيا وأن مسز جننجز لقيت تأييداً قويا من مستر بلر الذى شعر بالارتياح لأنه سيترك وراءه رجلا يستطيع أن يمدد اشوود بالمساعدة أو المشورة عند الضرورة .

وبالطبع أخفيت كل هذه الأمور عن مريان ، فلم تعلم أنها هى السبب في إخراج أهل كليفلاند من دارم بعد قدومهم بنحو سبعة أيام ، ولم تدش قط لعدم رؤية مستر بلر ولا اهتمت برؤيتها قط ، ولذلك لم تسأل عنها .

ومر يومان على رحيل مستر بلر ، واستمرت حال مريان على ما هى عليه مع تفسير طفيف ، وكان مستر هاريس الذى عاد كل يوم لا يزال يأمل في الشفاء العاجل ، وتقاعدت مس داشوود كذلك ، ولكن غيرها لم يشعر بمثل هذا

التفاوض ، إذ أصرت مسز جننجز على اعتقادها بأن مريان لن تشفى من هذا المرض ، ولم يجد كولونيل براندون الذى أصغى إلى مخاوف مسز جننجز مندوحة عن مشاركتها فى ذلك ، وحاول أن يزيل من نفسه هذه المخاوف التى وضعها الطيب بأنها ضرب من الهراء . ولكنه كان يفتح إلى التناؤم فى الساعات الكثرية التى يخلو فيها إلى نفسه كل يوم . ولم يستطع أن يطرد من ذهنه الاعتقاد بأنه لن يرى مريان بعد اليوم .

على أنه فى صباح اليوم الثالث تبددت مخاوف الاثنين أو كادت ، إذ صرح مستر هاريس عند وصوله أن للريضة تماثلت للشفاء ، فقد قوى نبضها ، وظهر عليها أعراض التحسن أكثر مما يظهر فى الزيارة السابقة ، فبدأ السرور على وجه مريان التى أيد الطيب تفاؤلها ، وفرحت لأنها أعربت فى الخطابات التى أرسلتها لوالسما عن رأيها هى لا عن رأى صديقتها فهونت من المرض الذى أخرها! فى كايغلاندا ، وحدثت بالتقريب الموعد الذى يقضى فيه لمريان أن تقوم بالسفر .

ولكن نهاية اليوم لم تكن سميدة كبدايته ، فقد عاود المرض مريان فى المساء ، فاشتد بها الكرب والقلق والتعب أكثر من ذى قبل ، غير أن أختها ظلت متفائلة ، ولم تمز هذا التنوير إلا إلى التعب الذى حل بها عندما جلست حتى يتم إعداد فراشها ، وحرصت على إعطائها الأدوية للنمشة التى وصفها الطيب ، وخالجها الارتياح عندما رأتها تستغرق أخيراً فى النوم الذى توقعت أن يعود عليها بأعظم فائدة . وظلت مريان نائمة مدة طويلة وإن لم يكن نومها هادئاً كما تمت إلى نور . وحرصت هذه على ملاحظة أثره بنفسها ، فجلست معها خلال نومها كله ولم تعلم مسز جننجز بأى تغيير فى حالة للريضة ، فبكرت بالنوم على

غير عادتها . وكانت خادمتهما - وهي من كبار الممرضات - تستجم في حجرة
مديرة اللؤلؤ ، فبقيت إلبنور وحدها مع مريان .

وازدادت هذه اضطرابا وانزعاجا في رقادها ، وكانت أختها تلاحظ بعين
ساهرة قلبها تستمر على الفراش ، وتأوهاها للتكررة التي تخرج من شفتيها ،
فهمت بإيقاظها من ذلك الرقاد الأليم ، وإذا بمريان تستيقظ فجأة على صوت
في البيت ، فهضت مسرعة ، وصاحت في هياج المحموم :

« هل حضرت ماما ؟ »

فأجابت أختها وهي تكتم فزعها ، وتساعد مريان على الرقاد مرة أخرى :
« ولكن أرجو أن نحضر هنا بعد قليل . فالطريق طويل كما تعلمين من هنا
إلى بارتون » .

وصاحت مريان بنفس الهمجة السريعة : « لن أراها أبداً إذا ذهبت إلى
لندن » .

وردت إلبنور وقد اعترأها الفزع أن أختها ليست في حالتها الطبيعية ،
فأقبلت على جس نبضها ، وهي تحاول أن تهديء من روعها . فلاحظت أنه
أكثر هبوطا ، وأشد سرعة مما كان عليه من قبل ! وظلت مريان تهديء باسم أمها
فاحصوذا الفزع على إلبنور ، وصممت أن تستدعي مستر هاريس في الحال ، وتبعث
رسولا إلى بارتون لإحضار أمها . وخطر لها مباشرة بعد أن صممت على ذلك أن
تستشير كولونيل براندون في أمثل طريقة لتنفيذ الأمر الأخير . وما أن استدعت

:الخادمة لتجلس مكانها بجانب أختها، حتى أُسرعت بالنزول إلى حجرة الاستقبال وكانت تعلم أنه يظل فيها عادة إلى ما بعد الساعات التي تزلت فيها وقتئذ .

لم يكن الوقت يسمح بالتردد ، فبسطت له مخاوفها ومشاكلها من فورها . أما مخاوفها فلم يكن لديه من الشجاعة أو الثقة ما يمكنه من إزالتها - بل اكتفى بأن أصنى إليها في جزع وصمت . ولكنه استطاع أن يحمل مشاكلها إذ أبدى من الاستعداد ما يقتضيه المقام ، ويتفق مع الخدمة التي سبق له أن فكر في أدائها ، فاقترح أن يكون هو الرسول الذي يأتي بمسز داشوود ، ولم تبد إليفور أية معارضة إلا وذلكها بسهولة ، فشكرته بليحاز ولكن بحمارة . وبينما ذهب هو ليبحث خادمه برسالة عاجلة إلى مستر هاريس ، ويأمره بإحضار الجياد في الحال ، أخذت هي تدبج بضعة سطور لأمها .

كم فاض قلبها بعرفان الجليل لما أبداه صديق كالكولونيل براندون من اللواسة في تلك اللحظة ! - لما أبداه مثل هذا الرفيق لأمها - رفيق يسدها برأيه ، ويخفف من آلامها بمرافقته ، ويهديء من روعها بصدقاته ! - ولا شك أن صحبته وأخلاقه ومساعدته كفيلة بالتخفيف من وقع استعانتها بقدر ما يمكن تحقيقه من هذه الصدمة .

وكيفما كان شعوره في ذلك الوقت ، فقد حزم أمره ، وهو رابط الجأش ، وأعد العدة للسفر بأقصى سرعة ، وحدد بالضبط موعد عودته ، ولم يضع دقيقة واحدة في توان أو تأخر أيا كان نوعه ، فقد وصلت الجياد حتى قبل الموعد للنتظر ، وأسرع إلى العربة بعد أن اكتفى بأن شد على يدها ورمقها بنظرة تم على الجدد ،

وتتم بوضع كلمات في صوت خافت جداً بحيث لاتسمعه الأذن . وكانت الساعة حينئذ نحو الثانية عشرة . ثم عادت هي إلى حجرة أختها لتتظفر وصول الطيب ، وتسهر على راحتها بقية الليل . وكانت ليلة ليلاء لسكل منهما ، فقد مرت الساعات تترى ، ومريان يؤرقها الألم ، وينتابها الهذيان ، والينور تساورها أفسى مشاعر القلق ، وذلك قبل أن يحضر مستر هاريس ، واستحوذ عليها الفزع حتى أنساها كل ما شعرت به قبل من أمن وطمأنينة . وزادتها الخادمة التي سهرت معها - إذ لم تشأ أن تستدعى مسز جتنجز - كربا وعذابا حين ذكرت المخاوف التي تساور سيدتها دائماً .

وظلت مريان تهذى في فترات متقطعة باسم أمها ، وكذا ذكرت بهشت الألم في قلب إنيور للسكينة التي لامت نفسها لاستهانتها بأمر المرض خلال هذه الأيام العديدة ، وتألمت لأنها لم تبادر إلى تخفيف وطأته ، ولكنها رأت أن كل وسيلة لتخفيفه قد لا تجدى في الحال ، وأن كل علاج قد تأخر عن وقته كثيراً ، وخيل إليها أن أمها المسكينة ستصل بمدفونات الأوان ، لترى بنتها العزيزة وقد انتهى أجلها ، أو ذهب عقلها .

وهمت باستدعاء مستر هاريس مرة أخرى ، أو استدعاء غيره إذا لم يستطع الحضور ، وإذا به يحضر ، ولكنه لم يحضر إلا بعد الساعة الخامسة . على أن رأيه كفر عن تأخيرها لأنه مع اعترافه بطرود تغيير مفاجيء وسيء على حالة المريضة ، لم يشأ أن يبالغ في شدة الخطر ، وأكد أنه سيعطيها دواء جديداً يخفف من حدة المرض بلهجة تنم على الثقة التي سرت إلى نفس إنيور ، ولكن بدرجة

أقل . ووعده بأنه سيمودها مرة أخرى في غضون ثلاث ساعات أو أربع ، وترك المريضة وأختها القلقة ، وهما أكثر طمأنينة مما وجدها .

وسمعت مسز جننجز في الصباح عما جرى ، وأعربت عن قلقها الشديد ، ولومها الكثير لعدم استدعائها لمساعدتها وعاودتها حينئذ مخاوفها السابقة التي جد الآن من الأسباب ما يضاعف منها بحيث لم تدع لديها مجالاً للشك في النتيجة . ومع أنها حاولت أن تواسي إلبينور ، فإن اعتقادها بخطورة حالة أختها ، لم يطوع لها أن تقدم لها سلوة الأمل . والواقع أنها كانت حزينة الفؤاد ، بل أن أى إنسان أقل منها اهتماماً بأمر مريان كان لابد أن يشعر بالقلق والحلم ، حين يرى فتاة جميلة كمریان تتعرض للاهزال السريع واللوت المبكر . وكانت مريان جديرة بمطف مسز جننجز وحزنها لأسباب أخرى ، فقد ظلت تعيش في كنفها ثلاثة أشهر ، ولا تزال تستظل بظل رعايتها ، وصار معروفاً أنها كسيرة القلب ، حزينة الفؤاد منذ زمن . وكانت مسز جننجز - إذا فكرت في أن منزلة مريان من أمها ربما تضارع منزلة شارلوت منها - تشعر بإخلاص بما تشعر به أمها من آلام .

وحضر مستر هاريس في الموعد المحدد لزيارته الثانية - ولكنه أعرب عن خيبة أمه ، لأن الدواء الأخير لم يأت بالنتيجة المرجوة . لقد فشلت أدويته ، ولم تخف الحمى . وظلت مريان مستغرقة في سبات عميق ، وكانت أكثر هدوءاً . أما إلبينور فلم تسكن كذلك ، بل سرعان ما شعرت بكل ما أعرب عنه من اللطوف بل بأكثر منه ، واقترحت استدعاء طبيب آخر ولكنه لم ير داعياً لذلك ، وقال : إن لديه أدوية أخرى يكاد يتق بنجاحها وثوقه من نجاح الدواء

الأخير ، وختم زيارته بتأ كيدات مشجمة ولكنها وصلت إلى أذن مس داشوود دون أن تصل إلى قلبها . وكانت تشعر بأدوء والسكينة ، إلا عندما تفكر في أمها ، ولكنها كادت تفقد الأمل . وظلت على تلك الحال حتى الظهيرة لانكاد تتحرك من فراش أختها ، وصور الأحران والأصدقاء الذين يتجرعون غصص الآلام تتوارد على ذهنها واحدة تلو الأخرى ، وتأملت غاية الأمل لحديث مسز جننجز التي لم تتخرج من أن تمزو شدة هذا المرض وخطره إلى الوعكة السابقة التي استمرت عدة أسابيع والتي نجمت عما أصابها من خيبة الأمل . وكانت إلبنور مقتنمة بصواب هذا الرأي ، فزادها ذلك ألماناً على ألم .

على أنها أخذت وقت الظهيرة - ولكن مع شيء من الحذر - في الخوف من حدوث شيء من خيبة الأمل ، الذي عقد لسانها برهة من الزمن عن الكلام حتى مع صديقتها - أخذت تتخيل بل تأمل أن ترى تحسناً بسيطاً في نبض أختها - لقد انتظرت ولاحظت ، وغصت النبض مرة بعد أخرى - وأخيراً أقدمت على الإفشاء بما خالجهامن الأمل ، وهي تشعر باضطراب تعذر عليها إخفاؤه تحت ستر الهدوء الظاهري أكثر مما تملذ عليها إخفاء آلامها السابقة . ومع أن مسز جننجز اعترفت عند فحصها بحدوث انتماتر وقتي فإنها نصحت لصديقتها ألا تأمل في استمراره . وأخذت إلبنور تستظهر كل نصيحة تدعو إلى سوء الظن ، وتحدث نفسها أيضاً بالعدول عن الأمل . ولكن لقد فات أوان اليأس ، بعد إذ أشرق نور الأمل وأحست أنه يرفرف بمخاضيه ، فأنحنت على أختها للتلاخط - ولم تدر ماذا تلاحظ - ومرت نصف ساعة ، وظهرت عليها أمارات التحسن ، وبدأت علامات أخرى تؤكد ذلك . لقد ظهرت أمارات التحسن في نفسها

وبشرتها وشفتيها ، ونظرت إليها مريان نظرة تدل على أنها استعادت رشدها ،
وفن دلت على الضعف والوهن . وهنا اتاب إلي نور القلق والأمل على حد سواء
ولم يهدأ بالها لحظة واحدة حتى قدم مستر هاريس في الساعة الرابعة ، فأكد لها
شفاء أختها على نحو يفوق ما كان منتظراً ، وهذاها بشفتها ، فأحست بالثقة ،
وشمرت ببرد الراحة ، وسكبت دموع الفرح .

تحسنت صحة مريان بدرجة محسوسة من كل الوجوه ، وصرح الطيب أنها
تجاوزت منطقة الخطر تماماً . ويظهر أن مسز جنجز اكتفت بالتبرير الجزئي
لتشاؤها الذي تجلى في الفرع الذي استولى عليهما أخيراً ، فسمحت لنفسها
بتصديق قوله وسلت - وهي تشعر بفرحة غير مصطنعه ، وسرور لامواربة فيه -
باحتمال شفاؤها شفاء تاما .

ولم تستطع إلي نور أن تظهر البشاشة والرح . كان سرورها يقسم بطابع يختلف
عن ذلك ، كما أدى إلى شيء آخر خلاف المرح . نعم إن استعادة مريان لحياتها
وصحتها وأصدقائها وأنها الحنون أنلج فؤادها وجهه بفيض بالشكر ، ولكنه لم
يؤد إلى للظاهر الخارجية للسرور - لا كلام ولا ابتسام . كان الارتياح يغمز
قلبا ، صامتاً قوياً .

وظلت بجانب أختها طول الأصيل إلا في فترات قليلة ، تهدى روعها ،
وتجيب على كل سؤال عن صحتها الضعيفة ، وتقدم كل مساعدة ، وتراقب كل
نظرة وكل نفس . وكان يخشى أن تحدث لها نكسة في وقت ما ، فتذكر إلي نور
بالقلق مرة أخرى - ولكن إلي نور أسكنت صوت الشك عندما رأت - بعد

الفحص الدقيق للتكرار استمرار علامات التحسن ، ورأت مريان في الساعة السادسة ، وهي تستغرق في نوم هادىء متواصل يبدو مريحاً في ظاهر الأمر .

وأزف حينئذ موعد عودة كولونيل براندون ، وكانت تعتقد أن أمها متصل في الساعة العاشرة أو بعدها بقليل على الأكثر لتسرح من عناء القلق الذى يساورها الآن وهي في طريقها إليهما ، وساور الكولونيل أيضا ! ربما كان لا يقل عنها جدارة بالثناء ! أواه ! ما أبطأ سير الزمن الذى لا يزال يحجبها عن معرفة الحقيقة !

وفي الساعة السابعة تركت مريان تنعم بلذة الكرى ، ولحقت بمسز جنتجز في حجرة الاستقبال ، لتتناول معها الشاى . وكانت مخاوفها قد منعها من تناول الكثير من الفطور ، والنكسة المفاجئة من تناول الكثير من الغذاء . ولذلك رحبت بتناول الشاى بعد أن شعرت بالسرور ، ورجعت إليها مسز جنتجز في نهايته أن تنعم ببعض الراحة قبل قدوم أمها وتسمح لها بأن تنوب عنها في ملازمة مريان ، ولكن إليفور لم تشعر بشيء من التعب ، ولا يميل إلى النوم في تلك اللحظة ، وكانت ترى أن الواجب يحتم عليها الانفراق أختها لحظة واحدة . فقلق راقبتها مسز جنتجز وصعدت معها الدرج إلى حجرة أختها للريضة لتطمئن بنفسها على استمرار تحسنها ، وتركها مرة أخرى لترعى أختها وتستمر في أفكارها ، وعادت إلى حجرتها لتكتب بعض الخطابات ، وتنام .

وكانت ليلة باردة عاصفة زارت فيها الرياح حول البيت ، وتساقت المطر على نوافذه ، ولكن إليفور لم تأبه لذلك ، لأن السعادة كانت تغمرها في قرارة

خسها . ونامت مزيان أثناء العاصفة كلها ، أما المسافرين فكان القدر يدخر لها مفاجأة سارة تروضها عما لقياه من وعثاء السفر .

ودقت الساعة الثامنة . ولو أنها دقت العاشرة لما كان ثمة شك في سماع إلبينور لصوت العربة وهي تقترب من المنزل ، وقوى في نفسها الاعتقاد بوصولها على الرغم من أن قدومها في تلك اللحظة يعد في حكم المستحيل لمرجة أنها انتقلت إلى غرفة الزينة المجاورة ، وفتحت مصراع النافذة لتقف على حقيقة الأمر . فرأت من فورها أن أذنيها لم تحدهاها ، إذ رأت مصابيح العربة الساطعة على مدى البصر ، واستطاعت أن تقيين في ضوءها انخفاً أن العربة يجرها أربعة جياد ، وهذا فضلاً عن دلالاته على شدة الذعر الذي استحوذ على أمها المسكينة ، يفسر هذه السرعة غير المنتظرة .

ولم يسبق لإلبينور قط أن وجدت من السير الاحتفاظ بالهدوء ورباطة الجأش ، كما وجدت في تلك اللحظة ، إذ كان من المستحيل أن تحتفظ بالهدوء مع علمها بما لا بد أن تشعر به أمها عند وقوف العربة بالباب مع علمها بشكها وخوفها - وربما بأسها ! وبما تريد هي أن تحدث به أمها ! كل ذلك لا بد أن يقال ويقال بسرعة ، ولذلك لم تلبث إلا ريثما جاءت خادمة مسز جنجنز لتلازم مريان وأسرت بالنزول .

وكانت الجلبة التي قامت في دهليز الدار عند مامرت بإحدى الردهات الداخلية تؤكد أنها قد دخلت البيت ، فاندفعت نحو حجرة الاستقبال - ودخلتها - وإذا بها لا ترى إلا وادي .

الفصل الرابع والأربعون

وتراجعت إليّ نور مذعورة ، وبدا عليها الفزع لرؤيته ، واستجابت لأول خاطر دار بخلدّها بأن استدارت من فورها لتفادر الحجره ، ووضعت يدها على مغلاق الباب ، وإذا به يتقدم مسرعاً ويمنعها من إغلاق الحجره ويقول بصوت أقرب إلى الأمر منه إلى الرجاء :

« مس داشود؟ نصف ساعة - عشر دقائق - أرجوك أن تنتظري . »

فأجابت بحزم : « لا ياسيدي . لن أنتظر . لأشأن لك معي . أظن الخدم نسوا أن يخبروك أن مستر بالمر ليس بالدار . »

فصاح بحدّة : « لو أنهم أخبروني أن مستر يانر وجميع أقاربه ذهبوا إلى الشيطان ، لما منعتي ذلك من الدخول . إن شأني معك أنت ، أنت وحدك . »

فقال ، وهي في غاية الدهشة : « معي أنا ! هيا ياسيدي ! أسرع - وإذا أمكنك - طامن من حدثك . »

« اجلسي ، وسأمتثل للأمرين . »

فترددت ولم تدر ماذا تصنع . وخطر ببالها احتمال وصول كولونيل براندون وقتاً هنا . واسكن لقد وعدت بالاستماع له وكانت رغبتها في استطلاع أخباره لا تقل عن رغبتها في التمسك بشرف وعدها . وبمد أن فكرت في الأمر هنيهة رأت أن الحكمة تقضى بالسرعة ، وأن استجابتها له خير كفيلاً بها ، فشتت في

صمت صوب اللائدة وجلست. وجلس هو على المقعد المقابل . ومرت نصف دقيقة دون أن يتفوه أحدهما بكلمة واحدة .

قالت إينور بصبر نافس : « أسرع ياسيدى . أرجوك ليس ادى وقت أضيعه . »

وكان يجلس فى حالة تأمل عميق ، ويبدو عليه أنه لم يسمعها .

وقال فجأة بعد لحظة : « أختك تجاوزت منطقة الخطر . لقد بلغت ذلك من الخادم . الحمد لله ! ولكن أصحيح ذلك ؟ أصحيح ذلك حقا ؟ »

فلم نشأ إينور أن تتكلم ، فأعاد السؤال بلهجة أشد :

« ناشدتك الله أن تخبرنى هل تجاوزت منطقة الخطر أم لا ؟ » .

« نرجو أن تكون قد تجاوزتها » .

ونفض واقفا وأخذ يمشى فى الحجرة .

« لوأنى علمت ذلك منذ نصف ساعة - ولكن حيث أنتى هنا » - وقال

وهو يتكلف البشاشة عند ما عاد إلى مقعده : « ماذا يعنى ذلك ؟ مرة واحدة يامس

داشودود - ربما تكون المرة الأخيرة - لتنبه معا - إنتى فى حالة نفسية طيبة

تسمح لى بالابتهاج والفرح - خبرينى بصراحة » تحمر وجنتاه احمرارا شديدا

« ماذا تعتقدن فى أكثر . أخيت أنا أم ابه ؟ »

ففظرت إليه إينور أشد ماتكون دهشة . وتبادر إلى ذهنها أنه لا بد أن

يكون مثلاً . إن غرابة هذه الزيارة وهذه الأخلاق لا يمكن تفسيرها بنير ذلك
وهذه الفكرة التي انطبعت في ذهنها وقتت من فورها وقالت :

مسترولبي ؟ أنصح لك الآن أن تعود إلى كومب . ليس لدى وقت أضيعه
ملك أكثر من ذلك . مهما يكن لك من شأن معي فأرجو أن تتذكره جيداً
وتشرحه لي غداً . «

فأجاب بابتسامة معبرة وصوت في غاية الهدوء : « نعم ، حق ماتقولين . إنني
مثل ، قد شربت كأساً من البيرة مع بعض اللحم البقري البارد في « مالبرو »
فشوش ذهني » .

فصاحت إليانور ، وقد زادت حيرة فلم تدر ماذا يريد وقالت : « في
مالبرو ! »

« نعم — غادرت لندن في الساعة الثامنة من صباح اليوم ، ولم أغادر
العربة إلا مدة عشر دقائق فقط منذ ذلك ، تناولت خلالها بلنعة من
الزاد . »

ولاحظت إليانور ثبات لهجته وذكاء نظراته أثناء كلامه فاعتنمت أن الشراب
لم يسهه إلى كليفلاند بصرف النظر عن أية حماقة أخرى لا تنتظر ربما ساقه إليها
فقال بعد أن أطرقت هنيهة :

« مسترولبي ! ينبغي لك أن تشعر وأنا أشعر يقينا — أنه بعد كل ماحدث
(م ٢٥ — العنق والساحة)

أن يجيئك هنا على هذا النحو ، وحدينك معي ، يحتاج إلى عذر خاص — فإذا
تصني بالحييء إلى هنا ؟ »

فقال بلهجة قوية تنسم بالجد : « أعنى أن أجعلك — إذا استطعت —
تيفضيني بنفساً يقل درجة واحدة عما تيفضيني الآن . أريد أن أقدم تفسيراً لما
حدث ، وأن أفتح قلبي لك كله ، وأن أقتنعك بأنني وإنت كنت دائماً أحق
غيباً ، لم أكن دائماً وعداً لثيماً ، وبذلك أغفر بما يشبه العفو من مر — من
أخذك . »

« أهذا هو السبب الحقيقي لجيئك ؟ »

« لعمري إنه لكذلك . » هكذا أجاب بجملة أعادت إلى ذهنها صورة
ولي الذي عرفته من قبل بمجرد وبجره . وجلتها تظن فيه الإخلاص على
كره منها .

« إذا كان هذا كل شيء ، ففي وسعك أن تطمئن بالفعل — لأن سرمان
تسامحك — لقد سامحتك منذ زمن . »

فصاح بنفس الهمجة الحماسية : « هل سامحتني ! إذن لقد سامحتني قبل أن ينبئني
لما ذلك ، ولكنها ستسامحتني مرة أخرى . ولأسباب أقرب إلى العقل . والآن
هل تسمحين لي ؟ »

فحفت رأسها موافقة .

قال بعد فترة ترقب من جانبها ، وتفكير من جانبه : « لأدرى كيف علات
مسلكي نحو أختك أو أى دافع شيطاني عزوته إلى . ومن المحتمل أنك ستجدين
من العسير أن تظني في خيرا ، ولكن الأمر يستحق النظر ، وستسمعين كل شيء .
عندما تعرفت لأول مرة إلى أسرتكن ، لم يكن لي من قصد أو غرض من هذه
المرقة ، إلا أن أفضى وقتي في لذة ومتمة أثناء الفترة التي أضطر فيها إلى البقاء في
ديفو نشاير - في لذة ومتمة أكبر مما تعودت من قبل . ولم يسعني إلا أن أبدى
إعجابي حينما رأيت شخص أختك المحبوب ، وشمالها الحلوة . وكان مسلكها
نحوي منذ البداية يكاد ينقسم به . - عندما أفكر في هذا للسلك وفيما كانت تتحلى
به أدهش أن يكون قلبي قد من جلد الصخر بحيث لا يتأثر به وصرت لا أكثرث
بسعادتها ، ولا أفكر إلا في لهوى ولذتي ، والاسترسال وراء العواطف التي اعتدت
الاسترسال وراءها دائما ، وحاولت جهد طائفتي أن أعجب إليها دون أن أقصد
أن أبادلها حبا بحب »

وعندما وصل إلى هذا الحد نظرت إليه من داشوود نظرة ملؤها الاحتقار
والنضب وقاطمته قائلة :

« لافأنته يا مسترولي من مواصلة الحديث ، ولاداعي من جانبي للإصفا
إليه . إن مثل هذه البداية لا تشجع على الاستمرار فيه . فلا تؤلني بالاستماع
إلى المزيد من هذا الموضوع . »

فأجاب : « إنني مصر على أن تسميه كله . لم تكن تروفي كبيرة قط ، وكنت
ذاتما مسرفاً ، أخطأت بقوم دخلهم أكبر من دخلي . ومنذ أن بلغت سن الرشد

أو حتى قبل هذه السن وديونى - كما اعتقد - تزداد سنة بعد أخرى . ومع أنه كان من اللقد أن وفاة بنت عمى ستتيح لى حرية التصرف ، فإن هذه الوفاة لم تكن أمراً مؤكداً ، كما أنه كان محتمل أن يمتد بها الأجل فترة أطول ، فأنجحت نيتى فترة من الزمن إلى تدعيم مركزى لللى بالزواج من امرأة ذات مال . ولذلك لم يخطر على بالى أن أقترن بأختك . وكان مسلكى فى ذلك يتسم بالخسة والأناية والقسوة ، إذ كنت أحاول أن أظفر بجمها دون أن أفكر فى مبادلتها حباً بحب ، وهو مسلك جدير بكل استنكار واحتقار حتى منك أنت يامس داشوود - ولكن شيئاً واحداً يمكن أن يقال فى معرض الدفاع عن نفسى حتى فى هذا الأمر القظيع ، وهو الفرور للمقرون بالأناية . ذلك أتى لم أعرف مدى الضرر الذى اتتوبته ، لأنى لم أعرف حينئذ ما هو الحب . ولكن هل أتيج لى قط أن أعرف الحب ؟ الحق أن هذا الأمر فيه شك ، لأنه لو كان أتيج لى أن أعرف الحب حقاً ، أكان فى وسعى أن أضحي بمواطنى على مذبح الفرور أو الطمع ؟ بل أكثر من ذلك : أكان فى وسعى أن أضحي بجمها ؟ - ولكنى فعلت ذلك . ولكى أنجذب الفقر النسبى الذى كانت محبتها وعشرتها ستجنابى كل ويلاته . فقدت - بسعى وراء النفى - كل ما يمكن أن يحمل هذا الفقر نعمة وبركة .

قالت إينور ، وقد هدأ روعها قليلاً : « إذن كنت تعتقد فى وقت ما أنك تحبها ؟ »

« هل كان فى وسعى أن أقاوم هذه المحاسن الجذابة ، وأن أثبت أمام هذه

السائل الرقيقة ؟ هل على وجه الأرض إنسان كان في وسعه أن يفعل ذلك !
نعم ، لقد شغفت بها حباً شيناً فشيناً من حيث لا أشعر ، وكانت أسعد أوقات
حياتي هي الساعات التي أفضيها معها ، وكنت أشعر أن مقاصدي شريفة وعواطفني
بريئة على أنني حتى في ذلك الوقت الذي صحت فيه نيتي على عقد الخطبة ،
عدت - بطريقة غير لائقة إطلاقاً - إلى إراجئها من يوم إلى يوم كراهة أن
أقدم على الخطبة وظروفي المالية شديدة الارتباك . ولكنني لن أجادل هنا ، ولن
أوقف حتى ينسني لكأن تتحدثني عن السخف - بل هو ما أسوأ من السخف -
سخف التردد في خطبة امرأة ارتبطت معها بكلمة الشرف . وقد برهنت
الحوادث على أنني كنت غيبياً ما كراً أسمى جاهداً إلى كل ما من شأنه أن
يجلب على الاحترار والشقاء إلى الأبد . على أنني عقدت العزم أخيراً وصممت
بمجرد أن أخلوها أن أبرر ما كنت أحبها به من صنوف الرعاية والمطف
وأؤكد لها علانية تلك المحبة التي حرصت على إظهارها لها . ونسكن في فترة
- فترة الساعات القليلة التي انقضت قبل أن تتاح لي فرصة التحدث معها على
انفراد - حدث أمر - أمر مؤسف حطم عزيمتي ، وحطم معها كل هنامتي
وسعادتي . حدث أن بعضهم أفضى سرى - وهنا تلمش وأطرق برأسه إلى الأرض -
تقد علمت مسر سميث بطريقة ما - وأعلن أنها علمت عن طريق أحد الأشخاص
الذين يتنون لي بصلة القربى من بعيد ، بمن لهم مصلحة في حرمانني من عطفها
- علمت بأمر - بالصداقة الوثيقة « - وأضاف « ولكن لا حاجة بي إلى
للزيد من البيان » وتوردت وجنتاه ، وحدها بنظرة تنم على التساؤل

« بالصدقة الوثيفة التي تربطني بكن - ولملك سمعت القصة كلها منذ زمن طويل » .

فأجاب إلي نور وقد توردت وجنتاها أيضا ، وامتنعت مرة أخرى من إظهار المطف عليه : « لقد سمعت القصة كلها ، وأعترف أنني لأستطيع أن أفهم الطريقة التي تبرر بها أي جزء من الجريمة التي ارتكبتها في هذا العمل للروع » .

فصاح ولبي : « تذكرى من استقيت منه النبأ . هل يمكن أن يكون خاليا من الغرض ؟ إنني أعترف أنه كان ينبغي أن أحترم مركزها وأخلاقها . ولا أريد أن أبرر موقفي . ولكن أريد في الوقت نفسه أن أسمع لك بأن تظني أنه ليس لدى ما يمكن أن أقوله - وأن تظني أنها بريئة لأنها مجنى عليها ، وأنها قديسة لأنى رجل داعر . وإذا كانت شهواتها العارمة ، وعقليتها الضعيفة - على أنى لا أريد أن أتصدى للدفاع عن نفسى ، فقد كانت جذبة بمعاملة أفضل لقاء محبتها لى . وكثيراً ما انحيت باللائمة على نفسى وأنا أتذكر حنانها الذى حملنى فترة قصيرة من الزمن على أن أبادلها إياه . وباليث - وباليث ذلك لم يكن . ولكنى أسأت لى غيرها أيضا . أسأت لى امرأة كانت محببى (هل لى أن أقول ذلك ؟) حبلا يقل عن حبالي ، وعقلها - وى ! ما أسى قدره !

« على الرغم من أنى لأحب البحث في هذا الموضوع ، أرى لزاما على أن أقول إن استهتارك لا ينهض عذراً لإهمالك الناس لها . ولا تعتقد أن أى ضعف ، أو أى عيب طبيعى فى عقلها ينهض عذراً للقسوة البالغة التي عاملتها بها . لا بد

أنك عرفت أنها كانت تقامى مرارة الفاقة والحاجة ، وأنت في ديفونشاير تنفمس في ملذاتك ، وتجري وراء مشروعات جديدة ، وتندعم دائماً بالسرور والحبور .

فأجاب بحماسة : « لعمري إننى لم أعلم ذلك . لم أذكر أنه فاتنى أن أعطيها عنوانى ، ولو كان لديها مسكة من عقل لعرفت كيف تهتدى إليه » .

« وماذا قالت مسز سميت ياسيدى ؟ »

« أهمنى بالجريمة في الحال . وفى وسعك أن تدركى مدى ارتبائى وحيرونى وكانت طهارة ذيلها ، وحرصها على التقاليد ، وجهلها بأحوال الناس كل ذلك كان ضدى . ولم أستطع أن أنكر الأمر نفسه ، وكل سعى للتخفيف منه كان ضرباً من العبث ، لأنها كانت تميل من قبل - كما أعتقد - للشك فى تمسكى بأهداب الفضيلة بوجه عام . وفضلاً عن ذلك كانت تشعر بالاستياء لقله اهتمامى بها ، وضاللة الوقت الذى خصصته لها فى زيارتى الحالية . وصفوة القول أن الأمر انتهى بالقطيعة التامة . وكان فى وسعى أن أتذنبسى بوسيلة واحدة ، فقد عرضت على - وهى فى علياء الفضيلة ، يالها من امرأة فاضلة ! - أن تعفو عما سلف بشرط أن أتزوج اليزا وما كنت لأقبل ذلك - فخرمتى رسمياً من عطفها ، وطردتنى من بيتها . وقضيت الليلة التى أعقبت هذا الحادث - كان من المقرر أن أذهب فى صباح الغد - وأنا أتدبر ما يجب عمله فى المستقبل . كان النضال عظيماً - ولكنه انتهى بسرعة . كان حبي لمريان وإيمانى التام مجبها لى - كل ذلك لم يوازن الخوف من الفقر ،

ولم يتغلب على تلك الفكرة الخاطئة - ضرورة الحصول على اللال - التي كنت أميل إليها بطبعي ، والتي زادني إيماناً بها كثرة نفعاني الاجتماعية . وكان لدى من الأسباب ما يحمنني على الوثوق من موافقة زوجتي الحالية إذا شئت أن أحدث معها في ذلك ، واقتنعت بأن لم يبق أمامي ما تقضى به الحكمة سوى سلوك هذا السبيل . على أن مشهداً ثقيلاً على النفس كان ينتظرنى قبل مفادرة ديفونشاير كنت مرتبطاً بالعداء ممكن في ذلك اليوم نفسه . ولذلك لم يكن بد من تقديم بعض المذر لإخلافى هذا الموعد . وأطلت التفكير كثيراً حول كتابة هذا الاعتذار أو تقديمه بنفسى . وكنت أوجس خيفة من لقاء مريان بل كنت أشك في تمسكى بقرارى إذا لقيتها . على أنى كنت في ذلك أجنس من قدر شهامتى كما دلت الحوادث ، لأنى ذهبت إليها ولقيتها ورأيت أنها حزينة ، وتركها حزينة ، وتركها وأنا أرى ألا أراها مرة أخرى بعد اليوم » .

قالت إليينور بلهجة التأنيب: « لماذا زرتها يا مستر ولي ؟ كان الخطاب ينى بالفرض . لماذا كانت الزيارة ضرورية ؟ » .

« كانت ضرورية لإرضاء كبريائى . لم أطق أن أغادر الريف على نحو قد يؤدي بك أو بيقية الجيران إلى معرفة أى شىء مما دار بين مسز سميث وبينى - فصممت على زيارة المنزل الريفى فى طريقى إلى هونيتون على أن رؤية أختك كانت أسراً مفزعاً فى واقع الأمر . ومما زاد الطين بلة أنى وجدتها وحدها ، ولا أدرى أين خرجت جميعاً . وكنت قد تركتها مساء اليوم السابق فقط وأنا

مصمم في قرارة نفسى على سلوك جادة الحق! وكانت بضع ساعات كفيّة بقصد خطبتي لها إلى الأبد. وإني لأذكر كم كنت سعيداً ومرحاً حينما مشيت من المنزل الرقيق إلى الإنهام، راضياً عن نفسى، راضياً عن كل إنسان! ولكن فى هذه المقابلة التي كانت آخر العهد بالمودة بيننا، تقدمت إليها وأنا شاعر بما ارتكبته من إثم شعوراً يكاد يزرع منى ثوب الرياء. وإن أنس لأنس - حينما أخبرتها باضطرابى إلى مفارقة ديفونشاير فى الحال ما أبدت من أسف وحزن وحسرة، مع ما أبدته من احتفاظها بالثقة فى والإيمان بهى! آه يا لى! كم كنت وغداً قاسى القلب!

ولاذ الاثنان بالصمت بضع دقائق. وكانت إينور أول من تكلم.

« هل وعدتها بأنك ستعود قريباً؟ »

فأجاب بصبر نافذ: « لأدرى ماقلته لها، ولكنه بلا ريب أقل مما يفتى بحق الماضى، وأكبر الظن أنه أكثر مما يبرره للمستقبل. ولا أستطيع أن أذكره. ثم جاءت والدتك العزيزة لتذيقنى مزيداً من العذاب بما غمرتى به من عطف وثقة. حمداً لله! لقد عذبتنى بالفعل، وفاض قلبى بالأسى. مس داشوود! ليس فى وسعك أن تتصورى ما أشعر به من العزاء حينما أستعيد ذكرى هذا الأسى. وإني لأحقد على نفسى لما أبديته من الحماقة والنذالة حقداً يجعلنى أشعر الآن بنشوة الانتصار والسرور عندما أتذكر جميع الآلام للماضية التي قاسيتها بسبب هذه الحماقة ثم سافرت، وخلفت ورائى كل ما أحب، وذهبت إلى قوم خير ما يقال

فيهم أنى لأحفل بلقائهم . وكانت رحلتى إلى لندن - وأنا أسافر يجيادى ،
ولذلك كان السفر مملًا - لارفيق أحدث معه - كانت تأملاتى تبعث على البهجة
والسرور - إذا نظرت أمامى بدا كل شىء منرياً وجذاباً ! وإذا نظرت خلفى إلى
بارتون بدا فى الصورة مايلطف حدة آلامى ! كانت رحلة موقفة .

وسكت .

وقالت إليفور التى تعجبت انصرافه ، وإن رثت لحاله : « وهذا كل
شىء ياسيدى ؟ »

« كل شىء ! - كلا - هل نسيت ماحدث فى لندن ؟ هذا الخطاب الشائن ،
هل أطلعتك عليه ؟ »

« نعم ، رأيت كل الخطابات التى دارت بيننا . »

« عند ماوافانى أول خطاب منها (إذ وصلنى فى الحال لأنى كنت فى لندن
طول ذلك الوقت) كان شعورى كما يقولون - تقصر دونه العبارة ، وبعبارة أكثر
بساطة - ربما أبسط من أن تثير أى انفعال - إننى شعرت بالألم .

كل سطر وكل لفظ - إذا جاز لى استعمال الاستعارة المتبذلة التى كانت كاتبتهما
العزيزة تعافها لو كانت الآن بيننا - كأننا بمثابة خنجر مصوب إلى قلبى . وعندما
علمت أن مريان وصلت إلى لندن وقع على هذا النبأ - بالغة نفسها - وقع الصاعقة .
صواعق وخنجر ! ماأشد ماكان يمكن أن توجه إلى من اللوم ! - ذوقها وآراؤها -
أعتقد أنى أعرفها أكثر مما أعرف ذوق وآرائى - إنها أحب إلى . »

وعادت إليفور التى انتابت قلبها عدة تغييرات فى خلال هذا الحديث

الغريب - فرقت له ولكنها رأت من واجبها أن تمنع محدثها من الاسترسال في مثل هذه الأفكار الأخيرة .

« ليس هذا من الصواب يامسترولي . تذكر أنك متزوج . لا تقص على إلا ما يحدثك ضميرك أنه ينبغي لى سماعه . » .

« إن خطاب مريان الذى أ كدت فيه أنها لا تزال تحبني في الأيام الخالية، وأنها على الرغم من الأسابيع العديدة ، العديدة التى فرقت بيننا ، لا تزال ثابتة على عهد المودة كما كانت في أى وقت مضى ، كما لا تزال على ثقة تامة من أننى ثابت على عهد المودة كذلك - إن هذا الخطاب أيقظ في نفسى شعور الندم ، كل الندم . أقول أيقظ لأن الزمن ، ولندن ؛ والعمل والاهو ، كل ذلك هذا من هذا الشعور بعض الشيء ، وصيرنى ندلاً قاسى القلب ، أوهم نفسى أننى نسيتهما وأتخيل أنها هى أيضا لا بد قد نسيته ؛ وأحدث نفسى بأن حبنا القديم لنو وهراء ، وأهز كتنفى دلالة على أنه كذلك ، وأسكت كل صوت من أصوات الملام أو الشك بأن أقول فى سرى من وقت لآخر : « سأسر من أعماق فؤادى حينما أسمع أنها تزوجت رجلا طيبا . » ولكن هذا الخطاب جعلنى أزداد معرفة بنفسى . شعرت أنها أحب إلى قلبى من أية امرأة فى العالم ، وأننى عاملتها على نحو شائن . ولكن الاتفاق كان قد تم منذ قريب بينى وبين مس جراى على كل شيء . وكان التصهقر مستحيلا . كل ما اضطررت أن أفعله هو أن آتمشى رؤيتكما معا ، فلم أرسل رداً إلى مريان قاصداً بذلك أن أحمى نفسى من أن أراها بعد ذلك ، بل لقد صممت فترة من الزمن على عدم زيارة بركى ستريت - ولكن أخيراً رأيت من الحكمة أن أتظاهر بأننى صديق عادى لاغير - فراقبتكن حتى خرجت من المنزل بسلام فى صباح يوم من الأيام وتركت بطاقتى .

« راقبتنا حتى خرجنا من المنزل ! »

« هكذا كان . وقد تدهشين لأن تعرفي كم راقبتكن ، وكم أوشكت أن ألتقي بكن . وقد دخلت أكثر من دكان لأتخاشى رؤيتكن ، والعربة تمرى . وإذا كنت أنزل بيوند ستريت لم يكذب يوم لا الملح فيه واحدة منكن ، وما كان لشيء أن يحول بيني وبينكن هذه المدة الطويلة لولا المراقبة الدائمة من جانبي ، والرغبة القوية المستمرة في تخاشى رؤيتكن . وتخاشيت الانصال بأكل ميدلتون بقدر الإمكان كما تخاشيت الانصال بأى إنسان يحتمل أن يعرفنى ويعرفكن ، على أنى التفتيت مصادفة سيرجون دون أن أعلم بوجودهم في لندن ، وأعتقد أن ذلك كان في أول يوم وصل فيه إلى لندن ، واليوم التالى لزيارتى لمنزل مسز جننجز ، فدعاني سيرجون لحفل راقص يقيمه في منزله في المساء . ولو أنه لم يخبرنى أنك وأختك ستشهدان هذا الحفل ليخبرنى بحضوره لكان من المؤكد جدا أن ألبى دعوته ، لكى أشعر بالثقة والطمأنينة وأنا بجانبه . وفي صباح الفد تلقيت خطابا وجيزاً من مريان ، يفيض أيضا بالحب والصراحة والبراعة والثقة سائى كل ما يجعل سلوكى محموتاً أشد للقت . ولم أستطع أن أرد عليه ، وحاولت ولكنى لم أوفق إلى إنشاء جملة واحدة . ولكنى أعتقد أنى ظلت أفكر فيها ككل لحظة في ذلك اليوم . وإذا كان في وسعك أن ترثى لحالى يامس داشوود ، فارثى لحالى حينئذ ، فقد كنت مضطراً ، وأختك تشغل رأسى وقلبي ، أن أقوم بدور المحب السعيد مع امرأتى أخرى ! وكانت هذه الأسابيع الثلاثة أو الأربعة أسوأ ما مر بي . وأخيراً - ولا حاجة بي لأن أقول ذلك - وقع بصرك على . وما أحلى منظرى في ذلك الوقت ! ما أشد ما طابته من الآلام في ذلك المساء ! مريان - في جمال للأنسك -

تقاديبي - من جانب - بأعذب النغم ! أوام ! ربى ! وهى تمد يدها إلى وتطلب منى تفسيراً بهاتين العينين الساحرتين اللتين نبتتهما فى وجهى باهتمام ظاهر ! وصوفيا - من جانب آخر - تشعر بالغيرة كالشيطان وتنظر إلينا نظرة ... لاداعى للكلام ، فقد انتهى كل شىء . يالها من ليلة ! لقد هربت متكن جميعا بأسرع ما استطعت ، ولكنى لم أستطع أن أهرب قبل أن أرى وجه مريان الجميل شاحباً شحوب اللوت . كانت تلك آخر ، آخر نظرة نظرت بها إلى - آخر منظر بدت لى فيه ، وياله من منظر مروع ! ومع ذلك فإنى عندما ظننت أنها تحتضر اليوم كان من أسباب العزاء لى أن أنصور أنتى أعرف تماما المنظر الذى تبدو به لمن يرونها آخر مرة فى هذه الدنيا . كانت أمامى ، وأمامى دائماً عندما سافرت ، فى نظرتها ومنظرها .

واستغرق الانتان فى التفكير لحظة قصيرة وكان لوى أول من أفاق فقال :

« اسمح لى أن أسرع ، وأنصرف . أختك قد تماثلت للشفاء ، وتجاوزت مرحلة الخطر بلاشك . »

« نحن على ثقة من ذلك . »

« وأمك للسكينة أيضا ! — تهيم حيا بمريان . »

ولكن الخطاب بامستر لوى — خطابك أنت ، هل لديك ماتقوله عنه ؟

نعم . نعم ، هذابالذات . أنت تعلمين أن أختك كتبت لى مرة أخرى غداة لليوم التالى ذاته . ورأيت ما قالت . كنت أتناول الفطور فى منزل آل اليسون .

وحىء لى بالخطاب مع أشياء أخرى من مسكنى . وانفق أن لحنه صوفيا قبل أن
ألحه أنا - وأثار حجه وأناقة ورقة وجمال خطه شبهتها فى الحال . وكانت قد
بلغتها إشاعة مبهمه بأنى أحب فتاة فى ديفو نشاير ، ثم كان ماجرى على مرأى
منها فى مساء اليوم السابق مما دلها على هذه الفتاة وأثار فى نفسها الفيرة أكثر من
ذى قبل ، فاصطنعت دور المرأة اللعوب الذى يستهوى الحب فىمن يحبها ، ففضت
الخطاب من فورها ، وقرأت مافيه . ولقيت جزاء حماقتها وطيشها ، إذ قرأت
فيه ماساها . وكان فى وسى أن أحتمل حزنها ولكن لم يكن بد من تهدة
غيرتها - وحقدها . وبالاختصار ما رأيك فى أسلوب زوجتى فى كتابة الرسائل ؟
رقيق - دقيق - نسانى حقا - ألم يكن كذلك ؟

« زوجتك ! لقد كان الخطاب بخطك أنت . »

« نعم ، ولكن ليس لى من فضل فيه إلا أنى نسخت - فى ذلة وخنوع -
تلك الجمل التى ينجلى أنى وقعت عليها باسمى . أما الأصل ، فلها فيه الفضل -
أفكارها الموقفة ، وأسلوبها الرقيق - وماذا كان فى وسى أن أفعل ؟ لقد كنا قد
عقدنا خطبنا ، وأعدنا المدة لكل شىء ، وحددنا موعد الزفاف تقريبا - ولكنى
أتكلم كالأحق . الاستعداد ! للوعد ! أقول الحق : كنت محتاجا للمال . وفى
موقف كموقفى لم يكن بد من اتخاذى إجراء يحول دون القطيمة ، وأخير أماذا
كانت تهم أية لنة أصوغ بها خطابى ، بالنسبة لأخلاقى فى نظر مريان وصديقاتها .
كان لا بد أن يكون لهذا الخطاب غاية واحدة وهو أن أبين أنتى محتال دنىء ،
ولم يكن بهم أن كان ذلك بأسلوب رقيق أوظف . قلت فى نفسى : لقد نزلت من
أعينهن إلى الأبد ، وحرمت من صحبتهن إلى الأبد ، وقد اعتقدن بالفعل أنى

شخص لاخلاق له . وكل ما سيفعله هذا الخطاب هو أنه سيجهلن يمتقنن أنتى
رجل منافق متلون . هذه هى الأفكار التى دارت بخلدى عندما نسخت - فى
حالة من الاستهتار واليأس - كلمات زوجتى ، وتخلت عن آثار مريان الأخيرة .
كانت خطاباتها الثلاثة لسوء الحظفى محفظتى ، وإلا لأنكرت وجودها وادخرتها
إلى الأبد - فاضطرت إلى إبرازها ولم أستطع حتى أن أقبليها . وخصلة الشعر -
هذه أيضاً كنت أحملها معى فى محفظتى ففتشت « اللدام » عنها بكل غل وحقد
- الخصلة العزيرة - جميع ، كل الذكريات ، نزعها منى ومزقتها .

فقات إليتور بصوت يشف - على كره منها - عن الشعور بالمعطف : « إنك
مخطيء جدا يامستر ولى ، ولموم جدا . لاينبى لك أن تتكلم بهذه اللهجة
سواء عن مسز ولى أو عن أختى . لقد اخترت زوجتك بنفسك ، ولم يجبرك
عليها أحد ، ومن حق زوجتك عليك أن تعاملها بأدب واحترام على الأقل .
ولابدأنها تحبك وإلا لما تزوجتك . ومماملك لها بالجفوة أو الازدراء
لايكفر عما ارتكبه فى حق مريان ؛ ولا أعتقد أنه يرضى ضميرك . »

فتهدأ تنهداً عميقاً وقال : « لا تمدثنى عن زوجتى - فى لا تستحق عطفك .
هى تعلم أنتى لم أكن أحمل لها أية ذرة من الحب حينما تزوجتها . نعم ، قد تزوجنا
وقدمنا إلى كوب ماجنا لننعم بالسعادة ، ثم عدنا إلى لندن لنعيش فى مرح وحيور .
والآن هل تترين لحالى يامس داشوود ؟ أو أنتى قلت ذلك عبثاً ؟ هل أصبحت
فى نظرك - ولو درجة واحدة - أقل إجراماً مما كنت من قبل ؟ إننى لم أكن
سبب النية دائماً . هل شرحت لك عذرى فى بعض ذنوبى ؟ »

« نعم ، لقد أزلت أثر البعض - القليل منها - وبرهنت على أنك - بوجه

عام — لست ملوما بقدر ما كنت أعتقد ، وبرهنت على أن قلبك أقل خبثا —
أقل خبثا بكثير . ولكن لا أدري — الشقاء الذى سببته — لا أدري هل يمكن أن
يكون ما هو أسوأ منه . »

« هل تسمحين بأن تعيدى على مسامح أختك بعد شفاؤها ما قلته لك ؟
وأرجو أن تخففى من ذنبى قليلا لديها أيضاً كما فعلت معى . لقد قلت لى : إنها ساحتنى .
وإنى لآمل أنها إذا ازدادت فهما لما يكنه قلبى لها ، ولما أشعر به الآن نحوها ،
جادت على بالعفو من تلقاء نفسها ، عفوا طبيعياً رقيقاً متواضعا . خبرتها عن
حزنى وندمى — قولى لها : إن قلبى لم يتحول عن حبها قط ، وقولى لها — إذا شئت —
إنها فى هذه اللحظة أحب إلى مما كانت فى أى وقت مضى . »

« سأحدثها بكل ما أراه ضروريا لما يمكن أن يسمى نسبيا بأنه تبرير
لتصرفك . ولكنك لم تحدثنى عن السبب الخاص الذى دفعك إلى الجحيم الآن
ولا كيف سمعت عن مرضها . »

« فى الليلة للاضية ، وفى غرفة انتظار دورى لين التفتيت مصادفة بسيروجون
ميدنتون فكلمنى — عندما عرفنى — لأول مرة خلال هذين الشهرين ، بالدهشة أو
الاستياء لمقاطعتة إياى عقب زواجى . ولكنه عندما رآنى لم يتمالك هذا الرجل
الطيب المخلص النبى الذى يتلى قلبه حقا على ، ويهتم بأمر أختك — أن يخبرنى
بما يعلم أنه لا بد أن يجزئنى كثيرا — وربما لم يكن يستقد أن ذلك سوف يجزئنى .
فقال لى بصراحة كماداته : إن مريان تحضر بسبب إصابتها بالجحى العفنة فى

في كليفلاند - وأنه تلقى في الصباح خطاباً من مسز جننجز يقول: إنها على وشك الموت وقد هرب آل بالمر من المنزل خوفاً الخ - فاستحوذ على الفزع والهلع إلى حد لم أستطع معه أن أتناظر بالتجلد حتى أمام سيرجون الخالي من العنطة - فرق قلبه لي عند ما رأى تألمى . وذهبت من نفسه للوجدة على . حتى إنه عندما فارقتني صاغخى بيده . وذكر في بما سبق أن وعدته به من إهدائه جروكلب من كلاب الصيد . وكان ماشرته به عندما سمعت أنها تحتضر - وتحتضر أيضاً وهي تعتقد أنني أنذل مخلوق على وجه الأرض، وتضمر لي الازدراء والبغضاء في لحظاتها الأخيرة - ومن يدري لعل أحداً نسب لي مقاصد خبيثة - كنت واثقاً أن شخصاً واحداً سيقول عني إننى أستطيع أن أفعل أى شىء - كان ماشرته به أمراً مفزعاً - وسرعان ماصح عزمى . وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم ركبت عربتى . والآن لقد عرفت كل شىء .

فلم تحمر إليثور جواباً . إذ كانت تفكر وهي صامته فيما يجلبه النفي للبكر . وما يقرب عليهم من بطالة ولهو وترف من أضرار فادحة على عقل الرجل وأخلاقه وسعادته - الرجل الذى يجمع إلى جميع اللزايا الشخصية والمواهب العقلية طباعاً فطرت على الصراحة والإخلاص . وسجاياباً تمتاز بالرقه والوداد . لقد علمته الحياة الإسراف والنورور . وهاتان الخصلتان عفتاه قسوة القلب والأناية . وفي الوقت الذى ساقه النورور إلى الانتصار الأتيم على حساب شخص آخر ، ووطه النورور في حب حقيقى اضطره الإسراف - أو وليدته على الأقل وهي الحاجة - إلى التضحية به . وكل عيب من هذه الميوب جلب عليه الضرر كما جلب عليه العتاب . إذ أصبح الحب الذى نبذه ظاهرياً مخالفاً بذلك مقتضيات الشرف (م ٢٦ - العقل والمالفة)

والعاطفة والمصاحبة يسيطر على فكره، بعد إذ أصبح جائزاً شرعاً، وأصبح الزواج الذى من أجله جلب الشقاء — دون رادع من ضمير — على أختها يندو بأن يجلب عليه هو من الشقاء ما هو أشد وأقسى . ثم أقالت من هذه الأفكار التى استترقت فيها بضع دقائق حين نهض ولبى الذى استغرق هو أيضاً فى أفكار لا تقل عن أفكارها إبلاماً ، وم بالانصراف وقال :

« لافائدة من البقاء هنا يجب أن أنصرف الآن . »

« هل ستمود إلى لندن ؟ »

« كلا . — إلى كومب ماجنا . فلى بعض الأشغال هناك ، ومنها إلى لندن

بعد يوم أو يومين .. وداعاً . »

ومديده ولم ترفض أن تمد يدها إليه . فشد عليها بعطف وتأثر .

وقال وقد ترك يدها ، واستند إلى سجاف المصطفى كأنما قد نسى أنه يريد

الانصراف : « هل تحسبن الظن بى الآن أكثر مما كنت ؟ »

فأكدت إلبور له ذلك . وقالت : إنها عفت عنه ، ورتت له وتمنت الخير .

بل أبدت اهتمامها بسعادته — وزودته بيمض النصائح الرقيقة التى يرجى أن تؤدى إلى هذه السعادة ولم يكن جوابه مشجعاً إلى حد كبير .

قال : « فيما يتعلق بذلك ، أرى لزاماً على أن التزم نهج الاستقامة فى الحياة .

أما السعادة للنزلية فهى ضرب من الستحيل على أنه إذا جاز لى أن أعتقد أنك

وأختك ستهتمان بمصيرى وأقوالى ، فقد يكون ذلك وسيلة لالتزامى جادة الحذر

أوطى الأفل سيكون أسماً جديراً بأن أعيش من أجله . لقد فقدت مريلان إلى الأبد

حقاً ! لو أتيت لى أن أصبح طليقاً مرة أخرى !

فويختمه إلبنور ومنتمه من الكلام .
فأجاب : « وداعا مرة أخرى . سأصرف الآن وأعيش في خوف من
حادث آخر » .

« ماذا تعنى !

« زواج أختك .

« أنت مخطيء جدا . لن تفقدها أبداً أكثر مما تفقدها الآن » .

« ولكن رجلاً آخر سيطفر بها ، وإذا قضت الأقدار أن يكون هذا
الشخص هو ابنض الناس إلى ، ولكنى لن أبقى حتى أقصد عطفك بأن أضمك أنى
أقل الناس رغبة في العفو عن جنيت عليه أعظم الجناية . وداعاً — بارك
الله فيك » !

وما أن قال هذه الكلمات حتى خرج من الحجرة .

الفصل الخامس والأربعون

انتابت إليشور بعد انصرافه بفترة من الوقت ، بل بعد أن تلاشى صوت عربته طائفة شتى من الأفكار شملت بها حتى عن التفكير في أحبا ، وكانت هذه الأفكار تختلف في ذاتها اختلافا كبيرا ولكنها تمحضت عن نتيجة واحدة هي الشهور بالأسى .

فقد أثار ولبي الذي كانت منذ ساعة واحدة تمقتته باعتباره أتفه إنسان على وجه الأرض ، أثار في نفسها - على الرغم من عيوبه وأخطائه - شيئا من العطف والأسى على آلامه التي جلبتها هذه العيوب عليه ، جعلها تشعر نحوه بعد أن افترق الآن عن أسرتها إلى الأبد بشيء من الحنان والأسف يتناسبان - كما اعترفت هي في قرارة نفسها - مع رغبته لاعم ما يستحقه . وكانت تشعر أن الأثر الحسن الذي تركه ولبي في نفسها يرجع إلى أمور ينبغي الأقيام لها ووزن في نظر العقل ، وهي شخصيته الجذابة بدرجة غير عادية ، ولهجته العريجة المحبوبة للراحة مما لا يدمزية في الرجال ، ثم المحبة الشديدة التي لا يزال يكنها لمريان ، مما لا يجوز له أن يتأذى فيه . ولكنها شعرت أنه سيمر وقت طويل ، طويل جدا ، قبل أن يضعف هذا الأمر في نفسها .

ولما عادت أخيراً إلى مريان المستغرقة في نومها وجلستها قد استيقظت لتوها وأن النوم الطويل اللذيذ قد أنعشها كما كانت تأمل ، وكان قلب إليشور منعما بشقى الأفكار والانفعالات ، فالماضى والحاضر والمستقبل وزيارة ولبي ، وسلامة مريان ووصول والدتها المنتظر ، كل ذلك أثار في نفسها موجة من الاضطراب والتلق

حجبت مظاهر التعب ، وكل ما كانت تخشاه أن تبين أختها ما تبش به نفسها على أن ذلك الخوف لم يخالجها إلا قليلا ، لأنه بعد نصف ساعة من انصراف ولبي سمعت صوت عربة أخرى ، فزلت وأسرعت إلى القاعة في الحال لتريح أمها من الشعور بالقلق الرهيب الذي لا مبرر له لحظة واحدة ، ووصلت إلى الباب الخارجى في الوقت المناسب لتستقبل أمها وتسندها وهي تدخل الدار .

ولما اقتربت مسز داشوود من المنزل استحوذ عليها الرعب . حتى لقد غلب عليها الظن أن مريان قد انتهت ، فاحتبس صوتها دون السؤال عنها بل دون أن تحيى إلينيور ، ولكن إلينيور لم تنتظر السؤال ولا التحية بل زفت إلى أمها البشرى في الحال فتلقها أمها بحماسة المعتادة ، واستحوذ عليها السرور بقدر ما استحوذ عليها الخوف من قبل ، وسارت إلى حجرة الاستقبال تستند إلى ذراع بنتها وصديقتها . وهناك ذرفت دموع الفرح ولكنها ظلت عاجزة عن الكلام وأوسعت إلينيور لثماً وتقبيلاً ، وكانت تتحول عنها بين القينة والقينة لتشد على يد كولونيل برايدون ، وتنظر إليه نظرة تعبر عن الشكر وعرفان الجميل والاعتقاد بأنه يشاركها السرور الذي غمرها في تلك اللحظة . على أنه كان يشاركها هذا السرور في صمت أشد من صمتها هي .

وعندما تكشفت عن مسز داشوود روعة الموقف كان أول ما رغبت فيه هو رؤية مريان ، وما هي إلا دقيقتان حتى حضرت بنتها المحبوبة التي زادت محبتها في قلب أمها بسبب غيابها وحزنها ومرضاها ، وكان لا يعد من سرور إلينيور - عندما رأت فرحة كل منهما باللقاء - إلا خوفها من أن تحول هذه الفرحة دون أن تنعم مريان بالمزيد من اللام . ولكن مسز داشوود كانت تبدى الهدوء ، بل الحكمة حينما تكون

صحة إحدى بناتها في خطر . وكانت مريبان تشعر بالارتياح لقرب أمها منها .
وتشعر بأنها أضعف من أن تجاذبها أطراف الحديث ، فاستجابت إلى ما طلبته
المرضات من التزام الصمت والهدوء . وألحت مسز داشوود في أن تسهر عليها
طول الليل ، وذهبت إلى النوم إلى الفراش استجابة لرجاء أمها ، ولكن انفعالها
النفسي حالت دون الراحة التي استوجبتها الليلة التي أرقها فيها السهر ، والساعات
المديدة التي انتابها فيها أشد القلق ، فكانت ذكري ولبي لا تبرح فؤادها ، ولبي
المسكين كاشات أن تسميه الآن . لقد كانت لا تمنى شيئاً في العالم إلا أن
تسمع دفاعه عن نفسه ، والآن أخذت تلوم نفسها تارة ، وتبرئها تارة أخرى لأنها
قست في الحكم عليه من قبل ، ولكن وعدها بأن تخبر أختها بذلك كان
يؤرقها دائماً ، وتخشى الوفاء به ، وتخشى أثره في مريبان ، وتشك في شعورها
بالسعادة مع زوج آخر إذا سمعت هذا التفسير ، وتمنت برهة من الزمن لو كان
ولبي أرمل ثم تذكرت كولونيل براندون ، فأتمت على نفسها باللائمة وشعرت
أنه أولى من غيره بأختها لما قاسى من الآلام وما أظهره من الوفاء أكثر منه ،
وتمت أي شيء آخر غير وفاة مسز ولبي .

وبما خفف من صدمة الرسالة التي حلها كولونيل براندون إلى بارتون أن مسز
داشوود كانت تشعر بالخوف قبل وصوله ، فقد استهد بها القلق على مريبان إلى
حد صممت معه على السفر إلى كليفلاند في ذلك اليوم نفسه دون انتظار أي نبأ
آخر ، واتخذت الأهباء للسفر قبل وصوله ، حتى لقد كانت تنتظر وصول آل كاري
بين لحظة وأخرى ليأخذوا مرجريت معهم ، إذ لم ترغب أن تأخذها معها خوفاً
من العدوى .

وظلت صحة مريان تتحسن كل يوم ، وكانت البهجة التي تجلت في نظرات مسز داشوود وحالتها النفسية ، تدل على أنها من أسعد الناس في العالم كما صرحت مراراً . ولم يكن في وسع إينور أن تسمع هذا التصريح وترى دلائله دون أن تتساءل أحياناً : هل خطر إدوارد على بال أمها ؟ ولكن مسز داشوود كانت مطمئنة بفضل اعتدال البهجة التي روتها إينور ما أصيبت به من خيبة الأمل ، بحيث لم تفكر إلا بما يزيد من نشوة الفرح التي غمرتها في ذلك الوقت ، فقد عادت إليها الآن مريان سالمة من الخطر الذي تردت فيه بسبب ما ارتكبه من خطأ - كما أخذت تشعر الآن - بتشجيع مريان على حبها المشنوم لولبي . وكان هناك سبب آخر لم يخطر على بال إينور - يدعوها إلى السرور بشفاء مريان ولكنها أفضت به إليها على النحو الآتي بمجرد أن سفت الفرصة لتتحدث معها على انفراد :

« أخيراً أصبحنا على انفراد . لا تعلمين حتى الآن يا عزيزتي إينور ما أشعر به من السعادة . كولونيل براندون يحب مريان . لقد أخبرني بذلك هو نفسه . »

فأصفت إليها بكل جوارحها ، واتباعها الشعور بالسرور تارة ، والألم تارة أخرى ، والدهشة تارة ، وعدم الدهشة تارة أخرى .

« أنت لا تشبهيني أبداً يا عزيزتي إينور ، وإلا فإني أعجب لهدونك الآن . لو أنني جلست لأتخلى أي خير يمكن أن يقال أسرتي ، لكان أحب ما آمنه أن يتزوج كولونيل براندون إحدى بناتي ، وأعتقد أن مريان ستكون أسعد زوجة معه . »

ولم تكن إينور تود كثيراً أن تسأل أمها عن الأسباب التي تحملها على هذا الاعتقاد ، لاقتناعها بأنها لن تستطيع أن تبدى سبباً قائماً على أى اعتبار منزه عن الغرض من حيث سنهما أو أخلاقيهما أو عاطفتهما ، وأنها تهيم فى بيدااء الخيال فى أى موضوع يهمها . ولذلك آتت ألا تسألها ، وأن تضرب عن اللوضوع صفحا بابتسامه .

« لقد فتح قلبه كله لى بالأمس أثناء السفر . وجاء ذلك فجأة وبغير قصد . فأننا - كما تعلمين جيدا - لم أفكر إلا فى الحديث عن ابنتى - وهو لم يخف ألمه ، فروأته يعادل الى . وربما رأى هو أن الصداقة المحضة - كما هى عادة الناس الآن - لا تبكى مبرراً لمثل هذا العطف الصادق - أو لم يرد ذلك على الإطلاق فيما أظن - واستسلم لعاطفته التي لا تقاوم ، فصارحنى بحبه الشديد لمریان حبا رقيقاً دائماً . لقد أحبها يا عزيزتى إينور منذ أول لحظة رآها فيها . »

ولكن إينور لاحظت هنسا - لالفة كولونيل براندون ولا أقواله - وإنما المحسنات الطيبية التي يزين بها خيال أمها الحصب ، كما يشاء ، كل شىء يسرها .

« حبه لما لا يقاس بما شعر به ولجى ، أو ادعى أنه شعر به ، حب أشد حرارة بقدر ما هو أشد إخلاصا وثباتا - سميه ماشئت - حب ظل قائماً طوال الفترة التي علم فيها بحب مریان المشنوم لذلك الفتى الحفير ! - حب لا يعرف الأنانية - ولا يشجع أى أمل ! - كان يسرها أن يراها سعيدة مع أى شخص سواه - ياله

من رجل نبيل ! - ما أعظم صراحته ، وما أعظم إخلاصه ! - لا يمكن أن
ينخدع الإنسان فيه . »

قالت إليانور : « إن أخلاق كولونيل براندون كرجل ممتاز أمر ثابت
لا شك فيه . »

فقالت أمها بلهجة الجد : « أنا أعرف ذلك وإلا فاني ، بعد هذا التنذير ، آخر
من يميل إلى تشجيع مثل هذا الحب بله الفرح به . ولكن مجيئه إلى بنتل هذا
الغشاق وللبادرة إلى إظهار الصداقة يكفى للدلالة على أنه رجل من أفاضل القوم . »

قالت إليانور : « ولكن أخلاقه لا تتركز على عمل واحد من أعمال المعروف
ما كان ليحدوه إليه إلا حبه لمريان ، ولو كان مجرداً من الوازع الإنساني . وقد
عرفه آل ميدلتون معرفة وثيقة منذ زمن طويل ، وكلاهما يحبه ويحترمه على السواء
وأنا وإن عرفته أخيراً أعرف عنه الشيء الكثير ، ولذلك فأنا أقدره وأجمله كثيراً
بحيث إذا أمكن أن تكون مريان سعيدة معه ، لم أتردد في أن أشاركك الاعتقاد
بأن هذا الزواج سيكون أكبر نعمة انسا في الدنيا . ماذا أجيته ؟ هل شجعت
فيه الأمل ؟ . »

« عجباً يا حبيبتى ! لم يكن في وسعي أن أحدثه ، أو أحدث نفسي عن الأمل
فقد كان يحتمل في تلك اللحظة أن تكون مريان في النزاع الأخير . ولكنه
لم يطلب أملاً ولا تشجيعاً . وكل ما في الأمر أنه أفضى بسره من تقاء نفسه ،
وتحدث حديثاً لم يستطع أن يكتم فيه عواطفه إلى صديقة تخفف من آلامه -
وليس رجاء أم . ومع ذلك قلت له بعد فترة من الوقت - لأن القلق كان متسلطاً

على ذهني في بادئ الأمر - أنها إذا عاشت - وأنا واثقة من ذلك - فإن أكبر ما يسعدني هو تشجيع زواجهما . ومنذ أن وصلنا ، ومنذ أن شعرنا ببرد الطمأنينة كررت لك ذلك بمباراة أوفى وشجته بقدر إمكاني ، وقلت له : إن الزمن - والزمن القصير جدا - سيصنع كل شيء . إن قلب مريان لا يصح أن يظل معلقا برجل مثل ولبى - وإن فضائله كعيلة بأن تمكنه من التفرد بها قريبا .

« ولكن أرى من حالة الكولونيل النفسية أنك لم تجعله متفائلا مثلك . »
« كلا ، إنه يرى أن حب مريان لولبي تمكن من قلبها بحيث يتمرد زواله قبل زمن طويل . وحتى يفرض أن قلبها خلا من جبهمة أخرى فهو يشعر بالخجل والحياء بحيث لا يعتقد أنها تستطيع أن تحبه مع وجود هذا التباين في السن والطباع بينهما . ولكن أرى أنه مخطيء في ذلك فزيادة سنه على سنها يعد ميزة ، لأن ذلك من شأنه أن يرسي أخلاقه ومبادئه على دعائم ثابتة ، وطباعه كما اعتقدهم عين الطباع التي تسعد أختك . وشخصيته وأخلاقه أيضا كلها مزاجا تعزز مركزه . إن حبي لا يعمى فهو ليس وسيم الطائفة كولبي . ولكن في قسما وجهه ما يسر العين أكثر لقد كنت أرى دائما - إذا ذكرت في نظرات ولبى ما لا يسرني أحيانا »

ولكن إنني لم تتذكر ذلك بيد أن أمها استطردت دون أن تنتظر مواضعها :

« وأخلاقه - أخلاق الكولونيل لا تسرني أكثر مما تسرني أخلاق ولبى فحسب ، ولكن أعرف جيدا أنها من الطراز الذي يستهوى أختك مريان كثيرا . فرقة أخلاقه ، وصدق مجاملته لغيره وبساطته ومروءته أكثر اتفاقا مع طباعها الحقيقية من مرح ولبى ، وهو للرح الذي يصطنه غالبا . وأنا أؤكد أنه لو ثبت أن ولبى رجل محبوب حقيقة - كما ثبت عكس ذلك تماما - لما شعرت مريان بالسعادة معه قط كما ستشعر مع كولونيل براندون . »

وسكنت - ولم تواقفها بنفها تماما - ولكنها لم تسمع عدم موافقتها ، ولذلك لم تظهر استيائها .

وأضافت مسز داشوود : « وفي ديلافورد ؛ ستكون على مسافة قريبة منى حتى ولو بقيت فى بارتون . وأكبر الظن - لأننى سمعت أنها قرية كبيرة - لن نعدم أن نجد منزلاً صغيراً أو منزلاً ريفياً بالقرب منها يصلح لنا كمنزلنا الحالئ . »

مسكينته إينور ! هاهو ذا مشروع جديد لنقلها إلى ديلافورد ا - ولكنها كانت صعبة للراس .

« ثروته أيضا ؟ لأنك تعلمين أن كل إنسان يهتم بذلك فى زمننا ، وأعتقد أنها ثروة طيبة وإن كنت لا أعرف قدرها ، ولا أرغب فى معرفته . »

وهنا دخل عليهما شخص ثالث ، قطع عليهما الحديث . وانسجبت إينور تقلب النظر فى الأمر على انفراد ، وتتمنى التوفيق لصاحبها ، وترثى لحال ولى فى الوقت نفسه .

الفصل السادس والأربعون

على الرغم من أن مرض مريان من شأنه أن يضعف المريض فإنه لم يدم طويلاً بحيث يجعل الشفاء بطيئاً . وقد اطرده هذا الشفاء بخطأً حثيثاً بفضل شبابها وقوتها الطبيعية ، ووجود أمها بجانبها ، حتى لقد استطاعت في غضون أربعة أيام من وصول هذه الأخيرة أن تنتقل إلى غرفة الزينة الخاصة بمسز بالمر . ولما انتقلت إليها - بناء على طلبها الخاص - تآقت إلى لقاء كولونيل براندون لتعبر له عن شكرها لإحضار أمها ، فدعى إلى زيارتها .

وكان التأثير الذي بدا عليه عندما دخل الحجره ، وشاهد نظراتها المتغيرة ، وصافح يدها الشاحبة التي مدتها إليه من فورها ، قويا إلى حد ظننت معه إليفور أنه صادر عن فرط محبته لمريان ، أو شدة العجل من معرفة غيره لذلك الحب . وسرعان ما تبينت في عينه الحزينة ، ووجهه المتغير - وهو ينظر إلى أختها احتمال تذكره لما مر به من الأحداث الأليمة حين رأى الشبه الذي سبق أن صرح به واضحا بين مريان وليزا - ذلك الشبه الذي ازداد الآن قوة عندما رأى عينها الفائرة ، وبشرتها الشاحبة ورقفتها الدالة على الضعف وشكرها الحار على اللنة التي أسداها إليها .

ولم يكن ما لاحظته مسز داشوود أقل مما لاحظته بنتها ولكن أثره في نفسها كان يختلف عنه في إليفور اختلافا كبيرا ، ولذلك كانت النتيجة مختلفة

اختلافاً كبيراً كذلك ، فلم ترفى سلوك الكولونيل إلا ما ينشأ عن أبسط الإحساسات وأوضحها ، ولكنها رأت في أفعال مريان وأقوالها معنى أكثر من مجرد الشكر .

وبعد يوم أو يومين أخذت مريان تزداد قوة بصورة واضحة كل اثنتي عشرة ساعة ، وأخذت مسز داشوود ، مدفوعة برغبتها الخاصة ، ورغبة بناتها وتحدثت عن العودة إلى بارتون . وكانت خطة صديقتها تتوقف على خطتها هي فسز جننجز لم تستطع مغادرة كليفلاند أثناء إقامة آل داشوود فيها ، كما أن كولونيل براندون استجاب لرغباتهم جميعاً في أن يعتبر إقامته في كليفلاند أمراً محتوماً إن لم يكن ضرورياً . وقبلت مسز داشوود بناء على طلبه وطلب مسز جننجز أن تستقل عربته في العودة حرصاً على راحة بناتها العليقة ، ووعد الكولونيل بسكل سرور أن يفتدى العربة بزيارة لمن في منزلهن الريفى في غضون بضعة أسابيع ، وذلك بناء على دعوة كل من مسز داشوود ، ومسز جننجز التي دفعت طيبة قلبها مسز داشوود لأن تبدى لغيرها من الود وكرم الضيافة ، ماتبديه هي نفسها .

وجاء يوم الفراق والرحيل ، فودعت مسز جننجز وداعاً حاراً طويلاً مقروناً بالشكر الصادق والاحترام البالغ ، والتمنيات الطيبة جزاءً وفاقاً لما أبدته نحوها من ضروب الرأية للماضية ، كما ودعت كولونيل براندون وداعاً مقروناً بصداق الود ، ثم سارت إلى العربة يساعدها براندون الذى حرص على أن تشغل هي نصفها على الأقل وأعقبها الينور ومسز داشوود . وبقى الآخران وحدهما ليتحدثا عن السفر ، ويشعرا بالسكابة والملل ، إلى أن دعيت مسز جننجز إلى عربتها لتتسلى

بحديث وصيقتها عن فراق صديقتها الصغيرات . ولم يلبث كولونيل براندون أن سار وحده إلى ديلافورد .

وسار آل داشوود في طريقهن يومين تحملت فيهما مريان وعشاء السفر دون عناء كبير . وقد أحاطتها رفيقتها اليقظتان بأ كبير مظاهر الحب والرعاية حتى توفر لها أسباب الراحة ، ونجلى أثر ذلك في شعورها بالراحة الجسمية والهدوء النفسى ، وسرت إلي نور بصفة خاصة لملاحظة هذا الأمر الأخير لأنها قد رأت أحبها تعاني لوعة الألم أسبوعاً بعد أسبوع ، وتكابد من السكرب والنم مالا يجد من نفسها الجراءة على الإفشاء به ، ولا الصبر على كتمانها ، أخذت تنظر الآن بعين السرور - الذى لا يشاركها فيه أحد سواه - إلى ما بدا عليها من مظاهر الهدوء النفسى ، والذى وإن نشأ فيما تعتقد عن التفكير العميق ، فإنه لا بد أن يؤدي في النهاية إلى الرضا السرور .

وعندما اقترب من بارتون بالفعل ، وتراءت لمن مناظر يثير كل حقل وكل شجرة فيها ذكرى أليمة لاذت بالصمت والتفكير ، ثم أشاحت عنهما بوجهها ، وجلست تنو إلى الحقل من خلال النافذة ولكن إلي نور لم تعجب لذلك ، ولم تلمها عليه . وعندما رأتها تبكى وهى تساعدها فى النزول من العربة ، لم ترف ذلك إلا انفعالا طبيعياً جداً لا يثير إلا العطف والرثاء . وإذا نظرنا إلى أنه انفعال دعت إليه الظروف كان جيداً بالثناء . وكانت تصرفاتها فيما تلا ذلك تشير بأنها عادت إلى صوابها ، لأنه ما إن دخلن حجرة الجلوس الهتادة حتى أخذت مريان تجول بصيحتها حولها فى نظرات ثابتة ، وكأنها مصممة على أن تعود نفسها فى الحال رؤية كل شىء يمكن أن يذكرها بولوى ، ولم تتكلم إلا قليلاً . ولكن كل جملة كانت

تم على البهجة والسرور . وكانت ترسل أحيانا بعض الزفريات ولكنها قلما كانت ترسل زفرة دون أن تكفر عنها بإتسامة . وبعد أن تناولت طعام الغداء أرادت أن تعترف على البيان ، فأقبلت عليه ، ولكن الأغنية التي وقعت عليها عينها كانت مسرحية غنائية أحضرها ولي ، وتشتمل على بعض ثنائياتهما المحبوبة ، وتحمل على غلافها الخارجى اسمها مكتوبا بخط يده . ولكنها لم تعجبها فمزت رأسها وألقنها جانباً . وبعد أن مرت بأصابعها على مفاتيح البيان مدة دقيقة شككت من أصابعها ، وأغلقت البيان مرة أخرى ولكنها أكدت وهي تنقله أنها ستعترف عليه كثيراً في المستقبل .

وفي صباح الغد لم يحدث أى قصص في هذه الأعراض المشجمة بل على العكس شمرت بالقوة الجسمية والنفسية لما تمتعت به من الراحة ، فظهر السرور في نظراتها وكلامها ، وأخذت تتوقع بسرور عودة مرجريت ثم تتحدث عن اجتماع شمل الأسرة مرة أخرى والقيام بنزهاتهم وأعمالهن المشتركة في جو من البهجة والسرور ، وتمتد ذلك السعادة الوحيدة التي يجدر بالمرء أن يتمناها .

قالت : « عندما يتحسن الجو ، وأسترد قوتى ، ستقوم كل يوم بنزهات طويلة مما سنمشى إلى اللزعة للوجود في نهاية المروج ، ونرى حال الأطفال فيها . وسنسير إلى مزارع سيرجون الجديدة في بارتون - كروس ، وأرض آبي ، وسنزرع مراراً آثار بريورى القديمة ونحاول أن نصل إلى الأساس الذى قيل لنا إنها وصلت إليه فيما مضى . وأنا أعلم أننا سنشعر بالسعادة وأنا ستقضى الصيف في سعادة . وأريد ألا أتاخر في الاستيقاظ عن الساعة السادسة أبداً ، وسأقسم كل لحظة من وقت الاستيقاظ إلى وقت الغداء بين الموسيقى والقراءة . لقد رسمت

خطتي وصممت ألا أشرع في أى منهج من مناهج الدراسة الجادة . لقد قرأت
جميع الكتب الموجودة في مكتبتنا بحيث لن ألبأ إليها إلا لجرد الترويح عن النفس .
وهناك كثير من الكتب الجديرة بالقراءة في البارك ، وهناك كتب أخرى أحدث
إنتاجاً أستطيع أن أستعيرها من كولونيل براندون . وإذا قرأت ست ساعات يومياً
فسأحصل في خلال سنة قدراً كبيراً من المعلومات أشعر الآن أنني بحاجة إليها .

أكبرت إليونور فيها هذه الفكرة السامية، ولكنها ابتسمت حين رأت الخيال
القوى الذى أفضى بها إلى الكسل والتراخي وجعلها تسترسل في الحزن والتبريم ،
يعود فينشط الآن للمبالغة في مشروع يهدف إلى تثقيف العقل وضبط النفس .
على أن ابتسامتها سرعان ماتحولت إلى تهجد حينما تذكرت أنها لم تف بوعداها
لولبي حتى الآن، وخشيت أن يؤدي مانهضى به إلى بلبلة ذهن مريان ، ويقتضى -
ولو مؤقتاً على الأقل - على ذلك الأبل الجليل الذى تطمح إليه ، وهو أن تشغل
وقتها بعمل نافع تشعر فيه براحة البال . ولذلك قررت - رغبة منها في إرجاء ساعة
السوم - أن تنتظر حتى تتحسن صحة أختها . ولكنها لم تعقد هذا الزم إلا لتتقضه .

قضت مريان يومين أو ثلاثة بالمنزل قبل أن يتحسن الطقس بدرجة تسمح
لمريضة مثلها بالخروج . وأخيراً جاء صباح لطيف يفرى بتحقيق رغبتها ، ويبعث
الطمأنينة في نفس أمها ، فرخصت لمريان بالخروج متكئة على ذراع إليونور
والشى إلى الحد الذى لا تشعر معه بالتمعب في السرب الموجود أمام المنزل .

وخرجت الأختان تمشيان بالسرعة التى يتطلبها ضعف مريان في رياضة لم
تمارسها حتى أصيبت بمرضها الأخير . ولم تكادا تتجاوزان المنزل بالقدر الذى
(م ٢٧ - العقل والعاملة)

يسمح بروية التل رؤية كاملة - التل المشهور الموجود خلف المنزل - حتى توقفت
مريان عن السير ، ووجهت نظرها إليه وقالت في هدوء :

« هناك ، هناك تماما » مشيرة بإحدى يديها « على تلك الربوة العاتية ،
هناك سقطت ، وهناك رأيت ولبى لأول مرة . »

وخشع صوتها مع هذه الكلمة ولكنها أفاق في الحال وأردفت :

إني مسرورة لأن أجد أنه في وسمى أن أنظر إلى هذه البقعة دون أن
أتألم كثيرا هل ستتحدث في هذا الموضوع يوما ما يا إيلينور ؟ قالت ذلك بلهجة
التردد : « أوسيكون ذلك ضربا من الخطأ ؟ أرجو أن أستطيع التحدث عنه
الآن ، كما ينبغي أن أفعل . »

وطلبت إليها إيلينور في حنان ورقة أن تكون صريحة .

قالت مريان : « أما الأسف ، فأنا غير آسفة عليه . لأأريد أن أتحدث إليك
عما شعرت به نحوه ، وإنما عما أشعر به الآن - الآن ، إذا أمكن أن يرتاج بالي في
قطعة واحدة - إذا جاز لي أن أعتقد أنه لم يكن دائما يمثل دوراً ، ولم يندعني
دائماً - ولكن أهم من ذلك إذا استطعت أن أتأكد أنه لم يكن قط خبيثاً
جدا كما صورت لي المواجهس أحيانا ، منذ أن عرفت قصة تلك الفتاة اللسكودة
الطالع » .

ثم سكنت ، وتذكرت إلي نور كلماتها بسرور عندما أجابت :

« متقدين أنك ستشعرين براحة البال إذا استطعت أن تتأكدى
من ذلك . »

« نعم ، إن راحة بالي في ذلك — لا لأنه من المفزع أن أنهم شخصاً كان له
في نفسى ما كان من اللزلة بمنزل هذه النوايا ، ولكن ماذا يقول الناس عنى أنا إذا
أهمته بذلك ؟ لاشئ . فى مثل موقفى إلا ما يقال عن امرأة أحببت ، وتتكبت
فى حبها جادة الحذر بشكل فاضح . »

قالت أختها : « وكيف إذن تملين سلوكه ؟ »

« أميل إلى الظن — أوه ! كم يبعدنى أن أعلن أنه ليس إلا شخصاً هوائياً
متقلبا ، متقلبا جدا ، جدا . »

فلم تزد إلي نور شيئاً ولكنها تساءلت فى سرها : أيجب أن تبدأ فصتها فوراً
أم ترجئها حتى تقوى صحة مريان ؟ ثم سارتنا بضع دقائق فى صمت .

وقالت مريان أخيراً وهى تتأوه : « لأأمنى له من الخير كثيراً جداً
عندما أمتنى أن يمانى من الأفسكار اللؤلؤة مثل ما أعانى . إنه سيقاسى منها
ما يكفيه . »

« هل تقارنين سلوكك بسلوكه ؟ »

« إننى أأفانه بما كان ينبغي أن يكون عليه . أأفانه بسلوكك أنت . »

« لقد كان ثمت تشابه يسير بين موقفينا . »

يوجد تشابه بينهما أكثر مما يوجد بين سلوكينا . لا يملك الكرم بأعز الناس عندي أن تدافى عما ترين أنه جدير بالاستكثار والاستهجان . لقد ساعدنى مرضى على التفكير - أتاح لى من الفراغ والهدوء مايسمح لى بالتفكير الجدى . استطعت تماما أن أفكر قبل أن أتمائل للشقاء بوقت طويل . فكرت فى الماضى فلم أرفى مساسكى منذ أن عرفناه فى الخريف للماضى سوى ساسلة من الحماقات ارتكبتها فى حق نفسى ، والقسوة فى حق غيرى . رأيت أن عواطفى مهدت الطريق لآلامى ، وأن عدم صبرى عليها كاد يقودنى إلى القبر . إننى أعرف جيدا أننى جلبت على نفسى المرض بإهمالى صحتى إهمالا ، شعرت حتى فى ذلك الوقت بأنه ضرب من الإثم . لوأنى مت ، لكان ذلك انتحارا . لم أعرف ما تعرضت له من خطر حتى زال الخطر ولكنى أعجب لشغافى مع المشاعر التى أنارتها أفكارى - أعجب لأن حرصى على الحياة - على أن يكون لدى فسحة من الأجل حتى أكثر عن سيئاتى فى جنب الله وفى حقلك ، لم يقتلنى فى الحال . لوأنى مت ، - كم كان موافى يورتك من الشقاء ، أنت يا ممرضتى ، يا صديقتى ، يا أختى ! أنت ، يا من فاسيت أنانيتى وتكدى فى الأيام الأخيرة يا من ذقت ما يفيض به قلبى من التذمر والتأفف . كيف كنت أعيش فى ذاكرتك ! وأمى أيضا كيف كنت تستطيعين موااساتها الأستطيع أن أعبر عن شدة مقته

لنفسى ! كلما نظرت إلى الماضى رأيت واجبا أهملته ، وعيبا تهاديت فيه . ويبدو لى أنى أسأت إلى كل إنسان . فالعطف ، العطف الدائم الذى غمرتنى به مسز جننجز جزيتها عليه بالاحترار ونسكران الجميل . وآل ميدلتون وآل بالمروستيل ، بل كل من تعرفت إليه ، كل هؤلاء . عاملتهم بالتحفة وقلة الإنصاف ، عاملتهم بقلب قاسم يقتسك لفضلمهم ، وطبع شرس يثور على عطفهم - وجون ، وفانى على قلة ما يستحقان - عاملتهما دون ما يستحقان - أما أنت فقد أسأت إليك أكثر مما أسأت للجميع بل أكثر من أسمى . وأنا ولا أحد إلا أنا يعرف قلبك وما ينطوى عليه من الأحران . ومع ذلك فاذا كان أثر ذلك فى ؟ لم يثر فى نفسى شيئا من العطف يمكن أن يعود بالفائدة عليك أو على نفسى . كان لى فيك أسوة حسنة مائلا مامى ، ولكن ماذا أخذت منها ؟ هل زاد اهتمامى بك وب راحتك ؟ هل اقتديت بك فى صبرك واحتمالك أو خفت من أعبائك بالمشاركة فى واجبات الجمالة أو الشكر التى نهضت بها وحدك حتى الآن ؟ كلا ! لقد أعرضت عن القيام بأى عمل يقتضيه الواجب أو الصداقة سواء أ كنت أعلم أنك حزينة أم كنت أعتقد أنك مسرورة . ولم أأر أن أحدا يتجرع غصص الأحران إلا لى ، غير آسفة إلا على ذلك القاب الذى هجرنى وأساء إلى ، وتركك - أنت التى صرحت لك بأنى أحبك حبا لاحد له - تتحرعين مرارة الحزن من أجلي .

وهنا انقطع سيل اللوم الذى أمتت به على نفسها ، فبادرت إلى نور إلى تهديتها فأتمت عليها من فورها - وإن منمها الصدق من تملقها - وأيدتها فسبا قائله ، على النحو الجدير بصراحتها وتوبتها ، فشددت مريان على يدها وقالت :

« أنت طيبة جدا ، وسيبرهن المستقبل على صدق قولى . لقد وضعت خطي

وإذا استطعت أن أمسك بها فأسيطر على عواطفى ، وأهذب طباعى ، فلا تكون مصدراً لإزعاج غيرى ولا لتمذيب نفسى . وسأعيش من الآن لأمرتى بحسب . ستكونين أنت وأمى ومرجريت من الآن كل شىء لى فى هذا العالم . وسأقسم حى كله بينكن . ولن يفربنى شىء مرة أخرى بأن أتحول عنكن وعن بيتى . وإذا اختلطت بأحد غيركن فلكى أبين للناس أن نفسى تواضعت ، وأن قلبى قد صلح ، وأنه أصبح فى وسعى أن أراعى أصول الجملة - وهى واجبات الحياة الصغيرة ، وأعامل الناس برفق وحلم . أما ولبى فأبى إذا قلت إننى سأنساه قريباً ، أو سأنساه إلى الأبد كان ذلك ضرباً من اللغو . ومهما تديرت ظروفى وآرانى فلن أنسى ذكره . ولكن التمسك بأهداب الدين والعقل والعمل الدائب كقيل بنسيان هذه الذكرى .

ثم سكتت وأضافت بصوت خافت : « لو أبى عرفت ما يمكنه قلبه لارتاح بالى » .

وسمعت إينور ذلك ، وكانت إينور تفكر حتى ذلك الوقت فيما إذا كان يحسن أن تفضى بقصتها لأختها فى الحال دون أن تشعر على الإطلاق أنها اقتربت من البت فى الأمر أكثر مما كانت فى البداية « ولكنها رأت أنه إذا كان التصكير لا يؤدى إلى البت فى الأمر ، فإن المزمنة كفيته بذلك ، وسرعان ما وجدت نفسها تدخل فى الموضوع .

فأخذت تقص الخبر على أختها - كما كانت ترجو - بمهارة وحذق ، ومهدت لحديثها بأن أوصت أختها للتلهفة بالحذر ، وسردت بإيجاز وأمانة النقاط الرئيسية التى بنى عليها ولبى دفاعه الأخير ، وقدرت توبته ، ولطقت من الأقوال

التي أكد فيها محبته لمريان في الوقت الحاضر ، ولم تنبس مريان بينت شفة ، بل ارتجفت وثبتت عينها على الأرض ، واستحال لون شفيتها أكثر شحوباً مما خلفه المرض . وانبعث من قلبها ألف سؤال ولكنها لم تجرؤ أن تفصح عن سؤال واحد ، وكانت تستمع إلى كل كلمة بكل جوارحها ، وتشدد دون أن تشر — على يد أختها ، والدموع تقمر وجنتيها .

وخشيت إينور أن يكون التنب قد حل بها ، فعادت بها إلى المنزل ، ولم تتحدث — إلى أن وصلت إلى باب المنزل — إلا عن وليي ومادار بينهما من حديث — وهي تمزج بسهولة ما يمتل في نفس أختها من حب الاستطلاع ، وإن لم تسمح لنفسها بأى سؤال يدل على ذلك — وكانت تراعى الدقة في سرد تفصيلات كلامه ونظراته ، حيث يؤمن جانب الدقة . وما إن دخل المنزل حتى افتقرت مريان من أختها ، وصمدت الراج بعد أن قبلت أختها قبلة الشكر مع التفوه بهاتين الكلمتين خلال دموعها « أخبرى ماما » ولم تشأ إينور أن تمكر على مريان صفو العزلة التي كان لها ما يبررها ، فدخلت حجرة الجلوس لتنفيذ وصية مريان عند افتراقهما ، وهي تقدر باهتمام ماستسفر عنه وتمتزم إنارة للوضوع من جديد إذا لم تثره مريان .

الفضل السابع والأربعون

- لم تسمع مسز داشوود دفاع محبوبها السابق ، دون أن تبدى تأثرها ، فخرحت لبراءته من بعض مانسب إليه من الإثم ، وأبدت أسفها عليه ، وتمنت له السعادة . ولكن لم يكن ثمة من سبيل لأن تشعر نحوه بمثل ما كانت تشعر به فيما مضى . ولم يكن ثمة من سبيل لأن يعود إلى مريان متمتما بالثقة الكاملة - طاهر القلب قويا من الدنس . وما كان شيء أن يحو من ذهنها ذكرى الآلام التي كابدها من جرائه ، أو يزيل أثر مسلكه الأثيم نحو إليزا ، وما كان شيء أن يعيد إليه مكاته السابقة في نفسها ، ولا أن يضر بمصلحة كولونيل براندون .

ولو أن مسز داشوود سمعت كبتها قصة ولبي منه هو نفسه - لو أنها شاهدت حزنه وألمه - وتأثرت بنظرانه ولهجة حديثه ، لكان من المحتمل أن يزداد عطفها عليه ، ولكن إليثور لم تستطع ولم ترغب أن تثير في غيرها بالسر والتفصيل ، ما أثاره حديث ولبي في نفسها من مشاعر في بداية الأمر . ذلك أن تفكيرها زاد من رصانة رأبها وحملها على إحسان الظن بولبي . لذلك أرادت أن تقتصر على ذكر الحقائق الجردة ، وتكشف عن الوقائع التي ترجع في الحقيقة إلى أخلاقه دون أي تزويق من العطف أو العنان ، من شأنه أن يضل الأذهان .

وعندما اجتمع شملهن جيما في اللساء ، أخذت مريان تتحدث عنه من تلقاء نفسها مرة أخرى . وكانت أفكارها المقلقة للضربة التي استغرقت فيها بعض الوقت من قبل وهي جالسة ، وتورد وجباتها وهي تتكلم ، وتهدج صوتها -

تدل بوضوح على أن هذا الحديث كلفها بعض الجهد .

قالت : « أحب أن أؤكد لكأ أنني أنظر الآن إلى كل شيء ، على نحو ما ترغبان فيه » .

وهمت مسر داشوود أن تقاطعها في الحال بحنان يهدئ الأعصاب ، لولا أن إلينور أشارت إليها فلزمت الصمت ، وكانت إلينور تريد بالفعل أن تسمع رأى أختها النزيه . واستطردت مريان تقول بثؤدة :

« سررتي كثيراً ما أخبرتني به إلينور صباح اليوم . لقد سمعت الآن تماماً ما أردت أن أسمع . » ثم تلاشى صوتها بضع دقائق ، ولكنها أفاق من غشيتها فأضافت بلهجة هادئة من ذى قبل : « أنا أشعر الآن بالارتياح التام ، ولا أريد أى تغيير فى حياتى . ولم يكن من الممكن أن أشعر بأية ثقة فيه أو تقدير له . ومامن شيء كان يمكن أن يزيل ذلك من هسى . »

فصاحت أمها : « أعرف ذمك — أعرف ذلك . سميدة مع رجل فاجر ! مع رجل أساء إلى أعز صديق وخير إنسان ؟ كلا ! — عزيزتى مريان لم تؤت قلبا يمكن أن يشعر بالسعادة مع مثل هذا الرجل ! فضهبرها وضميرها الحساس كان سيحس بكل ما كان ينبئ أن يشعر به زوجها » .

وتنهدت مريان ورددت : « لأريد أى تغيير فى حياتى » .

وقالت إلينور : « إنك تنظرين إلى الأمر كما يجب أن ينظر إليه تماماً أى إنسان طيب القلب سليم العقل . وربما رأيت كما أرى أنا . لاني هذا الأمر نجسب

بل في أمور أخرى كثيرة. من الأسباب ما يحملك على الاعتقاد بأن زواجك كان سيورطك لاحتمال في متاعب وآلام لا يخفف منها إلا قليل من الحب من جانبه ، وإن كان هذا القليل محل شك كبير . فمن للؤكد أنك لو كنت تزوجته لذهت . مرارة الفقر على مر الأيام ، فمن للسلم به أنه رجل مسرف باعترافه هو نفسه ، وكل تصرفاته تنبئ بأنه لا يفقه معنى لكلمة إنكار الذات . ومن للؤكد أن مطالبه - بالإضافة إلى قلة خبرتك - التي تستنزف دخلاً ضئيلاً - وضئيلاً جداً كانت ستحلب عليك ضروبا من الفاقة والموز ، يضاعف من ألمها أنك لم تجربها ولم تخطر ببالك من قبل ، وأنا أعلم أن شعورك بالكرامة والأمانة كان سيدفعك حين تشعرين بسوء حالك إلى الاقتصاد بقدر ما في وسعك . وربما سمح هو لك بذلك طالما كنت تقتصدين من تمتك ، ولكن إذا جاوزت ذلك النطاق سوهما راعيت من اقتصاد فهل يكفي ذلك لصد تيار الخراب الذي بدأ قبل زواجك ؟ وحاولت أن تقتصدي من متعه ولذاته هو - مهما يكن ذلك في حدود الاعتدال ألا يخشى أن تحمله على النفور منك ، والندم على الزواج الذي ألقى به في هذه المآزق ، بدلاً من أن تحملي رجلاً أناانيا كهذا على الموافقة على هذا الاقتصاد ؟

فارتشت شفتا مريان ورددت كلمة « أنانى » بلهجة معناها « هل تعتقدين حقاً أنه رجل أنانى؟ » فأجابت إليفور : « إن جميع تصرفاته من البداية إلى النهاية قامت على الأنانية . فالأنانية هي جعلته يلهو بحبك ، وهي التي دفعته حيناً أحب غيرك إلى تأجيل الاعتراف بهذا الحب ، ثم هي التي حملته أخيراً على الهروب من بارتون . لقد كان رائده في كل ذلك هو متعته الخاصة .

« هذا صحيح . لم تكن سعادتي قط هي هدفه . »

واستطردت إليفور : « إنه يندم الآن على ما فعل . ولماذا يندم عليه ؟ لأنه وجد أنه لم يحقق غرضه . لم يحقق له السعادة . فظروفه المالية غير مرتبكة الآن ولا يعاني شيئاً من ذلك ولكنه يرى أنه تزوج امرأة أقل منك أنسا ولطفا . ولكن هل يفهم من ذلك أنه لو كان تزوجك لكان سعيداً ؟ إن للتعب كانت ستختلف ، كان سيقامى للتعب المالية التي لا يقاسيها الآن لأنها قد زالت . كان سيتزوج امرأة لا يشكو من طباعها وأخلاقها ، ولكنه كان سيشكو دائماً من الحاجة والفاقة . وربما لم يلبث أن يرى أن المزايا العديدة لامتلاك ضيعة خالية من الدين والحصول على دخل طيب أزم بكثير ، حتى للسعادة المنزلية ، من امرأة لا تمتاز إلا بكرم الأخلاق . »

قالت مريان : « لاريب لدى في ذلك . ولست أندم على شيء . — على شيء .
إلا حياقتي . »

قالت مسز داشوود : « بل قولي حماقة أمي يا ابنتي . لاريب أنها مسنولة . »

ولم تشأ مريان أن تسمح لأمرها بالاسترسال في ذلك . وارتاحت إليفور لشعور كل منهما بخطئها ، فأرادت أن تتجنب أي حديث في الماضي من شأنه أن يؤلم أختها ، فتأبمت الكلام في الموضوع الأول ، واستطردت من فورها :

« أعتقد أن هناك ملاحظة واحدة يمكن استخلاصها من القصة كلها — وهي أن مشاكل ولبي قد نشأت كلها من الجريمة الأولى التي ارتكبتها في حق

الفضيلة ، وهى مسلكه إزاء إليزا - وليامز . لقد كانت هذه الجريمة هى مصدر كل جريمة صغرى ومصدر متاعبه المالية كلها . »

فتأثرت مريان لهذه الملاحظة كل التأثر وأبدت موافقتها عليها . وحلت هذه للملاحظة أمها على تمداد مزايا كولونيل براندون والأضرار التى لحقت به ، بلمهجة حماسية يملحها الغرض والصدقة معا . ولكن بنتها لم يبد عليها أنها سمعت كثيراً مما قالته .

ورأت إليزور كما توقعت - أن مريان لم تزد قوة فى اليومين التاليين أو الأيام الثلاثة التالية ، كما حدث من قبل . ولكنها اعتقدت أن الزمن كليل بتحسين صحتها طالما ظلت قوية العزيمة ، وحاولت أن تبدو مستبشرة الوجه ناعمة البال . »

وعادت مرجريت فاجتمع شمل الأسرة مرة ثانية ، واستقر أفرادها فى المنزل الريفى فى هدوء . وإذا لم يواصلن درسا من المتادة بنشاط كما فعلن عند قدومهن إلى بارتون أول مرة ، فقد اعتزمن مواصاتها بنشاط فى المستقبل .

وتأقت إليزور إلى معرفة بعض الأخبار عن إدوارد . ولم تكن قد سمعت عنه شيئاً ، منذ مغادرتها لندن ، أو عرفت شيئاً جديداً عن خططه ، أو خبراً مؤكداً عن مسكنه الحالى . وقد تبادلت بعض الخطابات مع أخيها على أثر مرض مريان ، ووردت الجملة الآتية ، فى أول خطاب أرسله جون : « لانعرف شيئاً عن صاحبنا إدوارد المسكين ، ولا يمكن تحمى الأخبار فى هذا الموضوع المظهور ، ولكن المفهوم أنه لا يزال فى أكسفورد . وهذا هو كل الخبر الذى عرفته عن إدوارد عن طريق المسكينة ، لأنه لم يرد أى ذكر لاسمه فى الخطابات التالية . على أنه لم يقدر لها ان تجهل أخباره زمناً طويلاً .

فقد أرسلن الخادم صباح ذات يوم إلى أ كستر في مهمة خاصة . وبينما كان يقوم بالخدمة أمام اللائدة ، وأجاب على أسئلة سيده بشأن مهمته ، أفضى بما يلي من تلقاء نفسه :

« أعلن أنك تعرفين ياسيدي أن مستر فيرارز قد تزوج . »

ففزعت مسز داشوود فزعا شديداً ، وصوبت نظرها إلى إيلينور ، فرأتها شاحبة الوجه ، قارمت في مقعدها منشيا عليها .

ونظرت مسز داشوود من فورها في الأنجاه نفسه ، وهي تجيب عن سؤال الخادم ، فذعرت حين نظرت إلى وجه إيلينور وعرفت كم يمثل في نفسها من لوايع الأذى . ولم تدر بعد لحظة ، وقد ساءها حال مريان - أوى البنتين الأولى برطابها .

وفهم الخادم أن مس مريان أصيبت بمرض ، ففطن إلى استدعاء إحدى الخاديمات ، فحملتها بمساعدة مسز داشوود إلى الحجرة الأخرى ، وأفادت مريان من غشيتها حينئذ ، فتركها أمها في رعاية مرجريت والخادمة ، وعادت إلى إيلينور التي لم تزل مشدوهة ، ولكنها استمادت رشدها وصوتها بحيث شرعت في سؤال توماس عن مصدر الخبر ، ولكن مسز داشوود تولت عنها عبء الأسئلة كلها ، وبذلك استفادت إيلينور معرفة الخبر ، دون أن تبذل مجهوداً في السؤال عنه .

« من أخبرك يا توماس أن مستر فيرارز قد تزوج ؟ »

« رأيت مستر فيرارز بنفسى صباح اليوم في أ كستر ، كما رأيت امرأته مس

ستيل . كانوا واقفين في عربة لدى باب « نزل لندن الجديد » عندما ذهبت إلى النزل لأوصل رسالة من سالى المقيمة في البارك إلى أخيها ، وهو من سماعة البريد . وافترق أن رفعت بصري عندما مررت بالعربة ، فوقع على مس سقيل الصغرى فرفعت قبعتي ، فعرفتني ونادتني وسألت عنك ياسيدتى وعن الآنسات الصغريات ، ولاسيا مس مريان وأمرتني أن أبلغك أجمل تحياتها وتحيات مستر فيرارز وأسفهما لأنه لم تتح لهما الفرصة لزيارتك ، إذ يزعمان السفر على عجل لقضاء بعض الوقت ولكنهما عندما يمودان فسيأتيان ليزورك .

« ولكن هل أخبرتك يا توماس أنها تزوجت ؟ »

« نعم ياسيدتى . لقد ابسمت ، وقالت : إنها غيرت اسمها منذ أن قدمت إلى هذه الجهة . وكانت دائماً فتاة بشوشا صريحة مؤدبة . ولذلك تبسطت معها وتمنيت لها السرور . »

« هل كان مستر فيرارز في العربة معها ؟ »

« نعم ياسيدتى رأيته فيها مسقندا إليها بظهره ، ولكنه لم يرفع بصره . ولم يمكن رجلاً يحسن الحديث قط . »

واستطاعت إليينور أن تفسر بقايا السبب في أنه لم يلمس إلى الأمام . وربما ذهبت مسز داشوود إلى هذا التفسير نفسه .

« ألم يكن في العربة شخص آخر ؟ »

« كلا ياسيدتى ، لم يسكن فيها سواهما . »

« هل تعرف من أين قدما ؟ »

« قدما من لندن مباشرة كما أخبرتنى مس لوسى - مسز فيرارز . »

« وهل هما مسافران جهة الغرب ؟ »

« نعم ياسيدتى . ولكنهما لن يقيما هناك زمنا طويلا ، بل سيعودان

قريبا وحيثنذ يأتيان هنا . »

ثم نظرت مسز داشوود إلى ابنتها أ ولكن إليثور كانت تعرف أنهما لن يأتيا ، ورأت أصعب لوسى فى الرسالة كماها ، وكانت واثقة أن إدوارد لن يقترب منهن قط . وأخبرت أمها فى صوت خافت أنه يحتمل أن يذهب إلى مستر برات بالقرب من بليموث .

وبدا أن خبر توماس قد انتهى ، ولكن إليثور كانت ترغب فى المزيد كما يبدو .

« هل ودعتهما عند سفرهما قبل حضورك ؟ »

كلا ياسيدتى . كانت الجياد خارجة لتوها . ولكنى لم أمكث أكثر من
لك لأنى خشيت أن أتأخر . »

« هل كانت مسز فيرارز تبدو فى صحة جيدة ؟ »

« نعم ياسيدي . لقد قالت لي: إن سمحتها على مايرام . وفي نظري أنها كانت دائماً - فتاة جميلة جداً - وبدا أنها في غاية السرور » .

ولم تستطع مسز داشوود أن تفكر في أى سؤال آخر . ثم لم تلبث أن أمرت توماس بالانصراف كما أمرت برفع اللائدة بعد أن لم تصبح إليهما حاجة على السواء ، فقد أرسلت مريان تقول : إنها لن تتناول للزبد من الطعام ، وكذلك عرفت عنه مسز داشوود وإلينور ، ومن حق مرجريت أن تمد نفسها سميدة الحظ لأنها لم تضطر قبل ذلك إلى المزوف عن طعام النداء إذا لم تعان من القلق ماعانتة أختها أخيراً ، ولم يحدث لها مايجملها على المزوف عن الطعام أكثر من مرة كما حدث لأختها .

وحجى بالفاكهة والنبيد وجلست مسز داشوود وإلينور على انفراد ، ولاذت كل منهما بالصمت والتفكير فترة طويلة وخشيت مسز داشوود أن تنبس بكلمة ، ولم تجسر أن تقدم أى عزاء لإلينور ، ثم تبينت حينئذ أنها أخطأت حين صدقت وصف إيلينور لحالها ، وفهمت أن إيلينور ، روت لها قصتها مخففة في ذلك الحين حتى لايزداد حزناً على حزن ، إذ كانت مسز داشوود حزينة على مريان حينئذ ، وتبينت أنها أنخدعت بما أبدته ابنتها من حرص على رعاية شعورها ، فاعتقد أن الحب الذى كانت تفهمه جيداً فيما مضى هو فى الواقع أقل مما كانت تعتقد أو أقل مما هو عليه كائنت الآن ، وخشيت أن تكون باعترافها هذا قد أسادت إلى إيلينور ، واستهانت بها بل قست عليها ، كما خشيت أن تكون محنة مريان - لأنها محنة ناجة ماثلة أمام عينيها - قد استأثرت بمخائنها ، وأنستها أنه ربما كان لها فى إيلينور بنت تقاسى من الآلام ماتكاد تقاسيه مريان ، ولكن من المحقق أنها تقاسيه على نحو أقل استفزازاً للنفس ، وأكثر صبراً وجلداً .

(م ٢٨ - العنق و العنق)

الفصل الثامن والأربعون

أدركت إليفور الآن الفرق بين توقع حادث مؤلم ، مهما تصور المرء أنه محقق الوقوع ، وبين الحقيقة نفسها . وتبينت الآن أنها كانت تتوقع دائماً - على كره منها - أن شيئاً ما سيحدث لمنع زواج إدوارد من لوسى ، طالما بقي هو أعزب ، وأنه قد يحدث ما يهيبه أسباب السعادة للجميع ، كأن يقرر إدوارد للدول عن هذا الزواج ، أو يتوسط لديه بعض الأصدقاء ، أو ينتظر هو سنوح فرصة أفضل لإعداد منزل الزوجية . ولكن إدوارد تزوج الآن بالقل ، فأقبلت على قلبها تمنغه لما خاسره من الأمل الذى ضاعف من إيلا م الخبير .

وقد اعتراها شيء من الدهشة فى بادئ الأمر لإسراعه بالزواج قبل أن ينضرفى سلك الكهنوت (كما كانت تتصور) وبالتالي قبل أن ينظر بالأبرشية ولكنها سرعان ما رأت أنه من المحتمل أن تكون لوسى - بيمد نظرها وحرصها على التجميل بالنظرة - قد تقاضت عن كل شيء إلا خطر التأجيل ، فتزوجا فى لندن وأسرها بالسفر الى منزل خالما . ترى ماذا كان شعور إدوارد عندما رأى نفسه على مسيرة أربعة أميال من بارتون ، وعندما رأى خادم أمها ، وعندما سمع رسالة لوسى !

وظلت أنهما سيستقران قريباً فى ديلافورد - للكان الذى تحاف كثير من الأسباب لتحميلها على الاهتمام به - للكان الذى تمنى أن تراه ، ولكنها ترضب فى تجنيه .

وتصورتهما فى منزل الأبرشية بعد لحظة ، فرأت فى لوسى للدبرة البارعة

النشيطه التي تجمع في وقت واحد بين الرغبة في المظهر الأنيق ، والرغبة في الاقتصاد الشديد ، وتنجل من أن تنهم بنصف مآراعيه من ضروب الاقتصاد ، وتبتنى مصلحتها في كل فكرة ، فتخطب ود كولونيل براندون ومسز جننجز ، وكل صديق ترى . أما إدوارد فلم تدر ماذا تتصوره ، ولما تمنى أن تتصوره - سعيد أو غير سعيد - ولم يسرها شيء - فأعرضت عن التفكير في تصويره .

وأخذت إليانور تمنى نفسها بأن أحد أقاربهم في لندن سيوافقين بالخبر ، ويقدم لمن معلومات أوفى ، ولكن مريوم في إنريوم ، ولم يرد خطاب ولا خبر ، فأخذت تنحى باللائمة على كل صديق غائب ، وإن لم تقطع بأنه يستحق اللوم ، وتهمه بعدم الاهتمام أو الكسل .

وسألت أمها : « متى تكتبين لكولونيل براندون يا أماء ؟ » وكان هذا السؤال منبعثاً من لفتها على سماع شيء جديد .

« كتبت له يا حبيبتى في الأسبوع الماضي ، وآمل أن أراه لأن أتلقى منه خطاباً مرة أخرى . لقد ألححت عليه في الحضور إلينا . ولن أدهش إذا زارنا اليوم أو غداً أو أي يوم آخر » .

وكان هذا يعد خبراً جديداً وأملاً جديراً بالتطلع إليه ، لأن كولونيل براندون سيحمل معه لاجمالة بعض الأنباء .

وما أن جزمتم بذلك حتى لاح لها شيخ رجل يمتطي جواداً ، فأبجمه نظرهما إلى النافذة . ووقف الرجل عند الباب . كان رجلاً ، كان هو كولونيل براندون نفسه . الآن ستسمع منه المزيد ، فارتعدت لما توقعت سماعه . ولكن لم يكن هو

كولونيل براندون - لاهيته - ولاطوله . لوجاز لها أن تقول شيئاً ، فقالت إنه إدوارد . أعادت النظر . لقد أرجل لنوه . لقد صدق ظنهما - فقد كان هو إدوارد . ابتعدت عن النافذة وجلست « لقد جاء من منزل مستر برات بقصد زيارتنا ، فلا تدرع برباطة الجأش ، فلا ضبط النفس » .

ورأت بعد لحظة أن أمها ومريان شعرتا بخطأ ظنهما ، ولاحظت أنه قد امتنع لونهما ، وأنهما ينظران إليها وتها مسان ببعض العبارات ، وودت لو استطاعت أن تتكلم ، وأن تفهمها أنها ترجو ألا يظهر في سلوكهما نحوه ، ما يشعر بالفتور أو الاستخفاف ، ولكنها لم تستطع أن تنبس ببنت شفة ، واضطرت أن تترك كلا منهما تتصرف بحسب ما يترأى لها .

ولم يرتفع صوت بالكلام ، بل انتظر الجميع حضور الزائر ، وسمعن وقع قدميه على الطريق للقروش بالحصباء ، وما هي إلا لحظة حتى كان في الدهليز ، وبعد لحظة كان أمامهن .

ولم يكن وجهه عند دخول الحجرة يتم على شدة السرور حتى بلقاء إينور . كان وجهه شاحباً من الاضطراب ، وبدا عليه وكأنه يتوجس خيفة من سوء الاستقبال ، ويشعر أنه لا يستحق استقبالا كريماً . ولكن مسر داشوود استقبله بنظرة تدل على السرور للمصطنع ، ومدت يدها إليه ، ورحبت به ، وذلك تزولاً - كما اعتقدت - على رغبة بنتها ، لأنها اعترفت في قرارة نفسها حينئذ أن تسترشد برأيها في كل شيء .

فخبر لونه ، وتمتم بحجوب غير مفهوم ، وتمحرت شفتا إينور مع شفتي أمها .

وعندما انتهت لحظة الاستقبال تمنت لو كانت صالحتها هي أيضاً . ولكن الأوان كان قد فات . وبوجه يريد أن يكون طلقاً جلست مرة أخرى ، وتحديث عن العقس .

واحتجبت مريان بقدر الإمكان عن الأناظر لتخفي ألها . وكانت مرجريت تفهم بعض القضية لا كلها فرأت من الواجب أن تلتزم الوتار ، فجلست بعيداً عنه بقدر الإمكان ، ولتتزم الصمت الشديد .

ولما فرغت إلتينور من إبداء سرورها بخفاف الجوف في هذا الفصل حدث صمت رهيب ، ووضعت مسز داشوود نهاية لهذا الصمت ، لأنها شعرت أنه يجب عليها أن تعرب عن رجائها أن يكون قد ترك مسز فيرارز في صحة طيبة .

فأجاب بالإيجاب بلهجة سريعة .

ثم ساد الصمت مرة أخرى .

واعترفت إلتينور أن تحاول الكلام ، وإن خشيت أن يرتفع رنين صوتها فقالت :

« هل مسز فيرارز في لونيستيل ؟ »

فأجاب بلهجة المهشة « في لونيستيل اكلا ، إن أمي في لندن » .

فقالت إلتينور : وقد رفعت بعض الشغل من اللاندة : « أريد أن أسأل عن

مسز إدوارد فيرارز » .

ولم تجرؤ أن ترفع بصرها ، ولكن كلامن أمها وصريران سلطتا نظرها عليه
فخبر لونه وبداعليه الارتباك ونظر نظرة للرتاب وقال بعد تردد :

« لملك تريديني - تريدين مسز - مسز روبرت فيرازز » .

فرددت مريان وأمهسا بلهجة تم على أعظم دهشة « مسز روبرت
فيرازز » !

ومع أن إينور لم تستطع الكلام فإن عينها انقدتا عليه بنفس الدهشة
والهفوة . فنهض من مقعده ، وسار إلى النافذة ، والظاهر أنه لم يدر ماذا يفعل
وتناول مقصا موضوعا عليها وبينما أتلف اللقص وغلافه بأن مرق الأخير إرباوهو
يتكلم ، قال بلهجة سريعة :

« لملك لاتملين - ربمالم تسمى أن أخى تزوج أخيراً - الصنرى -
مسي لوسي ستيل » .

وردد الجميع كلماته بدهشة يقصدونها الوصف ماعدا إينور التي جلست
وقد حنت رأسها على الشغل في حالة من الاضطراب جعلتها لاندرى
أين هي .

قال : « نعم ، تزوجا في الأسبوع الماضي ، وهما الآن في دولس » .

ولم تستطع إينور الجلوس أكثر من ذلك . وكادت تجرى من الحجرة ،
وما أن أغلقت الباب حتى بسكت من الفرع الذي ظنت بادىء الرأي أنه لن

ينقطع أبدا . وراها إدوارد الذى كان حتى الآن ينظر فى كل مكان إلا إليها ،
تسرع بالخروج ، وربما رأى أو سمع - بكاءها لأنه لم يلبث أن استغرق فى طوفان
فى أحلام اليقظة لم تستطع كلمات مسز داشوود أن تقطعها ، لاهى ولا أسئلتها ولا
حديثها الودى . وأخيراً - وبدون أن يفوه بكلمة - غادر الحجره ، وسار
صوب القرية - تاركا إياهن فى أعظم دهشة وحيرة لمثل هذا التغير العجيب
المفاجئ الذى طرأ على موقفه - حيرة لم يجدن سبيلا للتقليل منها إلا بالحدس
والتخمين .

الفصل التاسع والأربعون

كان من المحقق أن إدوارد أصبح طليقاً ، على الرغم من أن أفراد الأسرة جميعاً لم يستطعن في الظاهر تعاميل ذلك . وكان من السهل أن يعرف الجميع الغرض الذي يستخدم فيه هذه الحرية ، لأنه بعد أن عرف مزايا الخطبة الطائشة التي عقدها بدون موافقة أمه منذ أكثر من أربع سنوات كان أقل ما ينتظر منه في حالة فشل هذه الخطبة أن يمقد خطبة أخرى من فوره .

والواقع أن مهمته في بارتون كانت مهمة بسيطة . لم تكن إلا لیسأل إليينور أن تزوجه . وإذا علم أنه لم يكن عديم الخبرة في هذا الأمر فربما كان من الغريب أن يشعر بالحرج أو الارتباك كما حدث في الحالة الراهنة ، وأن يكون في حاجة إلى التشجيع والمواءمات .

على أنه لا حاجة بنا إلى ذكر كيف أقدم على هذا القرار ومتى سنحت له الفرصة لتنفيذه ، ولا بأى لهجة أعرب عن قصده ، ولا كيف تم استقباله .

وكل ما يمكن أن يقال هو هذا : عندما جلسن جميعاً إلى المائدة في الساعة الرابعة بعد وصوله بنحو ثلاث ساعات ظفر زوجته ، وحصل على موافقة أمها . ولم يعرب عن حبه بلمحة تدل على نشوة الطرب فنحسب ، بل لقد كان في نظر العقل والحقيقة واحداً من أسعد الناس . والواقع أنه كان يشعر بسرور غير عادي إذ كان يشعر بأكثر من نشوة الانتصار العادي التي يشعر بها من ظفر برضاء محبوبته ، وهو الأمر الذي أنعم قلبه بالسرور ، ورفع من روحه للمعزية . لقد

فسخت الخطبة دون أن يشعر بشيء من وخز الضمير ، وتمرحر من الأغلال التي كانت علة شقائه ، من امرأة فر قلبه منها منذ زمن طويل ، وسما في الحال إلى كنف أخرى يشعر في ظلها بالطمأنينة التي لاشك أن كاد يقطع الأمل منها بمجرد أن تآقت نفسه إليها . وتجل هذا التغيير بجلاء على وجهه الذي تألق بالبشر والسرور على نحو لم يشهده أصدقاؤه من قبل .

ثم فصح قلبه لإلينور واعترف بكل عيوبه وأخطائه ، وتحدث عن محبته الصبيانية للومى بالوقار الفلسفي الذي يليق بسن الرابعة والعشرين .

قال : « كان حباطنا باطلاً من جانبي ، نشأ عن جهلي بأحوال الدنيا - وعن البطالة . ولو أن أمي أتاحت لي مهنة تشغل وقتي عندما بلغت الثامنة عشرة وخرجت من كنف مستبرات لما حدث هذا قط فيما أظن ، بل فيما أعتقد ، لأنه على الرغم من أنني غادرت لوجيمتيل وأنا أشعر بحب جارف لابنة أخته حسبما كنت أعتقد حينئذ ، فإنه لو كان لي مهنة أو عمل يشغل وقتي ، ويبدني بضعة شهور ، لتسبت هذا الحب عاجلاً ، ولا سيما إذا اختلطت بالناس وهو أمر لم يكن منه بد في تلك الحالة . ولكن بدلاً من أن يكون لي عمل أزالوه - بدلاً من أن تخار لي أي مهنة أمارسها أو تسمح لي باختيارها ، عدت إلى منزلي لأعيش في بطالة تامة . وظلت أطول السنة الأولى بعد ذلك لا أجد حتى هذا العمل الاسمي ألا وهو الالتحاق بالجامعة ، إذ أنني لم ألتحق بأكسفورد إلا حينما بلغت التاسعة عشرة . ولذلك لم أجد في العالم عملاً أزالوه إلا التفكير في الحب . ولما كانت أمي لا تتوفر لي أسباب الراحة في منزلي وكنت لا أجد صديقاً أو رفيقاً في أمي ، وأكره التعرف إلى أي صديق جديد ، كان من الطبيعي أن

اختلف إلى لونغمبيل حيث أشعر بأني بين أهلي وعشيرتي وأزول بينهم على
الرحب والسعة ، ولذلك قضيت معظم وقتي هناك من سن الثامنة عشرة إلى التاسعة
عشرة . وكانت لوسي تمرني بلطفها وكرمها ، وكانت وسيمة الحما أيضا ، أو
هذا ما اعتقدته على الأقل حينذاك . ولم تكن لي خبرة بالنساء ، فلم أستطع أن
أقارن بينها وبين غيرها ، ولم أر عيباً من عيوبها . وإذا روعيت جميع الاعتبارات
فأرجو - على الرغم من أن هذه الخطبة كانت ضرباً من الحماقة منذ عقدها -
ألا يظن أن هذه الحماقة كانت في ذلك الوقت أمراً يتناقى مع طبيعة البشر
أو ذنباً لا يتفتر .

وكان التعبير الذي أحدثته بضع ساعات في نفوس آل داشوود وسعادتهن
كبيراً - كبيراً جداً - إلى حد ينبيء بأنهن جميعاً سيمتحن ببليلة ساهرة . واستبد
الفرح بمسز داشوود حتى شملتها الحسيرة ، فلم تدر كيف توفى إدوارد حقه من
الحب ، ولا كيف توفى إلينور حقه من التناء ، ولا كيف تعرب عن شكرها
لتخلصه من تلك الخطبة مع الاحتفاظ بكرامته ، ولا كيف تتيح لها الفرصة
ليتجاذبا أطراف الحديث في حرية تامة ، وتنعم في الوقت نفسه - كما كانت
تتمنى - بروقيتهما والاجتماع معهما .

أما مريان فلم تستطع أن تعبر عن سعادتها إلا بالدموع ، وكانت تعقد
للقارنات تارة وتشعر بالأسى تارة أخرى . ومع أن فرحها كان صادقاً كحبها
لأختها ، فإنه كان قويا إلى حد لا يمكن التعبير عنه بالبشر أو الكلام .

ولكن إلينور - كيف يمكن وصف شعورها ؟ - لقد اتناها منذ اللحظة

الأولى التي علت فيها بزواج لوسى من شخص آخر ، وأن إدوارد قد فارقها ، إلى اللحظة التي تلت ذلك مباشرة والتي حقق فيها إدوارد أمه - جميع ألوان الشعور إلا الشعور بالطمأنينة . ولكن حينما انقضت اللحظة الثانية ، وحينما وجدت أن كل شك وكل قلق قد زال ، وقارنت حالها بما كان عليه أخيراً ، ورأت أنه تخلص بطريقة شريفة من خطبته السابقة ، ورأت أنه بادر بالانتفاع من هذا الخلاص فتحدث إليها وأفضى لها بما يمكنه من حب رقيق دائم على نحو ما كانت تظن من قبل - غمرتها نشوة الشعور بالسعادة والهناء ، وقضت عدة ساعات حتى استرد عقلها رزائته ، وقلبا طمأنينته على الرغم من أن النفس الانسانية تألف بسهولة التغير إلى الأحسن .

ثم تقرر أن يبقى إدوارد في المنزل الربيع أسبوعاً على الأقل لأنه من المستحيل - برغم مشاغله الأخرى - أن يسكني أقل من أسبوع حتى يتمتع برؤية إينور ، ويقول نصف ما يجب أن يقال عن الماضي والحاضر والمستقبل ، فإنه على الرغم من أن أى شخصين عاقلين يستطيعان - إذا اتفهما في حديث متواصل بضع ساعات - أن يبعثا من الموضوعات المشتركة أكثر مما يمكن بحته في العادة ، فإن أمر العاشقين يختلف عن ذلك ، إذ لا يكاد ينتهى الحديث بينهما حتى يعاد عشرين مرة على الأقل . وكان زواج لوسى أول ما تحدث فيه العاشقان بالطبع ، كما كان مثاراً للدهشة التي لا تنتقطع والتي لها ما يبررها . وكانت معرفة إينور الخاصة بكل من الزوجين من الأمور التي جعلت هذا الزواج يبدو في نظرها من كل الوجوه من أغرب ماسمت من الحوادث التي يحار العقل في تمثيلها . فلم تستطع أن تفهم كيف التقى الزوجان ولا الإغراء الذي جذب روبرت إلى الزواج من لوسى التي سمته يتحدث

عن جمالها بدون أن يبدي أى إعجاب ، وهى فتاة كانت مخطوبة لأخيه من قبل
وبسببها نبذ هذا الأخ من الأسرة . لقد كان هذا الزواج أمراً ينشرح له صدرها ،
ويستخر منه خيالها ، ويمحار فيه عقلها .

وكان التليل الوحيد الذى استطاع به إدوارد أن يفسر هذا الأمر هو أنه
عندما التقيا ، عرضاً لأول مرة ، تملقت لوسى غروره ، وأفضى هذا شيئاً فشيئاً إلى
كل ما حدث بعد ذلك . وهنا تذكرت إينور أن روبرت سبق أن أخبرها فى
هارلى ستريت بما كان يمكن أن تؤدى إليه وساطته فى مسألة أخيه لو أنها تمت فى
الوقت المناسب ، فرددت ذلك على مسامع إدوارد .

فما هو إلا أن قال إدوارد : « ذلك أشبه بأخلاق روبرت تماماً » ثم أردف
« وربما كان ذلك فى رأسه عندما تعارفاً أول مرة ، وربما لم تفكر لوسى بآدى
الرأى إلا فى حمله على بذل مساعيه الحميدة لصالحى ، وربما نشأت مقاصد أخرى
بعد ذلك » .

على أنه لم يدركم دام الاتصال بينهما ، لأنه لم يكن لديه فى إكسفورد - التى
لبث فيها باختياره منذ أن غادر لندن - وسيلة لتلقى أخبارها إلا أنها هى نفسها ،
وكانت خطاباتها حتى اللحظة الأخيرة لا تقبل فى عدها ولا فى لهجتها الودية عما
عماجرت به العادة . ولذلك لم تداخله أدنى ريبة تمد ذهنه لما جرى . وأخيراً عندما
يرح الخفاء فى خطاب أرسلته هى نفسها ظل كالمشده موزعاً بين العجب والبهيم
وبين الفرح للخلاص منها ، وألقى الخطاب إلى إينور :

سيدي العزيز

لما كنت أعتقد أن حبك قد زال من قلبي منذ زمن طويل ، فقد رأيت غمسي في حل من أن أصبغ حبي على شخص آخر ، وليس عندي شك في أني سأشعر بالسعادة معه ، كما ظننت فيما مضى أني سأشعر بالسعادة معك . ولكنني استنكف أن أقبل يد إنسان ، وقلبي ملك لآخر . إنني آتني بإخلاص أن توفق في اختيار زوجتك . ولن يقع على اللوم إننا لم نظل على الدوام صديقين كريمين كما تقضى به صلة القربى التي تربط بيننا . وأستطيع أن أقول وأنا مطمئنة : إنني لأضمر لك سوءا . وأنا واثقة أنك ستكون كريما فلا تسيء إلينا . استولى أخوك على كل حبي . وإذا كان أحدنا لا يستطيع أن يعيش بدون الآخر فقد عدنا لننود من اللذبح ، ونحن الآن في طريقنا إلى دولس ، لنقضى فيها بضعة أسابيع لأن أخاك يترق كثيرا إلى رؤية هذا المكان . ولكنني رأيت أولاً أن أبعث إليك بهذه السطور القليلة وسأظل دائما

صديقتك وأختك المحلصة التي تحب لك الخير

لوسى فيرارز

لقد أحرقت جميع خطاباتك وسأرد الصورة عند سنوح أول فرصة . أرجو أن تحرق خطاباتي - ولكن أرحب بأن تحتفظ بخاتمي وخصلة شعري .

فقرأت إليونور الخطاب وأعادته إليه دون تعليق .

قال إدوارد : «لأن أسألك عن رأيك في إنشائه . وما كنت لأطملك في الأيام

للماضية على أى خطاب منها . إنه قبيح جدا فى حالة الزوجة ! كم خجلت عندما قرأت الصفحات التى خطبها بيسينها ! - وأنا أعتقد أن فى وسعى أن أقول هذا هو أول خطاب تلقيته منها منذ أن نشأ بيننا هذا الحب الأحمق ، يكفر مضمونه عن سيئات أسلوبه .

قالت إينور ، بعد أن أطرقت هنيهة : « كيفما كان الأمر ، فقد تزوجا بالفعل ، وجلبت أمك على نفسها أنسب عقاب لها ، فالثروة التى وهبتها روبرت - بسبب استيائها منك - مكنته من أن يختار زوجته كما يشاء ، فكأنها رشت بالفعل أحد أولادها بألف جنيه فى المام لىآنى نفس الشيء الذى حرمت ابنتها الآخر من الأثر لأنه كان ينوى أن يفعله . وأظن أنه ان يسوءها زواج روبرت من لوسى كما كان يسوءها زواجك منها . »

« سيسوءها ذلك أكثر لأنها كانت تحب روبرت دائما - سيسوءها ذلك أكثر ، ولأنها تحبه ستمفوعه عاجلاً . »

ولم يدر إدوارد حقيقة الحال بينهما فى ذلك الوقت الراهن ، لأنه لم يحاول الاتصال بأى فرد من أفراد أسرته حتى ذلك الوقت ، فقد غادر إكسفورد فى غضون أربع وعشرين ساعة بعد وصول خطاب لوسى ، وإذا كان هدفه الوحيد هو سلوك أقرب طريق إلى بارتون فإنه لم يجد متسما للتفكير فى أية خطة أخرى لآتمت بصلة للمهمة التى من أجلها سلك هذا الطريق . ولم يكن فى وسعه أن يفعل أى شىء آخر حتى يتأكد من مصيره مع مس داشوود . كان يعتقد أنه إذا أسرع فى السعى إلى معرفة هذا المصير ، فإنه على العموم لن يلقى استقبالا قاسيا جدا على الرغم من الغيرة التى داخلته يوما ما من كولونيل براندون ، وعلى الرغم من تواضعه فى تقدير مواهبه ، والأدب الذى يتحدث به عن شكوكه . وكان عليه

أن يفصح عن رغبته ، وفعلًا أفصح عنها بأسلوب جميل . أما ما يحتمل أن يقوله عن الموضوع بعد عام آخر فهو متروك لخيال الأزواج والزوجات .

وقد اتضح لإلينور بجلاء أن لوسي قصدت إلى الخلداع والتنفيس عن حقدِها عليه في الرسالة التي بلغتْها توماس . والآن وقد عرف إدوارد أخلاقها ، لم يصبح لديه شك في أنها فتاة تتصف بالخسة وخبث الطوية . ومم أن عينيه قد تفتحتا منذ زمن طويل - حتى قبل أن يعرف إلينور - على جهلها وضيق أقدِّها فإنه كان يمزوها إلى عدم تعاليمها وكان يعتقد إلى أن وصله خطابها الأخير أنها فتاة رقيقة الطباع ، طيبة القلب ، وتحمل له كل الحب ، وما من شيء سوى هذا الاعتقاد . كان يحول بينه وبين إنهاء خطبتها التي ظلت مصدرًا دائمًا لقلقه وأسفه ، وذلك قبل أن يتكشف أمرها لأمه وتثير عليه نائرتها بزمن طويل .

قال : « رأيت من واجبي - بصرف النظر عن شعوري - أن أخيرها بين استمرار الخطبة أو إنهاؤها حينما نبذتني أمي ، وصار واضحًا أنه لا صديق لي في العالم يشد أزرى . وفي مثل هذا الموقف الذي لا يبدو فيه ما يثير الطمع أو الغرور في نفس أي إنسان ، هل يتسنى لي أن أظن حينما أصرت على مشاركتي في مصيري ، مهما كان بالخاص وحساس شديد أن هناك ما يحملها على ذلك سوى الحب الذي لا تشوبه أية شائبة من المصلحة أو الغرض ؟ وحتى الآن لا يسعني أن أفهم الدافع لها إلى هذا الأمر ، وما الفائدة التي تصورت أنها ستعود عليها من أن تتزوج رجلاً لا تسكن له أدنى ذرة من الحب ولا يملك سوى أُنَّى جنبيه في العالم . ولم يكن في وسعها أن تتوقع أن كولونيل براندون سيمطيني أبرشية » .

« كلا ، ربما ظننت أن شيئاً سيحدث لصالحك ، وأن أسرتك قد تبطف عليك مع مرور الزمن . وعلى أى حال لم تخسر هي شيئاً باستمرار الخطبة لأنه ثبت أنها لم تمنعها من أن تحب غيرك ، وتفعل ما تريد . وزواجها بك كان بلاشك يكسبها حسن السمعة ، وربما أكسبها الاحترام بين صديقاتها ، وإذا لم تكن هناك فائدة أخرى ، فمن الخير لها أن تزوجك بدلا من أن تكون عذبة » .

وسرعان ما اقتنع إدوارد بالطبع بأن سلوك لوسى أمر لاغرابة فيه على الإطلاق وأنه لا أقرب إلى بدائه الأمور من الدافع الذى دفعها إليه .

وعابت عليه إينور - بنفس التسوية التى يعيب بها النساء الحماقة التى تمد من فضائلهن - لأنه قضى وقتاً طويلاً مهمين فى نورلاند ، كان يجب أن يشمر فيه بدم الوفاء .

قالت : « كان مسلكك - بلاريب - خاطئاً جداً لأنه - بصرف النظر عن اعتقادى الخاص - جعل أقرارنا يتصورون ويتوقعون ما لم يكن فى استطاعتك أن تفعله ، نظراً للوضع الذى كنت فيه حينئذ » .

ولم يستطع أن يدافع عن نفسه بشئ إلا أنه كان لا يعرف قلبه ، وأنه أخطأ فى ثقته بخطبته .

« كنت من السذاجة بحيث ظننت أنه لاخطر فى مجالتك وصحبتك ، مادمت قد وضعت ثقى فى امرأة أخرى . وأدركت أن معنى الخطبة هو أن أصون قلبى كما أصون شرقى . ثم شعرت بالإعجاب بك ، ولكن قلت لنفسى ليس ذلك إلا صداقة ، ولم أدر أين وصلت إلى أن بدأت أقرن بينك وبين لوسى . وأظن (م ٢٩ - العنق والباطنة)

أنتى كنت مخطئًا بعد ذلك فى إطالة الإقامة فى سسكس وكانت المحبة التى اتقمت بها نفسى لآتخرج عن هذه الكلمات : إن الضرر واقع على أنا . وأنا لا أضر إلا نفسى . »

فاتبست إلبنور وهزت رأسها .

وسر إدوارد عندما سمع بقرب زيارة كولونيل براندون للمنزل الرقيق إذ كان يرغب فى توثيق عرى الصداقة معه وأن تتاح له الفرصة لإقناعه بأنه لم يعد مستاء لمنحه إياه أبرشية ديلافورد وقال : « من المؤكد أنه يعتقد بعد الشكر الذى قدمته بطريقة غير كريمة أنتى لم أغفر له هذه الهبة قط . »

ثم أبدى هو نفسه دهشة لأنه لم يزر الأبرشية حتى الآن . ولكنه كان قليل الاهتمام بالأمر لدرجة أنه كان يدين لإلبنور بكل ما يعرفه عن المنزل والحديقة والأرض وساحة الأبرشية وحالة البلاد ومقدار الشعور . وكانت إلبنور قد سمعت الكثير عنها من كولونيل براندون وممته باهتمام كبير حتى أصبحت حجة فى الموضوع .

بقيت بعد ذلك مسألة معلقة لم يبت فيها ، وعقبته لابد من تذليلها . لقد جمعتها المحبة للتبادة التى يتوجها ما أعرب عنه أصدقاؤهما المخلصون من الرضا والاستحسان ، وكانت معرفة كل منهما الوثيقة بالآخر تبشر بأنهما سيعيشان فى ظل السعادة . وكل ما كانا يحتاجان إليه هو أن يسكون لهما دخل ينفقان منه . وكان دخل إدوارد ألقين من الجنيهات ودخلها أنا بالإضافة إلى دخل الأبرشية . وهذا كل ما يمكن أن يقال إنهما يملكانه ، لأنه كان من المستحيل أن تقدم لهما مسز داشوود شيئًا . ولم تسكس أواصر المحبة قد توفقت بينهما بحيث يستطيعان أن يعيشا فى رغد بثلاثمائة وخمسين جنيهًا فى العام .

ولم يقطع إدوارد الأمل في عطف أمه عليه ، وكان يعتمد على هذا الأمل في زيادة دخله ولكن الينور لم تعمل على ذلك لأنها رأت أن زواجها بإدوارد معناه أنه لن يستطيع أن يتزوج من مس مورنون ، وأن أمه أثبتت على اختياره لها بأنه أخف ضرراً من اختيار لوسي ، ولذلك خشيت أن جريمة روبرت لن تستخدم أي غرض آخر سوى إثناء فاني .

وصل كولونيل براندون بعد أربعة أيام من وصول إدوارد ، ليتم فرحة مسز داشوود ، وبوليها شرف استقبال للزيد من الأصدقاء الذين زاد عددهم — لأول مرة منذ إقامتها في بارتون — عما يتسع له المنزل ، فقرر أن يحتفظ إدوارد بميزة الزائر الأول ، ولذلك كان كولونيل براندون يمشي كل ليلة إلى مسكنه في البارك ثم يعود في الصباح للبكر ليقطع على العاشقين أول حديث لهما قبل طمام القطور .

وكان كولونيل براندون قد قضى ثلاثة أسابيع في ديلافورد حيث كان عمله الوحيد في ساعات المساء على الأقل - وتقدير عدم التناسب بين سن الست والثلاثين ، وسن السابعة عشرة ، ثم قدم إلى بارتون وهو في حالة نفسية سيئة لا يزيلها إلا نظرات مريان الحانية ، واحتفاؤها بمقدمه ، وكلمات أمها للشجعة . وقد سرى عنه عندما اجتمع بهؤلاء الأصدقاء ، وسمع منهم كلمات التناء . ولم يكن قد بلغه نبأ زواج لوسي ، ولا يدري شيئاً عما حدث . وقضى الساعات الأولى من زيارته وهو يستمع ويتمجب ، وشرحت له مسز داشوود كل شيء ، ووجد أسباباً جديدة تحمله على السرور بما أسداه مستر فيرارز ، لأنه سيعود في النهاية بالفائدة على الينور .

ولا حاجة بنا إلى القول إن الرجلين ازداد تقدير كل منهما للآخر بازدياد تمارفهما ، وما كان الأمر ليكون بخلاف ذلك لأن تشابههما في اللبابة الطيبة ، وفي حسن الإدراك ، وفي الطباع وطريقة التفكير ، كان كافياً لتوثيق عرى الصداقة بينهما دون أى داع آخر . ولكن حبهما لأختين ، وحب كل أخت للأخرى ، جعل الحب للتبادل بينهما أمراً محتملاً وعاجلاً ولولا ذلك لكان من المحتمل أن يكون هذا الحب رهناً بالزمن والرأى الشخصى .

ووصلت من لندن خطابات لو كانت وصلت قبل ذلك بأيام قلائل لاهتزلة كل عرق ينبض فى جسم إليفور فرحاً وسروراً ، ولكنها قرأتها الآن بتور . كتبت مسز جنجرت لتحكى القصة العجيبة ، وتصب جام سخطها على الفتاة الخادعة ناكثة الود ، وترى لحال إدوارد المسكين الذى أحب هذه الفتاة السليطة النافهة ، وأصبح بشهادة الجميع كبير القلب فى أكسفورد واستطردت « أعتقد أنه لم يحدث قط مثل هذا الخداع واللكر لأنه منذ يومين فقط زارتنى لوسى وجلست معى ساعتين ، ولم تخامر فى أدنى ريبة ولا نانسى نفسها ، وهى التى جاءتنى - وارحمتاه لها ! تصرخ وتبكى فى الند وهى فى فزع شديد خوفاً من مسز فيرارز - ولا تدرى كيف تصل إلى بليموث ، لأنه يبدو أن لوسى اقترضت كل تقودها قبل أن تتوجه لقد قرأتها لكى تنفثها على زينتها فيما أظن ، وليس مع نانسى المسكينة من الدنيا سبعة شلنات - لذلك سرنى أن أعطيها خمسة جنيهات لتسافر بها إلى أكسفورد حيث تقيم مع مسز بيرجس ثلاثة أو أربعة أسابيع رجاء أن تلتقى بالداكتور مرته أخرى . وحب أن أقول إن امتناع لوسى عن أخذها معها فى العربة هو أسوأ ما فى الأمر - مسكين مستر إدوارد ! إن ذكره لانتبرح فؤادى ، ولكن يجب أن نستدعيه إلى بارتون ، كما يجب على مس مريان أن ترفه عنه . »

أما خطابات مستر داشوود فكانت أقرب إلى الجدل . قال : إن مسز فيرارز هي أنس النساء ، وإن فاني المسكينة عانت ألأما مبرحة بسبب إحساسها المرهف وأبدى دهشته لحياتهما بعد تلقى هذه الضربة ، وحمد الله على ذلك . وكانت جريمة روبرت لا تنتفر أما جريمة لوسى فهي أدهى وأمر . وليس من الممكن أن يجرى ذكر أحدهما أمام مسز فيرارز مرة أخرى وحتى إذا أغراها أحد بالمعوق عن ابنها في المستقبل ، فلن تعترف بأن زوجته هي أبنها ، ولن تسمح لها بالظهور في حضرتها . وقد زادت السرية التي أتماها زواجهما من فظاعة الجريمة لأنه لو أحس الآخرون بأدنى شبهة أوربية لآخذوا الإجراءات المناسبة لمنع الزواج . وأهاب بإلينور أن تشاركه الأسف لأنه كان من الخير ألا تتم خطبة إدوارد ولوسى حتى لا تكون الأخيرة سببا لزيادة شقاء الأسرة ، واستطرد يقول :

« لم تذكر مسز فيرارز اسم إدوارد حتى الآن ، وهو أمر لا يدهشنا ولكن مما يدعو إلى مزيد الدهشة أننا لم نتلق من إدوارد خطابا في هذا الشأن ، ولعل الذي دعاه إلى الصمت هو خوفه من إغضاب الأسرة ، ولذلك فإني سأكتب إليه في اكسفورد كلمة موجزة أشير فيها إلى أنني وأخته نعتقد أن خطابا يبدي فيه فروض الطاعة اللائقة ، ويوجهه إلى فاني التي تتولى إطلاع أمه عليه سيكون له وقع جميل في النفوس ، لأننا جميعا نعرف حنان مسز فيرارز ورقة قلبها ، وأنها لاتمنى شيئا أكثر من أن تكون على وفاق مع أولادها .

وكانت هذه الفقرة ذات أهمية بالنسبة لمستقبل إدوارد وسلوكه ، إذ حملته على محاولة إصلاح ذات البين وإن لم يكن على نحو ما أشار إليه أخوها وأختها .

فردد : « خطاب يتضمن فروض الطاعة اللائقة ! » هل يريدان مني أن أنس

من أمي المعوق عن جحود روبرت لها ، والإخلال بالشرف في حقى - لا يمكن أن أقدم فروض الطاعة - إننى لم أشعر بالخضوع أو الندم بسبب ماجرى . بل أصبحت أشعر بالسعادة الكبرى ، ولكن هذا لا يهم . أنا لأعرف شيئاً من فروض الطاعة التى يليق بى أن أقدمها » .

فقلت إليزبت : « جدير بك أن تسأل المعوق لأنك أسأت - وأظن أنه يحسن بك الآن أن تعرب عن قلقك اقمق هذه الخطبة التى جلبت عليك غضب أمك » . فوافق على ذلك .

« وعندما معوق عنك قد يكون من المناسب أن تبدى قليلاً من الخضوع أثناء اعترافك بالخطبة الثانية التى تكاد تبدو فى نظرها هى حقا كالخطبة الأولى . ولم يعارض فى ذلك ، ولكنه ظل يعارض فكرة الخطاب الذى يقدم فيه فروض الطاعة اللائمة . وتيسيراً للأمر رتبى بعد أن أبدى استعداداً لتقديم فروض الطاعة باللسان لا بالكتابة أن يتوجه إلى فاني ، ويطلب إليها أن تشفع له لدى والدته ، وقالت مريان بصراحتها الجديدة : إذا أهم جون وفاني بإصلاح ذات البين فسأعقد أنهما لا يخجلان من الفضل تماماً . »

وبعد أن قضى كولونيل براندون فى زيارتهن مالا يزيد على ثلاثة أيام أو أربعة غادر بارتون مع إدوارد على أن يسافرا إلى ديلافورد مباشرة حتى يتسنى لإدوارد أن يعرف مسكنه الجديد بنفسه ، ويساعدولى نعمته وصديقه فى تمرير الاصطلاحات المطلوبة ، وبعد أن يقضى به إدوارد يومين يتوجه إلى لندن .

الفصل الخمسون

بعد أن أبدت مسز فيرارز من المارضة الشديدة الناتجة ماينفى عنها الوصمة التي كانت تخشى دائماً أن تسهم بها وهي فرط الحنان، سمحت لإدوارد بالدخول عليها، واعترفت بينوته مرة أخرى .

وكانت الأحوال قد تغيرت بأسرتها كثيراً في الأيام الأخيرة ، فقد عاشت هي عدة سنوات ولها ولدان ، ولكن جريمة إدوارد ونبذته من الأسرة منذ بضعة أسابيع حرمتها من أحد الولدين ، ثم عادت فنبذت روبرت كذلك لمدة أسبوعين ، فأصبحت محرومة من الولدين ، والآن وقد ردت الحياة إلى إدوارد قد أصبح لها ولد واحد .

وعلى الرغم من أنها سمحت له بالحياة مرة أخرى ، لم يشعر هو بالطمانينة إلى استمرار هذه الحياة ، حتى يكشف أمه بخطيئته الحالية لأنه كان يخشى إذا ذاع نبؤها أن تتور عليه وتبذته ، كما فعلت من قبل . ولذلك كاشفها بالأمر في حذر مقرون بالخوف ، واستمعت له بهدوء لم يكن متوقفاً . وحاولت مسز فيرارز في البداية أن تثنيه بالمنطق عن الزواج من مس داشوود بكل حجة أمكنها ، فقالت له : إن مس مورتون فتاة ذات حسب ومال ، وعززت قولها بأنها ابنة أحد النبلاء ، وأن ثروتها تقدر بثلاثين ألفاً من الجنيهات ، في حين أن إليينور بنت رجل عادي لا تزيد ثروتها على ثلاثة آلاف جنيه . وعندما رأت أنه مع تسليمه بصحة حججها لا يميل إلى أى حال إلى الأخذ بها ، وجدت من الحكمة أن تنفع بتجربة للماضى ، وتدعن للأمر . وعلى ذلك أصدرت

قرارها بالمواظفة على الزواج إدوارد وإينور بعد أن أبدت كثيراً من الأرجاء غير الكرم الذى يرجع إلى شعورها بالإباء والكرامة ، وحرصها على نقى كل شبهة فى أنها تضمر الحب لها .

ثم جرى البحث بعد ذلك بما تلتزم به به تجاه زيادة دخلها ، وهنا اتضح بجملاء أنه وإن كان إدوارد هو ابنها الوحيد الآن ، فإنه لا يمد بأى حال أكبر أولادها . وإذا كانت قد وهبت روبرت ألف جنيه فى العام هبة لارجوع فيها لم تبد أدنى معارضة فى رسامة إدوارد حتى يتسنى له أن يحصل على مئتين وخمسين جنيهاً على الأكثر . ولم تتمهد بشيء فى الحاضر أو المستقبل أكثر من عشرة آلاف جنيه وهبتها له بالاشتراك مع فاني .

على أن ذلك كان كل ما يريده ، بل أكثر مما توقعه ، إدوارد وإينور ، وبدا من الأعذار التى تحملتها مسز فيرارز أنها هى الشخص الوحيد الذى دهش لأنها لم تعطها أكثر من ذلك .

والآن وقد حصل على الدخل الذى يكفى حاجاتها ، لم يكن ثمة داع للانتظار بعد أن يستولى إدوارد على الأبرشية لإعداد المنزل الذى كان كولونيل براندون يجرى فيه إصلاحات كبيرة رغبة فى تهيئة وسائل الراحة لإينور . وبعد أن انتظرت إينور بعض الوقت حتى تتم هذه الإصلاحات ، وبعد أن ذقت كما هى العادة مرارة الخيبة والإرجاء ألف مرة بسبب ما أبداه العمال من بطء بحار العقل فى تعليقه . عدلت — كما هى العادة — عما اعترفته أولاً بصفة قاطعة من عدم الزواج إلا بعد إعداد كل شيء ، فتم عقد القران فى كنيسة بارتون فى أوائل الخريف .

وقضيا الشهر الأول بعد زواجهما مع صديقهما في دار للزراعة ، ومن هناك أتبع لهما أن يشرفا على سير العمل في منزل الأبرشية ، ويشيرا بما يريان عمله في الحال ، كأن يختارا الورق ، ويختطا الأشجار ، ويخترا « شادوقا » لرفع الماء . وتحققت نبوءة مسز جنتجز على ما فيها من تخليط ، لأنها استطاعت أن تزور إدوارد وزوجته في أبرشيتهما قبل عيد الملك ميخائيل ، ورأت في إليونور وإدوارد - كما كانت تعتقد بالفعل - زوجين من أسعد الأزواج في العالم . ولم يكن ثمة ما يثمنياه سوى زواج كولونيل براندون ومريان ، ومرعى طيب لأبقارهما .

وزارهما عقب استقرارهما في منزلها الجديد لأول مرة سائر أقاربها وأصدقائها . وقدمت مسز فيرارز لتفقد السمادة التي كادت تشعر بالهزل لأنها وافقت عليها ، بل تجشم آل داشوود غناء السفر من سسكس تكريمًا لهما .

قال جون لأخته - بينما كانا يسيران صباح ذات يوم أمام أبواب ديلافورد هاوس : « لن أقول . يا أختي إنني أشعر بخيبة الأمل ، فالتقول بذلك يكون ضرابا من اللبافة ، فأنت على التحقيق من أسعد الفتيات حفظا في الواقع ونفس الأمر ، ولكنني أعترف أنه يسعدني كثيرا أن اسمي كولونيل براندون صهرا . فأملا كه هنا ومركزه ومنزله ، بل كل شيء يبعث على الاحترام ، ويدل على جلالة قدره - وأشجاره ا - لم أشاهد في أى مكان في دورستشاير من الأشجار ما أراه الآن في ديلافوردها نجر ! وربما لم تكن مريان هي المرأة التي تسهويه تماما ، ولكنني أعتقد أنه يحسن بك أن تغريهما بإطالة اللسكث عندك ، لأنه متى شعر كولونيل براندون أنه بين أهله وعشيرته دون أية كلفة ، فلا يدرى أحد ماذا عسى أن يحدث - فالتناس متى خلا بعضهم إلى بعض وغفت

ضهم أعين الرقباء - وفي وسعك دائماً أن تزينها أكل زينة ، وماشابه ذلك -
بالاختصار يحسن بك أن تهين لها الفرصة - أنت تفهمينى .

ولكن على الرغم من أن مسز فيرازز جاءت إليهما بالفعل لتزورهما وتصمت
إظهار المودة لهما ، فإنهما لم يشعرا بأدنى إهانة عندما كشفت النقاب عن حبها
الحقيقي ، وكان هذا الحب يرجع إلى حلاقة روبرت ، ومكر زوجته ولم تنقض عدة
شهور حتى ظفرا بهذا الحب . وكانت فطنة امرأته الأناثية التي استدرجته في البداية
للقوع في الشرك هي الأداة الكبرى التي خلصته من هذا المرحج ، لأنها بما
أبدته من التذلل المقرون بالاحترام والتودد المقرون بالاهتمام ، والتلق الذي لا نهاية
له استطاعت بمجرد أن سحقت لها أدنى فرصة أن تسميل قلب مسز فيرازز ،
وتحملها على الرضا عنه والمطف عليه .

ويمكن أن يُعد مسلك لوسى في هذا الأمر ، والثراء الذى ترتب عليه ، مثلاً
مشجعاً للنهاية لما يمكن أن يؤدي إليه الحرص الشديد على المصلحة الشخصية -
مهما ظهر من العقبات في سبيله - من الحصول على أسباب الثراء دون أن يضحى
الإنسان بشيء اللهم إلا بوقته وضميره . وعندما سعى روبرت إلى التعرف إليها
أول مرة وزارها سرا في بارنيز بلديج لم يكن يريد بذلك إلا ما نسبه إليه أخوه .
لم يكن يريد إلا أن يحملها على فسخ الخطبة ، ولما كانت العقبة الوحيدة هي حبها
للتبادل ، فن الطبيعي أن يتوقع أن مقابلة أو مقابلتين كفيلتان بتذليل هذه العقبة
على أنه أخطأ في هذه «القطعة» ، وفيها فقط ، لأنه على الرغم من أن لوسى منته أن
بلاغته كميلاً ياقناعها على مر الزمن ، فإن الأمر تطلب دائماً زيادة أخرى وحدثنا
آخر . حتى يتم هذا الإقناع وكلا افتقرا ساورتها بعض الشكوك التي لا يمكن

إزالتها إلا بحديث آخر يستغرق نصف ساعة . وبهذه الوسيلة كانت تضطره إلى زيارتها ثم جبر ذلك إلى بقية الحوادث الأخرى ، فبدلاً من أن يتحدثنا عن إدوارد طلقاً يتحدثان بالتدريج عن روبرت وحده - وهو موضوع يجب الإكثار من الحديث فيه أكثر من غيره ، وأظهرت هي من الاهتمام به ما يعادل اهتمامه - وبالاختصار تجلى لها بسرعة أنه حل في قلبها محل إدوارد . وكان نفوراً بهذه النزوة الترامية ، وباحتياله على إدوارد ، وبزواجه سراً دون موافقة أمه . وما حدث بعد ذلك مباشرة معروف للجميع ، فقد قضيا بضعة شهور وهما يتغيآن ظلال السعادة في دولش ، لأنها اضطرت أن تقاطع كثيراً من الأظارب والأصدقاء ، واضطر هو أن يضع مشروعات عديدة لإقامة منازل ريفية فخمة . ومن هناك مادا إلى لندن واستمعنا مسز فيرارز بتلك الوسيلة البسيطة التي أوعزت بها لوسى ألا وهي طلب العفو ، فوافق هو على ذلك . وكان العفو في البداية لا يشمل إلا روبرت كما هو المقول في الواقع ، إذ أن لوسى لم تكن ملتزمة بأى واجب تجاه أمه ، ومن ثم لم يكن محل لاتهامها بأية مخالفة ، وظلت بعد ذلك بضعة أسابيع دون أن تظهر بالعفو ، ولكن مشاربتها على التذلل الذي تجلّى في سلوكها ورسائلها ، وفي اعترافها بأن الذنب في جسم إدوارد يقع عليها ، وفي تقديمها الشكر على للماملة القاسية التي عولت بها - أكسبتها ذلك المطف السامى الذى أسرها برقه ، والذي أدى بعد ذلك بخطأ حثيثة إلى أعلى درجة من الحب والنفوذ ، فأصبحت مسز فيرارز لا تطيق فراق لوسى كما لا تطيق فراق فاني وروبرت ، وصرحت دائماً أن لوسى هي بنتها المحبوبة في حين أنها لم تمف قط عن إدوارد عفواً صادراً من قلبها لأنه اعتزم أن يتزوج الينوز يوماً ما . وفي حين أنها وصفت الينوز بأنها دخيلة عليهم مع أنها تفوق لوسى مالا وحسباً -

ثم أقاما في لندن ، وتلقيا كل مساعدة سخية من مسز فيرارز ، وكانا على أمم وثام
يمكن تصوره مع آل داشوود ، وإذا صرفنا النظر عن الأحقاد والأضغان التي
خلت قائمة بين فاني ولوسى ، والتي اشترك فيها زوجها بالطبع ، والخلافات الماثلية
العديدة بين روبرت ولوسى ، لم يكن ثمة ما هو أعظم من الوفاق الذي عاشوا
في ظله جميعاً .

وربما يحار كثير من الناس في معرفة ما صنمه إدوارد حتى فقد حق الابن
الأكبر ، ولكن ربما أثار حيرتهم أكثر ، ما صنمه روبرت حتى خلفه في هذا
الحق . والواقع أنه كان إجراء تبرره النتائج إن لم تبرره الأسباب . ذلك أنه
لم يظهر قط في أسلوب معيشة روبرت ولا في أسلوب حديثه ما يجعله يأسف على
أن دخله كان كبيراً بحيث ترك لأخيه أقل من القليل ، أو أخذهوا أكثر
من الكثير . وإذا جاز لنا أن نحكم على إدوارد بإقباله على أداء واجباته في كافة
الشئون ، وازدياد محبته لزوجته وبيته ، واتباعه وبشره الدائم ، أمكن القول
أنه لا يقل عن روبرت رضاً بما قسم له ، ولا عزوفاً عن الرغبة في استبدال
حاله بحال أخيه .

ولم يفرق زواج إليانور بينها وبين أهلها إلا بأقل قدر مستطاع ، دون أن
يؤدى ذلك إلى عدم الانتفاع بالمنزل الريفى ، وذلك لأن أمها وأختها كن يقعن
معها أكثر من نصف وقتهن . وكان الدافع الذى حدامسز داشوود إلى الإكثار
من زيارة ديلافورد مزيجاً من السياسة والسرور ، ذلك أن رغبتها فى الجمع بين
مريان وكولونيل براندون لم تكن أقل مما أعرب عنه جون ، وإن كانت هى
أكثر منه تساهلاً . لقد أصبح ذلك الآن هو هدفها المنشود . فهى على الرغم من

حبها لصحبة بنتها ، لم تكن ترغب في شيء رغبتها في تقديم هذه للثمة الدائمة
نصديقتها للجبيل وكذلك كان إدوارد والينور يتمنيان أن يشاهدا إينور في قصر
الزرعة . لقد كان كل منهما يشعر بالآلمه وبالمن التي طوق بها جيدها وكأنه
يجمعان على أن مريان هي جزاؤه على هذه المن .

وإزاء هذا التحالف ضدها - والمعرفة الوثيقة بفضائله - والإيمان بحبه المستهام
١ - ذلك الحب الذي تجبى لها أخيراً وإن تجبى لكل إنسان آخر قبل ذلك
زمن طويل - ماذا كان يمكنها أن تفعل ؟

لقد ولدت مريان داشوود لتواجه مصيراً غريباً . ولدت لتتبع زيف آرائها ،
لتنقض بأفعالها أحب مبادئها . ولدت لتنسى حبها خامرها في وقت متأخر
أبداً وهو من السابعة عشرة ، ولتقدم يدها بإرادتها إلى شخص آخر لا تكن له
أية عاطفة سوى الاحترام الشديد والصدقة الحميمية ! وهذا الشخص الآخر رجل
نسبى مالا يقل عما قاسته هي من حب سابق ، رجل كانت ترى منذ سنتين أنه
كبير سناً من أن يصلح زوجها لها - رجل لا يزال يستعمل الصدرة الصوفية
ناظفة على صحته من البرد !

ولكن هكذا كان . بدلا من أن تذهب ضحية لعاطفة عارمة جارفة كما كانت
ملل نفسها بذلك يوماً ما - بدلا من أن تظل ملازمة لأهملها إلى الأبد ، وتجد
أنها الوحيدة في العزلة والدراسة كما اعتزمت أن تفعل فيما بعد حينما ثابت إلى
انتفكير الهادى الرزين . بدلا من ذلك كله وجدت نفسها في سن التاسعة عشرة
تستلم حب جديد ، وتقبل على أداء واجبات جديدة ، وتحمل في منزل جديد ،
تسكون زوجة ، وربة أسرة ، وراعية قرية .

وشعر الآن كولونيل براندون بالسعادة التي يمتقد أشد الناس حبا له أنه،
جدير بها ، ووجد في مريان عزاء له عن كل محنة طاساها فيما مضى ، وعاد إليه
الروح ، وتآلق وجهه بالبشر بفضل حبا وصحبها . وكان كل صديق يرى مسرورا
أن مريان تجسد السعادة في العمل على إيساعده . ولم تكن مريان تجترىء من
الحب بنصفه بل كانت إذا أحببت أحببت الحب كله ، لذلك أصفت زوجها بمرور
الزمن كل الحب ، كما فعلت مع ولبي من قبل .

ولم يستطع ولبي أن يسمع عن زواجها دون أن يشعر بوخز الألم . وسرعان
ما لقي عقابه الكامل في المعو الذي تطوعت به مسز سميت إذ اشترطت عليه أن
يتزوج امرأة ذات خلق ، فعمله ذلك على الاعتقاد أنه لو كان سلك سبيل الشرف
مع مريان لغاز بالسعادة والغنى معا . ولا حاجة بنا إلى الشك في أن توبته من
سوء السلوك الذي عوقب عليه كذلك كانت توبة صادقة ، كما أنه لاشك في أنه
خلل ينظر بعين الحسد إلى كولونيل براندون ، ويشعر بالأسف على مريان .
ولكن يجب ألا نمتقد أنه لم يجد عزاء طول حياته ، أو أنه اعتزل المجتمع ،
أو أخذ إلى الكتابة أو مات كسير القلب ، لأن شيئا من ذلك لم يحدث ، فقد
عاش ليعمل ، ويستمتع بالحياة كثيرا . ولم تكن زوجته دائمة الا ككتاب ولاحياته
للزلية تشوبها للتاعب والأكدار ، وقد وجد قدراً كبيراً من السعادة في تربية
جياده وكلابه ، وفي سائر ضروب الرياضة .

أما مريان فقد ظل يحفظ لها - على الرغم مما أظهره من عدم الأدب بعد
زواجها - تلك المحبة الصادقة التي جعلته يهتم بكل ما يصيبها ، وظل يمتقد في نفسه
أنها مثال للمرأة الكاملة ، وكم من فتاة جميلة من الجيل الصاعد كان يهزأ بجمالها
فيما تلا ذلك من الأيام بحجة أنه لاوجه للمقارنة بينها وبين مسز براندون .

وأبدت مبرز داشوود من الحكمة ما جعلها تبقى على المنزل الربيع دون أن تحاول الانتقال إلى ديلافورد. ومن حسن حظ سيرجون ومسز جننجر أن مرجريت - حين اختطفت مريان منهما - بلغت سنا مناسبة للرقص ، كما كان مناسباً للحب .

وظل الاتصال الدائم - الذى أملته بالطبع الحبة المائلية القوية - قائماً بين بارنون وديلافورد . ومن مزايا إينور ومريان ودلائل سمادتهما أنهما استطاعتا أن تعيشا - ولا تحسبن ذلك أقل هذه المزايا شأنا - دون أن ينشب خلاف بينهما ، أو يحدث نفور بين زوجيهما ، على الرغم من أنهما أختان ، وأن كل أخت تكاد تميز برأى من الأخرى .

٧٧٠
مطبعة المعرفة
عمارة التأليف سبيلت للتحقيق
٢٢٩٩٠

مَطْبَعَةُ المَعْرِفَةِ
عمارة السائحين ميدان التحرير قاه
٣٣٩٩٠ ن

Bibliotheca Alexandrina



0385644